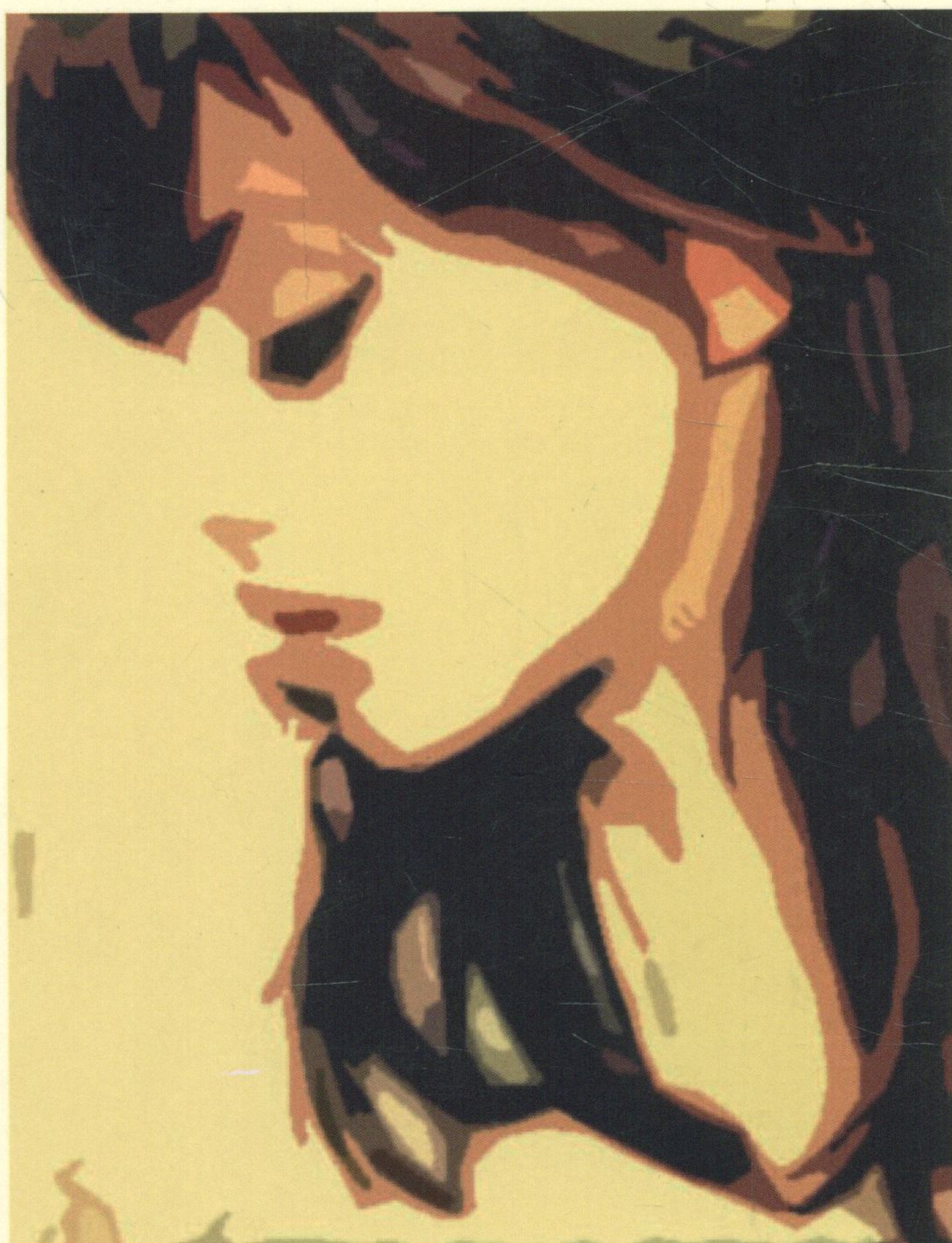
الطبعة الخامسة

ليلى المطوع

قلبي ليس للبيع

رواية



الفارابي
الفارابي

قلبي ليس للبيـع

ليلى علي المطوع

قلبي ليس للبيع

روايـــــة

دار الفارابي

الكتاب: قلبي ليس للبيع
المؤلف: ليلى علي المطوع

الناشر: دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان
ت: 301461(01) - فاكس: 307775(01)
ص.ب: 3181/ 11 - الرمز البريدي: 2130 1107
www.dar-alfarabi.com
e-mail: info@dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى: شباط 2012
الطبعة الخامسة: أيار 2014
ISBN: 978-614-432-222-2

© جميع الحقوق محفوظة

تباع النسخة الكترونياً عبر موقع الدار

إهداء

إلى نبض قلبي ومحور عالمي...
أمي الغالية.

لانتقاداتكم

الكاتب لا يرى عيوبه ولا أخطاءه، بل يرى عيوب الآخرين..
أيّها القراء، أنتم مرآتي.

lailaalmotawa@gmail.com

من رسائلي له

لا تبحث عني في وجوه الناس والأسواق والطرقات... بل ابحث عني في أوراقي... وفي نبض قلمي... وبين سطوري.

ستجدني هناك أنتظرك بشوق لأحكي لك حكايتي وعبث الزمان بي.. ستجد أشواقي مبعثرة بين الكلمات، وحنيني إليك ينبع من أعماق الحروف...

إقرأني فقط لتفهمني...

عزيزي القارئ

أنا لا أكتب إليك كلمات على السطور لأشكل لك رواية،
فأنت سوف تقرأها، ولكنك لن تدرك تفاصيلها.
أنت بالنسبة لي أعمى، فدعني أكون عينيك وأجعلك ترى أحداثها وتعيش حلوها ومرّها...
وأنت بالنسبة لي أصم، فدعني أكون سمعك وأجعلك تسمع ضحكات أبطالها وأنينهم...
وأنت بالنسبه لي أبكم، فدعني أكون لسانك وأنطق بأحاسيسك ومشاعرك...
عزيزي القارئ، سلمني حواسك، واجعلني أسكنك لأحملك إلى عالم كوَّنته تخيلاتي ونسجته أقلامي....

إهداء

إلى كل وليّ أمر عجز عن إيجاد جسر التواصل بينه وبين أبنائه، وجفّت السبل من أجل تغيير سلبياتهم واستيعاب احتياجاتهم....

إلى كل امرأة تكتم غيظها يومياً، وتنام الغصةَ في قلبها بسبب شريكها الذي يتعمد إهانتها....

إلى كل إنسان لم يجد شعاع الشمس الذي يضيء له الظلام المحيط به ويرشده إلى الطريق....

إلى كلّ هؤلاء، أهدي هذه الرواية عسى أن تكون بالنسبة إليهم مفتاح كل باب مغلق.

(1)
المقـــدمـــة

ما الشيء الذي يتحكم في حياتنا، هل هو الحظ، أم الأحلام التي نرسمها؟ هل هي الخطط التي نسير عليها؟ أم هي المصادفة، أو ما يسمى بالمكتوب؟!!

لا شك في أن لكل إنسان اعتقاداته الخاصة به؛ فبعض منا يعتقد بأن كل شيء يحدث من حولنا يكون عن طريق المصادفة أو أن لكل شيء مداراً قدرياً يسمى بـ ـ الحظ ـ أو كما يقولون "الدنيا حظوظ"، وبعضنا يخطط لجعل أحلامه حقيقة ورديّة في واقع حياته.

إنني شخصياً أؤمن يقيناً بالمكتوب، لأنه لا يوجد شيء وجد بمحض المصادفة في أحداث أيامنا، فكل شيء يجري لأسباب لا نعرفها لكننا نقدرها ونتركها للخالق (عزّ وجل)، فعندما تذهب إلى مكان أو تلتقي بأناس على سبيل المثال، فاعلم علم اليقين أن هناك أسباباً تجاذبت لذلك وليس بالمصادفة وحدها تتواكب الأحداث أو تتلاشى، فما أن ينتهي بنا موقف ما لنتعايش مع لعبة الحظ، نرى أنه مهما كان هذا الحظ وفيراً فلا مناص من أن يأتي اليوم الموعود لينفذ. أما الأحلام فما أسهل أن تتحطم وتتكسّر، والخطط كثيراً ما لا تسير حسب أهوائنا وكما رسمناها ليأخذ الإحباط دوره الصاخب في إضفاء السوداوية على لوحة الأحلام بالحزن والفشل الذريع لنهاية تراجيدية مؤسفة.

ولكن السؤال هنا كيف ننظر إلى الأمور من وجهة نظر أخرى؟ كيف لنا أن نغيّر من طريقة تفكيرنا ومعرفة أن ما كتب لنا كان بسبب حكمة من الخالق؟ وأن كل حدث وكل شخص وضع في حياتنا وضعه الله لسببٍ ما؟

كيف لنا أن نرى الأمور والأحداث بنظرة عميقة، متفتحة، أن نخترق الضباب ونشاهد الحقيقة التي خلفه، أن لا نؤمن بالخرافات والمصادفات والخطط، وأن نؤمن بالقدر وأن لكل شيء سبباً وحكمة؟

ويا ترى ما الذي كوّن شخصيتنا، ومن أين أتت لنا هذه المفاهيم الغريبة؟ هل أتت بالوراثة أم نحن اكتسبناها؟ إن النفس البشرية كالورقة البيضاء تمتص الصفات الحسنة أو السيئة، وتتلون بالأحداث التي تدور من حولها فتغدو ملونة، غامضة، مشوهة ويضيع لونها الأبيض النقي في صراعها المرير مع الزمن.

إن المنزل القديم المتهالك كمثل الشخصية التائهة مهما رممته أو رممتها فلا بد من أن تجد فيها بعض التشققات من حين إلى آخر، فأفضل حل هو هدم هذا المنزل المتهالك والاجتهاد في بناء منزل جميل قوي الأسس، وهذا ما يجب عمله مع بعض الشخصيات، أن تغير طريقة تفكيرها من الأساس وأن تغرس فيها الأسس الصحيحة القوية، فتغدو شخصية قوية تواجه صعاب الحياة بشموخ.

في روايتي هذه أقدم لكم قصة واقعية الشخصيات، فلا تستغرب إن وجدت نفسك فيها. لقد حدثت في إحدى الدول العربية وتعمّدت فيها تغيير بعض ملامح التفاصيل المحيطة وجزئيات الوقائع والأحداث.

رواية (قلبي ليس للبيع) وصمة من الحياة تنبجس عما تخفيه الأنفس من أسرار ومشاعر وعقد وتناقضات حياتية يومية بين المعهود واللامعهود؛ أقدم لكم في هذه الحبكة ثلاث شخصيات رئيسية، كلّ شخصية منها تحمل وجهة نظر وبيئة مختلفة، ولكل منها مفاهيم خاصة

وبصمة دامغة بسبب البيئة والبنية الاجتماعية وتناقضاتها؛ فناهد وفيصل ونزار هم أثافي التفصيل والتحليل لأبطال روايتي ربما تصادفون مشاكلهم في حياتكم اليومية، وربما تتكررالمشاهد مراراً وتكراراً، لكن ما لا تعرفونه هو ماذا يجول في بالهم؟ لا شك أن سماتهم تكمن في وجوههم في سجل الأحداث والتطورات، وكما نحن نتشوق دوماً للوصول إلى النهاية، فلتكن البداية من أول الحكاية.. إذاً من أولها نبدأ.

***

الشخصية الأولى

ناهد

سامحني، قلبي ليس للبيع.

(2)
ما الحل يا ترى؟

ناهد الفتاة المرحة، الشقية، المندفعة، والمتهورة... التي تحمل مبدأ في الحياة ألا وهو أن قلبها ليس للبيع أو لم يعد للبيع، يا ترى ما هو سبب شعارها هذا؟ ومن أين أتت به؟

والآن تفضل معي عزيزي القارئ لتبحر معي على مركب الذكريات ونتوغل في الأعماق.

***

في إحدى الفلل القابعة في شارع الهرم تقيم الشخصية الأولى في فيلا ذات طبقتين تحيط بها حديقة غناء.. فلنبحث بين أركان الفيلا عنها ونتجول بأعيننا في المكان فنجتاز البهو، وندخل إلى غرفة المعيشة ذات الألوان الهادئة والتماثيل الكبيرة وآنيات الزهور المتناثرة في كل مكان، فلنتوقف لحظات أمام الصورة الكبيرة التي تتوسط غرفة الجلوس، إنها لفتاه شقراء، ذات عينين بلون الزمرد وعلى شفتيها ابتسامة مرحة، ويزين عنقها عقد من اللؤلؤ وقد ارتدت فستاناً أزرق اللون، عاري الكتفين وتحمل بين يديها طفلاً صغيراً، ربما لم تمضِ بضعة أشهر على ولادته؛ إنه أبيض اللون مشرّب بالحمرة، شعره أسود كدجى الليل، وقد أهدته والدته أجمل ما لديها، أهدته عينيها ذات

اللون المميز، وإلى جانبها رجل يحيطها بذراعيه يبدو عليه أنه مزهو بها والسعادة تغمر ملامح وجهه... لنترك هذه الصورة ونصعد الدرج المؤدي إلى الطابق العلوي؛ ما أن ينتهي الدرج حتى نجد أمامنا غرفة كبيرة، طليت جدرانها بلون لؤلؤي فخم وانعكست قطع الأثاث على أرضيتها المصنوعة من الرخام اللامع، يتوسطها سرير كبير، فنجدها ها هي وقد انفرجت شفتاها عن نصف ابتسامة، وجسدها الطري ملقى بإهمال فوق فراشها كأنها ريشة لعبت بها الرياح حتى سئمت منها وهجرتها عند قارعة الطريق.

كانت عيناها الشاردتان معلقتين بالسقف وفيهما بريق غريب، إنه بريق الماضي.. تفتح شفتيها زهواً كالبراعم الصغيرة تارة وترى سحابة سوداء خيّمت على وجهها تارةً أخرى، فمن يلمحها يظن أنها تشاهد فيلماً سينمائياً يعرض على سقف غرفتها، لكنها كانت في عالم نسجته خيوط ماضيها، إنه فيلم كانت هي بطلته في يوم من الأيام.

إنها تقلب ماضيها وتتصفحه، وربما كانت تتغذى من هذا الماضي فيكون لها مثل الهواء والماء وتستمد قوتها منه حتى تعيش في هذه الدنيا، وربما كانت تستعرض ماضيها لتودعه وتطوي صفحة هذا الماضي كي تواجه الحاضر.

تسللت أصوات الموسيقى التي تنبعث من المذياع بهدوء إلى أذنيها لتحملها إلى ذكرياتها وتحملنا معها.

في الطابق السفلي للفندق، وبالتحديد في مطعم (أورفاج) ندخل إلى مكان الحدث، وأثناء دخولنا نجد مدير المطعم يستقبلنا بابتسامته المزيفة ولسانه يردد شتى أنواع التحيات والمجاملات، ثم نعبره لندخل إلى المطعم الراقي الذي زينت حيطانه بأوراق الجدران الفضية اللون المزخرفة بالنقشات السوداء والأنوار الصفراء الخافتة الدافئة وقد امتلأ المكان برائحة الشموع المعطرة الممزوجة برائحة الدخان المنبعث من السجائر. لقد كان تصميم المطعم أنيقاً للغاية، فهو يحتوي على بعض

التحف القيمة واللوحات الزيتية المزيفة لمشاهير الفنانين، كذلك فإنَّ الطاولات صفّت بطريقة مرتبة على شكل هرم، وترامت لنا أصوات أطباق الطعام وأدواته المرتطمة ببعضها بعضاً، بالإضافة إلى شيء من الهمسات والضحكات التي لا يقطعها إلا بعض الألحان المنبعثة من الفرقة الموسيقية القابعة في إحدى الزوايا التي تعزف من حين إلى آخر، وانتشى المكان بالبرودة بسبب تيار الهواء القادم من جهاز التبريد.

كان العاملون هناك يرتدون ملابس أنيقة موحّدة صنعت من الحرير الأسود والأبيض، ويتسللون بين الطاولات المصفوفة بشكل مرتب ذات الشراشف اللؤلؤية اللون التي تتوسطها مزهريات الورود وبعض الشموع وهم يحملون ألذ الأطعمة والمشروبات، وامتلأ المكان بمختلف الأجناس؛ فهنالك عائلة تحتفل بعيد ميلاد أحد أبنائها، كذلك ترى عاشقين هائمين في الحب جالسين أمام ضوء الشموع لا يباليان بما حولهما، وتشاهد بعض العمال الكادحين الذين انتهى يومهم الشاق فقرروا الترفيه عن أنفسهم ببعض الكؤوس، وبعض عارضات الأزياء بقوامهن الممشوق الجالسات قرب الحانة؛ كل ذلك، من أجل أن نتسلل بهدوء حتى نصل إليها وإلى ماضيها.

كانت تجلس إلى إحدى الطاولات القريبة من الفرقة الموسيقية، التي تطل مباشرة على حديقة الفندق الخلابة، ولقد ازدحمت الطاولة ببعض الرجال والنساء الذين كانوا يتبادلون الأحاديث وتعلو أصواتهم بالضحكات .

في ذلك الوقت كانت في مقتبل العشرينيات من عمرها، باهرة الجمال ذات عينين شبيهتين بالزمرد، وشفتين بلون الورد وشعر طويل بلون العسل يصل إلى أسفل ظهرها، ذات جسم متناسق، معتدلة القامة، ترتدي فستاناً يكشف عن مفاتنها بشكل لافت للنظر، أحمر

اللون، قصيراً للغاية، أبرز ثنايا جسدها بطريقة رائعة، وكان بريق الألماس يزيد من تألقها.

فالذي يراها للوهلة الأولى تراوده الشكوك أنها تحفة وضعت في ركن من الأركان حتى تزيد من جمال المكان.. يعتقد أنها تمثال، جماد، لوحة رسمها فنان وهجرها، يخيم عليها الصمت، ملامحها جامدة، وعيناها معلقتان بالشاب الجالس إلى جانبها، وهي تنصت إليه، واضعة رسغها أسفل ذقنها، وما هي إلا لحظات حتى تلاحظ شرودها، فتتجول عيناها التائهتان في المكان ثم تضغط بأسنانها على شفتها الغليظة وتستقر نظراتها في الفراغ.. بعدها تعود إلى الواقع فتحرك رأسها قليلاً وتنفض عنه الأوهام، وتتدارك بؤسها فتخفيه بقناع السعادة، في محاولة منها لخداع المحيطين بها، ولكن العين الخبيرة الثاقبة تدرك أن وراء هذه الابتسامة المرسومة بدقة سراً خطيراً.

ينبثق صوت حزين شجي من أعماقها:

غالباً ما كنت أتلقى إهاناته بابتسامة حلوة مرسومة، رسمتها فرشاةُ الحزن بدقة على ملامح وجهي حتى غدت كالقناع الذي أتجمل به عندما أراه، أحاول أن أنسى أو أتناسى كلامه، أن أهدّئ من روعي وأنا أنظر إليه، إلى من أحببته وسلمته حياتي لأراه يسخر مني أمام أصدقائه ويضع كرامتي في الوحل ليطأها أرضاً تحت قدميه وهو يبتسم بغرور، أبتلع غيظي وفي داخلي شيء ما يحترق.. يناضل، يتساءل، أنا من؟؟ ومن أنا؟؟!

إنني أموت في داخلي، أعتصر ألماً.. أتمزق حزناً، وهو لا يعلم، أنظرُ إلى خاتمي الألماسي الذي يزين إصبعي وأتنهد وأنا أخدع نفسي بأوهام بعيدة عن الواقع، أكذبُ على نفسي وأقنعها بتصديق الأسطورة؛ فالحقيقة مرّة ومن الصعب الاعتراف بها، أعيش الأوهام، أخذل نفسي بنفسي، أغتالُ أحلامي وأفكاري، أمحو شخصيتي وكياني كامرأة، لا لأجله فقط، بل أسلي نفسي بالذكريات وباللحظات

الجميلة التي جمعتنا، حتى لا أتحطم وأنكسر أمامه أكثر فأكثر ويسقط قناع الحب، أتلمس كل ما فيّ.. إنني متيقنة أنه هو من رسمني وشكلني بلمساته البانورامية تماماً كما يفعل الرسام أو النحات لأن هذا ما يريده هو لا أنا!

يرسمني كلوحة جميلة ثم يقوم بتمزيقها إلى فتات ويدوسها بقدميه ثم يرسم من جديد ويعيد الكرة مرات ومرات، ينسى أنني بشر ولست خطوطاً بعثرها بأنامله وشكّلها كما يشاء، كوني أنثى حساسة أنقشع عن أحاسيس ومشاعر ورغبات، لماذا أرضى على نفسي بالحياة التعيسة الذلول من دون أحلام؟! ما الذي يجعلني أخضع أمام هذا الوضع وأتحمل إهاناته وصفعاته وكلامه البذيء المجرد من الأخلاق؟ لماذا أجعله يعتقد بأنه أفضل مني، ألأنه يملك المال فقط؟ هل أصبح السيد من خلال أمواله ونحن العبيد والجواري؟ هل المال يمتلكنا أم نحن من نمتلكه؟!

تسكنني شخصيتي الحقيقية للحظات فيصرخ صوتٌ من أعماقي يستنجدني، يحرضني بأنه مهما كان فهذا لا يعطيه الحق أن يعاملني هذه المعاملة السيئة، لكنني سرعان ما أخذله للأسف ولا أجرؤ على البوح بهذا الكلام.. فجّرت غضبي في وجه الكأس الموجودة أمامي عسى أن تطفىء النار التي في داخلي، كان الخمر يثقل رأسي، عندما بحثت عنه وسط الحشود لكنني لم أره.

وقع نظري على أحمد، ألا يقال إن كل قصير فتنة، إذاً فأحمد أكبر فتنة تسير على قدمين، أحدق في عينيه الحالمتين وبشرته ذات السمار الدافئ، أحمد صاحبه وكاتم أسراره، الكلب الوفي له الذي يعمل في إحدى شركات والد فيصل، الجالس إلى جانب خطيبته يلتهمها بنظرات الحب ويبوح لها بعشقه وشجونه، ثم ابتسمت بسخرية وأنا أكمل، يعاملها برفق كأنها صنعت من مادة قابلة للكسر.

أشحت بعينيّ عنه ثم ابتلعت ريقي واسترجعت ما سوف أقول له ونطقت بصوتٍ مرتعش:

- أحمد، إني لا أشاهد فيصل، هل تعلم مكان وجوده؟

كان أحمد غارقاً في عالمه الوردي، فلم يسمع ندائي، فصرخت به بصوتٍ عالٍ وأنا أضرب الطاولة بقبضتي بقوة محدثة اهتزازاً قوياً:

- أحمد .

أدار رأسه ونظر إلي بنظرة مملوءة باللوم، وبدا على وجهه الضيق والسأم مني، ثم قال وهو يتجنب النظر إليّ ويده تتحرك تلقائياً بحثاً عن هاتفه وسط الكؤوس والأطباق المتناثرة على الطاولة:

- اممم "وابتلع ريقه" أعتقد أنه ذهب إلى دورة المياه .

نظرت إليه بشيء من الشك، ثم نهضت وأنا أسحب أطراف فستاني نحو الأسفل حتى يغطي لحم جسدي المكشوف، وحملت حقيبتي الصغيرة، فقال أحمد بابتسامة مرتعشة:

- إلى أين يا ناهد؟

فصفعته بنظرة من عيني أجبرته على الصمت، واتجهت ناحية دورة المياه وقد ازدادت ملامح وجهي تجهماً.. لا أعلم ما الذي دفعني إلى النظر نحو مكان جلوسنا.. أدرت رأسي فشاهدت أحمد يتحدث عبر الهاتف.. تملكني إحساس أنه يهاتف فيصل، عدتُ إلى طاولتنا ووقفت خلفه من دون علمه أنصتُ إليه، ورمقت صاحبه الذي حاول تنبيهه بنظرة احتقار ألجمتهُ الصمت.

(أحمد): فيصل أين ذهبت؟ ثم سكت لبرهة وأكمل حديثه قائلاً إن ناهد تسأل عنك، لقد أخبرتها بأنك في دورة المياه، ثم أكمل بلهجة فرحة: حقاً من هذه الفتاة؟ هل كانت تجلس بالقرب منا؟ مدهش، استمتع بليلتك وسأوصل ناهد .

فأدركت أنه رحل وتركني من دون إخباري... غادر برفقة حقيرة من المطعم، وأن المسرحية انتهت عند هذا الحد وأن الستارة

أسدلت.. هو الممثل وأصحابه هم الجماهير، المشجعون له في كل مشاهد مسرحيته (أنا السيد، وهي الجارية).

انتبه أحمد إلى وجودي خلفه فنظر إليّ وبدت أمارات الفزع على وجهه فاغراً فاه محاولاً الحديث، ثم مد يده محاولاً الإمساك بي من ذراعي لكنني دفعته حتى كاد يقع في حجر خطيبته.

كان خروجي من المطعم تراجيدياً حقاً وأنا أذرف دموعي متداركةً ذلي لآخر المشاهد.. كنت أسير مسرعة الخطى للابتعاد عن هذا المكان لكن دموعي سبقتني كالسيل الجارف من عيني لتعلن انتصاره في تحطيمي أكثر فأكثر، أوقفت سيارة للأجرة وأمرت السائق أن ينطلق إلى مسكني، تجاهلتُ اتصالاته ورميت بهاتفي داخل الحقيبة، بكيت بحرقة على الحياة الوضيعة التي أتوه فيها بسبب تنازلاتي السابقة لقراراتي الخاطئة لتمتد إلى عذابي الحاضر، ومن يعلم فقد يكون الآتي أقسى وأمر.

كنت في حالة مزرية، وراودني شعور أن سائق سيارة الأجرة بدأ ينظرُ إليّ بعين العطف والشفقة، حاولت أن أستجمع قواي وأخرجت بيدٍ مرتعشة مرآة صغيرة من حقيبتي ثم مسحت آثار الدموع التي شكلت نهراً على وجنتي وربتُ على تسريحة شعري بحركة سريعة،وبعد أن توقفت المركبة أمام البناية التي أقطنها، نقدت السائق ثم سرت إلى شقتي الباردة لتضفي عليّ برود المشاعر.

كانت شقتي الخاوية تزيد من بؤسي، فأطلقت تنهيدة قوية وأنا أدخل إلى غرفة النوم، بعدها بعثرت شعري بيدي. خلعت ثوبي ورميته بعيداً عني، ألقيت بجسدي فوق فراشي واحتضنت وسادتي الشاهدة على جرائمه، التي كانت تسمع أنيني وشكواي، وسادتي التي تلمست ضعفي، المبللة بدموعي وأنا أبكي بحرقة، أرفع رأسي فأنظر من خلال النافذة إلى أضواء المدينة التي كانت تسحرني دوماً بجمالها عسى أن تهدأ نفسي لكنني لا... لا أستطيع فأستسلم إلى نوبة الحزن

وأدفن رأسي في الوسادة أحاول تفريغ بؤسي وحدادي لضياع حياتي فيها... بكيت حتى أحسست أن نفسي تشكوني وترجوني أن أرحم حالي وأوقف هذا النحيب ولو لبرهة .

رحت أنظر إلى شقتنا الصغيرة وكل ما فيها يذكرني به، كل زاوية.. كل شيء فيها مختوم بذوق "فيصل".. أمسك بخصلات شعري وأشدها إلى الأعلى محاولة إخراجه من ذاكرتي، وأن أمنع نفسي من التفكير به، أحاول السيطرة على أعصابي .

فهو كما استأجرني، استأجر هذه الشقة؛ إنني اليوم ركام امرأة محطمة، وحيدة، ضائعة ترتشف من تمردها، وليس لها إلا أن تلوم نفسها، فهي السبب.. نعم.. هي السبب.

احتسيت كأس المرارة والهم، تحطمت كل أحلامي أمام عيني لأني أنا الملامة، فأنا من باعت قلبها وجسدها لأجل المال والحب الوهمي، فقط كي تعيش منعمة بالسراب، أنا لا أصلح للعمل ولا أجيد فعل أي شيء.. هذا هو كلامه، بحق أحس بالفشل، وقد رفضت كل من تقدم لي بحجة عدم قدرتي على الزواج من رجل لا أحبه، جفّت دموعي وهدأت أنفاسي وانتظمت ودخلت المدينة في سبات عميق إلا من بعض المارة وأبواق السيارات وعويل كلب .

ما إنْ أغمضت عيني حتى أحسست بحركة ما بالقرب مني، فتحتها لأرى النور يتسلل إلى غرفتي المظلمة، أمعنت النظر، فها هو الآن واقف أمامي أنظر إلى شعره الأسود الممزوج بالشيب، ابتسم لي وقبلني على صدغي بحنان، كنت قد ابتلعت بعض الحبوب المنومة فلم أشعر بدخوله، مد ذراعيه محاولاً احتضاني فصددته ثم اعتدلت في جلستي وهمس قلبي متسائلاً :

- "هل هو يا ترى النور الذي يضيء حياتي"؟

قلت له بصوت مخنوق محاولة إخفاء آلامي عنه :

- ماذا تريد ولِمَ أتيت؟

فأجابني بابتسامة صغيرة وجلس عند طرف السرير، أشحت بوجهي عنه وقلت له بسخرية:

- لماذا لم تكمل السهرة مع الحقيرة التي اصطحبتها معك؟

اقترب مني بهدوء وسحبني بلطف من ذراعي، قاومته ولكن سرعان ما استسلمت له وأخفيت وجهي في صدره خجلاً، خجلاً من ضعفي له، ولطخت قميصه بدموعي حزناً على حالي.. داعب وجهي بأطراف أصابعه وأتاني صوته الحزين مباشراً بالاعتذار كالمعتاد وخلق الأعذار الوهمية:

- حبيبتي ناهد أنتِ على علم بأطباعي وإنني أحب التباهي أمام أصحابي.. أنتِ الحب وأنتِ القلب لكني مهما كان أو يكون فأنا رجل أمام أصحابي ولا يمكنني السماح لهم بالاعتقاد بأنني متيم بحبك أنتِ فقط .

دفعته ثم نهضت من فراشي وصرخت في وجهه متذمرة:

- الحل إذاً أن تحرجني أمام الجميع لتظهر أنك رجل أمامهم وتستطيع فعل ما تريد وأنا أراقبك ولا أجرؤ على الاعتراض، كم مرة نبهتك يا فيصل أن تداري تصرفاتك؟ إنني أخجل من نظرات أصحابك تجاهي، ومن همسات صاحباتهم وثرثراتهن، ألا تعلم كم يؤلمني حديثهم عنا وعن أسلوبك... إنني لا استوعب لماذا تتعمد تشويه صورتي أمامهم وإظهاري كفتاة غبية... فاشلة... تافهة؟

قاطعني فيصل قائلاً:

- آسف، ثم نظر إلى عيني وقال: أعدك بأني لن أكررها.

أشحت بوجهي عنه واتجهت نحو النافذة وبكيت وأنا أصرخ به:

- كل مرة تقول لي الكلام نفسه، ثم ضربت الأرض بقدمي بقوة كأنني أنفس عن غضبي بها فنهض فيصل واقترب مني محاولاً تهدئتي

لكنني أكملت صراخي وأنا أدفعه قائلة: وتعدني بالوعود نفسها، لماذا تشعرني بأنني مجرد جارية استطعت شراءها بمالك؟

أمسكت بثوبي أحاول تمزيقه كأنه يقيدني وقلت له وقد علا صوتي: أنا امرأة من لحم ودم.. ولست بسلعة ابتعتها.

سقط فيصل فوق المقعد الذي بجانبه ينظر إليّ بحزن وذهول، ينظر إلى الفوضى التي سببها بفضل غروره، فنكّس رأسه هماً وقال بصوته الرجولي الذي يحمل في خفاياه بعض الحسرة:

- أعلم أنني بمالي أستطيع إحضار أي فتاة حتى لو كانت ملكة جمال لكنني (ونهض مقترباً مني ومسح على شعري ثم أكمل حديثه) لكنني أحبك ولا أرغب بسواك.

سحبني بلطف ناحيته وأجلسني كطفلة صغيرة في حجره ثم سحب كيساً أتى به. ولكن لشدة غضبي لم ألاحظه، فتجاهلت النظر إليه.

فقال وهو يهزني بلطف كأنه يريد التأكد أنني لا أزال على قيد الحياة ولم تقتلني جرائمه:

- ابتعت لك هذه الهدية منذ عدة أيام وأردت مفاجأتك بها غداً.

ووضعها في حجري قائلاً: حياتي ألن تفتحي الهدية وتشاهديها؟

تصنّعت الابتسامة بشفتين مرتعشتين وفتحتها... نظرتُ إليها فكانت عقداً من الألماس والأحجار الكريمة.

- إنها هدية رائعة، الآن اتركني... أرغب في النوم.

أزاح خصلات شعري بحثاً عن شفتي فأشحت بوجهي عنه فطبع قبلته على شعري.

قلت له بلهجة جادة:

- أنا متعبة وأريد النوم.

ونظرت إليه وابتسمت بسخرية وأكملت حديثي:

- من الأفضل لك العودة إلى منزلك قبل نهوض والدتك أو والدك ثم يتساءلان عن غيابك.

أمسك ذراعي بقوة وقال لي بنبرة حازمة تدل على اقتناعه بعدم تصديقي له وعلى ما سيقوله:

- أنا رجل ولا يحق لأحد سؤالي عن مكان تواجدي .

ازدادت ابتسامتي اتساعاً ورفعت حاجبي ووضعت عيني بعينه وضربت بإصبعي على صدره وأنا أقول له:

- حسناً يا سيدي صدقتك.. لا يوجد داع للصراخ ولكن، وطرفت بعيني بحركة سريعة وأكملت حديثي، ولكن أريدك أن تثبت لي ذلك لنسهر معاً حتى الصباح .

ارتسمت على وجهه أمارات الحزن وقال وهو يتجنب النظر إلى عيني:

- حبيبتي تعلمين أني لا أستطيع .

ارتعش جسدي بقوة وسرت فيه كهرباء الغضب وأصبحت كبركان على وشك أن يطلق حممه وصرخت فيه:

- إذن من الأفضل لك أن تغادر الآن أو سوف أصب جام غضبي عليك ورميت بجسدي على فراشي ووضعت وسادتي فوق وجهي أخفيه.

فقال بتوسل: حسناً عديني أنك سوف ترافقيني إلى الحفلة غداً.

أجبته من تحت الوسادة وأنا اختلس النظر إليه:

- أعدك .

وقف واتجه ناحية الباب وهو ينظر إليّ بحسرة طفل حرم من لعبته .

ما إن رحل حتى نهضت واتجهت إلى الخزانة ثم فتحت أحد الأدراج ورميت بهديته التي ابتاعها لي كي يكسب رضاي مع باقي الهدايا وأنا ألوي شفتي قرفاً.

أمسكت فرشاة شعري واسترسلت أفرده بقوة وأنا أصب كل غضبي وقهري في الفرشاة.. مضت سنتان وأكثر وأنا على هذه الحال

معه، لا أعرف ماذا أفعل، فأنا لا أستطيع التخلي عن هذه الحياة التي وضعني فيها والعز الذي أنا به ولا أقوى على هجره فقلبي معلق بحبه، ولا هو بقادر على الابتعاد عني، تصلني أخبار خيانته وأتجاهلها فما إن يمضي أسبوع حتى يعود وكأن شيئاً لم يكن.

تقع عيناي على صورته الموجودة على الرف، فيصل أكبر خطأ ارتكبته في حياتي وأسوأ تجربة عشتها، أول عشقٍ لوّث جسدي، أول حبٍ عشت تحت ظله سنوات واختبأت بين أجنحته وارتويت من عبيره، إنه نبض حياتي وخنجر مغروس وسط قلبي، أرى العالم من خلاله.. لقد سيطر على حواسي فامتزجت مع حواسه فأصبح نظري... سمعي... نطقي... دائي ودوائي... مرضي وطبيبي... فارسي وقاتلي... جنوني وهدوئي... همي وفرحي... أعلم أنني متناقضة في حبه وحائرة في شأنه.

يا ترى ما الحل، هل أقتلع ثوب الحب وأرتدي ثوب الهجران وأتبرج بقناع النسيان وأتعطر بعطر النكران وأصبح ماضياً تطويه صفحات الأزمان؟ إنه النور الذي في حياتي يستحوذ عليّ فأصبح سجينته، أسيرته، مدمنته.

عندما يهجرني أموت من الألم.. إنني أحارب مشاعري وأتجاهل شوقي له.. أتركه إلى أن يعود وهو يحمل بقلبه السؤال الكبير، لماذا لم تسألي عن غيابي؟ هل أنا لم أعد أهمك أم أن هناك أحداً غيري سكن قلبك؟ إنني لا أعتقد بأن هناك امرأة على وجه الأرض قادرة على تحمله، لكنني صبورة.

في الواقع، وأنطقها بأسىً، أنا مجرد عشيقة بالنسبة إليه، لماذا أكذب على نفسي وأوهمها بأنني سوف أكون شيئاً آخر في حياته؟؟

كلما احتاجني وجدني، أعلم ذلك ولكن من الصعب الاعتراف لقلبي الذي يقف دوماً في صفه كأنه لم يعد قطعة مني، لقد احتله

حب فيصل واستعمره لسنوات فخضع له، أبى أن يعود لي ويكون ملكي .

كانت هذه الجدران تضيق عليّ كلما استبد بي التفكير بأني لست بزوجته، إنني عشيقته.. بعت نفسي وجسدي له وأتلقى أجراً شهرياً كي أصبر على جنونه وأتحمل إهاناته.. هذا هو الاتفاق القائم بيننا، عقد الحب المختوم بقلوبنا.

حكمت على نفسي بالوحدة وعزلت نفسي عن الكل، تركت موطني.. تركت أهلي وتركت أصحابي.. بل وتركت شخصيتي وخذلتها، كل هذا لأجل وهم اسمه الحب.

تسللت خيوط الصباح إلى الفجر التعيس، والنوم والحظ قد هجراني كالمعتاد.

***

ليتني لم أوافق على الذهاب معه إلى الحفلة في ذلك الوقت، فهذه المرحلة من حياتي كانت تعد الأسوأ والتي جعلتني أتساءل عن حقيقة حبه نحوي، جعلتني أفكر مليون مرة في طريقة للتخلص من حصاره الذي يعتصر روحي ليخرج السعادة.. منها.. في تلك الفترة بالذات كنت كئيبة للغاية والغيمة السوداء تتوسط سمائي، رغبت بالخلاص منه بأي طريقة كانت، بحثت في ما حولي عن حبل أتمسك به، لم أعد أرغب أن أكون كالسفينة التي تستسلم لأمواج البحر لتتلاعب بها كيفما تشاء، ثم تقرر ما تفعل بها؛ فإما أن تقذف بها فوق إحدى الصخور لتحطمها فتغدو مجرد ركام أو ترحمها وترميها نحو الشاطئ لتستقر في أحضان الرمال.

إنني أعيد هذه الذكريات الكئيبة لأذكر كم أنك كنت حقيراً معي، وكم أحببتك ببراءة وسذاجة ولم أتصور يوماً أن تكون بهذه القسوة

معي، مع من أحبتك.. أعيدها حتى أبرر لنفسي فعلتي... وأكفّر عن ذنوبي علّي أجد الخلاص لهذه الدوامة التي تتلاعب بتفكيري.

***

أتى لزيارتي في الموعد المحدد واصطحبني للتسوق ثم إلى مصفّف الشعر الخاص بي، اختار فستاني بعناية وتدخل في كل تفاصيلي... تسريحة شعري، نوع الزينة، حقيبتي وحذائي ومجوهراتي، يمسكني من ذراعي وأدخل معه الحفلة، أشعر بأنني كالساعة التي اشتراها ليزين بها معصمه أو كالقلم الثمين يتفاخر به أمام أصحابه.

كانت الحفلة مقامة في إحدى الفلل البعيدة عن المدينة، واستقبلنا صاحبه داني الأميركي الجنسية بقامته المعتدلة، ورأسه اللامع الخالي من الشعر وأجلسنا إلى طاولة دائرية الشكل، كبيرة الحجم وقد امتلأت بأصحاب فيصل .

انشغل فيصل بمحادثة أحد أصحابه، في ذلك الوقت حادثني داني قائلاً: أعربية أنتِ؟

ابتسمت له، وما أن نطقت بأول حرف حتى قاطعني فيصل:

- أجل إنها عربية ولكنها مهجنة وأطلق ضحكة عالية، ارتفع الدم إلى وجنتي خجلاً فرفعت الكأس إلى شفتي أرتشف منها بعض جرعات تمدني بالقوة والصبر لمواجهة قصفات فيصل.

فقال داني موجهاً الحديث إليّ ومتجاهلاً فيصل:

- حتى لو كنتِ مهجنة فأنتِ بارعة الجمال.

فضحك فيصل وقال:

- إنك لم ترها عندما تستيقظ من النوم.

وضحك أصحاب فيصل فأكمل داني حديثه من دون إعارة فيصل أي اهتمام وقال:

- هل لك أي أقارب هنا يا ناهد؟

وشدد قليلاً على اسمي، وما إن نطقت حتى قاطعني فيصل مرةً آخرى قائلاً:

- لا، ليس لها أقارب، لقد قمت بشرائها من أمها، كلفتني غالياً لكنني استطعت استرداد قيمتها ووضع ذراعه على كتفي وسحبني بقوة ثم ضحك مرة أخرى فقاطعته بلهجة حادة وبلغة أجنبية ليستوعب داني ما أقوله:

- من الأفضل لك أن تحترم نفسك يا فيصل وإلا.....

فقال ساخراً: وإلا ماذا؟

نهضت مندفعة نحو الباب، ولم يتحرك فيصل من مقعده فاندفع أحمد خلفي وأمسكني برفق من معصمي وسحبني بهدوء إلى الشرفة.

كنت في ذلك الوقت أبكي فقال لي محاولاً تهدئتي:

- ناهد، نحن نعلم أن فيصل يمزح.

فنظرت إليه بغضب قائلة:

- يمزح يا أحمد يمزح، إنك تعلم مدى سوء طباعه ومدى محاولته لاحتقار من حوله، لم يسلم أي شخص من فمه المليء بالقذارة.

فقال وهو يضع يده على ذراعي:

- ناهد إن فيصل يحبك، كلنا نعلم بذلك، فلم يسبق لنا مشاهدته واقعاً في غرام فتاة، سوف أذهب إليه الآن وأجبره على الاعتذار لك.

- لا أرغب بسماع اعتذاره، سئمت منه ومن اعتذاراته الكاذبة .

فقال لي أحمد متذمراً وهو يتفحصني بعينيه:

- إن فيصل لا يستحقك، لقد سبق وأن قلت لك من الأفضل أن تهجريه .

نظرت إلى الأسفل وقلت له بصوت مخنوق:

- لا أستطيع .

فقال لي أحمد بلهجة رقيقة:

- ناهد إن فرص العمل هنا كثيرة وأنتِ امرأة متعلمة وجميلة لا ينقصك شيء، وتحملين الجنسية الأجنبية وتعاملين كأجنبية وليس كعربية، لماذا لا تعملين وتعتمدين على نفسك ثم تهجرين فيصل.

فقلت له بعينين ممتلئتين بالدموع:

- لا أستطيع هجرانه.

فقاطعني قائلاً:

- إذن عليك أن تتحمّلي جنونه وحقارته.. في ذلك الوقت أتى داني وقال لأحمد بلهجة آمرة أريد محادثة ناهد لدقائق، فانصرف أحمد وهو يقول لي سوف أستدعي فيصل حالاً ليقوم بالاعتذار لك .

وما إن رحل حتى قال لي داني بعصبية: إن فيصل مغفل وحقير، فنظرتُ إليه بدهشة فأكمل حديثه قائلاً: إنه يعامل الكل بطريقه متعالية محاولاً إظهار نفسه كسيد، إنني متأكد أنه رجل مريض ومن رأيي أن تهجريه.

رفعت رأسي فشاهدت فيصل يقترب مع أحمد، وقف بالقرب مني وقال أحمد مبتسماً:

- هيا يا فيصل قبّلها واعتذر لها.

فقال فيصل:

- كلا لن أعتذر لها، وإذا أرادت الرحيل فلتتفضل بذلك فأنا لم أعد أرغب بها أو أهتم.

فنظر أحمد إلى داني وأمسك بذراعه وسحبه معه بلطف ليعودا إلى الحفلة، وما إن ابتعدا حتى قال فيصل بلهجة ناعمة: حبيبتي ناهد.

ومد ذراعه لي فدفعته وصرخت به: أنا أكرهك يا فيصل أكرهك، لقد سئمت منك وعاودتني الرغبة بالبكاء فأخفيت وجهي بين يدي وبكيت.

فاحتضنني وقبّل رأسي وقال: آسف، كنت أمزح معك وعاد لترديد وعوده المعهودة.

بعد عدة دقائق تمالكت نفسي وقلت له: حسناً هيا بنا نكمل السهرة.

وعدت إلى الطاولة مرغمة، محمرة العينين ومكسورة الخاطر، أما فيصل فهل حقاً استطاع تمالك نفسه؟؟ لا أعتقد، فما إن عدنا إلى مكان جلوسنا حتى قال:

- لقد توسلتني لتعود لي، وأنا رجل طيب أضعف أمام دموع النساء وأطلق ضحكة حقيرة.

كان هذا فيصل، وهذا أسلوبه الحقير، فعندما يحادثني أحد ويسألني عن تفاصيل حياتي كان هو من يقوم بالرد، كان يفرض عليّ كل شيء.. متى أضحك.. أصمت.. أرقص.. آكل وأشرب.. حتى دخولي إلى الحمام أصبح باختياره عندما يرغب بطردي حتى يتحدث في أمور سرية .

مضت الليلة كئيبة، مملة وأنا أستمع إلى انجازاته التي يتباهى بها أمام أصحابه وعن معجباته الكثيرات، وينظر إلي ويخترع قصصاً وهمية عني كي يضحك أصحابه فقط.

في طريق العودة تشاجر معي لأنني أجبت على الهاتف أثناء حديثه.. المهم (يا ترى من يظن نفسه.. شهريار زمانه؟).

صفعني وأجبرني على النزول من السيارة، قذفني في شارع مقطوع، كنت أحس بالبرودة والخوف وأحاول ستر جسدي العاري إلا من هذا الفستان الفاضح الذي يكشف أكثر ممّا يستر، أحسست بأن قدميَّ لا تقويان على حملي، تملكني الخوف وأنا أنظر إلى هؤلاء الشباب الجياع الذين يتلهفون للانقضاض عليّ، رفضت محادثتهم أو الصعود إلى سيارتهم، هرولت مبتعدة عنهم وأنا أجري وأجري من الهلع.

ابتلع الظلام صرخاتي ودخلت في غيبوبة لم أصحُ منها إلا وأنا في المستشفى، ففي تلك الليلة أثناء هروبي من هؤلاء الذئاب البشرية صدمتني سيارة مسرعة، نجوت من الاغتصاب لكنني لم أنجُ من الحادث وأصبت بعدة رضوض .

فتحت عيني بصعوبة لأرى النور مرة أخرى يتسلل إلى الظلام المحيط بي، إنه هو: فيصل، تسللت أصابعه بين خصلات شعري كما يتسلل عشقه إلى قلبي مهما حاولت صده.

فيصل: ناهد هل أنتِ بخير؟ هل تشتكِين من أي ألم؟

أدرت وجهي نحو الجهة الأخرى، إنه لا يعلم أني أشكو الألم لكن الألم الوارف في داخلي أعظم، إن قلبي يتألم وهو متعجرف يعجز عن رؤية ما فعلته جرائمه بقلبي الهش، كانت الممرضة ترى اهتمامه بي فتبارك لي بحبه لكنها لم تكن تعلم أنها مجرد فترة وجيزة بعدها سيعود إلى عادته القديمة.

أتاني صوت الممرضة ليشدني إلى عالمي، وقالت لي بلهجة مرحة وهي تحمل باقة الورد وتضعها في إحدى المزهريات: آه كم أنت محظوظة به، إنه متيم بحبك لقد جلس بقربك ساعات طويلة ينتظر إفاقتك.

ابتسمت لها بقرف وهي تهم بالخروج، إنها لا تعلم الحقيقة المرة... فركت يدي ببعضهما بعضاً وقلت له متجنبة النظر إليه:

- فيصل، أعتقد أن الله أنقذني هذه المرة ولكن أريدك أن تفهمني قليلاً، إنني لا أستطيع الاستمرار بهذه العلاقة.

فاقترب من السرير وأمسك بيدي وقال:

- ناهد أرجوك لا تتركيني، لا تزيدي من شقائي أنا آسف وأعدك بعدم تكرار ما حدث، واقترب مني حتى لاصقني ووضع رأسه في حجري:

- امنحيني فرصة جديدة واجعليها آخر فرصة لي، وسالت دموعي كإشارة على ضعفي، فضمني بين ذراعيه ولسانه يردد بالوعود.

وعندما خرجت من المستشفى فاجأني بمركبة من أحدث الموديلات.. نعم، أعلم أنه كلما كبر الخطأ كانت الهدية أعظم وذات قيمة أكبر.

وتمر الأيام عليّ والأحداث على الشاكلة ذاتها، هي ذاتها لا تتغير وتكاد تكون متشابهة وفيصل على حاله يخطئ ويعتذر، سئمت منه ومن عهوده ولكن ما الحل يا ترى.. ما الحل؟

***

(3)
خطة القدر

كنت مقيدة بخيوط الماضي العنكبوتية عندما سمعت صوت بكائه، أدرت ظهري له وصرخت بالخادمة أناديها، أتت إلي وهي تتمتم بلغة غير معروفة، صوبتُ إصبعي ناحيته، فأدركت مطلبي وحملته وسارت به بعيداً .

جلست وحدي في غرفتي أتذكر ماضي، ونهضت بتكاسل ثم خطوت نحو الدولاب وسحبت صندوقاً يحوي بعض الصور، حدّقتُ في وجهه وأغمضت عينيَّ مرة أخرى استسلاماً للماضي.

هنا بدأت قصتي، هنا تلاشى النور لأكتشف أن خلفهُ وهماً، ضياعاً، خداعاً... إن النور كان يبهرني، يعمي عيني فلا أستطيع أن أرى ما وراء هذا النور المصطنع وماذا يوجد خلفه، أن... أن أتبين ملامحه وأرى حقيقته.

يشل لساني فأعجز عن الدفاع عن نفسي وطموحي ومبادئي وما إن يرحل حتى تتملكني الحسرة بسبب عجزي، وتخنقني العبرات فأسقطُ ضحية لهذا النور مرة أخرى .

لقد دخل حياتي فجأة ووضعه القدر ليكون فارسي، ليمنحني حصانة من هذا النور، ليجعل عيني تخترقان هذا النور المزيف وتنظران إلى ما ورائه، لقد كان كالمنبّه الذي يرنّ بإزعاج طالباً مني الاستيقاظ، ملحاً عليّ أن أصحو من أحلامي وأفتح عينيَّ، حريصاً

على أن لا يخدعني هذا النور المتوج بوهم الحب مرة أخرى فأظل تائهة طوال العمر، أن أصحو من حيرتي وغبائي وأوهامي.

***

أعود إلى الماضي، فعندما تضيق بي الدنيا أسجنُ نفسي بين جدران غرفتي، أظل معتكفة حتى تلتئم جراحُ القلب، أهرب إلى عالم من الخيال، نسجته أماني ورغباتي وأتخيل نفسي حققت حلمي فغدوت مذيعة مشهورة، إنه عالمي الخيالي الذي أجد فيه راحتي النفسية ومخرجاً لي من محنتي.

تقلبت يميناً ويساراً وزفرت الهواء من صدري متذمرة، نظرت في ما حولي حتى اهتديت إلى إحدى مجلات الأزياء أقلّب صفحاتها حتى يتكرم النوم ويزورني .

بعد مرور بعض اللحظات أتى إلى مسمعي صوت همسات وضحكات لجنس ناعم في الممر الفاصل بين الشقق، اقتربت من باب شقتي واسترقت النظر من العين السحرية، فلمحت مجموعة من الفتيات يدخلن إلى إحدى الشقق المجاورة، تنهدتُ بقوة محاولة دفع الغصة العالقة بقلبي لتخرج مع أنفاسي ورميت بجسدي على الأريكة ثم رفعت هاتفي وأدرت رقم فيصل فوجدته مغلقاً .

بحثت عن رقم هاتف غرفته ثم فكرت لعدة ثوانٍ متذكرة تحذيره لي بعدم الاتصال على هذا الرقم إلا للضرورة، ولكنني كنت بحاجة إلى أحد أحادثه، وحتى اطمئن نفسي وشكوكي وأتاكد من وجوده في المنزل.

فطرق على مسامعي صوته ناعساً ومتسائلاً :

- من؟

- أنا وابتلعت ريقي وأكملت: أنا ناهد.

وقال لي وهو يتثاءب: ماذا تريدين؟

قلت له متذمرة: فيصل لقد سئمت من حالي....

فقاطعني بنبرة حادة:

- ناهد حقاً أنتِ امرأة مزعجة، تهاتفيني في منتصف الليل لتشكي لي همومك التافهة، أنا رجل مشغول ويجب عليّ النوم لأنهض باكراً.

ورمى بالسماعة قبل الاستماع إلى ردي .

أحسست بالإهانة والغيظ حتى اندفعت أصوات الموسيقى المنبعثة من الشقة المجاورة لتحتل شقتي، ارتديت الروب بسرعة واندفعت نحو مصدر الإزعاج والشر يتطاير من عيني.

وقفت لبرهة أمام الباب، وأدرت وجهي ناحية إحدى المرايا الموجودة في الممر لأتأكد من هندامي ثم ضربت الباب بعنف بقبضة يدي ووضعت إصبعي على زر الجرس .

انتظرت لدقائق ولم يفتح لي أحد، فازداد شعوري بالضيق والإهانة وأنه تم تجاهلي مرة أخرى فاسترسلت أركل الباب بقدمي.

لقد فتح الباب شاب يبدو أنه في العشرينيات من عمره، عيناه بلون البندق وشعر رأسه مصفف بطريقة غريبة؛ رائحة الشراب تفوح منه ووجنتاه مليئتان بطبعات أحمر الشفاه ويبدو عليه اللامبالاة والاستهتار .

نظر إلي متفحصاً، أحرجتني نظراته فرفعت يدي وضممتهما إلى صدري كأنني أخبئ سري وأخاف أن يكتشفه.

ثم قال لي بصوت مرح:

- أهلاً وسهلاً تفضلي لدينا كل أنواع المشروبات.

نظرت إليه بدهشة وصرخت فيه:

- نعم! ماذا تقول؟ هل أنتَ مجنون؟

ثم رفعت صوتي مهددة:

- اسمعني جيداً، أريدك أن تخفض صوت الموسيقى وإلا سوف أقوم بإبلاغ الشرطة.

ازدادت ابتسامته اتساعاً وقال:

- حسناً ومد شفتيه بغير اكتراث رافعاً كتفه وأكمل حديثه واضعاً إصبعه أسفل فمه وقال:

- ما رأيك أن تتكرمي وتكوني ضيفتنا الليلة وغمز بعينه.

نظرت إليه وكأنني أبصق في وجهه:

- لا.. لن أتكرم وآتي إلى حفلة مليئة بحثالة المجتمع.

- حسناً.. أمهليني عدة ثوانٍ فقط.

وفتح الباب على مصراعيه فأطلقت لعيني العنان لترى ما يوجد في الداخل، وخطى بضع خطوات وتوقف أمام جهاز الستريو وسرعان ما قام وبجرأة حقيرة برفع صوت الموسيقى ونظر إليّ مبتسماً.

تمالكت أعصابي وطلبت منه بأدب إخفاض الصوت لأنني أحاول النوم فردّ بالقول:

- حسناً أوامرك مجابة يا سيدتي عندما تطلبين بلطف.

وابتعدت عنه وأنا أشعر بعينيه تلتهمانني.

***

في اليوم التالي عثرت على باقة من ورود الجوري وقّعت باسم الجار المزعج، وبعدها بأيام وجدت دمية على هيئة دب، فتساءلت في داخلي ماذا يظن هذا الأحمق أنني طفلة.

بعد عدة أيام كنت جالسة أصفف شعري وفيصل مشغول بمتابعة إحدى مباريات كرة القدم، وكان يصرخ بين الحين والآخر محتجاً على الحكم أو شاتماً أحد اللاعبين حتى سمعت صوت رنين جرس الباب فتجاهلته، وبعد ثوانٍ سمعتُ صوت فيصل يصرخ منادياً باسمي بلهجة آمرة.

ذهبت إليه وأنا أجر قدمي مللاً،وجدته واقفاً يحمل بيده باقة من الزهور وفي عينيه نظرة شك.

نطق وهو يتفحص وجهي محاولاً اكتشاف إثبات على خيانتي له:

- ناهد من الشخص الذي أرسل لك هذه الزهور؟

رفعت حاجبي ومددت بشفتي السفلى وأنا ألويها تساؤلاً؟

فقال بنبرة غاضبة: ناهد.

فأجبته بسرعة مفتعلة الغضب: وكيف لي أن أعلم؟

رمى فيصل بجسده على الكنبة وهو يعبث بالباقة بحثاً عن دليل يؤكد شكوكه ثم قال بسخرية:

- وهل يظن هذا الأحمق أنه سوف ينال إعجابك بباقته التافهة؟

ثم قذف بالباقة تحت قدمه وقام بدهسها.

أغاظني تصرفه وقلت له بلهجة هجومية:

- ليس من حقك أن تدهس الزهور المرسلة لي وأنا لم أطلب رأيك، فلا تقم بالتبرع به، ثم ابتسمت بسخرية وقلت له بتحدٍ:

- أعتقد أنه أفضل منك ويفهم لغة جميلة يخاطب فيها المرأة.

ولم أكمل جملتي حتى هجم عليّ وهوى بكفه على صدغي بقوة حتى كدت أن أسقط تحت قدميه من شدتها، ووضعت يدي مكان الصفعة ثم جريت من أمامه وأنا أبكي وألقيتُ بنفسي فوق فراشي واحتضنت وسادتي.

وبعد عدة دقائق سمعت صوت الباب ينغلق بقوة، فأدركت أنه قد مضى.

***

لا أعلم لماذا أشعر بنظراته تخترقني... تتسلل إلى تحت قميصي لتنفذ إلى جلدي ثم إلى دمي وعصبي وعظمي حتى تصل إلى قلبي فتقرأه ككتاب مفتوح.....

ارتفعت يداي لاشعورياً إلى صدري كأنني أحمي قلبي وأخفي سري الذي يشكل بصمة سوداء على أوراق حياتي؛ إن عينيه تلامسان ألمي برفق وابتسامته دليل على معرفته لسري.

جلست إلى جانب فيصل في مركبته واحتضن يدي بيده، عندها ذابت يدي الباردة الميتة في يده المليئة بالمشاعر الدافئة لتشكل قطرات بلورية من العرق.

كان فيصل يتحدث عن أحد الموظفين الذين قام بمعاقبتهم وهو فرح بتعذيبه وتفكيره السادي لمن حوله.

أما أنا أين كنت؟؟

كنت معه أعترف بذلك، كنت أسترجع ما حدث منذ ساعات قليلة وأسترجعه مراراً وتكراراً حتى أتمتع بكل لحظة وبكل حركة وكيف استسلمت رموش عيني وأسدلت خجلاً منه وخضوعاً له.

سأشارككم بما حدث منذ ساعات قليلة.

نهضت من نومي على صوت فيصل وهو يهزني برفق محاولاً إيقاظي، وما إن فتحت عيني وشاهدته حتى تلاشى الموقف الذي حدث من عدة أيام وانمسحت آثار صفعته التي علّمت على قلبي أكثر من وجهي.

قال لي وهو يتجه إلى خزانة الملابس ويبحث بيديه بين فساتيني:

- ناهد هيا انهضي حتى لا نتأخر على موعدنا.

مررت أصابع يدي بين خصلات شعري المبعثرة بعفوية على وجهي ورفعتها إلى الأعلى وأنا أفتح عيني ببطء لأشاهد نور حياتي وتصنعت الغنج وقلت له بدلال:

- فيصل أرجوك دعني أنام، واحتضنت وسادتي ثم اختبأت تحت البطانية، اقترب فيصل مني ممسكاً بطرف البطانية وسحبها من فوقي واحتضنني بابتسامته وقفز بجانبي كطفل صغير، ووضع يده على بطني ثم قام بتحريك أصابعه بحركات عشوائية محاولاً دغدغتي، حاولت أن

أدفع يده بدلال فازدادت محاولاته في دغدغتي، حتى طغى على المكان صوت ضحكاتي وانحنى فيصل على وجنتي يقبلها بشغف ليختم على مكان صفعاته قبلة.

ثم وقف إلى جانبي وساعدني على النهوض وهو يختلس النظرات إلى الساعة خوفاً من التأخير.. قام بمساعدتي في تصفيف شعري، واختار لي فستاناً أسود اللون وحذاء ماركة ديور وزيّن رقبتي بعقد من الياقوت ليبرز لون عيني.

عندما رأيت اهتمام فيصل بمظهري أدركت فوراً أننا سوف نلتقي بأشخاص مهمين على العشاء.

وعندما خرجنا من الشقة واتجهنا نحو المصعد وقفت أتفحّص مظهري أمام المرآة الموجودة داخل المصعد الذي توقف للحظات، وفجأة تلاقت عيوننا وهو يهم بالدخول.

وبحركة سريعة أفسح فيصل له الطريق وهو لا يعلم أنه يفسح الطريق له ليسكن قلبي.

لا أعلم لماذا ارتعدت فرائصي منه ومن نظراته التي تخترقني، ولاشعورياً اختبأت خلف فيصل كأنني أحتمي به من نظرات جاري، وأحسست باضطراب في معدتي وأنني أوشك على التقيؤ، تجاهلت النظر إليه مباشرة، كنت أتفحّصه، فما إن أراه حتى يُبعد نظره عني.

لقد استطاع الإمساك بي وأنا أنظر إليه، وابتسم ابتسامة لزجة أحسست ببرودتها على جسدي مما زاد من قرفي لنفسي، وفيصل لم يكن يعلم بما يحدث، فقد انشغل بمراقبة عقرب ساعته مطلقاً من حين إلى آخر تنهيدة تدل على ضجره.

***

توقفت السيارة وفتح لي أحد عمال المطعم بابها، ودس فيصل

في يد العامل بعض الأوراق المالية ثم سبقني عدة خطوات وتوقف لحظة ونظر إلي وأمسك بيدي وجرني خلفه بقوة.

لم يهتم بما يسببه لي من إحراج حتى دخلنا المطعم، فوضع يده على خصري، واعتدل في مشيته، وابتسم بغرور وسار كالطاووس يستعرض ريشه الملون.

قدمني لضيوفه وجلست وسط رفاقه، وكالمعتاد كان أحمد جالساً مع خطيبته يتصرف كأنه سجين لحبها، ورجل معتدل القامة يرتدي نظارات طبية وعلى جبينه شامة كبيرة ومعه شابة أعتقد إنها صاحبته ممتلئة القوام وتكشف عن نهديها بطريقة مقززة، وبرفقتها شابة أجنبية جميلة للغاية شقراء أعتقد أنها روسية من طريقة تحدثها اللغة الإنكليزية وضغطها على بعض الحروف، وشابان آخران أحدهما يعمل في الجيش، فهو حليق الرأس ويبدو أن أشعة الشمس أهدت بشرته لونه الأسمر المائل إلى الاحمرار والآخر يبدو أنه في عمر فيصل، ممتلئ الجسم، وكانت عيناه تتجولان في المكان كأنهما تبحثان عن شيء ما، ويبدو أنه واسع الثراء، استنتجت ذلك بسبب مظاهر الثراء التي تحيط به.

أعاد فيصل السيناريو المعتاد الذي يتلذذ ويستمتع باستخدامه أمام الجميع ألا وهو إظهاري كإنسانة فاشلة، مجرد دمية يحركها بخيوطه الشفافة، وأنا أحمل على وجهي ابتسامة باهتة وأتجاهل النظر إليه والى كل النظرات التي يطلقها أصحابه، فبعضهم ينظر إليّ بعين العطف والشفقة وبعضهم بعين السخرية وآخرون يلتهمون جسدي وفيصل فرح، مزهو بلعبته التي يمتلكها، ولكن أين كان موقعي من الإعراب؟

لم يكن لي موقع حتى التقت نظراتنا مجدداً، كان يسير خلف النادل الذي يحييه باهتمام مبالغ ومصطنع دلالة على أنه زبون دائم للمكان، جلس بالقرب من مكان جلوسنا... وابتسم ابتسامته اللزجة ثم أحنى رأسه إلى هاتفه المتحرك وانشغل بإجابة إحدى المكالمات.

استطعت التقاط بعض الكلمات التي كان يتفوه بها، لقد كان يعتذر لصاحبه لعدم تمكنه من حضور اللقاء.. في ذلك الوقت كان فيصل مستمتعاً بتأليف قصة من نسج خيالة محاولاً إضحاك أصحابه على مدى فشلي وعجزي وغبائي.

أما أنا فكنت مشغولة باختلاس النظرات إلى جاري، حتى علا صوت ضحكات أصحاب فيصل، فوقع نظري على شفتيّ جاري الذي ابتسم وقهقه ثم أدار رأسه ونظر إليّ بسخرية.

كنت أتحمل إهانات فيصل دوماً، لكن هذه المرة لم أستطع الصبر خصوصاً أمام جاري.. نظرت إلى فيصل بعصبية فأدرك من نظرتي أنني سوف أنفجر في وجهه، فمد ذراعيه إليّ محاولاً احتضاني معتقداً أنني طفلة صغيرة ولكنني دفعت يده بعنف ونهضت وأنا أرمي المنشفة الموضوعة في حجري على الطاولة، فحاول أحمد تلطيف الأجواء فقال لي مبتسماً:

- ناهد، إنكِ تعلمين بحب فيصل للمزاح وهو لم يقصد أي سوء بكلامه.

لم أكن قد سمعت ما تفوه به فيصل،ولكن يكفي أن يسمعها جاري ويسخر مني، وما إن ابتعدت عدة خطوات حتى وقفت واستدرت وأنا أنظر إلى فيصل بغضب، وقلت له متعمدة رفع صوتي ليسمعه جاري:

- يا لك من كاذب حقير، لا أرغب برؤيتك مرةً أخرى وإيّاك أن تأتي إليّ متوسلاً، فتحوّل وجه فيصل إلى اللون الأحمر وصعدت الدماء إلى وجنتيه فغادرت المكان مسرعةَ الخطى قبل أن يفيق من الصدمة وينهال عليَّ بالضرب محاولاً استرداد كرامته التي دستها بقدمي أمام الجميع.

وعندما خرجت، أحسست بدراجة نارية تتبعني، ولم أدر وجهي إليها في البداية حتى سمعته ينادي باسمي، نظرت إليه فإذا هو جاري.

قال وهو يلتفت وراءه: ناهد من الأفضل أن أوصلك إلى المنزل، إن خطيبك يتصرف كثور هائج، فنظرت إليه باحتقار وأكملت طريقي فقال: سيأتي بحثاً عنك.

توقفت لدقائق واستسلمت لعينيه ووجدت نفسي أصعد خلفه، وفي ذلك الوقت كنت كالشخص المنوم مغناطيسياً.

انطلق بالدراجة وكان الهواء يتلاعب بخصلات شعري فيتملكني الشعور بالسعادة والانتعاش كأنني أحلّق وأن كل همومي وتقلبات حزني تلاشت كلما احتضنته أكثر، تسلل هذا الشعور إلى دمي وأصبح ممزوجاً به يسري في وريدي حتى يصل إلى قلبي فيستوطنه ويتملكه.

عندما أوقف الدراجة عدت بأدراجي إلى عالمي وواقعي لأكتشف أننا توقفنا على الكورنيش القريب من محل إقامتنا، نزل من الدراجة ثم ساعدني على النزول، سار أمامي على الرمال متجهاً إلى البحر، توقفت لدقائق وخلعت حذائي ثم تبعته مستسلمة له فأنا لا أزال تحت تأثير سحره، جلس على الرمال وفرد قدميه ومد ذراعيه خلفه ثم انحنى مسنداً ثقله إلى يديه.

جلست إلى جانبه وطويت قدمي تحتي ونظرت إليه أتفحصه وأرى معالم وجهه وأذوب فيها؛ تأملت قسمات وجهه وأنفه الطويل البارز أمامه وشفتيه الغليظتين المشققتين الجافتين وعينيه الواسعتين اللتين تحاولان احتواء العالم وما يوجد فيه، شعر رأسه الأسود الذي جعلني أعتقد أن سواد الليل أخذ لونه منه والشعيرات التي تتناثر على وجهه عاكسة مظهراً جذاباً متناقضاً يدل على عدم اهتمامه بحلاقة ذقنه، وفي الوقت نفسه يزيد من وسامته وجاذبيته، وعلى جبينه رسمت علامة جرح عالجهُ الزمن.

كنت هائمة به حتى نظر إلي، ولاشعورياً ارتفعت يدي إلى صدري، أحمي سري منه فقال لي بصوت عذب:

- ناهد، أنظري إلى سكون البحر، لبيت طلبه بسرعة كأنني أصبحت جارية له، لم أتساءل في ذلك الوقت كيف كان يعرف اسمي.

نظرت إلى البحر وهدوئه وأضواء المباني المنعكسة على سطحه المرمري والقمر يختبئ خجلاً خلف السحاب ويطل علينا لبرهة ليذكرنا بروعته ثم يختبئ خجلاً من أعيننا التي تلتهمه بنظرات الإعجاب، أغمضت عيني وداعب نسيم البحر خصلات شعري بلطف محاولاً رفعها عن وجهي كأنه يريد أن يراني كما أراه وأن يستمتع بجمالي مثلما أستمتع بجماله.

وعندما فتحت عيني وجدت جاري ينظر إلي وهو يبتسم، احمرت وجنتاي خجلاً ورفعت يدي كالمعتاد إلى صدري.

فقال لي وهو ينظر إلي: هل ترغبين بالسباحة؟

ابتسمت وأنا أنظر إلى الرمال وأرسم بإصبعي عليها: إنني أخشى السباحة في البحر ثم تداركت كلامي وأكملت حديثي بسرعة ولكنني أجيد السباحة.

نظر إلي متسائلاً وقال: أحقاً، يجب أن تجربي السباحة في البحر.

وقلت وأنا أتصنع الدلال: ولكنني أخاف.

فقال لي محاولاً أن يكون بطلي: سوف تنزلين معي إلى الماء وأعلمك السباحة في البحر.

نظرت إليه بإعجاب كأنني أقبله بنظراتي.

ثم نهض وحرك يده سريعاً على ملابسه طارداً حبيبات الرمل العالقة في ملابسه، ومدّ يده وساعدني على النهوض، فوقعت عيني على ما رسمته أصابعي على الرمال.

كان قلباً موجوداً بداخله اسم فيصل، رسمته لاشعورياً.. اتجهنا ناحية الدراجة وصعد على متنها فوضعت يدي على كتفه وارتكزت

بقدمي على الدواسة، وبحركة سريعة صعدت خلفه واحتضنته مرة أخرى، وانطلق في الدراجة يشق الهواء حتى وصلنا إلى المبنى الذي نقيم فيه، نزلت بسرعة كأني أفيق من سحره ونطقت بكلمة شكر، وهربت منه إلى المصعد ولم أنتظر سماع رده.

وما أن دخلتُ مسكني حتى أخبرتني الخادمة بقدوم فيصل وسؤاله عني ورحيله منذ دقائق، أحسست أن قلبي هبط إلى قدمي من الخوف وهاجمتني الأفكار، ماذا كان سيحدث لو رآني مع جاري؟

أحكمت إقفال الباب وحذرت الخادمة من فتحه ونظرت إلى الساعة وكانت تقارب الثالثة فجراً، استغربت من الوقت الذي مر عليّ وأنا مع جاري وكيف مرّ عليّ كثوانٍ.

دلفت إلى الحمام واغتسلت ثم ارتديت بيجامة وتدثرت تحت الغطاء، وما أن وضعت رأسي على الوسادة حتى أعدت مجرى ما حدث وأغمضت عيني مستسلمة للنوم.

في اليوم التالي استيقظت على رنين الجرس، خرجت من غرفتي مسرعة، وشاهدت الخادمة واقفة أمام الباب ترتعد خوفاً والباب يطرق بقوة محدثاً صوتاً مخيفاً ويبدو أنه سيقع من مكانه، نظرتُ إلى الخادمة وأمرتها أن تتجه إلى غرفتها ثم تمالكت نفسي ووقفت خلف الباب وأنا أقول:

- ماذا تريد؟ فأنا كنت متيقنة أنه فيصل.

وجاءني صوته ثائراً: افتحي الباب يا ناهد أو سأقتلك.

- هل جننت، إذهب من هنا حالاً.

- ناهد افتحي الباب أو أقسم بالله أنني سوف أحطمه.

وعاد يضرب الباب بقوة محاولاً اقتحامه.

فتحت الباب وأنا أحاول تصنع القوة ولكن ما أن رآني حتى انقض عليّ وأمسكني من شعري وجرني إلى غرفتي ثم دفعني أمامه وعيناه تتحركان بسرعة في أرجاء الغرفة وفيهما بريق الجنون، فوقعت

عينه على عصاه فأسرع إليها ورفعها محاولاً ضربي، اصطدمت عيناه بعيني وأنا لا أزال أحاول أن أتصنع القوة وتهاوت ذراعه أمام نظراتي.

رماها أرضاً ورمى بنفسه على السرير وهو ينظر إليّ بغضب، لم أنطق بكلمة وتقدمت ببطء نحوه وجلست بجانبه.

وبعد مرور برهة على صمتنا رفعت رأسي ونطقت بصوت واثق وأنا أنظر إليه:

- فيصل أنا لم أكن أتعمد إحراجك ولكنك دفعتني إلى ذلك بسبب أسلوبك وطريقتك في التعامل معي، وسكت للحظات ثم أكملت:

- لقد حذرتك من عواقب إهاناتك لي أمام الجميع وأردت أن أضعك ولو لمرة واحدة في مكاني.

أشاح فيصل بنظره عني ثم مد يده إلى خلف رأسي وجذبه بلطف تجاهه وأسنده إلى كتفه ثم أدار وجهه تجاهه وقبله ثم أعاد إدارته مرة أخرى واسترسل ينظر أمامه وهو يفكر.

لا أعلم لماذا أحسست برغبة شديدة بالبكاء، واستسلمت لهذه الرغبة تدريجياً فبكيت، وعندما سالت دموعي أزاحني فيصل بلطف عن ذراعه وتحاشى النظر إلي واندفع إلى الباب محاولاً الهروب من دموعي.

وما إن خرج حتى تمالكت نفسي ومسحت دموعي ودخلت الحمام ودسست بجسدي في البانيو وأغمضت عيني وأرخيت جسدي.. وعندما قاربت الساعة الرابعة مساء قررت الخروج إلى السوق لشراء بعض الحاجيات ولتضييع الوقت.

وانطلقت بسيارتي حتى توقفت أمام المحل، وتضايقت كثيراً عندما شاهدت أن المحل الذي أرتاده عادةً مغلق بسبب الصيانة؛ نظرت إلى الساعة ثم رفعت هاتفي وأدرت رقم فيصل لكنه لم يجب،

رميت بهاتفي في حقيبتي وتحركت إلى شارع (المملكة) حيث يقع الفرع الآخر للمحل، نزلت من سيارتي وعبرت الشارع واتجهت إلى الداخل، وأمضيت هناك مدة طويلة أختار ما أريد من الملابس، وعندما خرجت رأيت سيارة سوداء اللون تشبه إحدى سيارات فيصل، ثم نظرت إلى لوحة الرقم فإذا هي المركبة ذاتها؛ رفعت عيني بسرعة لأراه مع فتاة ذات شعر أسود جميلة ولكن ليست أجمل مني، كان يتحدث معها وهو فرح.. توقفت السيارة إلى جانبي وأنا أنظر إليه مبهورة وهو يمسك بيدها ويرفعها برفق إلى شفتيه، مرت السيارة بقربي ولم يهتم فيصل بما حوله، لم تقع عينه عليّ ولم يلمحني وأنا واقفة بالقرب منه وابتعد عني وأنا في حالة صدمة.

***

(4)
عندما تلاشى النور

أتاني صوتُ الخادمة منادياً لي فأعادني إلى واقعي.. سنوات مضت على ما حدث لكنني لا أزال أسكن الماضي ومقيدة به، لماذا يسجنني هذا الماضي؟ وما اللذة التي أجدها عندما أعيد ما حدث مراراً وتكراراً؟

آه كم كنت مغفلة... الآن وبعد مرور هذه السنوات أدركت أن القدر كان يريدني أن أرى الحقيقة ويضعني في الصورة.. لم تكن هذه الحادثة مصادفة مثلما اعتقدت، لقد كانت رسالة وجهها القدر إليّ، يدعوني إلى اكتشاف الحقيقة التي كان قلبي يرفضُ تصديقها.

نهضتُ من فراشي واتجهتُ بخطوات ثقيلة نحو خزانة الملابس وسحبت أول فستان وقعت يدي عليه، فارتديته وزيّنت وجهي بمساحيق التجميل وتركت شعري منسدلاً وخرجت من دون الالتفات إليه أو إلى ندائه لي.

صعدت إلى سيارتي ثم انطلقت بها أجوب الشوارع، وهنا عادت إلي الذكريات مرة أخرى لتجرني إلى الوقت الذي بدأت أرى فيصل على حقيقته، في ذلك الوقت أدركت ماذا كنتُ أعني له عندما وقعت عيناي عليه ورأيت هيامه بالفتاة الجالسة بقربه،في ذلك اليوم فقط أفقت من وهم الحب وانهدم القصر الذي بنيته على الأوهام.

كنت ظمأى أجري خلف السراب، وأظن أنني أقترب منه وما أن

أصل إليه حتى أجده قد تلاشى، وأرفع عيني فأجده مرة أخرى لا تفصلني عنه إلا بعض المسافات، فأجري وأجري خلف السراب، في ذلك الوقت بالذات أدركت أنني لو جريت خلفه طوال حياتي لن أدركه أبداً ولن يرتوي قلبي بحبه.

***

عندما عدت إلى محل إقامتي كان رأسي يكاد أن ينفجر، استلقيت فوق فراشي بعد قيامي بتحذير الخادمة من فتح الباب لأي كان.. عندها راودتني الأفكار مرة أخرى وعادت إليّ الأحداث لتهاجمني، وتراءت لي صورة فيصل المشوهة... العالقة في ذهني والتي أحاول جاهدة إجهاضها من ذاكرتي لكنها كانت ترفض التزحزح.

كنت غاضبة وأطلقُ أنفاساً ملتهبة، وأوشك على الانفجار، وما هي إلا لحظات حتى انتابتني رعشة بقدمي اليسرى ما لبثت أن امتدت لتشمل كفي وزحفت حتى شُلّت ذراعي، حاولت النهوض فلم أقوَ، بعدها هاجمتني الآلام وهي تعصر مفاصلي وتلويها فأطلقت صرخات متتالية تلاها أنين وكلمات بحت بها من هول الألم وشدّته.

ثم ضغطت بأسناني على شفتيّ حتى أدميتهما وجحظت مقلتاي، فشكلت دموعي الجامدة في عيني غشاء من الدموع يتلألأ ويهتز، غرست أظفاري في الشرشف الموجود تحت جسدي، حتى هدأ الألم وسكنت الرعشة واسترخى جسدي ولكنني لم أقوَ على الحركة وثقل جفني فأطبقته واستسلمت لسبات عميق لم أرَ فيه إلا الظلام.

ارتعد جفني عندما سقطت عليه قطرات باردة سائلة ففتحته ببطء فآلمني الضوء، فأسدلته مرة أخرى فتساقطت قطرات ندية على وجهي مرة ثانية، ثم فوجئت بكف تربت على صدغي بلطف، وبحركة سريعة

فتحت عيني فإذا بجاري جالس على حافة السرير وأمارات الفزع ظاهرة على وجهه والخادمة واقفة خلفه وهي ترتجف وتبكي.

عدتُ بنظري إليه مرة أخرى فوضع يديه تحت ذراعي وحملني إلى الأعلى وأجلسني وهو يسندني بوضعه وسادة خلف ظهري، ومدّ يده وتحسس وجهي ونظر في ما حوله كأنه يبحث عن شيءٍ ما، واقتربت الخادمة مني ورمت بجسدها على الأرض وشفتاها تقبلان يدي ودموعها الحارة تلامس بشرتي، فأشار عليها جاري بالسكوت بوضع إصبعه على فمه ورفع بكأسٍ من الماء كانت بالقرب منه وأجبرني على الارتشاف منها.

ثم تحدث قائلاً: هل تناولتِ أي نوع من الأدوية؟

فحركت رأسي مشيرة بالنفي، نهض وأحنى ظهره تجاهي ووضع يديه أسفل جسدي ثم حملني كطفلة صغيرة بين ذراعيه، مضى إلى الخارج والخادمة تتبعه وفي يدها حقيبتي؛ خرج من المصعد ووضعني في سيارته وأنا صامتة أراقب ما يحدث بأعصاب مشدودة، وانطلق بي ولم أسأله عن وجهته، كنت أشعر أن هنالك ذبذبات تخرج من جسده وتتسلل إليّ فتجبرني على الاستسلام له والإحساس بالأمان معه.

توقفنا عند إحدى المستشفيات فحملني إلى غرفة المعاينة وخرج لملء استمارة الدخول، وجلست خادمتي بالقرب مني وهي تبكي وتتفوه بكلمات بلغتها العامية وأنا مستسلمة لمجرى الأمور أراقب ما يحدث وأحس ببرودة المستشفى تتسلل إلى عظامي وبرائحة الأدوية التي تزيد من رغبتي في التقيؤ.

وبحركة سريعة فتحت خادمتي حقيبتي وعبثت بمحتواها وأخرجت هاتفي ورفعته إلي، وما إن وقع نظري على الشاشة وشاهدت صورة فيصل وهو يطل منها بابتسامته حتى انقبض قلبي وأشحت بوجهي عن الهاتف وانسابت دموعي رغماً عني.

في تلك الأثناء عاد جاري ونظر إليّ وأنا أبكي وأدار وجهه إلى

الهاتف الذي لا تزال الخادمة ممسكة به ترفعه إلي فخطفه من يدها ونظر إلى شاشته ثم أعاده إليها وجلس بالقرب مني وقطع مجرى دموعي بأصابعه وهو ينظر إليّ بعطف، وما هي إلا لحظات حتى عاودتني النوبة وسرت الرعشة في جسدي وبدأت أسناني ترتطم ببعضها بعضاً محدثة صوتاً مزعجاً فأمسكتُ بيد جاري أعتصرها وأنا أصرخ من الألم.

أحسست أن رأسي يكاد ينفجر من شدة الضغط، وجاري ينظر إلي بذهول وهو يصرخ منادياً الممرضة والخادمة تبكي فزعة، فأتت الممرضة وهي تجري وأمسكت بجسدي محاولة إيقاف النوبة التي أمر بها.

ما هي إلا لحظات حتى هدأت الرعشة وتوقفت تدريجياً وسالت دموعي المتحجرة في عينيّ وأسدلت جفني استسلاماً للسبات ولكن الممرضة لم تدع النوم يجرني وأجبرتني على العودة إلى الواقع.. بعد مرور بعض الوقت أتى الطبيب الذي بدا عليه الضجر والإرهاق وطرح بعض الأسئلة عليّ وأنا أحرك رأسي تارة بالنفي وأخرى بالإيجاب، ثم أمر الممرضة بعمل بعض التحاليل وأخذ العينات لي وخرج وجاري يتبعه وهو يمطره بالأسئلة.

بعد ساعات من الانتظار والفحوصات عاد الطبيب وقام بوضع نظارتيه ودقق في أوراق الفحص باهتمام ثم نظر إلي وابتسم:

- أنكِ بصحة سليمة ولا تعانين من أي شيء... إن ما تمرين به مجرد إرهاق، وأنصحك بالاسترخاء ثم كتب وصفة علاج وانصرف.

غادرت المستشفى بعد ساعات طويلة عائدة إلى شقتي، وجلس جاري معي وقد حل الصمت عليه ثم خرج من غرفتي لكنه توقف مع الخادمة لحظات يهمس لها، وقبل رحيله نظر إلي نظرة طويلة ثم ابتسم وغادر.

أتت الخادمة وهي تحمل علبة أنبوبية الشكل وكأساً من الماء...

ناولتني قرصاً منوماً أخرجته من العلبة ووضعته في فمي وسلمتني كأس الماء فارتشفت منها بضع رشفات ثم أغمضت عيني ومددت جسدي فوق الفراش واستسلمت للنوم، لكن عقلي ظل طوال الليل مستيقظاً... نهضت في اليوم التالي ووقفت أمام المرآة أنظر إلى الانعكاس الظاهر عليها... لم أتعرف على هذه المرأة الواقفة أمامي، إنها امرأة محطمة، هشة، كئيبة.

من أنا؟؟؟؟؟؟؟؟

من هذه المرأة التي تستوطنني؟ أين ذهبتِ يا ناهد؟ أين طموحاتك؟ هل قتلت؟ أم هجرتك بعد أن رأت مدى فشلك؟

لقد غزا الهم قلبي وأصبحت ابتساماتي كالأوراق البيضاء التي مر عليها الزمن فتحولت صفراء هشة وقد تتحول إلى فتات عند أقل لمسة أو نسمة.

اختبأت تحت غطاء السرير ودفنت وجهي في وسادتي وبكيت، هذه المرة لم أبكِ دموعاً إنني أنزف دماً، لم أبكِ بسبب خيانة فيصل بل بكيت بسبب خيانتي لنفسي، بعد مرور الساعات القاتلة أدركت أن فيصل لم يأتِ لزيارتي ولم يسأل عني.

لم تكن هذه المرة الأولى التي تهاجمني هذه النوبات، فأنا لا أزال أذكر بعض الصور المشوشة التي تحملها ذاكرتي عندما كنت طفلة، وأذكر أنني كنت أسقط على الأرض وأرتجف وأدخل في السبات، كانت والدتي تحذر من حولي من المساس بي ولو بكلمة لأنني طفلةحساسة جداً وتخشى عليّ من هذه النوبات.

أيقظني صوت رنين الجرس، نظرت إلى الساعة واستغربت أنها الثانية عشرة ظهراً، يا ترى من يزورني في هذا الوقت؟

ابتسمت لثوانٍ فقد ظننته فيصل وهرولت ناحية الباب ووقفت على أطراف أصابعي لأستطيع النظر من ثقب الباب، وما أن شاهدت

جاري حتى حلّ عليّ الخذلان؛ فتحت الباب ببطء ورأيته يبتسم ببلاهة ثم باشر بالحديث:

- لم أشأ تناول غدائي وحدي، هل تكفيكِ ثلاثون دقيقة لتكوني جاهزة؟

تعجبت من جرأته وداعبني شعور أنني مدينة له، فلم أستطع الرفض ووافقته بإيماءة من رأسي وأنا أبتسم.

ضحك وهو يتجه إلى شقته وقال مازحاً:

- لا تنسي تسريح شعرك، يبدو وكأن هناك شيئاً ما انفجر فيه.

حاولت إخفاء نظراتي المتجهمة نحوه، تعجبت من شعره المصفف بالجل بطريقة مضحكة وغريبة وملابسه ذات الألوان والرسومات الغريبة، ابتسمت براحة وأنا أنظر إليه، أثار استغرابي كثيراً، فهو عكس الإنسان الهادئ الذي التقيته من قبل.. يتحدث ولا يصمت أبداً حتى إنني لا أعرف اسمه حتى الآن.

قاطعته وسألته عن اسمه فقال: (اسمي نزار وأنا طالب في الجامعة الأميركية في السنه الثالثة ووو....)

وعاد إلى ثرثرته ثم قطب جبينه وسألني قائلاً: في أي مطعم تريدين تناول الغداء؟؟

فأجبته كعادتي: أينما تريد.

ثم قال وهو يحك ذقنه بطرف إصبعه: أتحبين اللحم المشوي.

فأجبته بهدوء: نعم.

فابتسم كالأطفال وقال: أعرف مطعماً يعد أشهى قطع اللحم المشوي.

عندما دخلنا حاول أن يُظهر نفسه (جنتل مان) بقيامه بفتح الباب وسحب الكرسي لي وتصميمه على أن أختار ما أريد من الطعام، فأنا اعتدتُ من حبيبي فيصل أن يطلب لي الطعام ويجبرني على تناوله.. كان نزار كالطفل البريء يأكل بعفوية ويتحدث وفمه مليء بالطعام ولا يهتم بنظرات الناس من حوله، كأنه يعيش في هذه الدنيا لوحده.

قال وهو يمضغ طعامه: في الحقيقة أريد إخبارك بأمرٍ ما.

فنظرت إليه مستفسرة فأكمل حديثه: قمت بالاستفسار عنك وأخبروني بأنك مخطوبة، هل أنتِ فعلاً مخطوبة؟؟ أم أنها مجرد خدعة ليزورك حبيبك، ورسم ابتسامة خبيثة وحدّق بي.

بادلته النظرات بالدهشة لكنني تعمدت عدم الرد عليه وتركته يكمل حديثه: أنا لا أراك تخرجين مع خطيبك كثيراً ثم رفع كأساً من العصير وأكمل، ولا أراه يقوم بزيارتك إلا في بعض الأوقات.. لماذا؟ هل علاقتكما تمر بفترة فتور وخصام، هل هناك من مشاكل؟

صمت قليلاً ونظر إلي منتظراً الجواب مني لكنني لم أجبه، تجاهلت حتى النظر إليه وانشغلت بتناول طبق من السلطة.. أحس نزار أن هذا الموضوع يضايقني فقام بتغيير مجرى حديثه رحمة بي.

* * *

لا أعلم كيف تطورت الأمور بهذه السرعة وأصبح وجوده في حياتي أمراً طبيعياً.. لقد أضحى لقاؤه من عاداتي اليومية، وبرامجي المفضلة الخروج معه... لا أعلم لماذا؟؟ وافقت على تكرار ذلك، لكِن ربما بسبب حاجتي إلى شخص صديق في حياتي أفهمه ويفهمني وأتصرف معه بحرية من دون أن يحاسبني على أي تصرف يبدر مني.

توطدت علاقتنا وأصبحت أخرج معه إلى كل مكان، وأتناول معه الغداء والعشاء ونذهب إلى السينما ونتشاجر على الأفلام التي نريد مشاهدتها حتى إننا كنا نذهب للتسوق، ما أعجبني في نزار أنه لا يعير الناس أي اهتمام ويتصرف بعفوية شديدة.

وعندما يمر الليل ينزّهني بدراجته النارية وأنا متعلقة بكتفه، أمسك به بقوة وهو يظن أنني أخاف الوقوع من على الدراجة لكن كان كل خوفي أن يتركني. معه أحسست بإنسانيتي من جديد...

بشخصيتي... وكياني... وأنني أستطيع إبداء رأيي الخاص، يستمع إلي ويتناقش معي في كل شيء، معه فقط أعود إلى شخصية ناهد الحقيقية، معه أشعر بأنني امرأة من روح ودم... اعتدت عليه كثيراً لدرجة الإدمان حتى عندما سافر كنت أهاتفه لساعات طويلة ولا أنام إلا على صوته، أشعر بأنني معه عدت مراهقة... في الواقع كان هو الدواء الذي كنت أحتاجه، آه كم كنت أفتقر إلى شخص مثله في حياتي.

لاشعورياً بدأت أقارن سلوكيات نزار بفيصل، أسترجع تصرفاته المتصنعة ويتردد صدى ضحكاته وقهقهاته كلما تفوه بكلامه البذيء فأشمئز منه... وأتساءل.. لماذا يتصرف كبطل في مسرحية فاشلة لمجاملة أصحابه الجماهير؟ هل إظهار شخصيته الحقيقية أمر يخجله ويعيبه إلى هذا الحد؟

لكن أين كان فيصل؟

لقد عاد بعد عدة أيام من اكتشافي لخيانته، ولم يلحظ التغيير الذي طرأ عليّ وأعماه غروره عن مشاهدة وجنتي المتوردتين بعبير الحب وعيني الحالمتين السارحتين في الخيال، نظرتُ إلى فيصل الجالس بقربي وردد قلبي المتيم بحبه، قلبي عدوي همس وهو المنتشي بعشقه قائلاً: (على كثرة خطاياك لا تزال عيني تودك، لقد صارت زلاتك وهفواتك شيئاً عادياً).

استحوذت عليّ الأماني وتمنيت لو كنت مع نزار في تلك اللحظات التي أقضيها مجبرة إلى جانب فيصل، استولى نزار على كل تفكيري، كنت أسرح وأمرح في عالم آخر عكس ما أكون عليه مع فيصل حيث لا أنتبه إليه، فأنا في عالمي الحر مع نزار أطير منتشية كالنوارس المهاجرة وأسعد كلما تذكرت نزاراً وضحكاته... كلامه... نظراته... عفويته... شقاوته.

في المقابل أصبحت أعاند فيصل في كل شيء، استخدمتُ

أسلوباً جديداً معه وهو إكثاري من كلمة (كلا) حتى لو كان الأمر تافهاً ولا قيمة له، وعندما يطلب لي طعاماً أرفض تناوله فيصرخ غاضباً لماذا تريدين مشاهدة قائمة الطعام وأنتِ تطلبين الطعام ذاته في كل مرة؟

وإذا أجبرني على الرقص أقول له كلا، وعندما يأتي باختلاقات لأحداث مفبركة أمام أصحابه أقاطعه وأوضح الحقيقة وأضيق عليه مساحات الكذب فأقول لهم (لا لم يحدث هذا يوماً)، وأكشف براعته في التمثيل أمام أصحابه حتى إنني أصبحت أرفض الخروج معه إلا إذا دعاني للخروج من دون حضور جماهيره.

في بادئ الأمر شك في أمري وأصبح يتردد عليّ كثيراً، كنت أجلس بجانبه وأترك قلبي في هيامه، لكن عقلي وتفكيري مع جاري وما أصعبه من وضع.

أضحك تارة وأنا جالسة وحدي أو أرقص تارة أخرى محتضنة الألعاب التي أحضرها لي نزار، فهذه الألعاب التي لا يتجاوز سعرها بضعة دولارات أحب إلي من قطعة الألماس الباهظة المتسخة بقذارات الحب، كان فيصل ينظر إلي وهو يتعجب من تصرفاتي، وأظن أنه اكتشف خسارته لقلبي مثلما خسر ودي منذ شهور مضت.

مع مرور الأيام اضطر فيصل لقبول رحلة سفر بسبب العمل، أتى لزيارتي وهو يبتسم بخبث ويحمل بيده علبة صغيرة لُفت بعناية وأناقة، قبَّل رأسي ثم مسح بكفه عليه وجلس بالقرب مني ومد ساقيه أمامه... ناولني العلبة فأخذتها وأنا أبتسم وهززتها لأحزر ما فيها كطفلة صغيرة ثم قلت له:

- إنها ساعة!

ثم هززتها مرة أخرى وغمزت له بعيني: امممم إنها قلادة.

ضحك فيصل وقال: افتحيها وانظري بنفسك.

كنت ذلك اليوم في حالة نفسية رائعة وتقلبات المزاج هدأت،

وما أن فتحتها حتى وقعت عيني على خاتم يتوسطه فص كبير من الألماس وضعته في إصبعي ورفعته نحو نور الشمس المتسلل من النافذة فأظهر انعكاسات رائعة جعلتني أنبهر به أكثر فأكثر، فالتهمت نظراتي بريق الألماس.

وزحفت بجسدي حتى دنوت من فيصل ومددت شفتي محاولة تقبيله، وعندما أدار شفتيه لي وضعت أصابعي على وجهه وأدرته إلى الجهة الأخرى ثم طبعت قبلة طويلة على صدغه، ابتسم لي واحتضنني بذراعه وقال:

- ناهد.

وابتلع ريقه وأكمل: أريدك أن تجهزي نفسك للسفر.

اعتدلت في جلستي وتساءلت قائلة:

- إلى أين؟ ثم بصوت أكثر حدة ولماذا؟

وبدأ صبر فيصل ينفذ بسرعة فقال لي بلهجة غاضبة:

-لا يهم إلى أين؟ عندما أقول لك شيئاً أريدك أن تنفذيه في الحال من دون جدال أو طرح أية أسئلة غبية.

أبعدت جسدي عنه وقلت له بتحدٍ:

- لا لن أذهب معك (فكرت للحظات بأنها فرصة للتخلص منه لأمضي المزيد من الوقت مع نزار).

وتنهد فيصل طويلاً محاولاً تهدئة نفسه وقال:

- أريدك أن ترافقيني، أنا ذاهب في رحلة عمل ثم ضغط على أسنانه وأكمل ولا أريد تركك وحدك.

فقلت له باستهزاء:

- ومنذ متى أذهب معك إلى رحلات عملك؟ وما هذا التغير الذي طرأ عليك فجأة وأصبحت تهتم بأمر كوني سأبقى لوحدي.

أهاجته لهجتي فصاح بي:

- إذا لم تسافري معي سوف تخرجين مع أصحابي كل يوم.

- فيصل هل أنت مجنون؟ لماذا أخرج مع أصحابك؟ من الأفضل لك أن تجعل هذه الليلة تمر بسلام، ونهضت لأجلس على الأريكة المقابلة له وتمددت عليها.

فصرخ فيصل بعصبية:

- ستسافرين معي شئتِ أم أبيتِ

فاعتدلت في جلستي ثم خلعت الخاتم من إصبعي ورميته عليه فارتطم بصدره ووقع على الأرض محدثاً رنيناً متواصلاً حتى استقر في مكانه، ونظرتُ إليه باحتقار وقلت له:

- هل تظن أنك سوف تشتريني بهداياك الثمينة؟ إذا كان الخاتم مجرد رشوة فأنا لا أريده.

ورسمت على وجهي ملامح الحزن ثم أدرته إلى الناحية الأخرى، وحل علينا صمت رهيب.

فجأة انحنى فيصل إلى مستوى قدميه ورفع الخاتم واقترب مني... أحاطني بذراعيه وأمسك بيدي واضعاً الخاتم في إصبعي وقبلها قائلاً:

- لا، لقد اشتريته لأنني رأيته في أحد المحلات وتملكني شعور أنه سوف يزداد جمالاً عندما تضعينه في إصبعك، ثم سكت للحظات ونظر إلي وأكمل وهو يتلمس وجهي:

- لقد ابتعته لتعلمي مدى حبي لك وليس مثلما تعتقدين، أنا أرغب أن تسافري معي لأنني أحتاج إلى وجودك بجانبي، فأنا أشعر أنكِ بدأت تبحرين إلى عالم آخر لا أكون فيه ولكن إذا كان يضايقك وجودك بقربي فلا تسافري معي.

قاطعته قائلة:

- لن أسافر... ثم ضربت بيدي على ساقي وأكملت لن أسافر.

وسكت فيصل للحظات داخلاً في دوامة من الحزن ثم نهض عائداً إلى مكان جلوسه... خلع حذاءه واستلقى على الكنبة وقال: سأنام الليلة هنا؟

نظرت إليه بدهشة وتساءلت: ووالدك؟
فانقلب إلى الجهة الأخرى وقال: لا يهمني.
لكن فيصل لم ينم، أمضى الليل بطوله وهو ينظر إلي بحزن ويفكر، وأمضيت أنا الليل بطوله أرسم وأخطط ماذا سوف أفعل مع نزار في الأيام التي سيسافر فيها فيصل.
في اليوم التالي تجهزت وتزينت وأوصلت فيصل إلى المطار ثم ودعته، سافر والضيق يعتصر قلبه من موقفي الغريب... تجولت في المطار وجلست في أحد المقاهي الموجودة في أركانه أرتشف القهوة وبصري معلق بعقارب الساعة حتى حان وقت هبوط طائرة نزار فاتجهت إلى دورة المياه لأطمئن على هيئتي وذهبت إلى صالة القادمين... استقبلت نزار بشوق جارف، آه كم كنت أنتظر عودته بفارغ الصبر من زيارته العائلية.

***

عندما يحتضنني نزار بذراعيه أشعر أنه يحميني من العالم ويحتويني... أحس باللمسة الحنون تمحي كل جرح سكنني... بل أكثر من ذلك أحس بالزمن يتوقف عندما أكون معه وأن اللقاء يمضي بسرعة كبيرة، إنني أرتاح معه كثيراً فهو لا يفرض عليّ شيئاً لا أرغب به.
تنزهت معه في الأماكن العامة، لا أعلم كيف تجرأت على ذلك، ربما في عقلي الباطن كنت أريد أن يعلم فيصل بموضوع خيانتي له، وأن هناك رجلاً في حياتي من دون أن أضطر لإخباره.
اتصل بي فيصل صباحاً،وأنا لا أزال في فراشي مرهقة فحدثني مباشرة:
- ناهد أين كنتِ بالأمس؟

فقلت له متثائبة:

- عن ماذا تسأل؟

فصرخ بي قائلاً: اتصلت بك كثيراً البارحة، لماذا تتجاهلين مكالماتي؟

فقلت له ببرود: إنني مشغولة والآن عن إذنك.

- أيتها الحقيرة كيف تحادثينني بهذه اللهجة؟

فصرخت به قائلة:

-إذا لم تعجبك طريقة حديثي فلست مجبراً على محادثتي، وأغلقت الخط في وجهه وأكملت نومي.

في تلك الليلة واعدت نزار على الخروج معه إلى حفلة أحد زملائه في الجامعة وبعدها أمضينا ليلة عذرية رائعة في مسكنه. كنت في عالمي الوردي وتحدثنا عن أحلامنا ورسمنا مستقبلنا، وعندما عدت إلى الشقة، وما إن فتحت الأنوار حتى رأيته، جالساً في الظلام ينتظرني، أفقت على صراخه:

- هل قاطعت سهرتك يا ناهد؟ أين كنتِ إلى هذه الساعة؟

كانت الكلمات تهرب مني.. وبصوت مخنوق أجبته:

- خرجت لأستنشق بعض الهواء.

(وأنا في محاولة الهروب منه إلى غرفتي) فأمسكني من ذراعي وصرخ بي قائلاً:

- من هذا الشاب الذي شاهدك أحمد برفقته؟

تجاهلت النظر إلى عينيه وقلت له محاولة التخلص من قبضته:

- أي شاب؟ فيصل أنتَ مجنون وتعاني من داء الشك، اتركني فأنتَ تؤلمني.

أمسكني من ملابسي وقال: ماذا أشم فيك؟ رائحة عطر رجالي؟ رائحة خمر؟ أيتها الخائنة، صفعني بقوة وأبرحني ضرباً حتى إنني شعرت بقدمي تعجزان عن حملي والوقوف ثانية بينما دقات قلبي

تتسارع خوفاً وألماً ولا أقوى على التنفس.. كنت مختنقة وأبكي في حالة هستيرية حتى تملكتني النوبة ودخلت في السبات، وعندما نهضت وجدت نفسي في حجر فيصل وهو يحيطني بذراعيه ويبكي كطفل مخذول... في تلك اللحظات رفضت، رفضت أن يلمسني، أحسست بأني سأخون نزار إذا استسلمت له وأخون نفسي التي استرجعتها بعد صراع مرير، استجمعت قواي وصرخت في وجهه ودفعته بكل قوتي:

- لا أريدك في حياتي تعبت منك، ومن إهاناتك، أكرهك.. أكرهك.

دفعته نحو الباب وهددته: إن لم تخرج من شقتي سوف أستدعي البواب ليرميك خارجاً، الأفضل لك أن تخرج بكرامتك.

نظر إلي فيصل بلوم وقال:

- هل تطردينني من شقة أقوم أنا بدفع إيجارها؟ ثم اشتدت نبرته فجأة وأكمل حديثه: هل نسيت من أنا ومن أنتِ؟

صرخت في وجهه: أخرج ولا تأت إلى هنا مرة أخرى. وبينما هو مغادر أخذ يهددني بأنه لا مناص للهروب وسينتقم مني عاجلاً أم آجلاً.

هرولت إلى شقة نزار وضربت الباب بكل ما تبقى لي من قوة... وما إن فتح نزار الباب حتى قال: ناهد ما الذي حدث؟

لم أنطق بكلمة وارتميت في أحضانه وظللت أبكي طوال الليل وأنا أحكي له كل شيء، وأعترف له بكل ما يكمن في قلبي، فسقط الحاجز وانكشف المستور ولم يعد هناك أي داعٍ بأن أخفي قلبي بوضع يدي عليه، احتضنني وجعل أصابعه تلاعب خصلات شعري وسرعان ما غلبني النوم.

عندما استيقظت وجدت نفسي محاطة بالورود من كل جهة، ضحكت فقد زينني بالورود أثناء نومي، نظرت إليه لأجده يعد الفطور

وهو يغني... وضعت وردة خلف أذني واقتربت منه واحتضنته فقال لي:

- آسف حبيبتي، هل أيقظك صوت غنائي؟

وبحركة سريعة قام بحملي إلى السرير وقال لي: لا تتحركي من مكانك أبداً حتى أحضر لك طعام الإفطار، شردت بذهني أسترجع همومي وأحداث الأمس مع فيصل... وكان ظاهراً عليّ الضيق وأفقت على صوت نزار وهو يدخل حاملاً بيده طبقاً وبالأخرى كوباً من الحليب ثم قال:

- لماذا الجميل مهموم؟

فابتسمت له بحزن، فوضع الطبق والكوب على المنضدة وأمسك بذقني ورفعه وقال:

- لا تحزني مما حدث فأنا معك، والآن هيا ابتسمي ابتسامة حلوة.

فابتسمت له ابتسامة كبيرة تكشف عن أسناني.

ثم سحب كوباً من الحليب وجعلني أرتشف منه، وقام بإطعامي بيديه كطفلة مدللة، بعدها أخبرني بأنه سيخرج لساعات وسيعود إليّ على وجه السرعة، وشدد عليّ بعدم مغادرة الشقة حتى عودته فاستلقيت على فراشه وأكملت نومي.

عندما عاد أيقظني وهو يبتسم ابتسامته المعتادة... أعطاني ظرفاً صغيراً وعندما فتحته تفاجأت بتذكرتي سفر إلى إحدى الجزر الاستوائية، ومن الفرحة احتضنته بقوة.

***

(5)
ما معنى الحب؟

أوقفت سيارتي بالقرب من مركز التجميل، وجلستُ بين يدي الكوافير شادي المتشبه بالنساء، ولتضييع الوقت فتحت أول مجلة وقعت بين يدي وعندما قلبت صفحاتها وقعت عيني على صورة إحدى الجزر وعادت إليّ الذكريات الجميلة، التي لا أزال أحتفظ بها في ذاكرتي والتي هي بالنسبة لي كالمخدر الذي أتعاطاه عندما أسأم من الحال التي أنا بها.

***

جلستُ في الطائرة أحدق في ما حولي؛ كان هناك الكثير من السياح الأجانب، وعندما حلقت الطائرة بنا استسلم نزار إلى النوم، أما أنا فلم أستطع ذلك، فكرت في فيصل للحظات لكنني سرعان ما طردته من عقلي، فأنا لا أريد تعكير أجازتي بذكراه. كانت هناك فتاة بالقرب منا بريطانية الجنسية تأكدت من ذلك بسبب لهجتها في الحديث، تبادلنا بعض الذكريات عن أوروبا الجميلة التي ولدت فيها؛ كانت الفتاة شقراء وعيناها بلون السماء واسمها هايدي، تقاربني في السن وتشبه عارضة الأزياء الشهيرة (كولوديا شيفر) وقد أتت مع

خطيبها جون لكنها لم تتمكن من إيجاد تذكرة له على الدرجة الأولى فوافق على السفر في الدرجة السياحية.

عندما شارفنا على الوصول أطلقت العنان لعيني لتتجولا خارج نافذة الطائرة لأمتعهما بمياه البحر الشفافة العذراء التي لم يمسسها التلوث قط.

هبطت الطائرة واتجهت مع نزار وهايدي وجون وبعض السياح الآخرين إلى إحدى جزر المالديف وتدعى (مارلاي)؛ كانت الجزيرة خضراء اللون، بلون أشجار النخيل التي تبعثرت في كل مكان على اليابسة، رمالها بيضاء كلون الغيوم التي زينت سماءها مثل لوحة لرسام مبدع، وأضاف انعكاس السماء على مياه البحر الشفافة مظهراً منعشاً للأبدان ومثيراً للأرواح، وأكملت تلك اللوحة البديعة الجبال الشاهقة التي كان الضباب يغطي قممها كقطع ثلج منثور... كان يوجد (في مارلاي) حوالى سبعين منتجعاً، فأقمنا أنا ونزار في منتجع يدعى (با اتول) تابع لأحد الفنادق الشهيرة، وكان يتكون من عشرين كوخاً، يفصل ما بينها ممر خشبي طويل مفتوح، وكل كوخ صمم على شكل بسيط وأنيق وصنع من الألواح الخشبية، ويزين سقفه سعف النخيل المجفف... دخلنا إلى الكوخ الخاص بنا نتبع الموظف العامل في المنتجع فأخذت أتجول مستكشفة المكان.. كان الكوخ يحتوى على غرفتين واسعتين زينتا بالشموع المعطرة، ونثرت أوراق الورود المجففة فوق السرير ويتوسطهما حمام واسع للغاية، طليت جدرانه باللون الأزرق المخضر فبدا كقطعة من البحر، ويتوسطه تلفاز كبير وفيه جاكوزي، أما أرضيته فصنعت من الزجاج المتين لنتمكن من النظر إلى البحر من خلاله، وفي منتصف الكابون بركة سباحة.

أما قطع الأثاث فقد تم توزيعها بشكل عفوي وجميل ووضعت بعض قطع الشوكولاتة الصغيرة عند زوايا الكنبات. يطل الكوخ مباشرة على البحر ويوجد فيه سلم خاص يقودك إلى مياه البحر مباشرة وهو

على شكل لولبي. كان الكوخ مفتوحاً على البحر ومليئاً بالشرفات والنوافذ الكبيرة مما يترك مجالاً لنسيم البحر النقي ليزورنا من حين إلى آخر.

وقفت على الشرفة أنظر إلى مياه البحر الشفافة ورمالها البيضاء كأنها حبات لؤلؤ، أما البحر فكان نقياً لدرجة تمكنني من مشاهدة الأسماك التي تسرح فيه.

سكنت في الغرفة التي تقع في الجهة الجنوبية وتركت لنزار الغرفة الأخرى، تملكني شعور أن نزار قد جرح من تصرفي لكنني كنت لا أزال أفكر بفيصل، وأحتاج إلى المزيد من الوقت لتحديد مصير علاقتنا.

استلقى نزار فوق السرير بعد أن رمى الغطاء على الأرض بطريقة مهملة ونام من دون تبديل ملابسه أو حذائه، فاضطررت أن أزيحه من على قدميه... نظرت إلى الساعة التي كانت تقارب الحادية عشرة والربع صباحاً، وقرصني الجوع فهاتفت خدمة الغرف بعد أن تصفحت قائمة الطعام، لكنني سرعان ما ترددت في قراري فغيرت ملابسي وارتديت فستاناً خفيفاً واسع الاطراف أزرق اللون، ووضعت على عيني نظارة شمسية وفوق رأسي قبعة كبيرة من القش، وذهبت إلى مطعم المنتجع واستدعيت الجرسون الذي كانت ملامح وجهه تدل على أنه من سكان الجزيرة، فقال بلغة إنكليزية ركيكة:

- مرحبا مدام.

فقلت له وأنا أخلع نظارتي وأزيح القبعة عن رأسي:

- مرحبا، هل من الممكن لك أن تخبرني عن الأطباق الخاصة؟

وردد لي بعض الأطباق فقاطعته وأنا أبتسم:

- هل من الممكن أن تختار لي طبقاً رائعاً على ذوقك؟

فابتسم الجرسون وقال:

- أنصحك بالطبق التقليدي الذي تشتهر به المالديف، وهو عبارة

عن طبق السمك الملفوف بورق أشجار الموز المحاط بثمار الفواكه الطبيعية مع بعض الكاكاو.

ووافقت على الطبق بإيماءة من رأسي.

وأثناء انتظاري للطعام أحضر لي مشروب الكاكاو، وأخبرني أنه مفيد للجسم فهو يقلل من الكوليسترول، وطبعاً لم يكن طعمه يشابه مشروب الكاكاو الذي اعتدت على تناوله، كان طعمه ممزوجاً برائحة النسيم ولا يشبه أي مشروب سبق أن تناولته.

وبعد انتهائي من طعام الغداء عدت إلى الكوخ فوجدت نزار لا يزال نائماً فحاولتُ إيقاظه لكنه رماني بالوسادة وصاح بي متذمراً.

فعدت إلى غرفتي ثم استلسمت للنوم لعدة ساعات، نهضت بعدها على الساعة الرابعة مساء، ارتديت ملابس البحر وغطيت أردافي بشال زهري اللون ثم دهنت جسدي ببعض الكريمات التي تجعل البشرة تكتسب اللون البرونزي، حاولت إيقاظ نزار لكنه لم يعرني أي اهتمام، فتركت له ملاحظة على باب غرفته وخرجت، وعندما كنت أسير في الممر الفاصل بين الأكواخ صادفت هايدي التي كانت هي الأخرى وحدها وترغب في التنزّه في الجزيرة، فذهبنا مباشرة إلى شاطئ البحر ولكنني رفضت النزول على الرغم من محاولاتها واكتفيت بالسباحة في الحوض التابع للمنتجع.

وشاهدنا غروب الشمس الرائع ثم عدنا إلى الكوبون بعد الاتفاق على الخروج سوياً لإكمال السهرة. وعندما دخلت إلى الغرفة كان نزار جالساً يتمطى وعيناه مثقلتان بالنعاس، فانطلق بسرعة إلى الحمام ثم ارتدى ملابسه وخرجنا سوياً وتوقفنا عند كوخ هايدي واتجهنا جميعاً إلى الحانة.

سرعان ما اتفق الرجلان وعاقرا الخمر بشراهة، حررت تفكيري الذي جرني إلى فيصل.. يا ترى هل يفكر بي حالياً مثلما أفكر به،

دقت الساعة العاشرة، فاستأذنت نزار للعودة كي أتمكن من اللحاق بالبرنامج السياحي الخاص بالمنتجع.

عدت إلى الكوخ ثم خلعت ملابسي وارتديت بيجامة واسعة وتمددت على الفراش وسرعان ما استسلمت لنوم عميق حتى أيقظني صوتُ نزار وهو يضحك بطريقه هستيرية. نظرت إلى الساعة التي كانت تقارب الخامسة صباحاً فاتجهت إلى نزار الذي بدا لي لا يقوى على الحركة وقد شله تأثير الخمر ويسنده جون إلى ذراعه؛ وما إن رحل جون حتى نظرتُ إلى نزار باشمئزاز، فأنا اكتشفت فيه، جانباً لم أره فيه من قبل ثم عدت إلى غرفتي وأغلقت الباب بإحكام.

نهضت في اليوم التالي وذهبت مع هايدي نحو أحد الزوارق التقليدية المصنوعة من الخشب، فأقلّنا إلى مركز العناية الصحية الذي يقع بعيداً عن الشاطئ؛ كان هادئاً للغاية وتبعث أجواؤه في نفسي الراحة والسكون، أسلمت نفسي لخبيرة المساج، بعدها تمّت تغطية جسدي بالطحالب والأعشاب البحرية.

كونت أنا وهايدي صداقة عميقة بسبب تشابه أطباعنا وتشابه أطباع رجلينا، لكنني كنت أتحدث عن فيصل كثيراً، فأي حديث يقودني مباشرة إلى فيصل وجعلت هايدي تطلع على صورته التي أحتفظ بها في محفظتي، وما أثار استيائي هو مرور الأيام وعدم لقائي بنزار إلا وقت العشاء بسبب اختلاف جدولنا وحبه الشديد للسهر ومعاقرة الخمر.

رحلنا من الجزيرة وأنا أحمل الكثير من الصور التي تجمعني مع هايدي وبعض التذكارات من الجزيرة والكثير من اللحظات والذكريات الجميلة... اتفقت معها على التواصل بعد عودتنا لمحل إقامتنا، وبالفعل لم أقطع علاقتي بها حتى اليوم.

عدت إلى مسكني واستفسرت من الخادمة عن فيصل وتيقنتُ أنه

لم يقم بزيارتي، وبعد مرور عدة أيام اتصل بي أحمد وسألني وهو يضحك:

- مرحباً يا ناهد ما هي آخر أخبار المالديف؟

لم أتعجب من معرفته بخطواتي، فقد اعتدت مراقبة فيصل الدائمة لي ولكنني قمتُ بالرد عليه بلهجة جافة جعلته يبتلع ضحكاته، ثم طلب مني موعداً للقاء ووعدني بعدم إحضار فيصل معه.

عندما حان اليوم المحدد جلستُ مع أحمد في أحد المقاهي وسألته:

- ما هو الموضوع الذي تريد التحدث عنه؟

فحدثني أحمد وهو يضع إصبعه على حافة كوب القهوة:

- عن علاقتك مع فيصل، لقد أخبرني بكل شيء.

أطلقت ضحكة ساخرة وقلت له:

- متوقع منك الدفاع عنه فهو صديقك.

فرد قائلاً:

- ناهد لقد قمتِ بخيانته.. ماذا تتوقعين أن تكون ردةُ فعله؟

ارتشفت قليلاً من القهوة وقلت له:

- أحمد، أعتقد أنك تعلم أن صاحبك اعتاد خيانتي وكنت أتجاهل ذلك لسنوات لكنني تعبت من تمثيل هذا الدور، لقد سئمت أن أكون على طرف الهامش والاستمرار معه حتى يتزوج ثم يتركني.

ثم اعتدلت في جلستي واغرورقت عيناي بالدموع فبدا على ملامحي الألم وأكملت:

- أحمد لقد تعبت منه ومن تبريره أن خيانته لي مجرد واجب يؤديه في طريقه للبحث عن زوجة.

ابتلع أحمد ريقه وقال بثقة:

- وهل علاج الخيانة يكون بالخيانة؟

فصحت بوجهه بتحدٍ:

- لا.. ولذلك أخبر صاحبك بأن كل ما كان بيننا قد انتهى، وأخبره أن خيانتي لم تكن باختياري أو باختياره، خيانتي كانت رداً ودواء لأفعاله.

***

مع نزار اختلفت حياتي، فقد اعتدت الذهاب معه إلى المراقص نهاية كل أسبوع بدلاً من سهرات العشاء الفاخرة التي يصطحبني فيصل دوماً إليها.

كنت أراقصه ولا أفارقه، إن نزار رجل ذكي ومتفهم، وهو لا يتركني ولو لدقيقة، وذات يوم صادفت فيصل مع الفتاة نفسها التي خانني معها من قبل، ارتعش جسدي خوفاً فطمأنني نزار وقال لي:

- لا تهتمي.. ولا تخافي.. إنكِ مع رجل.

فاقتربت من نزار وهمست في أذنه: (أحبك وأموت بدفء حضنك.. أحبك وأموت بهمساتك، أحبك وأموت بنظرتك، أحبك وأذوب بحضورك).

ضحك نزار واحتضنني وقبّل رأسي.

كانت نظرات فيصل تخترقني وتجعل قلبي ينبض رعباً، أحسست بالنار تتصاعد من عينيه وتلسعني بشررها المتناثر... وحاولت تجاهله حتى يمر الأمر بسلام.

في اليوم التالي ضحكت على رسائله الهاتفية ومضامينها الحقيرة (التي شملت بعض التهديدات والإهانات الحقيرة المكتوبة بالألفاظ السوقية، وادعاءه بشرائي من والدتي وأنه جعلني إنسانة بعد أن كنت حيوانة) وهذا الأمر غير صحيح، لم أهتم برسائله ولم أقم بالرد عليها.. في الماضي كنت أبكي على حقارته أما الآن فالوضع تغير..

أصبحت أضحك في داخلي لأنني أعتبره مريضاً نفسياً. في الحقيقة لم ييأس فيصل من استرجاعي، وقام بمحادثة نزار الذي رفض الإصغاء لكل تلفيقاته المشوّهة لصورتي، تمادى أكثر فحاول جاهداً إثارة المشاكل لنزار حتى إنه اتصل بوالد نزار وأخبره بعلاقتنا، وعلى وجه السرعة أتى والد نزار وتشاجر مع ابنه وأخبره بضرورة تركي والانتباه لدراسته وإلا سيقطع عنه المصروف، لكنه لم يكترث لوالده وتحداه من أجلي... في هذه اللحظة أحسست بأنني أسعد امرأة في العالم، فأنا بحماية رجل يدافع عني ويحميني ويتحدى العالم لأجلي.

اضطر نزار للعمل وكان يحثني ويشجعني على ذلك، لكنني كنت أتذمر وأقول له بأني لا أصلح لأي شيء، فيغضب ويردد أن فيصل هو من أفسدني ووضعني في هذا الوهم والإحباط.

***

مع مرور الأيام هاتفني أحد أصحاب نزار وأخبرني بأنه يتغيب باستمرار عن الجامعة وسوف يتم فصله إن استمر على هذه الحال، وعند عودته فاتحته بالموضوع، جلست بجانبه وعقدت ذراعي:

- نزار، أريدك أن تجيبني بصدق.

حدق بي محاولاً اكتشاف الموضوع ثم قال:

- حسناً.. أخبريني بما عندك.

رفعت حاجبي الأيمن وقلت له بلهجة حادة:

- هل حقّاً أنك تتغيب عن الجامعة، وقد وُجّه إليك إنذار بالفصل؟

ثار نزار في وجهي قائلاً:

- من أخبرك؟

مررت بأصابعي بين خصلات شعري أرفعها عن وجهي وقلت:

لا يهم من قام بإخباري ثم أشرت إليه بإصبعي وأكملت، أجبني بصدق: هل حقاً أنك تتغيب عن المحاضرات بهذا الشكل المتكرر؟

ابتعد نزار عني وقال:

- الوضع تغير، فأنا أعمل الآن ولا أستطيع الموازنة بين دراستي وعملي.

فرفعت صوتي قائلة:

- كما توقعت.. نزار اسمعني جيداً، أريدك أن تهتم بدراستك وتترك عملك.

فقال لي بيأس وهو ينكس برأسه:

- لا أستطيع، إنني رجلك ويجب عليّ الاهتمام بكِ.

فحدثته بلهجة آمرة:

- ستتصالح مع والدك وتكمل دراستك.

رفع رأسه ونظر إليّ بتحدٍ:

- لا شك بأنني سأعرف من هو الشخص الذي أخبرك بهذا، وضم أصابع يده وشكل بها قبضة وضرب بها سطح الطاولة وأكمل حديثه وسيرى مني ما لا يسره.

نهضت من مكاني وقاطعته قائلة:

- الأفضل أن ننهي النقاش، ثم نظرت إليه وأنا أهم بالخروج وأكملت حديثي قائلة: أتمنى أن تتصرف كرجل وليس كطفل يهدد ويتوعد.

تركته لرياح التفكير لتهل عليه كلماتي.. كنت أعلم أني ماضية في تدمير حياته بسبب تصرفاتي الطائشة، فقد حرمه والده من كل شيء بسببي وسيفصل من الجامعة وستضيع عليه السنوات الثلاث سدى بسببي، حينها قررت عصيان قلبي وتركت نزار. نعم إنني ضربت بكل مشاعري عرض الحائط وعدت من جديد إلى فيصل الذي فرح بعودتي ووعدني بأنه سيتغير كلياً وينسى كل ما بدر مني، لكنه للأسف لم يكن

يعلم أنني أنا التي تغيرت هذه المرة وعدت إليه جسداً بلا روح.. امرأة بلا قلب.

جن جنون نزار عندما رفضت محادثته حتى فاجأني عند خروجي من الشقة.

قال لي وهو يحتضن يدي بيده:

- ناهد أتوسل إليك أخبريني لماذا ترفضين محادثتي، هل أسأت إليك من دون قصد؟

سحبتها ببطء وقلت له وأنا أتجاهل النظر إلى عينيه:

- نزار ألا تدرك أن علاقتنا انتهت.

ومسح بأطراف أصابعه على وجنتي برفق وقال بهدوء:

- لا لم تنتهِ.. ولن تنتهي أبداً.. فأنا أحبك وأنت تحبينني.. لن تستطيعي إنكار هذه الحقيقة.

رجعتُ خطوة إلى الوراء وعقدت ذراعي وقلت له بهدوء وأنا أشيح بوجهي عنه:

- نزار لقد عدت إلى فيصل، ثم ابتلعت ريقي وأكملت: أنا بحاجة إلى رجل وليس إلى طفل يستلم المصروف من والده ثم رفعت نبرتي وأكملت وأنا أضع عيني بعينيه: لقد كنت بالنسبة لي مجرد نزوة.

فقال لي مندهشاً وهو يتراجع بضع خطوات إلى الوراء:

- لا أصدق ما أسمعه منك، وانحنى على ركبتيه كأنه تلقى طعنة في قلبه. مستحيل أن تكوني أنت ناهد التي عرفتها وصرخ بقوة، مستحيل.

فاستدرت نحو المصعد ودلفت إلى داخله ثم استدرت وأنا أقول له:

- يجب أن تصدق ذلك، المستحيل يا عزيزي أن أفضل طفلاً متهوراً على رجل كفيصل. من الأفضل لك ولي أن ننسى ما كان بيننا

لأن الأمر لم يعد يعني لي شيئاً. والآن استأذنك فقد تأخرت على موعدي مع حبيبي فيصل وأغلقت باب المصعد ثم أجهشتُ بالبكاء.

لقد تعمدتُ جرح نزار ليكرهني، كذبت عليه من أجل مصلحته فقط، تصنعت القسوة والجحود لأجعله يعود إلى حياته السابقة؛ إنني أحبه ولا أريد التسبب بضياعه، فيجب عليّ أن أكون قوية وأكتم مشاعري وحبي له ليبتعد عني بأي ثمن.

وقفت أمام المرآة التي في داخل المصعد أزيل آثار دموعي بطرف إصبعي ثم مسحت وجنتي بشيء من البودرة على خط الدموع حتى أخفيه، رسمت ابتسامة على وجهي وصعدت سيارة فيصل وانطلقنا الى أحد المطاعم وأنا لا أزال أفكر بنزار.

عند جلوسي برفقة فيصل في المطعم لوحدنا كنت أستمع إلى مقطوعة شوبان التي جعلتني ابتسم بسخرية وهمس قلبي متسائلاً:

- الحب ما الحب؟.. هو قمة التضحية.. تحمّل الجروح والعذاب في سبيل راحة المحبوب، لا يهم.. فلأمت بحسراتي وألمي وليقتلني الحب، إنني أقدم نفسي له كقربان.. لا وألف لا.. لا لن أهدم حياة نزار من أجل رغباتي، سوف أتركه يحلق بعيداً عني حتى يواصل مستقبله وينجح ولو شاء له أن يعود، فليعد بشرط أن يكون رجلاً من دون أن يحكمه أحد.. أو أن يبالغ في التهديد والوعيد كما يفعل معه والده... أريده أن يكون قوي الشخصية يواجه الحياة بقوة وصلابة ويقرر مصيره بنفسه.

***

مع مرور الأيام كان نزار يعاقر الخمر بشراهة ثم يعود ليبكي عند باب شقتي متوسلاً لي كي أفتح الباب وأخترق الحواجز، لكنني كنت أتجاهله ولا أجيبه وأحاول جاهدة أن أجنبه سماع صوت بكائي وأنا

جالسة قرب الباب، أبكي على الحال التي آل إليها، أقاوم وأحارب مشاعري كامرأة، أقاوم رغبتي باحتضانه وتقبيله وإخباره كم اشتقت إليه، أخشى الاعتراف أنني بالفعل واقعة في حبه، ومخاوفي تكمن في أن أثق به فيخذلني.

إن أصعب حرب يخوضها الإنسان هي أن يحارب نفسه بنفسه ويعاندها.. كنت يُومياً أجلس بالقرب من النافذة أترقب قدوم نزار ولا أنام إلا عندما أسمع صوت دراجته النارية.. فأعلم حينها أنه عاد فيطمئن قلبي.

مرت الأيام وشوقي لـ "نزار" يتزايد.. فأنا أشعر أنني أشتاق إليه كاشتياق الأمواج إلى شواطئ البحار لتذوب في رمالها كما أذوب أنا بين ذراعيه.

رفضت الخروج من الشقة.. وخيمت عليّ سحابة من الاكتئاب حتى انتهى بي الأمر إلى تناول بعض الأدوية المضادة له.

كان فيصل جالساً بجانبي وأنا أتجاهل حتى النظر إليه:

- ناهد، لقد مر شهر بأكمله وأنتِ لا تزالين ترفضين الخروج.

فانحنيت على ركبتي وضممت رأسي بيدي حتى أخبئ ملامح وجهي المتألمة عنه:

- لا.. لا رغبة لي في الخروج.

فربت فيصل على ظهري بحنان:

- أنتِ بهذه الطريقة تسجنين نفسك وتحرمينها من الحياة، ناهد حبيبتي أريدك أن تعودي كما كنتِ.. ناهد الفتاة المرحة الشقية التي تحب السهر والخروج والمرح.. ناهد التي لا تفارق الابتسامة الحلوة وجهها.. هل نسيت يا ناهد.. نسيتِ عندما كنا على شجار دائم بسبب تغيبي الطويل وكيف تعاتبينني لعدم اصطحابي لكِ على العشاء.. وكيف كنت تتقافزين فرحاً عندما أزورك، والآن تتجاهلينني وتستكثرين حتى النظر إلي.

همس قلبي وأنا أنظر إليه ببرود: آه يا فيصل آاااااه.. إنك لا تعلم أنك قتلت ناهد بأفعالك ومحوت شخصيتها، والآن تأتي إلي وتطالب بالعودة، هل تعتقد أن الأمر بهذه السهولة؟

ثم قال فيصل بلهجة طفولية:

- سأصطحبك اليوم إلى مكان رائع للغاية سوف ينال إعجابك، ودفعني برفق وأكمل حديثه قائلاً: هيا انهضي.. وأعدي نفسك للمفاجأة.. هيا بسرعة.

مع إلحاح فيصل وتوسله اضطررت للخضوع له وللخروج معه، كانت السهرة مملة على الرغم من جهود فيصل لإضحاكي، وأثناء السهره لمحت بعض أصحاب نزار، ولم يخطر ببالي أبداً أنهم سيخبرونه بوجودي.

هزني مظهر نزار كثيراً عندما شاهدته مقبلاً، كان مجروحاً، حزيناً ينظر إلي بعينين باردتين، لمحه فيصل، فقرّب شفتيه من أذني وهمس لي: إذا حادثتِهِ سوف أقتلك وأقتله.

في تلك الأثناء تكهرب الجو، وكانت أعيننا تنطق بما يجول في قلوبنا وظل نزار لا يرفع عينيه عني ويشرب كالمجنون حتى ثمل وزلت قدماه وسقط أمامي.. في تلك اللحظة تمنيت لو تنشق الأرض وتبتلعني وتريحني من هذا العذاب.. ضحك فيصل ورفاقه وباشروا بالاستهزاء، أحسست بدمائي تغلي في عروقي فحاولت إسكات فيصل ووقاحته بصراخ عنيف أدافع به عن نزار ليفاجأني فيصل بصفعة قوية أمام الجميع؛ ثار نزار واندفع كالمجنون نحو فيصل يريد الاقتصاص منه ودارت بينهما مشاجرة عنيفة، وعندما قام الحراس بتفريقهما بصقت في وجه فيصل وباشرت بالذهاب إلى نزار فأمسكني فيصل بقوة ليخيفني، ولكنني لم أهتم، لقد مضى زمن الخوف.

***

(6)
من فارسي؟

مضت الأيام بصعوبة لكن وجود نزار بقربي يجعلني أشعر بالأمان، شرعت في البحث عن أي عمل نقتات منه، فأمسك يومياً بالجرائد المكومة أمامي وأتصفح الإعلانات المبوبة وأبحث ولو عن أيّ أمل بسيط.

اكتشفت مع مرور الوقت أن العالم أصعب بكثير مما كنت أتصوره؛ إنه عالم مليء بالوحوش البشرية وهنا تذكرت فيصل، كم كان شهماً معي، يحميني من مفاجآت الأقدار.. إنني وبحق لم أعرف قيمة فيصل إلا بعد أن تركته وجربت الحياة من دون أمواله، لكنني كنت أكابر وأرفض الاعتراف بأفضاله عليّ، أجريت بعض المكالمات لأصحابي أطلب المساعدة في الحصول على أي عمل مهما كان متواضعاً لكنهم تجاهلوني تماماً أو تكرموا ببعض الأجوبة التافهة، وحتى إن بعضهم سخر مني ورثى لحالي.

في النهاية اضطررت للتنازل عن كبريائي والعمل كنادلة في أحد المطاعم الراقية. لم أهتم بكلام من حولي، كان أجري ضئيلاً للغاية، وكنت أستقل الحافلة للعودة إلى شقتي، فقد سحب فيصل السيارة مني في محاولة منه لتهديدي وتخويفي، مرت الأيام قاسية عليّ.. قاسية جداً.

اهتممت بنزار كثيراً، كنت أطهو له الطعام وأغسل ملابسه

وأنظف مسكنه، اعتبرت نفسي زوجته ومسؤولة عنه، وكانت والدته ترسل له المال من دون علم والده، رفضت كثيراً مساعدات نزار المالية، فأنا أحبه لشخصه وليس لماله.

كانت الأيام قاسية وما يزيدها قساوة هو تعرضي لسخرية فيصل الذي لم يتركني في حال سبيلي بل تعمد الذهاب إلى مكان عملي وافتعال المشاكل حتى فقدت أعصابي فسكبت عليه العصير ليتم فصلي من عملي، كان يتبعني كالمجنون ويرسل الجواسيس خلفي... وكلما سنحت لي الفرصة للحصول على عمل يقوم هو بإفسادها.

ضاقت بي الدنيا.. كنت أبكي ونزار يحاول أن يهدئ من روعي، كنت لا أجد المال حتى لشراء الطعام أو احتياجاتي كامرأة حتى قررت محادثة فيصل؛ بكيت له، توسلت إليه ليتركني في حال سبيلي ولكنه أجابني بغرور (أنا من صنعتك ومن حقي أن أحطمك متى شئت وكيفما أردت).

اكفهرت الدنيا في عيني، ففكرت في طريقة سهلة للحصول على المال ولم أجد إلا صديقات الجامعة وأقربهم إليّ... فاتن، فأمسكت بالهاتف وأدرت رقم هاتفها وتحدثت بصوتٍ مرتعش:

- ألو مرحبا فاتن كيف حالك؟

فأجابت متسائلة:

- الحمد لله بخير من يتحدث؟

- أنا (ابتلعت ريقي ثم أكملت) أنا ناهد.

فصاحت بفرح:

- أوووووه.. يا للروعة.. ما هذه المفاجأة الجميلة؟ أين أنتِ يا بنت؟ انقطعت عني منذ زمن.

- كنت مشغولة.

فقالت بفضول:

- وما هي آخر أخبارك مع فيصل؟؟!

صمتُ للحظات ثم قلت لها وأنا ألف خصلة من شعري على إصبعي:

- لقد افترقنا.

فضحكت بصوتٍ عالٍ ثم قالت:

- أخيراً اقتنعتِ أنه لا يصلح لك، لقد قلت لكِ ذلك ألف مرة، إن فيصل من النوع السيئ جداً لكنكِ عنيدة ولم تأخذي بنصيحتي على محمل الجد.

أخذت نفساً عميقاً وأطلقته وأنا أقول:

- لقد اكتفيت منه ومن إهاناته.

- جيد، إذن الآن من الممكن لنا أن نتقابل.

- نعم بالتأكيد.

- ما رأيك أن تحضري معي إلى حفلة أحد التجار الأجانب.

فأجبتها بتردد:

- حسناً ولم لا.

اتفقت معها على الذهاب إلى إحدى الحفلات التي اعتادت هي الذهاب إليها وأتت لاصطحابي في الوقت المحدد، فصعدت السيارة التي انطلقت بنا مسرعة... وبعد ترداد بعض أنواع التحيات قالت لي:

- لم تتغيري أبداً.

ابتسمت وأنا أقول:

- وأنتِ كذلك، وصمتُّ للحظات ثم أكملت: هل هي حفلة رقص فقط؟

ضحكت صاحبتي وقالت: ناهد أعقلي قليلاً، هل تتصورين أن يدفع هذا الميسور كل هذه المبالغ من أجل أن يرانا نرقص أمامه فقط!

فجحظت عيناي وأنا أقول:

- هل تقصدين أنه......؟

فأدارت رأسها تجاهي وهي تبتسم: ناهد لا تكوني طفلة، كلها ساعات قليلة، سنفرح ونستمتع ونحصل على المال الوفير.

فقلت لها بصوت حزين: ولكن.

قاطعتني قائلة وهي تركن السيارة: هيا لقد وصلنا وسحبتني معها.

كنت أقف مترددة وسط الظلام ودموع عيني تتحجر.. وفي قلبي غصة.. إنها أولى الخطوات نحو الضياع.. نحو درب مليء بالأشواك، ربما يكون حزني هو أكبر من أن أعبر عنه أو أن يستوعبه أحد.. ولكنني قررت.. ولا مجال أبداً للتراجع.. لقد استسلمت... فحالي مثل الغريق الذي يحاول النجاة ولكنه لا يهتدي ولو إلى قشة ليتمسك بها، وإثر المحاولات.. استسلم تماماً للبحر ليبتلعه.

شعرت بخطواتي تمضي ثقيلة.. رحت أحاول تصنع الابتسامة لكن عينيّ تفضحانني... كنت أرفع رأسي نحو السماء وأدعو على نفسي بالهلاك، الشيطان حاضر متمثل في صديقات يسحبنني نحو الضياع.. إنهن يجررني نحو المهالك... وأنا أسير خلفهم منحنية الرأس... أحاول أن أتكلم... أن أرفض... فأسكت وأبتلع قهري، فقد رفضني الكل... ولم يتقبلني أحد غير هؤلاء الشياطين.

يلوح لي وجه أحبتي يرجونني بعدم خذلانهم، ولكن يأسي وهمي أكبر، فحزني اليوم أكبر من كل شيء... أكبر من الدنيا وما فيها... أوسع من السماء... وأعمق من المحيط... في داخلي نار تحرق قلبي وألم يعصر روحي... أرى شبابي ومستقبلي يضيعان... أرى كل أحلامي تتبعثر وتذهب أدراج الرياح وليس لدي إلا الألم.

الدخان حولي يملأ المكان وأنا أجلس بينهم... أنظر إلى ما حولي فأرى فتيات يبعن أجسادهن في سبيل لقمة العيش... أجساد خلت منها الروح... يتصنعن الفرحة وهن يدفعن الثمن المر...

لم أظن يوماً أني سأكون في هذا الوسط... مثلهن يبعن شرفهن برخص التراب... آآآآه كم أحتقر نفسي وأنا أمسك السيجارة بيد

وكأس الشراب بيدي الأخرى... أحاول أن أنسى وأعيش بوهم أن هذا الوسط سينسيني لكني أراه يزيد همومي... أحتقر نفسي كثيراً... أتذكر ماضي... أتذكر براءتي... أتذكر معاناتي... أتذكر سخطي على كل بنت تبيع نفسها... وأتذكر كبريائي وشرفي وقوة شخصيتي في مراهقتي... أسمع صوتاً يخرج من أعماقي يناديني يريد مني أن أفيق من هذا الاندحار والانتحار.

نهضت فجأة وكأنّ أحدهم قد أيقظني... لملمت أشيائي واندفعت كالمجنونة نحو الباب... أمسكت بي فاتن من ذراعي وسألتني: إلى أين يا ناهد إن الحفلة لم تبدأ بعد؟

أجبتها بسخط: اتركيني فهذا المكان ليس مكاني... اتركيني لهمي وحزني... اتركيني...

أخذت تهزني وتنهرني: يا غبية كيف ستعيشين؟ من أين لك أن تدفعي أجرة الشقة؟؟

صرخت في وجهها: سأجدُ حلاً ولكن هذا لا.. لا.. أحاول أن أتخلص من يديها ودموعي الحارقة تجري وكأني لم أبكِ منذ سنوات وسنوات... تقدمت نحو الباب لأفاجأ بالشرطة في وجهي، فتلقي القبض على الكل... لحظتها ظننت أن كابوساً يقلق منامي... تم اقتيادي إلى قسم الشرطة، توقف عقلي عن التفكير كلية، جلست خلف القضبان الحديدية وأنا محطمة تماماً، رفضت التحدث أو إخبار أيّ كان عن مكاني حتى تفاجأت به أمامي.

وبصوته الحنون قال: ناهد حبيبتي.

بكيت وأنا اقترب منه بخطوات ثقيلة:

- فيصل صدقني.......

(قاطعني وهو يحيطني بذراعيه): اش اش أعلم يا ناهد أنكِ بريئة... أنا أثق بأنكِ أعقل من كل هذا... ومن المستحيل أن تبيعي

جسدك... لا أريدك أن تنطقي بكلمة... فالضابط المسؤول عن القضية صديقي، سوف أخلصك من هذه الورطة حالاً.

جلست أستمع إلى فيصل وهو يتحدث إلى الضابط ويخبره بعدم معرفتي أنها حفلة مشبوهة، وبمعرفته بمكان تواجدي وهو من سمح لي بالذهاب اعتقاداً مني أنها حفلة عيد ميلاد صديقتي. وبسبب عدم وجود الأدلة والإثباتات التي تدينني تم الإفراج عني وطبعاً بفضل فيصل وشهادته.

جلستُ بجانبه في السيارة أبكي.. لم ينظر إلي وكان يقود السيارة بسرعة كبيرة:

- ناهد هل تحتاجين إلى المال؟

تجاهلته ولم أقم بالإجابة:

- إذا كان ينقصك شيء أخبريني.

- لا.. لا أريد شيئاً.

- إذن لماذا عدتِ إلى مصاحبة فاتن من جديد، هل صديقك المدلل عاجز على الصرف عليك؟

- هو لا يعلم بما اقترفته.

- ناهد عزيزتي... ما رأيك أن تعودي إليّ ونبدأ من جديد وسأتكفل بكل مصاريفك شرط أن تتركي نزار.

- أمهلني بعض الوقت للتفكير.

***

كنت أجلس عند حافة النافذة أفكر طوال الليل؛ إنني كالعصفور الصغير الذي يوفر له صاحبه كل ما يريد حتى يستمتع بجماله وتغريده ويسجنه إلى أن يموت.. هذا هو حالي، يا ترى ما الذنب الذي اقترفته حتى تكون هذه نهايتي؟ لماذا لا أعيش حياة طبيعية؟ أختار العمل الذي أرغب به ويكون لي الحق في اختيار من يهواه قلبي.

أنظر إلى نزار الذي غلبه التعب فاستسلم للنوم، أقترب منه لأطبع قبلة على جبينه وأداعب شعره وأضع رأسي على صدره محاولة النوم.

وتهل عليّ الذكريات من كل جهة وتخنقني العبرات ويحاصرني صوت فيصل فيأتيني من يميني... يساري... أمامي... خلفي...

أأحبه إلى هذه الدرجة؟ لماذا التناقض في مشاعري والاختلاف في رأيي؟

احتار في إيجاد جواب لسؤالي... أأحبه حقاً أم أحبُّ ماله؟ أأحبُّ حنانه أم أحبّ مجوهراته؟

أأحبُّ شخصيته أم أحبّ أملاكه؟ أضع يدي على أذني محاولة عدم الاستماع إلى الصوت الذي ينبع من قلبي، إنني أحبه.

ألم أكن أرغب بنزار؟ ها أنا معه... لماذا أشتاق إلى فيصل إذن؟ لماذا يحن قلبي إليه وأطير معه إلى الخيال حيث أجده ينتظرني بشوق؟

ابتسمت وأنا أذكر مغامراتنا الجميلة، نعم لقد كان لنا الكثير من المواقف الطريفة على الرغم من قسوته وجبروته إلا إنني أجد لديه بعض الحب والحنان... إن فيصل بالنسبة لي شفاف، فأنا أرى ما بداخله وما خلف هذا المظهر الرجولي الصلب، القاسي، إنه عارٍ من غروره أمامي فقط.

- أعلم أنه لم يسبق لأي شخص اختراق هذا الباب والوصول إلى داخل هذا الإنسان الغامض، لكن لكل رجل ثغرات، والمرأة الذكية هي من تستطيع أن تملأ هذه الثغرات فقط.

لكل رجل لغة خاصة وأنا تمكنت من مخاطبة فيصل بلغته، هذا الطفل الكبير الشقي، أبحث دوماً عمّا يحبه قلبه وأتعلمه من أجله، لقد تعلمت أن أمارس معه ما يحب، فإذا كان يحب كرة القدم دربت نفسي على حبها وتعلمت مهاراتها فأشاركه في اللعب بالأجهزة الالكترونية.

وعندما يذهب فيصل للمشاركة في إحدى المباريات فإنني أرافقه

وأشجعه وأملأ المكان بهتافاتي فأجد في عينيه بريق الإعجاب والحب، وأراه قد تحول إلى لاعب ماهر يتفنن في أساليبه لينال إعجابي، أجعله يشعر أنه أهم رجل في الكون وبذلك أشبع غروره كرجل، إنني كنت أجعله يصدق أنه أهم شيء بالنسبة لي.

أبحث عمّا يحبه من الأطعمة وأعدها له في عش غرامنا، وأمضي الساعات في المطبخ وأنا أطهو له الطعام مبتسمة، فرحة لأنني سأسعده، فالرجل يفرح عندما يجد امرأته تعد له الطعام بيدها، وأنا كنت على علم أن فيصل سئم من تناول الطعام من أيدي العمال.

وكما يحدث بين العشاق تمر بنا فترات يحل فيها الصمت على علاقتنا فلا يوجد موضوع نتكلم فيه، لذلك كنتُ أختار كل أسبوع كتاباً أبتاع منه نسختين وأهدي نسخة إلى فيصل، وبعدها نتناقش في محتواه، فيبدي كل منا رأيه وبذلك نقطع السكون ويتلاشى الصمت الذي يحل بعلاقتنا.

طبعاً كنت أهتم بشكلي الخارجي كثيراً، فلون شعري وتسريحته تتغيران كل فترة حتى لون جسدي كنت أعمد إلى تغييره وأشارك في دورات لتعلم الرقص من أجله فقط، وأرهق نفسي بالتمارين الرياضية حتى أحافظ على رشاقتي.

أما من المواقف الجميلة التي كانت تجمعنا... أذكر يوم مرور العام الثاني على علاقتنا واستئجاره لإحدى العبارات الكبيرة وتزيينها بالأضواء والأزهار وإحضاره إحدى الفرق الموسيقية لتعزف لنا أجمل الألحان ومحاولاته الفاشلة للرقص معي على بعض المقطوعات؛ كان يوماً رائعاً لولا حضور أصحابه في النهاية وإفسادهم ليلتي الخاصة.

أما من المواقف الطريفة، ففي يوم من الأيام قرر فيصل وأصحابه الاتجاه إلى إحدى المناطق النائية للابتعاد عن المدينة وزحمة الحياة والأعمال الشاقة، وعند ابتعادنا عن المدينة ضل فيصل الطريق على الرغم من التوجيهات التي زوّدته بها، لكنه رفض

الإنصات لي وصمم أن يتبع غروره كرجل وأن يتبع إشاراته الخاطئة حتى وجدنا أنفسنا في منطقة نائية لا توجد فيها شبكة لاسلكية وقد حل الليل علينا فخشي فيصل أن يضل أكثر فأكثر فقرر النوم في العراء حتى يحل النهار فيجد الطريق، ورفض الإنصات إليّ فاستسلمتُ له ثم حاول جاهداً إشعال النار بطريقته الفاشلة وجلس على ركبتيه مديراً بجسده عني ومحاولاً إشعالها عن طريق حك الخشب ببعضه بعضاً.

فناديته: فيصل.

فأجابني وهو متجهم: ماذا تريدين الآن؟

- هل تحتاج إلى المساعدة؟

لا أعلم لماذا اغتاظ مني فأجابني سريعاً وهو يتجاهل النظر إلي: لا... لا أحتاج مساعدتك، أريدك أن تخرسي، فما تفعلينه يزيد من استيائي وعاد إلى محاولاته الفاشلة التي يحاول بها تقليد نجوم السينما في إشعال النار من دون أعواد ثقاب.

وبعد مرور أكثر من ساعة وفيصل يحاول بجهد، استسلم ورمى بالخشب بعيداً وقال بتذمر:

- إن الخشب لا يصلح لإشعال النار.

فاتجهت ناحية الخشب وأخرجتُ ولاعة من جيب البنطلون ثم أشعلت النار فصاح بي قائلاً: لماذا لم تخبريني بوجودها؟

فقلت له ببرود وأنا أنظر إليه: حاولت لكنك لم ترغب بالاستماع إلي.

وعاد التجهم ليستقر على وجهه.. جلست بالقرب منه على قطعة قماش فرشها فوق الرمال والحجارة الصغيرة المتناثرة وأنا أردد بسأم أنني كنتُ أفضل البقاء في المنزل على الخروج في هذه الرحلة الفاشلة، وكان فيصل صامتاً لا يتحدث حتى قال وقد لاحت على وجهه علامات الألم:

- ناهد، أنا لم أخرج في هذه الرحلة إلا من أجلك وحتى أقوم

بتسليتك، فأنتِ دوماً تتذمرين بسبب عدم اصطحابي لكِ إلى أماكن رائعة، وسكت للحظات. ففكرت بالموضوع بطريقة أخرى بأنّ ما حدث اليوم لا يدل على انعدام الحظ بل حدث لأنني محظوظة، فالآن يمكنني أن أحظى ببعض الوقت الخاص مع فيصل من دون أصحابه فقررت استغلال الوقت لأرفه عن نفسي وعن فيصل، وبالفعل استطعت إعادة الابتسامة إلى وجهه واحتضنني فيصل بلطف وحب وقد كان المكان خالياً وهادئاً يبعث على الرومنسية واستلقيت إلى جانبه وأسندت رأسي بذراعي وأنا أنظر إلى السماء:

- حبيبي أنظر إلى هذا المنظر الجميل، لكنه لم يحرك عينيه عن وجهي ثم ابتسم وهو يداعب وجنتي:

- أنتِ أجمل من هذا المنظر.

فضحكت بصوتٍ عالٍ وأنا أقول له: ومن علمك كلام الحب والرومنسية؟

فسحبني بقوة تجاهه وقال: أنا أستاذ في الحب، ثم شدني من خصلات شعري محاولاً تقبيلي وأنا أملأ المكان بصراخي.

فجأة تجمد الدم في ساقي ثم سرت فيها قشعريرة غريبة، وأحسست بحرارة تنبثق من ساقي فتأوهت قليلاً وأنا أدفع بفيصل... نظرت إلى ساقي أتفحصها فإذا بها حمراء اللون فصرخت بخوف وأنا أقول هناك شيء ما لدغني، وبحركة سريعة رفع فيصل قطعة القماش فوجد عقرباً كبيراً وملوناً يتخبط بين الحجارة فصرخ فيصل بذعر وهو يردد عقرب... عقرب... وأمسك بحجر كبير ورفعه بيديه فوق رأسه وأمضى يلاحقه محاولاً قتله، وفي الوقت نفسه الذي كنت أبكي فيه من شدة الألم كنت أضحك وأنا أرى منظر فيصل وهو يلاحق العقرب، وقد بدا على وجهه الخوف والفزع ثم هرول ناحية السيارة وعاد وهو يحمل زجاجة كحول، وسكب على الاحمرار الموجود على ساقي ما في جوف الزجاجة وأخذ يفكر بتوتر، واقترح أن يقوم بكيّ

ساقي معتبراً أنه العلاج المناسب والتقليدي، لكنني رفضت الخضوع لجنونه فقد سكب للتو زجاجة من الكحول، والآنسيقوم بكي ساقي، أيريد إحراقي هذا المجنون ثم فكر لدقائق ورفع ساقي وخلع حزام بنطلونه ثم عقده فوق مكان الاحمرار ووضع شفتيه مكان اللسعة وأخذ يمصها ثم يبصق مقلداً أبطال الأفلام وأنا أنظر إليه بتعجب وأبكي تارة ثم أضحك، وما هي إلا دقائق طويلة حتى أغمي على فيصل وأنا أنظر إليه بدهشة، فقد امتلأ فمه بالكحول وانهار من شدة الخوف فاضطررتُ لحمله إلى السيارة والانطلاق به إلى أقرب مستشفى.

لا يزال هذا الحدث يضحكني ولا تزال هذه الذكرى تسعدني، على الرغم من أنها تثير استياء فيصل الشديد.. ضحكت بصوت عال فأيقظت نزار الذي نظر إليّ وهو يتثاءب وقال: ما الذي يضحكك؟

وضعت أصابعي على فمي وقلت له: لا شيء.

ثم عدت للتفكير، يا ترى ما الذي حدث؟ وما الذي قتل حبنا؟ أبسبب حساسيتي الزائدة؟ أم بسبب حقارته المعتادة؟

ثم أخليت سبيل الشكوك لتهاجمني، هل من الممكن أن يحب فيصل أحداً سواي؟

هل من الممكن أن أدعه لتأخذه امرأة أخرى؟ هل أتنازل عن رجل استطاع إخضاعي وتملكي؟

رجل استطاع سلب قلبي مني؟ رجل أدركت معه معنى الحب؟

أغمضت عيني بقوة عندما طرأت على ذهني صورة فيصل وهو يقبل فتاة أخرى أو يحتضنها، يلعب بشعرها، ثم تراءت أمامي صورة الفتاة التي سبق لي مشاهدتها معه وكم كانت نظراتها تستفزني، أيحبها حقاً أم هي مجرد لعبة يتسلى بها أثناء غيابي؟

هل أتركه لها؟ هل أستسلم وأتنازل؟ وأمضيت الليل بأكمله أفكر وأفكر حتى تسلل ضوء النهار إلى داخل غرفتي.

***

(7)

من أنا؟

بين هذه الجدران التي تخنقني تمر في خاطري ذكريات الطفولة وتهبّ عليَّ بلطف لتحملني بشوق إلى طي الذكريات فأحن إلى منزلنا القابع في ضواحي مدينة زيورخ الباردة... الذي يشبه منزل الدمى؛ فالقرميد الأحمر يغطي سقفه وتتناثر عليه حبيبات الثلج الباردة، وطليت حيطانه باللون الأبيض وامتزج الجو برائحة الأشجار التي زرعت في الحديقة والمغطاة بالثلج. كان منزلنا يتكون من طابقين وست غرف كبيرة، أما البهو فهو مزيّن بالتحف وقد انتشرت اللوحات على حيطانه وقطع الأثاث الفخمة المنتقاة بعناية الموضوعة في أركانه فتضفي على منزلنا لمسة شاعرية، أما مكتب والدي فيحتوي على مكتبة كبيرة تضم كل أنواع الكتب، وأذكر صديقي الوفي تاقو الذي ينتمي إلى فصيلة كلاب الراعي الألماني حيث كنت أمضي النهار بأكمله برفقته نلعب سوياً، فهو حارسي وصديقي وعندما يسدل الليل ستاره يتسلل إلى غرفتي لينام على الأرض إلى جانب سريري.

عندما يحل المساء ألمح عربة والدي الحمراء قادمة من بعيد فأطلق قدمي للريح ويتبعني تاقو وهو ينبح، فيستقبلني والدي بابتسامة كبيرة وينتشلني إلى حجره ويطبع على وجنتي قبلاته، ثم يحملني إلى داخل المنزل فتستقبله والدتي بمتطلباتها وهو ينصت إليها مبتسماً، وتارة يقاطعها ثم يدس يده في جيبه ويسلمها بعض النقود.

أجلس على ركبتيه، أعبث في شعره العسلي الذي ورثته منه وأنظر إلى عينيه الشبيهتين بلون الزمرد؛ فجذور والدي تعود إلى أصل شركسي(*). بعد ذلك، يتوسّط والدي طاولة الطعام الذي يمضغه ببطء وهو يفحص ويقرأ وجوهنا وأنا مشدودة إليه، وأحياناً أزحف تحت الطاولة لأداعب قدميه فيسحبني بلطف وهو يقبلني بعينيه.

كنا عائلة متوسطة العدد، ولديّ أربع أخوات، الصغرى منهن تكبرني بعشر سنوات، نهى ونور ونوال ونرجس، كنا امبراطورية نون، نهى تبلغ من العمر أربعة وعشرين عاماً ممتلئة القوام شاحبة الوجه، تضع نظارة طبية، جادة الملامح وشخصيتها قوية أما شعرها فهو داكن اللون يصل إلى كتفيها، وعلى وجهها ترتسم ابتسامة جادة، أنفها دقيق وهي طالبة في كلية الطب وتم عقد قرانها على الدكتور أحمد الذي تلتهمه نظرات أمي فخراً وزهواً به، كما أنه يشابه أختي لدرجة مخيفة حتى في الملامح، لكنه ضعيف البنية وهو من الجاليات العربية المقيمة في العاصمة ومن أقارب والدتي، يزورنا غالباً برفقة عمو عصام الذي تربطنا به قرابة من جهة أمي.

أما أختي نور البالغة من العمر واحداً وعشرين عاماً فهي باهرة الجمال، تطمح أن تكون عارضة أزياء مشهورة حيث إنها سبق وأن شاركت في عدة عروض وإعلانات، تعاني من فقر الدم واعتادت أن تتقيّأ طعامها خوفاً من اكتساب بعض الوزن، شعرها عسلي اللون يمتد حتى يصل إلى كتفيها وعيناها بلون العسل وعلى خدها الأيمن غمازة حلوة، تدرس في إحدى الجامعات القريبة من منزلنا ولديها (بوي فرند)، يدعى خالد وهو طالب معها في الجامعة ذاتها؛ كان والدي يرحب به في منزلنا على الرغم من سحابة الضيق التي تكسو وجهه، أما والدتي فهي تعتبره مشروع زواج قيد الإنشاء.

---

(1) تركي.

ثم تتلوها أختي نوال البالغة من العمر تسعة عشر عاماً والتي ترغب بأن تكون مضيفة طيران لذلك التحقت بكلية المضيفات، تمتلك قواماً رائعاً، شعرها كستنائي اللون ترفعه دوماً عن وجهها ثم تعقده على شكل ذيل الحصان، عيناها واسعتان، أما لون بشرتها فهو بلون الحليب، جمالها هادئ ولقد نجحت والدتي في اصطياد أحد أقارب والدي ويدعى سامي وهو كابتن طائرة، وتم الاتفاق على تحديد موعد عقد القران.

ثم تليها نرجس البالغة من العمر سبعة عشر عاماً حنطية اللون، تشابه والدتي، قصيرة القامة، يبدو عليها الشحوب والإعياء، طالبة في المدرسة الثانوية وتحب أحد زملائها في المدرسة. ولقد أدركتُ ذلك عندما عثرت على صورته مخبّأة في كراستها المدرسية وبعض الرسائل التي وضعتها على مكتب والدي ليقرأها.

أما والدتي فهي امرأة جادة في حياتها، تهتم بمظهرها بشكل مبالغ به، لون شعرها داكن يقارب السواد، وهي حنطية اللون وتفتخر دوماً بعائلتها المرموقة ومنصب والدها الذي كان سفيراً لبلدها في يومٍ ما، وأتت معه وهي صغيرة، فجمعها القدر مع والدي في إحدى الجامعات ثم توجت علاقتهما بالزواج... والدتي ربة بيت ممتازة، فبيدها عجلة القيادة للمنزل وتستطيع السيطرة على الجميع بكلمة واحدة؛ كان والدي ينظر إليها بصمت ثم يرسم على وجهه الابتسامة البلهاء، ولكن على الرغم من ذلك فقد كانت تخشاه بسبب طباعه الحادة المتقلبة فتحاول إقناعه برأيها باستخدامها لأسلوب الدلال والإغراء.

أما بالنسبة لي فأنا كنت طالبة في إحدى المدارس الخاصة الإسلامية وكانت معلمتي امرأة كبيرة الثدي، مترهلة الجسد، ضخمة البنية وأنفها ضخم دهني وقد وشحت بالسواد، كانت دوماً تصرخ في وجوهنا ثم تهددنا بالنار وأن الله سوف يعاقبنا إذا لم نحسن التصرف،

وأذكر أنني كنت عندما أكذب أبكي خوفاً من الله، وأمضي الليل بأكمله أصلي. وذات مرة ضربتُ إحدى الفتيات فأخبرتني المدرسة أن الله سوف يرميني في النار.

وفي اليوم التالي لم أذهب إلى المدرسة اعتقاداً مني أن المعلمة ستسلمني إلى الله الذي سيرميني في النار، فاختبأت داخل فراشي أبكي، مما فرض على أمي أن تقوم بنقلي من المدرسة إلى مدرسة أخرى مختلطة.

أما عن علاقتي مع أخواتي فقد كنت شقية للغاية وعنيدة جداً مع الجميع، أحب الاستطلاع حيث أمضي اليوم بأكمله في بعثرة محتويات غرف أخواتي والتجوال بها مع كلبي تاقو.. أذكر أنني قرأتُ كتب الطب وعبثت بأدوات أختي نهى ولم أتوقف عن ذلك الحد بل إنني أفزعت الطلبة بالمدرسة بذكري لهم عن الهيكل العظمي الموجود في غرفتها، وزعمت أنها تصطاد الأطفال وتشرحهم وتقطع أوصالهم مما بعث الرعب في قلوب الأطفال المساكين.

طبعاً لم تسلم أختي نور مني، فأنا اعتدت وضع قدمي في أحذيتها العالية الكعب محاولة تقليدها واللعب بأدوات الزينة حتى أفسدها وأعبث بقوارير العطور وأحطمها، ثم أسرق مجلات الأزياء التي تعرض النساء العاريات وأحملها معي إلى المدرسة لأبيعها لزملائي.

عندما شاهدتُ أختي نوال بملابس المضيفة بكيت وأردت أن أكون أنا الأخرى مثلها، وانتهزت والدتي الفرصة فدربتني على أساليب الضيافة وكيف أخدم زوار منزلنا وسرعان ما سئمت من ذلك.

في يوم من الأيام وأثناء نومي مع أختي نرجس في غرفتها التصقت بها بعفوية فسرت قشعريرة في جسدي بسبب برودة بشرتها.. رفعت رأسي الصغير أنظر إليها، حينها لاحظتُ شحوب لونها وازرقاق شفتيها وعينيها المعلقتين بالسقف وفيهما نظرةُ فراغ.

حاولت إخبار والدتي لكنها كانت مشغولة وفي طريقها إلى الخارج، ولم أستطع أن أحدث أياً كان من أفراد المنزل، فجلست بالقرب منها أتأمل ملامحها وهي نائمة، أو مثلما كنت أعتقد ولم يكتشف أحد جثتها إلا في المساء عندما وجدتني خادمة المنزل جالسة إلى جانبها.

شكل رحيل أختي صدمة كبيرة على منزلنا الهادئ، وامتلأ منزلنا بالضيوف ودموع أمي التي تنهمر بلا توقف تجعلني أبكي لاشعورياً، أدركت فيما بعد أن أختي ماتت منتحرة بجرعة زائدة من الأدوية، وأنها كانت حاملاً في الشهر الثالث.

عندما ازداد البكاء والعويل وطرقت على مسامعي صرخات والدي الموجهة إلى والدتي هربت من المنزل ثم عثر عليّ فيما بعد بالقرب من ملعب المدرسة.. لم تكن هذه المرة الأولى التي أهرب فيها، فقد اعتادت أمي على هروبي من المنزل ما أن تتشاجر مع والدي.

وساد على منزلنا بعد هذه الحادثة صمت رهيب، ومرت الشهور ووالدتي تتجنب الحديث مع والدي الذي أصبح عصبياً إلى درجة لا تطاق وطلي الجو بألوان من الكآبة، أما أخواتي فقد حملن غصة دامعة في قلوبهن.

لقد نهضتُ ذات ليلة على صراخ والدي ثم تلته صرخات والدتي الحادة فهبطت من الطابق العلوي وجلست على الدرج أنصت لبعض الكلمات والشتائم حتى ساد الصمت وخرج والدي مندفعاً إلى الخارج، فتبعته وأنا أناديه،وعندما انطلق بسيارته هرولت خلفه باكية ثم ابتلعت الطرقات سيارته واختفى عن أنظاري، فازداد بكائي، فهربت إلى إحدى الحدائق العامة ونمت تحت شجرة كبيرة، ثم، شعرت بعدها بيدٍ دافئة تتحسسني ففتحت عيني فإذا برجل مرعب

الهيئة، فدوت صرخاتي في المكان فأمسكني بقوة، وبعد عدة محاولات استطعت الإفلات منه، عدتُ إلى منزلنا وأنا أبكي واستقبلتني والدتي بالدموع ثم عاتبتني فيما بعد على فعلتي.

لم يعد والدي إلى المنزل بعدها أبداً، على الرغم من انتظاري له كل يوم في الحديقة، لكنه كان يخذلني دوماً فأعود إلى غرفتي ووجهي مبلل بالدموع ولا أقوى على مصارحة أحد بما يكمن في جوفي. لقد كنت طفلة لا أتجاوز الثامنة من العمر وأتوق شوقاً لإيجاد جواب لسؤالي الكبير الذي يستقر في ذهني ألا وهو لماذا هجرني والدي؟ هل هو غاضب مني بسبب الرسالة التي وضعتها في مكتبه؟ هل ماتت أختي بسببي؟ هل أنا السبب في ما حدث لمنزلنا من دمار وحزن؟

وصلتني أخبار تنبئني بطلاقه من والدتي وزاوجه من إحدى الشابات، تشتت عائلتنا، فأختي نهى تزوجت وانتقلت مع زوجها، ونور انتقلت إلى المدينة برفقة خالد، ونوال التحقت بإحدى شركات الطيران وأمضت تجوب العالم.

ترك رحيل والدي بعض الآثار العميقة على قلبي، فأنا المدللة لديه، أخذت منه كل طباعه الحادة، كنت أرفض أن يفرض أي شخص رأيه أو يتحكم بحياتي، وفي الجانب الآخر عندما أرى دموع والدتي وضعفها بسبب والدي الذي تركها من أجل شابة بعمر بناته أكابر وأدعي النسيان، لكنني كنت أشتاق إليه ويكفي أن أنظر إلى نفسي في المرآة فأرى الشبه بيني وبينه، لكنني رفضت التنازل عن كبريائي والاتصال به، ثم أغمض عيني لأقطع عهداً على نفسي ألا وهو أنني لن أضع قلبي في مثلِ هذا الموقف مهما يكن الأمر.

عندما بلغت سن الرابعة عشرة اكتملت أنوثتي فلم أعد طفلة، فجسدي أمضى كجسد امرأة في العشرينيات من العمر، على الرغم من ملامح البراءة التي تكسو وجهي وطريقتي الطفولية في رفع شعري إلى الأعلى وتركه مربوطاً إلى الخلف منسدلاً حتى أسفل ظهري.

كنت من أجمل الفتيات في المدرسة، وأفتخر بجذوري العربية وأتشاجر مع التلاميذ الكارهين لعقيدتي، ودوماً كنت أخوض معهم مناقشات حامية متناسية أنني أنثى.

آه كم كنت أمقت الدراسة، ولي اعتقادي الخاص وهو أن كل العظماء لم يكملوا دراستهم، وأن الدراسة تفسد العقل؛ فنحن نتعلم أشياء لا تفيدنا في حياتنا الخارجية، لكنني على الرغم من إهمالي للدراسة إلا أنني كنت عبقرية، فأنا أتفنن بابتكار خطط الهروب من المدرسة وأتجول في الشوارع والطرقات وأكتشف المجهول، حتى إنني ذات مرة جمعتُ بعض المال ثم استقليتُ القطار إلى العاصمة ومكثت ليلة بأكملها خارج المنزل، وعندما عدتُ وجدتُ أن والدتي أبلغت الشرطة عن اختفائي وأن الجميع كان يبحث عني، وتمت معاقبتي من قبلها بقطع المصروف عنّي لمدة شهرين متتاليين لكن هذا العقاب لم يوقف تمردي فبحثت عن عمل أمارسه بعد المدرسة ويضمن لي استقلاليتي، وبالفعل عثرت على عمل كسكرتيرة في أحد المكاتب، وبذلك حققت استقلاليتي ولم أعد أحتاج إلى أيّ كان.

كانت معلمة الرياضيات أقرب الناس إليّ وتحب معاقبتي على سلوكي بطريقتها الخاصة، فتجبرني على الاشتراك في المسابقات العلمية التي تمتلىء بالمشاركين غير الشعبيين... وبعد مضي اليوم الدراسي أرافقها سيراً على الأقدام إلى منزلها القريب من المدرسة؛ إنني أحبها لأنها تحترمني وتحترم أفكاري ولا تعتبرني مثل والدتي طفلة طائشة، لذلك كنت أطيعها وألبي طلباتها بحب وإخلاص.

لقد كانت هذه المُدرسة هي مثلي الأعلى، فبعد زواجها من أحد الرجال اليهود ومخالفتها لعائلتها والهرب معه إلى سويسرا، تلقت تضحيتها بجحود ونكران للمعروف وقام زوجها بخيانتها وطردها من مسكنها لكنها لم تيأس وتعود إلى عائلتها محطمة بل انتشلت ذاتها من

الحضيض، وأحبت نفسها فأحبتها، وبعد صراع مرير استطاعت أخيراً الحصول على إحدى الوظائف.

كانت مدرستي دوماً تنصحني بعدم الاستسلام للظروف التي لا تصنعنا بل نحن من نصنعها، ومهما كانت المشاكل التي تواجهنا معقدة فنحن قادرون على حلها وفكها.

كانت الأنشطة المدرسية تتهافت عليّ حيث إنني رئيسة فرقة المشجعات ورياضية بارعة ومذيعة في محطة المدرسة، ولقد شاركت في مسابقة ملكة جمال المنطقة وحصلت على مركز الوصيفة الأولى، لكنني سرعان ما كنت أسأم وأنتقل إلى نشاط آخر؛ كنت كالفراشة لا أتوقف عند زهرة واحدة.

ما إن كبرت حتى ازداد تمردي وسكنني الشعور بغضب عامر تجاه الحياة، فتنتابني النوبة وتطرحني في الفراش لأيام وخافت والدتي على صحتي فاضطرّت لأن تترك الحبل على الغارب حتى لا تتسبب بإغضابي. أمسيت لا أكن أي احترام لأي مخلوق، سواء أكانت والدتي أو مدرساتي أو أي شخص، وأفرض رأيي بعنف حتى لو اضطررت لضرب من حولي كي يخضعوا لي، وأجرب المحرمات، فكل أمر ممنوع كان مرغوباً... ازدادت الهمسات حول سلوكي بين أقاربنا، عن حياتي، ملابسي شبه العارية، خروجي مع الشباب وحريتي ونضج جسدي قبل أوانه، كنت امرأة صغيرة وبررت تصرفاتي بأنها نتيجة للمجتمع الأوروبي الذي ولدت وترعرعت فيه، فاكتسبت المجون، الحرية، الصداقة المباحة بين الرجل والمرأة وإباحة المحرمات وضرورة وجود (بوي فرند) في حياتي والمساواة بين المرأة والرجل.

وأذكر ما كانت أمي تردّده في حديثها بأنها لا تحتاج إلى أي رجل، لأنني أنا رجلها فتوليت شؤون المنزل بعد مغادرة أخواتي

الواحدة تلو الأخرى إلى سجنهن الذهبي كما كنت أدعوه، وفي تصوري أنهن كن يتصنعن الفرحة والسعادة.. كنت أتساءل أين أحلامهن؟؟ أين طموحهن؟

فبرأيي هذه تعاسة وليست بالسعادة في أن ترضى الواحدة منا بالانزواء في إطار الزواج وإجهاض مستقبلها العملي وإنجاب الأطفال، وأن يكنّ خادمات لرجل يخونهن ويذلهن.. كنت أستمع إلى أختي الكبرى تبكي بسبب صفعات زوجها وقساوته ومواساة أمي الدائمة لها: إصبري عليه من أجل أولادك، والثانية تبكي بسبب خيانته.. والثالثة تبكي بسبب بخله وأمي تردد النصائح ذاتها دوماً.

هذا هو الرجل الشرقي الذي يعتقد أن رجولته لا تكتمل إلا على زوجته الضعيفة أو ملاحقته للنساء أو لهثه وراء المال، من دون التضحية وإحقاق الحق من أجل زوجته وأبنائه والمحافظة على عش الزوجية. ولكن كان يجب على الزوجة أن تضحي وتدفن نفسها وحياتها من أجل سعادة زوجها وإرضاء غروره، هذا هو حال الزواج في عالمنا العربي حتى لو عشنا في الغرب.

إنني لا أزال أتساءل كيف هانت العشرة على والدي ليترك أمي بعد أكثر من عشرين سنة من الحبّ ويتزوج من فتاة في عمر بناته تعرف عليها منذ عدة أشهر؟ أين توارى هذا الحب؟! ولِمَ، وهل أصبحت العشرة مثل المناديل الورقية ترمى بعد الاستعمال؟ كرهت والدي واحتقرته ورأيت كل الرجال خونة.

حاولت أمي جاهدة إيجاد زوج لي يجعلني أترك هذه التصرفات الصبيانية وأمضي اكثر اتزاناً، لكنني كنت أحرجها وأذكرها بأنني رجلها فكيف لي أن أتركها وأتزوج؟ وعندما يتقدم أي شاب عربي لخطبتي كنت أشرح له حبي للمساواة، فإذا أراد هو الخروج والدخول كما يحلو له وأن يعيش حياته بالطول والعرض يجب عليه أن يتركني في المقابل أتصرف كما يحلو لي.

ابيضّ شعرُ أمي بسببي لكنها لم تكن تفهم ما كنت أقصده، كنت أريد إيجاد الشخص الذي يتقبلني كما أنا ويوافق على أفكاري الغريبة ويحبني أكثر مما أحبه، كنت مراهقة عنيدة أظن أن الحياة تدور كلها حول الحب، ولا شيء غير الحب.

حادثتُ مئات الشباب لكنني لم أقتنع بشخصياتهم، فما أبحثُ عنه شيئاً مميزاً، ومع مرور الوقت أكثرت من السهر والحفلات الماجنة وأهملت دراستي حتى كدت أن أفصل من الجامعة.. ربما تتساءلون من الذي أفسدني وجعلني بهذا السوء؟ في الحقيقة أنا من أفسدت نفسي بنفسي.. وأنا من سعيت لهذه الهاوية، علمتُ نفسي التدخين وأدمنت الكحول حتى إنني ذات مرة دخنت قطعة من الحشيش ولم أبالِ بما فعلته.

بحثت عن المساواة مع الرجل لكن بسبب صغر سني وطيشي وعدم وجود رقابة على تصرفاتي استوعبت الحرية بمفهوم خاطئ، وادعيت بأن أفعالي السيئة هي بمثابة التمرد على المجتمع الذكوري الذي يجعل الرجل يعيش كالملك والمرأة ترعاه تحت قدميه كالجارية.

بعدها سئمت من حالي فدفنت نفسي في الكتب، وحاولت أن أغير من نفسي بالتخفيف من ارتدائي للملابس الفاضحة في الأماكن العامة وترك السيجارة من يدي أمام الكل وإظهار اللامبالاة بكلام الناس، حيث لا أسهر إلا في نهاية الأسبوع وأمضي المزيد من الوقت في قراءة الكتب، وكل كتاب يجعلني أمر بمرحلة معينة، فتارة تجدني أصبحت الشيخة ناهد بسبب الكتب الدينية وتارة أصبح الشيف ناهد وتارة أكون الدكتورة النفسية ناهد وأحاول تحليل أصحابي وإبداء النصائح حتى أتت المصيبة وقرأت بعض الكتب السياسية التي أثرت في دماغي بشكل واضح فوجدت نفسي أقود تظاهرة صاخبة أطالب بحقوق النساء المحجبات على الرغم من أنني لم أكن محجبة. في البداية قذفتُ البيض على إحدى الكنائس ولا أعلم كيف خطرت ببالي

فكرة جمع عدد هائل من الإطارات أمام الكنيسة ثم إشعال النار فيها؛ تم اقتيادي إلى السجن وإجباري على كتابة إفادة أتعهد فيها خطّياً عدم معاودة القيام بأعمال الشغب مرة أخرى، مزقت أمي ملابسها وبكت على أفعالي، كانت تنوح وتشكوني لضباط الشرطة وتقول: لا أعرف ماذا أفعل بها؟

بعدها عدت إلى حياتي السابقة حتى تعرفت على فيصل، وأعترف أنه الوحيد الذي استطاع تغيير حياتي والاستيلاء على قلبي، والوحيد من بين كل الرجال الذي استطاع امتلاكي وإخضاعي له بمنتهى السهولة، وكثيراً ما جعلني أشعر بأنني نسخة طبق الأصل من أمي، أشبهها في ضعفها واستسلامها، فأتضايق بكل ما في الكلمة من معنى وأبحث عن شخصيتي الداخلية المتأصلة، أبحث عنها في صوري القديمة وفي مذكراتي علّي أهتدي إلى الخيط الذي يوصلني إليها، إلى شخصيتي التي فقدتها وضاعت مني ولم أحس بفقدانها إلى الآن.. كنت أبحث عنها لأستمد منها قوتي واليوم أتساءل: أين ذهبت قوتي وجبروتي وأفكاري وطموحي وكبريائي؟ لا شك أنها موجودة ولكنها ضبابية الملامح، وما أن ينقشع الضباب سوف أراها تنجلي بوضوح.

***

(8)
الاختيار

أعادني صوتُ شادي الكوافير اللبناني المتشبه بالنساء إلى عالم الواقع، نظرتُ إلى الساعة فذعرت عندما اكتشفت أنني أمضيت ثلاث ساعات في صالون التجميل، عدتُ إلى سيارتي وأدرت محرك الذكريات فعدت إلى الماضي مرة أخرى.

قرر نزار السفر إلى مسقط رأسه بعد إصرار عنيف مني؛ فالعيد قادم وهو فرصة للتسامح والتواصل مع عائلته. ولعودة المياه إلى مجاريها، سافر مكروهاً، فقد رغبت بسفره حتى أتمكن من العودة إلى فيصل.

على الطرف الآخر تغير فيصل كثيراً، ولاحظت تحسناً ملحوظاً فيَ أسلوب حديثه وتصرفاته، فأصبح يمضي وقتاً طويلاً معي ويأخذ برأيي ويراعي مشاعري ويستوعبني ويتفهمني كامرأة وليس كما كان كالصراف الآلي الذي يدر عليَّ بالمال، ولم يعد يبحث عن زوجة المستقبل أو يبرر خياناته بهذا الهراء.

في ذلك الوقت أعدت مراجعة حساباتي فأصبحت حائرة بين رجلين أحدهما يمتلك كل شيء ويمتلك قلبي والآخر يمتلك عقلي وطموحي وأحلامي، إنني حائرة بين فيصل ونزار، ففيصل رجل بكل ما في الكلمة من معنى يهابه الجميع، بنى نفسه بنفسه، عندما يتحدث يسكت الجميع وعندما يقف يقف الجميع، رجل يفرض احترامه على

الكل، وسيم إلى أبعد الحدود عندما تراه تظنه نجماً سينمائياً، عمره الآن يناهز الثلاثين عاماً، ثري وكريم معي إلى أبعد الحدود، كنت أتباهى به في البداية أمام صديقاتي وأفرح عندما ألمح نظرات الحسد وهن ينظرن إلى هداياه.

أتذكر الموقف الذي جمعنا لأول مرة، كان في زيارة إلى مسقط رأسي لحضور اجتماع عمل، حينها كنت صغيرة، شقية، وعنيدة بصورة لافتة، صادفته في المطعم الذي اعتدت الجلوس فيه يومياً، كنت أسبب الفوضى بسبب ضحكاتي وشقاوتي وأتحدث بصوتٍ عال، حتى اقترب مني مدير المطعم يرجوني إخفاض صوتي بسبب تقدم أحدهم بشكوى ضدي.. استفسرت عن هذا الشخص فأشار إلى فيصل الجالس كالزعيم وينظر إلي بنظرات احتقار، وأثناء خروجي من المطعم تعمدت الاصطدام بالنادل حتى يسقط كل ما يحمله على رأس فيصل، وضحكت باستهزاء وأنا أطلق ساقي للريح.

بعد مرور عدة أيام كنت في حانة (سي فلا) الواقعة في وسط المدينة وقد سلمت جسدي للإيقاع كي يحركه كيفما يشاء ودوت ضحكاتي في المكان. أرهقتُ نفسي من الرقص مع أصحابي فتارة أرقص مع بول ثم مايكل أو إدوارد، داعبني شعور أن هناك من يلتهمني بالنظرات، وكنت خبيرة في اصطياد نظرات المعجبين أو الفضوليين. وما إن أدرت رأسي حتى تصادمت نظراتنا، ابتسمت له فلم يبادلني الابتسام فضحكت باستهزاء، فجأة اقترب مني أحد أصحابه وألقى عليّ التحية، مددت يدي إليه فقبلها، كنت حينها أكثرت من الكحول فأشرت بإصبعي إلى صاحبه المغرور وقلت له بأنه حقير، وما أن تحدثت حتى صاح قائلاً: أووه إنك عربية.

دعاني صاحبه للجلوس معهم ثم مددت يدي أصافحهم قائلة بالإنكليزية (اسمي ناهد) صافحني وضغط على يدي بقوة وكأنه يتحداني ثم صاح صاحبه بصوت عال بسبب الموسيقى (إنها عربية)

ففغر أحدهم فاه ونطق قائلاً: عربية!، إن ملامحك أجنبيه ولم تراودنا الشكوك ولو للحظه أنك عربية.

فابتسمت بتعالٍ، كانت هذه المرة الأولى التي أقابل فيها أحمد، ولم أكن أعلم في ذلك الوقت أنه يعمل لحساب فيصل. وفي نهاية السهرة قمت بدعوتهم لحضور حفلة يقيمها أحد أصحابي ثم تبادلت معه أطراف الحديث ونجحت محاولاتي في إشراكه بالرقص، وضحكت كثيراً على أسلوبه الفاشل في ذلك وواعدته على زيارته في موطنه.

اعتدت دوماً التعالي على الشباب فتجاهلته وتجاهلت مكالمته حتى صاحت بي أختي نور قائلة:

- أجننتِ، إن سويسرا لا يزورها إلا العرب الأثرياء جداً، إنه كنزٌ ثمين.

مع مضي الوقت أصبح يتردد على موطني أسبوعياً على الرغم من فارق المسافة بين بلدينا واصطحبته إلى منزلنا حتى أعرفه على عائلتي وبهرت والدتي به وأمطرت عليّ وابلاً من النصائح وأجبرتني على محادثته باعتباره (عريس لقطة)، ولكن ذلك لم يثنني عن تجاهله، واستخدمت معه أسلوبي المعتاد ألا وهو أن أجعل الشاب (يمرمط نفسه) تحت قدمي ويبكي توسلاً لي قبل أن أفكر في موضوعه، وبالفعل كنت لا أحادث فيصل إلا بعد أن يتوسل إليّ بالرسائل النصية بضرورة محادثته ولو لثوانٍ معدودة.

بعد فترة، عرض عليّ زيارة موطنه، في بادئ الأمر لم يجذبني الموضوع ولكنني سرعان ما غيرت رأيي واشتقت لزيارة هذه البلاد العربية التي تنتمي جذوري إليها.

قررت مفاجأته، حزمت حقائبي وانطلقت مع زميلاتي لخوض المغامرة، ما إن هبطت بنا الطائرة حتى هاتفته فصعق من هول المفاجأة، ثم أصر أن يقوم بواجب الضيافة، فقام بحجز جناح بأكمله

لي ولصاحباتي في أرقى فندق، ثم أرسل مساعده لينزهنا في الصباح. في ذلك الحين اكتشفت أن أحمد مجرد عامل لديه، وما أن ينتهي من عمله حتى يهرول إلينا مسرعاً فيدعونا إلى أرقى الأماكن السياحية ويجوب بنا الأسواق، وعندما يحل الليل يصطحبنا إلى المراقص ويكتفي بمشاهدة جنوننا الذي أحضرناه معنا من أوروبا.

استأذنتني إحدى زميلاتي باللغة الفرنسية حتى لا يدرك فيصل ما نتفوه به بأنها ترغب به فرددت عليها باللغة نفسها (بإمكانك الحصول عليه) فازدادت ابتسامته اتساعاً وحادثني بالعربية حتى لا تستوعب زميلتي ما يقوله:

- إنني أعلمُ ما أريد من نظرة واحدة ثم أرسم الخطط التي تقودني إلى امتلاكه.

فتورد وجهي خجلاً، فأنا لم أتوقع أن فيصل يجيد الفرنسية، فقد سبق وأن شتمناه وسخرنا منه بالفرنسية.

كان فيصل يحب أن يلعب معي لعبة العناد والتحدي ويتفنن باستخدام أسلحته.. عندما قررنا الرجوع إلى موطننا فاجأني بهدية عبارة عن ساعة يقدر ثمنها بآلاف الدولارات.

وتتالت زيارات فيصل إلينا، فقررت اصطحابه معي في رحلة إلى مدينة (انترلاكن) واتفقت مع أصحابي، فأتى بول برفقة صديقته جانيت وأخيه جورج، وأتت ماري مع أختها أندي ولحقنا عمار وهو عربي الأصل من جهة والده وبصحبته مايكل وإدوارد.

قررنا الذهاب بالسيارة بدلاً من القطار حتى نستمتع بالمناظر الطبيعية، وتم توزيعنا على السيارات، فأنا وفيصل وماري وأندي في السيارة ذاتها، وتركت فيصل يقودها،وكان جورج يقود السيارة التي تحمل بول وصديقته جانيت ثم تبعنا مايكل وهو يقود السيارة التي تحمل عماراً وإدوارد.

وانطلقت سياراتنا في الطريق، وكنا نتسابق معاً بطريقة مرحة إلا

أن فيصل أخذ الموضوع بجدية وانطلق يتسابق مع مايكل وكاد أن يتسبب بقتلنا بسبب قيادتة المتهورة،وتركه مايكل يفوز بعد أن خشي علينا من جنونه وعناده.

كانت كل اللافتات قد كتبت باللغة الألمانية، فكاد فيصل أن يضل بنا بسبب عناده وإصراره على اكتشاف الطريق لوحده؛ وما إن شارفت بحيرة (ثون) على الظهور حتى انطلقت صيحات الإعجاب بهذه الطبيعة التي أبدع الخالق في خلقها وحادثنا بول عن طريق اللاسلكي برغبته في التوقف قليلاً بالقرب من البحيرة، ولكن فيصل كالمعتاد تزعم الشلة واحتج على هذا القرار مبرراً احتجاجه بعدم رغبته بتضييع الوقت، وأن هناك الكثير من المناظر الجميلة التي تستحق المشاهدة، لكننا لم نعر أي اهتمام لاحتجاجه، وما أن توقفت المركبات بنا حتى تركنا أقدامنا تسابق الريح وسط ضحكاتنا.

أما فيصل فرفض النزول من السيارة وقبع فيها وهو متجهم الوجه، كان الماء بارداً للغاية فرفضت النزول إلى الماء فحملني مايكل مهدداً برميي في البحيرة، مما أثار غيرة فيصل الذي أتى مسرعاً إليّ وعاتبني باللغة العربية فصاح به إدوارد وهو يضحك وقال: أرجوكم تحدثوا بلغة نفهمها.

أجابه فيصل بالإنكليزية وهو يتحدى مايكل: من الأفضل لك عدم لمس حبيبتي، فازدادت ضحكات الرفاق وتظاهر مايكل أنه يحاول تقبيلي، وعندما وقعت عيني على فيصل ارتجف جسدي رعباً بسبب الغضب العارم الذي احتل ملامحه ووثب على مايكل وأحكم قبضته على عنقه فأسرع الشباب محاولين إنهاء الشجار قبل أن يتفاقم، وعندما تم تفريقهم ضحك مايكل باستهزاء وهو يلمس عنقه وقال: عرب.

خيم جو غريب من الضيق على رفاقي بسبب تصرف فيصل، وخجلت أنا من تصرفه الهمجي، وما أن وصلنا إلى المدينة حتى عاد

فيصل إلى عناده ورفض المكوث في الفندق الذي اختاره الرفاق، فمستواه ثلاثة نجوم فاحتج فيصل متذرعاً بعدم إمكانيته الإقامة في فندق دون المستوى، وما أن نطقها حتى خجلت من تصرفاته واكتست وجوه رفاقي بملامح الحزن بسبب إهانته لهم، فحادثته بالعربية بلهجة حادة أعاتبه على أسلوبه القاسي.

قال لي: يمكنك الإقامة معهم إن شئتِ لكنني سوف أذهب للإقامة في فندق آخر.

وعندما رأى الصمت الرهيب الذي حل عليّ وتبادلي للنظرات مع رفاقي حتى قلل من حدة لهجته وقدم لأصحابي دعوة للإقامة في الفندق معه على نفقته الخاصة، فقاطعته ماري وفي عينيها نظرة احتقار قائلة: إن مكان الإقامة لا يهم ولكن ما يهمنا هو وجودنا معاً في المكان ذاته.

فحاولت أندي تلطيف الجو وصاحت قائلة: هيا لا تفسدوا النزهة، لنستمتع بإجازتنا.

اضطر فيصل للتنازل والمكوث معنا في الفندق ذاته، وتقاسم عمار ومايكل وإدوارد وجورج بعض الغرف وتمّت دعوة فيصل للمكوث معهم لكنه اختار السكن في أفخم وأغلى جناح في الفندق، وعرض عليّ الإقامة معه لكنني رفضت ومكثت مع أندي وماري في الغرفة ذاتها.

كان موقع الفندق رائعاً، يقع أمام (الجبل الأخضر) المشهور في المنطقة، ويطل على النهر مباشرة ويبعد عن المدينة بحوالى خمسمائة متر، وفضلنا السير على أقدامنا حتى نصل إلى المدينة لنتمتع بالمناظر الرائعة ونتجول بين السهول الخضراء.

تم تحديد الأماكن التي نرغب بالذهاب إليها، فتسوّقنا في (ميجروس كوب) وتنزهنا في حديقة الألب الواقعة على سفوح الجبل وعبرنا الأنفاق التي تخترقه، حيث أبهرنا النفق الثلجي بما فيه من

منحوتات رائعة نحتت بالجليد، ثم استأجرنا أحد الأكواخ وأمضينا يوماً بأكمله في التزحلق على الثلج.

أثناء تناولنا العشاء في أحد المطاعم اتفق مايكل مع النادل خلسة أن يختار فيصل للعزف على الناي؛ ومن العادات والتقاليد لتلك المنطقة أنه من يقع عليه الاختيار يجبر على العزف على الناي البالغ طوله متران، وضحكنا كثيراً عندما شاهدنا محاولات فيصل للعزف وكيف أحمر وجهه وتصبب عرقاً وهو يحاول بعناد العزف عليه ولم ييأس حتى أصدر صوتاً مزعجاً من الناي فكف بعدها عن المحاولة.

قرر رفاقنا إكمال الرحلة والاتجاه إلى مدينه الجاز، لكن فيصل قرر الرجوع بسبب اضطراره للعودة إلى موطنه فأوصلناه إلى القطار ثم تنفسنا الصعداء عندما رحل عنا، وأقسمت بعدها عدم اصطحابه إلى رحلة أخرى مع رفاقي.

ثم توالت زياراته واصطحبته إلى الكثير من الأماكن السياحية وأصرّ أن أسافر معه إلى فرنسا فوافقت على طلبه مجاملة له.

كان فيصل يجلب إلى والدتي العديد من الهدايا عند قدومه إلى موطننا، واستطاع اكتساب رضاها وودها، ولم يتوقف الأمر عند ذلك فعيّن نفسه مسؤولاً عنا وجدد أثاث المنزل، وابتاع بعض الأشياء الناقصة وكان يسلم أمي مبلغاً من المال ويبرر فعلته على أنه خطيبي ويجب عليه الإنفاق عليّ.

كنت في السنة الجامعية الثالثة عندما أتممت عامي الأول على علاقتي معه، فحادثني برغبته بانتقالي إلى موطنه ووعدني باستلام زمام كل أموري وتنفيذ كل رغباتي، وأن أكمل دراستي في الجامعة، وبرر موقفه بحجة عدم قدرته على ترك عمله وزيارتي كلما أشتاق إلي، ورغبته أن أكون بالقرب منه، فداعبني شعور حب المغامرة، وطرأ على ذاكرتي الهواء الدافئ الذي تشتهر به الدول العربية، فقد سئمت من الجو البارد.

لكن والدتي رفضت رحيلي معه من دون زواج فسلمها فيصل مبلغاً كبيراً من المال كمهرٍ لي، ووعدها أن يتزوجني ما أن يقنع عائلته بي، وسوف يعود قريباً لخطبتي رسمياً.

فوافقت والدتي على مضض وسافرت معه على الرغم من احتجاج أصحابي، وخضتُ في المجهول بحثاً عن الحب وتناسيت أنني قد بعت قلبي وجسدي له ما أن سلم والدتي مبلغ شرائي.

***

في البداية وحتى أطمئن له استأجر لي شقة باسمي كانت تطل على منظر رائع وبهرتني أضواء المدينة المنعكسة على نافذتي؛ تحتوي الشقة على ثلاث غرف كبيرة وشرفة تطل على الكورنيش القريب، فيها ممر كبير وصالة مفتوحة على غرفة الطعام تتوسطها حانة صغيرة، وتم تأثيثها من قبل مصمم للديكور ثم أحضر لي خادمة خاصة.

خضعت لإصراره على تغيير طبيعة حياتي، وبذل معي جهداً كبيراً لتحقيق ذلك، وشدد عليّ لأترك حياة السهر وأعادني إلى الدراسة من جديد، وبالفعل أصبحت أمضي وقتي في التحصيل الدراسي.

كان كل همه أن أكون رهن إشارته، يأمر وأنا ألبي في الحال، وكان كل همي إيجاد رجل يلملم حواسي المشتتة، فهجرتُ ثوب العناد وارتديت ملابس الخضوع وفرحت بها كطفلة ترتدي ملابس العيد ولكن سرعان ما انتهت فصول العسل بسرعة لم أكن أتوقعها، وبدأ بالابتعاد عني وكثرت مشاكلنا حتى بدأت رياح الخيانة تقرص قلبي بلا رحمة وتتملكني الشكوك، ولكن المشكلة تكمن في مظاهر الثقة التي تحيط به كالهالة، كان يترك هاتفه معي فلا أرى شيئاً يثير الريبة والشكوك، وكنت أحادثه حتى يغفو فكيف إذن سيختلي بنفسه لخيانتي؟

لكنني كنت موقنة بأمر مريب، فالحقيقة التي يجهلها الرجال ولا يكادون يعترفون بها هي الحاسة السادسة التي تملكها المرأة، والجرس الخفي في داخلها الذي ينبهها عندما يرصد حركات تثير الريبة.

عبثاً حاولت رشوة أحد عماله ليخبرني بكل ما أريد لكنه تهرب، حتى زملاءه لم أستطع إقناعهم بالوشاية به، حينها خطرت لي فكرة جهنمية. في إحدى الليالي هاتفتُ أحدهم وأخبرته برغبتي بالاتصال بفيصل لأمر طارئ لكن المشكلة تكمن في رقم هاتفه المغلق ونسياني للرقم الآخر الذي أحتفظ به، وبحسن نية أعطاني صاحبه الرقم المطلوب الذي يخبئه فيصل عن أنظاري.

ونبتت الفكرة في أعماقي ولاح لي السؤال كيف أقبض عليه متلبساً؟ حتى أشرقت الفكرة، اهتديت إلى شراء رقم جديد لهاتف متحرك ثم حاولت استمالته بالرسائل وخداعه وإقناعه أنه من قام بإعطائي رقم هاتفه من مدة بسيطة، وبالفعل لم يشك فيّ ولو للحظة لإدراكه عدم معرفتي بهذا الرقم وهكذا نجحتُ في الإيقاع به.

أمضيت الأسابيع الواحد تلو الآخر في محاولة لكي أحظى بثقته حتى نجحت بامتياز، ولم أحادثه بالشكل الدائم بحجة عدم وجودي بمفردي في المنزل وأن أخواتي الصغار معي.. ولإكمال الدور بحرفية متقنة طلبت المساعدة من إحدى زميلاتي في الجامعة، فعندما حادثته أزلت كل الشكوك التي في قلبه حتى أتى وقت الانتقام، حددنا مكان اللقاء وزمنه في أحد الفنادق وأرسلت إليه رسالة برقم الغرفة واختبأت داخل الخزانة، ووضعت بالقرب من الباب سلة فيها شال مرفقة برسالة موجزها أن يعصب عينيه بالشال، وبالفعل ابتلع الطعم وطبق الفكرة حرفياً وبحذافيرها، وبعدما عصب عينيه بالشال أدخلتهُ صاحبتي وربطته بإحكام إلى السرير وخلعت ملابسه عنه لأخرج من مخبئي وأرفع الشال عن عينيه وابتسم له ابتسامة النصر وأنا أراه على هذه

الحال من السذاجة، عندما شاهدني صعق وأصابه البكم، حينها طلبتُ من صديقتي تركنا لوحدنا لبرهة.

فقلت له وأنا أتحرك في أرجاء الغرفة:

- نصيحة مني يا فيصل لا تبع الخبز لخابزه لأنك ستخسر كثيراً، ثم احتدت لهجتي وأكملت: هل تظن بأني غبية إلى هذا الحد؟ ثم تلتها نبرةُ استهزاء وأكملت، والمضحك يا حبيبي أنك تستخدم حيلي للإيقاع بي.

فقال لي فيصل برجاء:

- حبيبتي ناهد... كنت أعلم بتخطيطك هذا جيداً وتلعثم قليلاً: لكنني كنت أجاريك في لعبتك.

فصرخت بعصبية:

- إنك كاذب يا فيصل، كاذب ووغد وحقير، وحركت يدي في الهواء بعصبية وأكملت: بعد كل هذا الإخلاص والحب ترتكب جرم الخيانة بحقي.

فصاح متوسلاً:

- ناهد أعدك بعدم تكرارها ثم ابتسم بخوف وأكمل، والآن هل من الممكن يا أميرتي أن تتكرمي وتفكي قيدي، أناشدك بحبنا؟

فرفعت حاجبي وقلت له:

-سوف أفكر.

فوجد عطفي بريق أمل لديه فازداد توسلاً بلهجة لطيفة:

- أرجوك يا حياتي.

فضغطت على شفتي بأسناني:

- بشرط.

فقال بسرعة:

- لكِ كل ما تطلبينه.

فضربت يداً بيد:

- حسناً أريد منك اقتراح سبب واحد يجعلني أفك قيدك، وإذا كان الجواب مقنعاً سوف أفك وثاقك فوراً وأسامحك هذه المرة فقط، هذه المرة لا غير.

فقال بسرعة:

- سوف تفكين وثاقي لأنك تحبينني يا حبيبتي.

قلت له باستهزاء: جوابك مراوغ يا عزيزي وبعيد عن الحقيقة.

حملتُ كل ملابسه في حقيبتي وودعته وأنا أطقّ ضحكات أحاول عبرها إخفاء النار التي تشتعل في داخلي، تركته لوحده مربوطاً إلى السرير ليفكر بالدرس الذي لقنته أياه.

وكانت صرخته تتردد في أعماقي أثناء عودتي إلى مسكني وهو يقول:

- ناهد ناهد يا مجنونة.. تعالي إلى هنا.. ناهد.. لا تتركيني هكذا.

لكنني لم أعره أي اهتمام، تركته مقيداً وهو عار تماماً لأنتقم من حبه الذي عراني من كياني، وتأكدت من إرسالي رسالة إلى المقربين من أصحابه حتى يكون فرجة للجميع.

عدت إلى شقتنا بخطوات ثقيلة وأنا في حالة مزرية كنت أحاول خلالها ابتلاع غصاتي، لكن الدموع غلبتني وانهمرت كالسيل، لتجعلني أكتشف وأنا في غمرة بكائي وانفجاري وأنا ممسكة بملابسي وكتبي لأرميها في الحقيبة؛ اكتشفت أنني ألملم بقايا جروحي التي تناثرت نتيجة قصفي بخياناته وإيلامه لقلبي الحزين، فحول قلبي الذي ضم في ثناياه جنون حبه إلى أشلاء وعواطف ممزقة، بكيت وبكيت حتى سال الكحل بين أهدابي، بكيت على حبي الضائع للأيام التي جمعتنا، على عشرتنا، على صبري ومثابرتي في الحلوة والمرة.. وعلى أحلى أيامي الماضية وأتعسها... تنهدت وأنا أنظر إلى شقتنا الصغيرة التي أصبحت ساحة لخوض المعارك بعد أن كانت في يوم من الأيام

عشاً للحب والغرام، أنظر إليها وإلى كل جزء وأتذكر، أنظرُ إلى الكرسي الذي كان يجلس عليه وأنا أتنعم في أحضانه الدافئة وأستمع إلى شكواه وهمومه وأسري فيه كل العطف والمشاعر الحانية وأنا أحتويه، أنظر إلى كل زاوية وأتذكر همساتنا، ضحكاتنا، مشاعرنا.

***

كانت تدور في بالي آلاف الأسئلة وأنا أهجر هذه المدينة، عدتُ إلى وطني محطمة بعد مرور عام فقط على رحيلي... كان الليل يمضي ببطء كسكين تقطع قلبي بهدوء مجرد من العواطف، حاولت التخلص من حبه.. أجبرتُ صديقاتي على سجني حتى لا أحن إليه وأرتكب حماقة بالاتصال به، كان حبه يسري في شراييني كالإدمان وكم كنت بحاجة ماسة إليه، كان الحل الوحيد لنسيانه هو الوقوع في الحب من جديد، أوكلت المهمة لصديقاتي وأخواتي لإيجاد البديل، ولكنهن بحثن لي عن الزوج المناسب، حتى عثرنا عليه... محمد والده سفير يقيم في سويسرا، شاب في نهاية العشرينيات من عمره، طويل القامة، مفتول العضلات ويشبه إلى حدّ كبير الممثل المصري شكري سرحان، بهر بجمالي عندما رآني للمرة الأولى، وحاول الإسراع لإتمام موضوع الخطبة وجعلها رسمية.

في تلك الأثناء رصدت بعض الهمسات التي تنذر بقدوم فيصل وبحثه عني كالمجنون، وما زاد من قلقي هو الإحساس بروح خلقت في أحشائي... بحت بمخاوفي لأعز صديقاتي فأخبرتني بضرورة إجراء الفحوصات اللازمة وأرشدتني إلى إحدى العيادات الخاصة... كنت في الردهة قلقة بانتظار النتيجة حتى لمحت الممرضة الألمانية بلغتها الإنكليزية الضعيفة وابتسامتها العريضة: مبروك مدام أنتِ حامل بالشهر الثالث.

اضطررت مجبرة للذهاب إليه، طرقت باب غرفته بعنف في الفندق، وما إن سمعت صوته متسائلاً: من يطرق الباب؟ حتى أجبته لاشعورياً: خدمة الغرف.

ففتح الباب ودهش عندما شاهدني.. دلفتُ إلى داخل الغرفة لأفاجأ بوجود فتاة معه ولأمسكه وللمرة الثانية وعلى مرأى من عيني، نظرت إلى الفتاة باحتقار وابتسمت بسخرية، نظر إلي وإلى بطني الذي بدأ يتكور.. وباشر بالاعتذار للفتاة وأخبرها بأنني زوجته وبضرورة مغادرتها الآن.. تشاجرت معه وذكرته بكل أفعاله.

فأحاطني بلطف بذراعه قائلاً:

- ناهد يجب عليك العودة معي.

رميت جسدي على الكنبة، ثم انحنيت على ركبتي ووضعت رأسي بين يدي أخفي دموعي:

- إذا سافرت معك لن أتمكن من العودة إلى وطني مرة أخرى، سوف يقاطعني جميع أفراد عائلتي.

فجلس بجانبي وقال:

- وإذا لم تسافري ستظهر عليك أعراض الحمل ثم يعلم الجميع بالموضوع ربما يغضب والدك فمن الأفضل لك السفر معي.

فنظرت إليه:

- حسناً.. فلتكن الليلة.

فأجابني فيصل بدهشة:

- لماذا؟

فنظرت إليه بتردد ووجهي تورد من الخجل:

- غداً هو موعد عقد قراني.

كنت مجبرة على العودة معه إلى وطنه، وبذلك تمت مقاطعتي من قبل جميع أفراد عائلتي بسبب هروبي ووضعهم في موقف حرج أمام الجميع. أردتُ الطفل الذي أحمله في أحشائي.. لكنه أصر على

إجهاضي، كنت كالضحية تماماً حينما تقاد إلى جلادها وليس لها إلا أن تستسلم.

اضطررت للذهاب إلى المستشفى.. وراقبتُ فيصل بعيني.. كان مرعوباً ومتوتراً أكثر مني ولم يتركني ولا لحظة... حتى عندما خرجت من المستشفى اضطر إلى أخذ إجازة من عمله وأقنع والده بسفره وبذلك قضى معي كل الوقت حتى استعدت قواي وعافيتي واستعادني بدوره، ومنذ ذلك الحين وأنا راضية بالأمر الواقع، وأعلم بخياناته لكن ما باليد حيلة، استسلمتُ له وتخليت عن نفسي وشخصيتي وأحلامي.

***

لقد اقتحم نزار حياتي.. نزار يكبرني بعدة أشهر فقط.. شاب متهور لديه آلاف المعجبات، كان يشكل لي المرآة العاكسة لشخصيتي القديمة بشقاوته، تصرفاته وابتسامته الطفولية، وكان جهله للكثير من الأمور يرضي شيئاً في داخلي؛ كنت أفتخر بذكائي الذي يفوق ذكاءه بأضعاف وثقافتي التي لا حدود لها، يسعدني قيامي بتعليمه بعض الأشياء التي تعلمتها من فيصل، وأفتخر عندما يستشيرني حتى في أتفه الأمور.

هو مجرد شاب مدلل معظم حديثه باللغة الأجنبية، أفسده الدلال الزائد، توسمت به ملامح البلادة وانعدام الطموح. كان لا يرهق نفسه إذا رغب في الحصول على شيء ما فكل ما يتمناه يجده أمامه، أفسدته أموال أبيه لكنه سئم من تلك الحياة فقرر أن يستقل بنفسه وأن يصبح رجلاً.. أحببته فقط لأنه أعاد لي حياتي القديمة التي بحثت عنها كثيراً أثناء علاقتي بفيصل.. لكنني لم أجدها، فقد قتلها فيصل، أما

نزار فقد أحياها لي من جديد.. أعاد إليّ الماضي وحياة السهر واللعب واللهو التي افتقدتها والحفلات التي تقام في نهاية الأسبوع، فأنا سئمتُ من المناسبات الاجتماعية أو عشاء العمل الذي أضطر لحضوره مع فيصل.

أمضي معه يومي أحدثه عن أحلامي وطموحاتي التي اغتيلت، ونرسم أحلامنا ونحن نضحك.. نتخيل كيف سنكون بعد عشر سنوات وهل سوف نظل معاً أم سيفرقنا الزمن؟ كانت أحاسيسي تتوهج عندما أكون برفقته وأشعر وأنا معه أن قلبي يعانق قلبه وروحي تتوق إلى روحه. إنني أشتاق إليه كثيراً حتى في وجوده.. أحياناً كنا لا نتحدث ونظل صامتين وننظر الى بعضنا بعضاً ونجعل عيوننا هي التي تتحدث؛ فالعين هي مرآة القلب. كان يعلمني العزف على الجيتار وأنا أعلمه كتابة الشعر أو أحكي له بعض الأمور التي تعلمتها من الكتب، أحب أن أحكي له عن منزلنا وعن موطني وكم أحن لأصحابي، كنت لا أستطيع أن أبوح لفيصل بهذه الأمور، فهذه المواضيع تضايقه أما مع نزار فالوضع مختلف؛ فكل ما يجول في خاطري أستطيع البوح به وبجرأة.

في الحقيقة، نزار هو من أحيا الفرحة في قلبي بعدما كانت تحتضر من العذاب النفسي والجسدي اللذين مررت بهما بسبب تصرفات فيصل.. مع نزار كنت أحلم بالهروب إلى مكان بعيد نختبئ فيه بعيداً عن الحياة وقسوتها. فعندما يحل الليل ويشتد الظلام أذهب معه إلى الصحارى والوديان، نسعد بكوننا وحيدين في هذه الأرض القاحلة.. تدور في بالي آلاف الكلمات لكنني لا أبوح بها وأكتفي بالابتسامة المصطنعة التي أرسمها على وجهي حتى أجعله يطمئن ويظن أنني بأحسن حال، إنني لا أريد إزعاجه بمشاكلي الكثيرة، فأضطر إلى الكذب... ربما يؤنبني ضميري بسبب كذبي لكن الحقيقة مرة ولا أريد أن أخسر نزار، إنه بالنسبة لي كالمخدر.. كجرعة من الحب والحنان تجعلني أقوى والتي أحتاجها لأواجه الواقع.

على الرغم من بعض العيوب التي لمحتها فيه، مثلاً عيناه اللتان تلتهمان أجساد الفتيات ثم يطلق تنهيدة طويلة وأنا أنظر إليه بدهشة، فأعاتبه على فعلته فيبتسم قائلاً: إنها غريزة موجودة لدى الرجل وهو لا يقصد سوءاً عندما ينظر إلى أجساد الفتيات، ثم يعاتبني قائلاً إنني ألمحك تشاهدين الرجال ولا أعاتبك فأحاول عبثاً أن أوضح له أن نظرة المرأة إلى الرجل تختلف عن نظرة الرجل إلى المرأة، لكنه يضحك بصوت عال.

كان يعتريني الضيق عندما أشاهد إهماله وتهوره والإعصار الذي يحدثه في المكان الذي يجلس فيه؛ فقد نبهته ألف مرة أن لا يحدث كل هذه الفوضى إذا أراد شيئاً، فليقل لي وأنا سأخرجه من مكانه بدلاً من أن يعبث في المكان بحثاً عنه.

واكتشفت أن الرجل عندما تطلبه المرأة للقيام بأمر ما ويقول لها حاضر فليس معناه أنه سينفذه فوراً، فربما ينفذه بعد ساعة أو أيام، فذلك لا يهمه، فقد سبق وصرح بموافقته للقيام بتنفيذه ولا يهم متى، ولاحظت أن نزار يغيب عني مرة في الأسبوع ويغلق هاتفه وعندما أستفسر عن غيابه يكون جوابه رغبته بالاختلاء مع نفسه.

كان الاختيار بالنسبة لي صعباً للغاية، فأنا لا أعرف أختار من، وأترك من؟ هل أختار فارس أحلامي فيصل وأتحمل عذاباته وإهاناته؟ أم أختار نزار الشاب المتهور الحنون مداوي جروحي ومن أعادني إلى نفسي وأحلامي وطموحي وذكرني من أكون.

قررت الاستمرار مع فيصل ونزار في آن واحد، فأوهم فيصل بتركي لنزار في الوقت ذاته أتكتم على رجوعي لفيصل أمام نزار، وكان الوقت مناسباً بسبب سفر نزار... أصبح فيصل يتردد عليّ من جديد حتى إنني أذكر أنه في إحدى المرات شاهد السوار الماسي هدية نزار فرماه من النافذة، كان يحاول محو كل آثار نزار من

حياتي، كنت أغلق هاتفي أثناء وجوده وأنتظر ذهابه بفارق الصبر حتى أحادث نزار.

ولكنني كدت أكشف عدة مرات حيث شاهد نزار خروج فيصل من مسكني وتشاجر معي، فأوهمته أن فيصل أتى ليأخذ ملابسه وأشياءه الموجودة لدي.. كان الأمر سهلاً أن أخفي علاقتي بنزار عن عيني فيصل لكنه كان من الصعب جداً إخفاءها عن نزار، فالحل الوحيد لي إجبار نزار على السفر من حين إلى آخر وأن أستقبل فيصل في اليوم الذي يختفي فيه نزار.

في الحقيقة، تعلمت أساليب اللعب على الحبلين، فأخبر فيصل بندمي على تركه وأنه حبي الأول والأخير، وأنه بحري الذي مهما حاولت البعد عنه أجد نفسي كالنهر أنقاد إليه، ثم أحادث نزار وأخبره بمدى سعادتي بوجود شخص مثله في حياتي وبكرهي لفيصل وتخلصي منه ومن لسانه البذيء، أعلم أنه ليس لي الحق بخداعهما على هذا النحو، ولكن ماذا كان بيدي أن أعمل؟! استسلمت وأيقنت بعدم قدرتي على الحياة من دون أموال فيصل وعدم استطاعتي على ترك نزار بسبب حنانه والأحاسيس المفعمة التي تشعرني بأني على كوكب ثانٍ، إنني مجرد أنثى حائرة بين نارين.

(9)
مشيئة الله

لقد جاءت مشيئة الله لتكشف لي المستور، فذات يوم، وأثناء عودتي من السوق رأيت امرأة واقفة عند باب شقة نزار وهي تحمل طفلاً صغيراً فأخبرتها بعدم وجود صاحب الشقة.

فنظرت إليّ مطولاً ثم قالت: حقاً، ومتى يعود؟

- لا أعلم متى يعود لكنه مسافر حالياً.

بدت عليها آثار الاندهاش فعلقت قائلة: غريب.. لم يخبرني بسفره، ثم نظرت إلى الطفل الصغير وأكملت: هل من الممكن أن تسمحي لي بالدخول إلى مسكنك فابني بحاجة لاستعمال الحمام.

- حسناً تفضلي بالدخول.

وبعد أن انتهت من استخدام الحمام دعوتها للجلوس قليلاً وتوسمت من ملامحها المعرفة، فقد سبق لي وأن شاهدت هذه المرأة كما يبدو، لكن أين يا ترى؟؟

فجأة وجهت إليّ سؤالاً انتشلني من دوامة التفكير: هل نزار صديقك؟

ارتبكت قليلاً وقلت لها وأنا أهم بالوقوف: كلا، إنه جاري فقط وصادفته عدة مرات في الممر.

واتجهت إلى المطبخ لأحضر علبة البسكويت، وفجأة تعرفت إليها.. نعم.. أذكر أنني لمحت صورتها في شقة نزار وأخبرني بصلة

القرابة بينهما، وأنها أخته وهي تسكن في منطقة أخرى بعيدة وهو يذهب لزيارتها عدة مرات، عدتُ إليها وابتسمت قائلة: أنتِ أخت نزار أليس كذلك؟

ضحكت بعفوية وقالت: كلا أنا ابنة عمته وزوجته ثم نظرت إلى ابنها الصغير وربتت على رأسه وأكملت وهذا هو ابنه.

أحسست بالأرض تتحرك تحت قدمي وبكلامها يزلزل عالمي ووقعت علبة البسكويت من يدي، هل يعقل.. نزار متزوج؟!.. تمالكت نفسي واعتذرت لها وجعلتها تكمل، فقالت وهي تبتسم باضطراب: نحن متزوجان منذ ما يقارب الثلاث سنوات، وأنا أدرس في مدينة أخرى ولا أزوره كثيراً لكنه يزورنا كل أسبوع حتى يرى ابنه.

وفجأة صرخ الصوت الذي في أعماقي بألم، أحياناً نكتشف كم نحن أغبياء! نصدق ونقنع أنفسنا بوهم اسمه الحب، آه كم كنت غبية عندما تركت أهلي ووطني لأجل فيصل.. ووهم الحب.. وكررت الأخطاء نفسها، والمعيار ذاته مع نزار وتركت فيصل من أجل وهم مشابه باسم الحب.

ذهبت زوجته بعد تسديدها طعنة قوية إلى قلبي، جعلتني أترنح وأتوجع لعدة أيام، لم أملك إلا انتظار عودته، حتى عاد فواجهته، صفعته، ضربته، ومزقت ملابسه وأمسكت بإطار الصورة وقلت له بانفعال أهذه هي أختك؟ ثم حطمت إطار الصورة على رأسه، كبحت جماحي ورغبتي في تفجير غضبي وقتله كما قتلني بلا رحمة فقال لي ببلاهة: أنا لا أخونك إنني أخونها هي.. فلماذا أنتِ غاضبة؟؟

بصقت في وجهه وكرهته، وهممت بالخروج من مسكنه فأمسكني بعنف من معصمي وقال: ناهد أرجوك تفهمي الوضع، لكنني رفضت الاستماع لأعذاره الواهية وأنه كان مجبراً على الزواج منها لأنها تدخل من ضمن عاداتهم وتقاليدهم وأنه لا يحبها، رفضت أن أسرق رجلاً من زوجته.

عدتُ إلى مسكني منهارة، ومرت الساعات وأنا أبكي وأمزق ملابسي من الغيظ،ثم أجريت مكالمة إلى فيصل وأخبرته بضرورة حضوره في الحال وإلا قتلت نفسي ورميت بالهاتف بعيداً ثم سقطت على الأرض أبكي. أتى إلي مسرعاً ليجدني في حالة حداد جالسة على الأرض بثيابي الممزقة أمسك المقص بيدي وأقطع به خصلات شعري وأنا أبكي وأنوح وأتحدث بسرعة وتوتر، اقترب مني فيصل ثم أمسكني من ذراعي بقوة وهزني صارخاً: ناهد ما الذي حدث، أخبريني؟!

كنت أبكي من الألم.. أصرخ وألطم وجهي: آه آه يا رب ارحمني من هذا العذاب.. أريد أن أموت، بعدها نهضت متجة إلى المطبخ وسحبت السكين في محاولة مني لقطع شرايين يدي.

صاح فيصل بي وهو يلحقني: ناهد يا مجنونة.. وأمسكني بقوة وحملني إلى السرير وأجبرني على الشرب من قنينة ماء كانت بالقرب منا وضمني إلى صدره، ووضع يده بين خصلات شعري التي نجت من القص المجنون الذي كنت تحت تأثيره.

- ناهد حبيبتي لا يوجد شيء في الدنيا يستحق أن تذرفي كل هذه الدموع الغالية من أجله.

بكيت وأنا أدفعه:

- آه آه نزار، نزار متزوج يا فيصل.. كان يستغلني طوال كل هذا الوقت.

طغى الصمت على المكان لحظة سماع فيصل اسم عدوه اللدود، ولم ينطق بكلمة.. ووافتني النوبة مرتين في ذلك اليوم، ظل فيصل إلى جانبي حتى غلبني النوم. وعندما نهضت من نومي لم أجده بقربي لكنني سمعته يتحدث في الهاتف، تظاهرت بالنوم وما إن مضت لحظات حتى عاد فيصل إلي ليطمئن على حالي، وبعدها خرج إلى غرفة الجلوس، أمضى الليلة بأكملها بالقرب مني ولم يغادر لعدة

أيام، كان مساعده أحمد يزوره يومياً في الشقة فيطلعه على تفاصيل العمل، وأوصاه فيصل أن يخبر والده بسفره لزيارة صاحبه الذي يقطن في مدينة أخرى.

هزلت كثيراً وكنت لا أصحو من ثمالتي أبداً؛ فالقلب المجروح ليس له إلا الكأس كي يداوي جروحه، تحطمت نفسيتي، فقد جعلني نزار أحلم بعالم آخر، وفجأة تبخر كل شيء، كل شيء.. اضطر فيصل للمغادرة لكنه كان يزورني يومياً في محاولاته الحثيثة لإخراجي من حالتي حتى عثر عليّ في حالة إغماء بسبب الشراب، وحملني إلى المستشفى؛ رحت أنظر إليه وهو نائم على كرسي الانتظار في المستشفى... كان يعلم أنني أموت بسبب حبي لغيره لكنه لم يتركني، وأصر أن يعالج قلبي المحطم من عبث غيره، تعجبتُ منه ورأيت فيه جانباً لم ألحظهُ فيه من قبل.

حاول فيصل جاهداً إدخال البهجة إلى قلبي المحطم بسببه وبسبب نزار وجهد في إعادتي إلى حالتي الطبيعية، أخذني إلى أجمل مدن العالم وجزرها، دللني كثيراً لكنني في داخلي كنت لا أزال محطمة، وفاجأني اختفاء نزار وجعلني أحياناً أتساءل؟ أين ذهب؟ وأين اختفى؟

لقد أدركت أنه استسلم وتركني ولم أعد أهمه، حصل على كل ما كان يريده مني، فأنا على يقين من أنّ الرجل عندما يعرف امرأة أخرى ينسى ويتناسى الأولى، هكذا هم الرجال، كل الرجال.

أثناء جلوسي مع فيصل في شرفة شقتنا الموجودة في لندن، طبعتُ قبلة على جبينه وأسندت رأسي إلى ذراعه:

- فيصل.. أنا آسفة!

فقال لي ببرود:

- ولماذا الاعتذار؟

فقلت بخجل:

- أنا آسفة على خيانتي وهجري لك من أجل نزار الحقير.

فقال بلهجة جافة:

- لا داعي للاعتذار، إهمالي لك كان سبب بعدك عني، أرجوك ناهد لا تتطرقي إلى الموضوع مرة أخرى.

بعد هذه الحوادث ألح فيصل عليّ أن أتعالج لدى أحد الأطباء النفسيين، فترددت على العشرات منهم ولم يعجبني أي واحد منهم فقلت له ذات يوم:

- فيصل.. لا أريدك أن تتعب نفسك وتبحث لي عن طبيب آخر.. إنهم لا يعجبونني.

- لقد سبق وتحدثنا في هذا الموضوع من قبل وقلت لك إنّ زيارتك إلى الطبيب النفسي لا تدل على أنك مجنونة، إن النفس كالجسد تماماً.. أحياناً يصيبها المرض بسبب تراكم الأحزان.. وضغوط الحياة المتغيرة.

- حسناً، ولكن بشرط أن أختار طبيبي بنفسي (وهمست في داخلي، وحتى أتأكد من أنك لم تقم باستخدام الرشى مع الدكتور حتى ينقل إليك كل شيء).

- اتفقنا.. إذن سوف أوكل إليك هذه المهمة.

***

أوقفت مركب الذكريات أمام إحدى العمارات ثم ترجلت منها وصعدت الدّرج بخطوات منتظمة، ابتسمت وأنا أحدق في ما حولي، فكل شيء كما كان، صعدت إلى المصعد وضغطت على الطابق المطلوب، حتى توقفت أمام مكتبه فدخلت بخطوات مترددة، فاستقبلتني السكرتيرة بابتسامة... وصاحت مندهشة وهي تمد بيدها لتصافحني: أووه ناهد مر زمن طويل على آخر زيارة لك.

ابتسمت بخجل فسارعت بالقول: إنّ الدكتور حمدان مع أحد المرضى حالياً، تفضلي بالجلوس ريثما ينتهي.

تحركت بعفوية وجلست على أحد المقاعد وأتت إليّ السكرتيرة واضعة فنجاناً من القهوة.

تجولت عيناي في المكان البارد، فها هو المكتب لم يتغير أبداً، فلوحات الفن التشكيلية لا تزال في مكانها والكنبات السوداء والبيضاء الجلدية التي تعكس المظهر الرسمي هي نفسها والسراميك اللؤلؤي الذي يعكس أسطح المكاتب هو ذاته والنباتات الصناعية القابعة في الزوايا لم تتغير، حتى السكرتيرة هي نفسها واتجهت بعفوية إلى مكان جلوسي ذاته عندما أتيت أول مرة.

مددت يدي وسحبت إحدى المجلات الموضوعة بطريقة منظمة فوق إحدى الطاولات ثم عدت إلى ذكرياتي.

أثناء جلوسي في الشقة كنت أقلب محطات التلفاز بحثاً عن شيء يجذبني فأقتل دوامة الملل به حتى وقعت عيناي عليه، توقفت للحظات أصغي إليه بانتباه، ملكتني نبرة صوته المليئة بالثقة وعيناه السوداوان الجادتان وأنفه الطويل المتعجرف، كان ضيفاً لأحد البرامج، أيقنت فوراً أنه الدكتور المناسب لي، دوّنتُ اسمه على ورقة ثم بحثت عنه، وخلال عدة مكالمات استطعت الوصول إليه، حددت موعداً معه في مكتبه، وذهبت إليه، جلست في مكتبه وتملكني الخجل.

في أول جلسة لم أنطق إلا ببضع كلمات، ومشطت بعيني المكتب والطلاء الدافئ الذي طلي به والذي يبعث على الراحة والاسترخاء، وقطع الأثاث الفخمة داكنة اللون القديمة الطراز والنوافذ الكبيرة التي تسمح بدخول النور، بعد مرور ربع ساعة وأنا لا أزال بكماء أنهيت الجلسة وخرجت من دون أن أنطق بكلمه وداع.

بعدها بأسابيع أرغمتني الرغبة في العودة إليه، فدخلت إلى مكتبه

من دون استئذان.. وكان جالساً يقلب بعض الأوراق، فقلت له وأنا أضرب قبضتي بكفي وأجوب المكتب بتوتر:

- اممم.... أعلم أني مجنونة، الكل يقول لي إنني مجنونة أنا أعتبرها صفة حميدة وليست صفة سيئة.. الجنون أمر رائع.

فنظر إليّ ببرود وقال:

- ولماذا تعتقدين أنك مجنونة؟

تسمرتُ في مكاني وقلت له:

- بسبب تصرفاتي.

فعاد للنظر إلى الأوراق وقال وهو يقلبها:

- وما هي هذه التصرفات التي ارتكبتها وتدل على جنونك؟

فأجبته بسرعة ودون تفكير:

- الكثير من الأمور، كمحاولتي قتل نفسي وتناولي أدوية مضادة للاكتئاب.

فقال لي بغير مبالاة واستسلام:

- حسناً أنا أتفق معك أنكِ مجنونة.

فاقتربت من مكتبه بضع خطوات:

- ألن تعترض على كلامي وتسمعني كلام الأطباء النفسيين؟

سحب إحدى الأوراق التي أمامه وكتب عليها وهو ينطق ببرود:

- كلا.

اقتربت منه وجلست على الكرسي المقابل له، وبعدها لم أنطق بأية كلمة، وسرحت عيناي في الفراغ، ما أغضبني هو تجاهله لي وعدم إعارتي أي اهتمام، ثم قرأ كتاباً كان مفتوحاً أمامه، تجاهلته للحظات ثم هممت بالرحيل، بعد مرور عدة أيام تلقيت مكالمة غريبة من فتاة مجهولة:

- ألو ألو هل أنت ناهد؟؟

فنطقت باستغراب:

- نعم.. أنا ناهد.. من معي؟

فقالت لي بثقة:

- لم يسبق لك الشرف لمعرفتي ولكنني أحفظ تفاصيلك عن ظهر قلب، ونافلة الأمر هي رغبتي في لقائك للتحدث في أمر مهم.

فأجبتها بسخرية:

- وما هو هذا الموضوع المهم؟

فقالت بلهجة مليئة بالثقة:

- إنه يتعلق بعشيقك فيصل.

هيمن عليّ الفضول فنطقت:

- حسناً سأقابلك اليوم الساعة الثانية ظهراً في المقهى بالقرب من النادي الأهلي، هل تعرفينه؟

- نعم أعرفه لكن بشرط أن تتعهدي عدم إخبارك أيّ شخص كان عن لقائنا حتى لو كان فيصل.

- اتفقنا إذن.

جلست في المقهى وقد أتيت قبل الموعد بساعة، لا أعلم لماذا بالغت بزينتي، ربما كنت أريد أن أغيظها بجمالي... تجولت عيناي في المكان وكنت أنظر إلى كلّ فتاة تدخل، حتى شاهدتها مقبلة نحوي، كان شعرها أسود كالليل وعيناها زيّنتا بالكحل الشرقي بشكل مبالغ فيه، ووجهها مليئاً بمساحيق التجميل، طويلة للغاية ونحيفة كعارضات الأزياء.

فقالت وهي تتفحصني: ناهد؟

فأجبتها بسرعة وسحابة من الضيق تعتري وجهي:

- نعم.. أنا ناهد.. ماذا عندك تحدثي؟

فسحبت الكرسي المقابل لي وجلست، وبعد أن دارت بيننا مناقشة بسيطة تعرفت إليها ومن تكون فأخبرتني قائلة وهي تداعب شعرها:

- في الحقيقة أنا على علاقة بفيصل منذ سنة تقريباً وشاهدتُ بالمصادفة في محفظته صورتك، وفتشت هاتفه من دون علمه، سرقت رقمك وقررت محادثتك؛ فكما يبدو أنه يحتال علينا وصمتت للحظات، فبدا أنها تنتظر جواباً مني ثم أكملت متسائلة: منذ متى تعرفين فيصل؟

فقلت بأسى ظاهر:

- أعرفه منذُ ما يزيد عن الثلاث سنوات.

ففتحت عينيها بدهشة:

- يا الله.. يبدو أنه يحبك، لكن لماذا يخونك إذن؟ وكيف لك الصبر على أفعاله كل هذه المدة؟

فقلت باستهزاء ساخرة من نفسي:

- مجنونة من تؤمن بقدرتها على صهر الرجل ومن ثم تشكيله كما تهوى، فالخيانة لعبته تجري في دمه منذ ولادته؛ إنها الهواء والحياة بالنسبة إليه.

فقالت لي وهي تحدق بساعتها:

- لقد اتخذت قراراً بهجره وإذا كنتِ ترغبين به فليكن من نصيبك.

تملكني الشعور بالإهانة والتحدي فقلت لها:

- ليس من صفاتي الانسحاب قبل المواجهة.

توسمت ملامح الفزع التي سيطرت على وجهها لحظة إدراكها لمحور الحديث وما أطلبه:

- كلا يا ناهد فلا تجازيني بالنكران بعدما أمنتك على سري ولا أزال أناشدك بالعهد، فأنا أخشى انتقامه.

استطعت كبح أعصابي وما إن انتهى اللقاء حتى هرولت إلى مكتب الدكتور لأقتحمه، صدم عندما رآني أمامه، فقلت له وأنا أصيح بحسرة:

- دكتور.. كنت متأكدة، متأكدة أنه من سابع المستحيلات أن يغير من طباعه.

ابتسم الدكتور:

- مرحباً بك يا ناهد وأشكرك على دخولك الدرامي.. وأشار بيده إلى الكرسي الذي يقع أمام مكتبه: تفضلي بالجلوس.

- ألا تسمعني.. أقول لك لقد كشف الله أمره، أنا سعيدة لأنني أمسكت به، الآن أستطيع أن أثبت له مدى صحة حدسي وأحاسيسي.. ولا يمكن لي أن أخطئ.. لا يمكن أبداً.

كنت كالمجنونة أضحك في مكتبه وأصفق فرحاً.. وفجأة وبلا مقدمات بكيت وجلست على الكنبة وأكملت:

- لماذا يفعل بي كل هذا.. ألا يكفي ما فعله نزار.. وضربت بقبضتي بقوة على سطح الكنبة: آه يا دكتور.. كم أرغب بالموت لأرتاح من هذه الحياة.. وأحنيت رأسي على مسندها واستسلمت لنوبة البكاء.

فاقترب مني حاملاً بعض المناديل الورقية وقال بصوت حنون:

- ومن هذا الذي خانك؟

فنظرت إليه بعينين مليئتين بالدموع ثم سحبت منديلاً أمسح به دموعي وقلت بتذمر:

- دكتور.. ألا تسمع ما أقول؟ ثم اشتدت نبرة صوتي: فيصل الخائن الحقير، خانني مرة أخرى.

فقال لي الدكتور بسرعة وهو يجلس بالقرب مني:

- وما أدراك بذلك.

فقلت له بلهجة طفولية:

- كشفه الله بإرسال إحدى عشيقاته لتخبرني بأفعاله.

فأجاب بسرعة كأنه أمسك خيطاً يدله على اكتشاف الموضوع:

- آها وما هدف هذه العشيقة حتى تخبرك بخيانته، ألا يكفيها

أنها أمسكت به، لماذا لم تقطع علاقتها به وتنهي الموضوع من أصله؟

فقلت دفاعاً عنها:

- لا.. يا دكتور.. إنها فتاه طيبة وأرادت إخباري بألاعيبه.

فقال لي بشك:

- لماذا لم تطلبي منها المواجهة مع فيصل؟

- حاولت، ولكن يبدو أن المسكينة كانت تخشى من حماقة غضبه وانتقامه الجبار.

فقال لي كمحقق الشرطة:

- ولماذا سينتقم منها باعتقادك؟؟

تلعثمت وأنا أرد عليه:

- لأنه.. لأنه حقير.... ووو

قاطعني قائلاً:

- وماذا أيضاً؟؟

- لأنها أخبرتني بخيانته.

فقال بثقة:

- هذا يدل على صلب الموضوع وهو إدراكها بمدى اهتمام فيصل بك وكم هو متيم بحبك ولا بد أن يفجر بركان غضبه على من حاول التلاعب بحبكما.

فأجبته بتردد:

- ربما.

فنهض متجهاً إلى مكتبه وقال:

- منذ متى تعرفين فيصل؟

- ما يزيد عن الثلاث سنوات.

فعاد إلى لهجة المحقق:

- ومنذ متى تعرفين هذه الفتاة؟؟

- أنا.. لا أعرفها.

فقال لي وهو يحدق بي:

- وما الذي يدعوك لتكذيب فيصل وتصديق ادعاءات هذه الفتاة؟

فقلت بعناد:

- إن الرجال متشابهون.. إنهم خونة.

- وما الذي جعلك تحكمين على كل الرجال بأنهم متشابهون؟؟

- من علاقاتي في الحياة وعلاقات صديقاتي؟

- وهل هذا الموضوع يثبت لك أنك على حق؟

فضربت بقبضتي على الكنبة:

- أنا متأكدة بأنني على حق.

فابتسم وقال:

- حسناً، سوف أعلمك طريقة تكتشفين فيها نيّات هذه الفتاة.

فأجبته برجاء:

- أدركني بها وسأنفذها بحذافيرها؟؟

- سوف أكشف لك مدى صحة ادعاءاتها، لكن بشرط أن تنفذي كل أوامري بلا عصيان.

فرسمت على وجهي ابتسامة لأطمئنه:

- اتفقنا

- إذن اسمعيني جيداً.

عدتُ إلى شقتي ونفذت ما طلبه مني الدكتور، أجريتُ محادثة مع الفتاة المجهولة وأخبرتها بهجري لفيصل وأخبرتني بقيامها بالمثل.. وبعدها بأيام راقبت هاتف فيصل وأثارني ما شاهدته.. كعادتي اقتحمت مكتبه والسكرتيرة تتبعني محاوله منعي:

- دكتور... لقد كنت محقاً.

فقال لي محدقاً وهو يحاول إخفاء ابتسامته:

- ربما يجب عليّ وضع قفل على الباب حتى أمنع اقتحامك

الدائم لمكتبي من دون استئذان، وأشار إلى السكرتيرة بيده حتى تخرج.

- أوووه.. دكتور.. فعلت ما طلبته مني وبانت الحقيقة كفلق النهار، إنك محق، فما أن أخبرتها بهجري له حتى ازدادت محاولاتها للاتصال به، إنها كاذبة ولم تهجره مثلما ادعت.

ابتسم الدكتور وقال: وهذا دليل على رغبتها بالإيقاع بك حتى تسنح لها الفرصة بالاختلاء مع فيصل.

فقلت وأنا أضغط على أسناني:

- الكاذبة الحقيرة.. ماذا أفعل بها الآن؟

ابتسم الدكتور وقال:

- نفذي ما سوف أقوله لك وبالحرف الواحد، صارحي فيصل وأخبريه باتهامات الفتاة له، أريد منك تصنّع البكاء والانهيار.. ولا أعتقد أنه أمر مستحيل على ممثلة بارعة مثلك.

ابتسمتُ بخجل وتورد وجهي.

وعندما انتهى موعد الجلسة وأثناء خروجي قال لي: ناهد، حددي موعداً لاحقاً مع السكرتيرة ولا تأتيني في المرة القادمة من دون استئذان فتقتحمين مكتبي عنوة كما اعتدتِ.

ابتسمت وقلت له: أوووه دكتور.

فعلت ما طلبه مني الدكتور ونجحت الخطة في اليوم التالي فحضرت إلى العيادة في الموعد المحدد ودلفت إلى داخل مكتبه، جلست على المقعد المقابل له واضعة قدماً فوق أخرى وقلت له بتعالٍ:

- حسناً ها أنا ذا حضرتُ في الموعد المحدد وكما طلبت، هل أنتَ سعيدٌ الآن؟

ابتسم الدكتور ابتسامة كبيرة وقال: آه مرحبا ناهد أنا بخير والحمد لله أشكرك على السؤال.

فقلت له بحدة: هل تسخر مني؟

فابتسم وقال: لا، إنني أعلمك حسن السلوك.

فازداد غضبي اشتعالاً:

هل تظن أني لا أعرفه، إن سلوكي أفضل بمليون مرة من سلوكك.

فضحك قائلاً:

- وبما أنكِ تعرفين الأدب، لماذا لا تستخدمينه إذن؟

فأجبته بعتاب:

- أنا لا أحب الأمور الرسمية، أدخل في صلب الموضوع مباشرة.

فقال لي بلهجة المحقق:

- أعتقد أنك دوماً متسرعة بقراراتك.

فرسمت على وجهي ملامح اللامبالاة:

- أحياناً.

- واضح جداً، إممم.. اسمعيني يا ناهد... يوجد بيننا اتفاق قائم ويجب عليك تنفيذه بدقة.

فابتسمت ابتسامة طفولية:

- شروطك يا سيدي.

قهقه الدكتور قليلاً ثم قال: هل أصبحت سيدك الآن؟ وأكمل عزيزتي ناهد.. هل هناك وقت محدد يكون مزاجك معتدلاً؟

- نعم إن مزاجي يكون معتدلاً دوماً بعد الساعة السادسة مساءً.

- جيد، إذن ستشرفينني كل يوم الساعة السادسة مساء كي ندردش قليلاً، وأعدك أن أحفظ كل ما تقولينه وسيظل محصوراً بيننا نحن الثلاثة فقط.

فقلت له بشك وريبة:

- ومن هو ثالثنا؟

- إنه الربُّ يا ناهد.. هل نسيتِ ربّك؟

فابتسمت بخجل واحمرت وجنتاي: لا لا لم أنسه.

- والآن.. عن ماذا تريدين أن نتحدث؟

فقلت وأنا أرخي جسدي فوق الكرسي:

- لا أعلم.

- حسناً.. حدثيني عن حبيبك.

- هل تقصد فيصل؟

- لماذا، هل هناك غيره؟

لويت شفتي قائلة: إمممم لا.

- أعتقد بوجود آخر بسبب ترددك الواضح عندما وجهت إليك السؤال؟

فقلت بأسى:

- كان هناك آخر، لكن اكتشفت أنه حقير وكاذب كغيره من الرجال، اسمه نزار، لا أعلم أين ذهب؟! لقد اختفى فجأة.

- وما الذي حدث قبل اختفائه.. هل تستطيعين التذكر؟

- وكيف لي أن أنسى.. اكتشفت أنه كان متزوجاً.. لقد خدعني.

- وكيف اكتشفت أنه متزوج؟

- صادفت زوجته وأخبرتني.

فقاطعني قائلاً: وهل صدقتها من دون التأكد مثلما فعلت مع فيصل؟

فقاطعته بثقة: لا، فعندما واجهته اعترف بالموضوع ولم ينكر.

- على ما يبدو أن الموضوع لا يزال يضايقك؟

- أحياناً، (أخذت نفساً عميقاً ثم أكملت) لقد أحببته بصدق.. أعجبني بكل ما فيه، شقاوته.. ابتسامته الطفولية.. رومانسيته.

كنت أبتسم.. وأنا أتحدث عنه وعن مغامراتنا.

انتهت الجلسة وغادرت وعلى وجهي ابتسامة كبيرة.

أصبحت أتردد يومياً على الدكتور.. حتى سألني قائلاً:

- ناهد ما هي الصفة التي تعجبك في الرجل؟

فأجبته من دون تفكير:

- أريده أن يكون وسيماً.. وو....

قاطعني الدكتور: ناهد أنا لا أتحدث عن الشكل هل كل رجل وسيم تصادفينه سوف تنشئين معه علاقة؟

احمرت وجنتاي وابتسمت بخجل وقلت له وأنا أعبث بخصلات شعري:

- طبعاً لا، إنني أحب الرجل الذي يكون رجلاً بمعنى الكلمة ولا يخاف من أحد.

- ناهد عندما أريتني صور نزار وفيصل وتحدثتِ عنهما أحسست بتناقض كبير بين الشخصيتين، وحتى ملامحهما لم تكن متشابهة، وبحثت عن شيء مشترك بينهما فلم أجد.. أخبريني هل هناك شيء مشترك بينهما؟

فكرت لبرهة ثم تحدثت:

- في الحقيقة لم أفكر بهذا الموضوع من قبل لكنني أعتقد أنهما مشتركان في شيء واحد فقط ألا وهو اهتمامهما بي، ثم سكتُّ للحظات حتى أفكر بجواب مقنع:

- أعتقد أنهما كانا يكملان بعضهم بعضاً، في علاقتي مع فيصل كنت أفتقر إلى رجل يدافع عني.. رجل يفهم أفكاري، لكن الأمر الجيد هو تدليله لي وعدم رفضه لطلباتي، أما نزار فكان يضرب كل من يحاول الإساءة إلي ولا يسخر مني أبداً، ويحب أن يناقشني ويأخذ برأيي في كل شيء.

فقال وهو يضرب بأصابعه على مكتبه:

- أفهم من حديثك أن فيصل كان يؤمّن لك الاستقرار المالي فقط.. ونزار كان يؤمّن لك الاستقرار العاطفي؟

- نعم لكن كنت أعلم بأنّ فيصل لن يكون لي يوماً.

- ناهد أجيبي بصدق، لماذا تخوضين علاقات تعلمين نهايتها المؤلمة وتأثيرها على حالتك النفسية؟

فأجبته بتحدٍّ:

- إنني أحب المغامرات.

فقال لي بلهجة قاسية بعض الشيء:

- لا يا ناهد أنتِ تحبين خوض علاقات فيها نوع من التحدي الكبير، وتسعين جاهدة إلى إفسادها كي يتركك الرجل أو يخونك لتثبتي أنكِ على حق وصواب وأن كل الرجال متشابهون.

فقاطعته بحدة: لا ليس صحيحاً.

فقال لي بثقة: ناهد، لماذا لم تفكري بالزواج من قبل؟

فأجبته بضيق:

- لا أريد أن أتزوج.

- لكن نهاية كل علاقة حب تكون الزواج.

- أظن أنك قمت بالجواب عن سؤالك إن نهاية الحب تكون بالزواج.. فالزواج يقتله.

فاشتدت لهجته قسوة وقال:

- لماذا تكرهين نفسك يا ناهد؟ وترغبين بتحطيمها بعلاقات فاشلة، ألا تعتقدين أنك تستحقين أن يكون لك زوج وأبناء، ألا يوجد لديك أي احترام لذاتك؟

أغضبني قوله فصرخت في وجهه قائلة: أنت لا تفهم.. لا تفهم شيئاً.. واندفعت خارج مكتبه.

عدت إلى شقتي وأنا أكاد أنفجر غضباً ومحطمة كلياً، فتناولت ورقة وكتبت عليها (أعتذر لك يا قلبي على ما سببته لك من ألم ومعاناة في سبيل بحثي عن السراب، سراب يدعى الحب، إنني أترك دموعي اليوم لتكتب، فقلمي عجز عن التعبير وأصابه الخرس من قوة

وقع الصدمات عليّ.. إنني اليوم لا ألوم ألا نفسي التي وافقت أن تسلم قلبها لأشخاص لم يستحقوه يوماً، لشخص كان سادياً يتلذذ بتعذيب قلبي الطاهر وتدنيسه بقذارة سميتها الحب، أبوح لك يا ورقتي فأنتِ الوحيدة التي تفهمني حتى عندما أكون صامتة، أخط عليك اعترافاتي واعذريني إن بللتكِ بدموعي المختلطة بذنوبي، إنني أدنس بياضك بسواد الذنوب).

اتجهت إلى دورة المياه وأنا أبكي بانهيار، وضعت كل الحبوب المنومة الموجودة لدي في يدي وأمسكت كأساً من الماء في اليد الآخرى ثم رميت الحبوب في جوفي وارتشفت بضع جرعات من الماء، وما هي إلا لحظات حتى سقطتُ أرضاً.

(10)
اكتشاف الذات

ذابت الشمس في زرقة البحر ونثرت خيوطها الذهبية فوق سطحه فنسجت انعكاساً يبهر العيون، والموج يداعب قدمي بنشوة، أما البحر فمد ذراعيه لي، شدني جماله فاقتربتُ منه أكحل عيني بالمنظر الجميل.. احتضنني البحر بشوق المغرم لمحبوبه وغمرني نسيمه بالقبلات، تلاشى الهم والضيق اللذان يشكلان عبئاً ثقيلاً تدريجياً، كنت أطير في البحر بخفة ويجذبني برفق إلى التوغل في أعماقه.. فجأة أدركت أن البحر غدر بي محاولاً ابتلاعي، نظرت إلى القاع فإذا بوالدتي تتسلل من أعماقه فتمسك بقدمي وتشدني إلى الأسفل وأنا أقاوم بيأس حتى لفظ جسدي آخر قواه، فأستسلم ويبتلعني البحر، استسلمت للموت ورددت قائلة: أريد أن أموت.. أريد أن أموت.. فجأة أحسست بمن ينتشلني إلى الأعلى.. ووضعني على الشاطئ.. نظرت إلى الأسفل فشاهدت والدتي لا تزال تمسكني بقوة وتأبى ترك قدمي.

فتحت عيني بقوة فآلمني الضوء، حركتُ عيني في ما حولي فرأيت فيصل ينظر إلي وعلى وجهه ملامح الأسى والحزن.

قال يلومني:

- ناهد لماذا تفعلين كل هذا بنفسك؟ لماذا..؟ وانحنى على ركبتيه واضعاً رأسه بين يديه.

لم أقم بالرد عليه فالجواب واضح، إنك أنتَ من حطمني وجعلني أنبذ نفسي.

مرّت الأيام وأنا أفكر في كلام الدكتور، لماذا أعيش في حالة شك في كل علاقة أخوضها وأتورط بعلاقات فاشلة؟ لماذا أمقت نفسي إلى هذه الدرجة وأتعمد إيلامها وتحطيمها؟ إنني كمثل الشخص الذي يطعن نفسه بالسكين ليتلذذ بالألم ويمتع عينه بالدم الذي ينبع من الجرح.

أين قوتي وجبروتي؟ هل أحتقر نفسي لأنني جعتلها رخيصة؟ هل أمقتها لأنها خذلتني؟ أم أنا من خذلتها، لم أجد أي جواب لأسئلتي، وتملكتني الرغبة في التحدث مع شخص يساعدني ويخرجني من الحالة التي وضعت نفسي فيها، إلى شخص ينير لي الطريق لأتصالح مع نفسي.

قادتني حاجتي إليه، أجريت مكالمة إلى مكتبه وحددت موعداً للقاء، لم أهتم هذه المرة بزينتي أو بملابسي، كنت في حالة تمنعني من الاكترات بالأشياء السطحية، ذبلت ابتسامتي وهاجم السهر عيني وامتص الهمّ لوني فغدت بشرتي شاحبة.

وما أن دخلت مكتبه حتى احتضنني بابتسامة كبيرة... كان سعيداً لرؤيتي ثم نطق قائلاً: الحمد الله على السلامة يا ناهد.

بدت ملامح الحيرة على وجهي ووضعت أصابعي على ذقني وقلت له:

- من أخبرك؟

فقال وهو يشير إليّ بيده على الكرسي المقابل له:

- فيصل حضر إلى هنا، وتشاجر معي بسببك.

جلست على الكرسي وضغطت بأصابعي على حقيبتي بقوة وطأطأت رأسي وتحدثت بصوت مهموم متجنبة النظر إليه:

- آسفة، يبدو أنني ورطتك.

اعتدل الدكتور في جلسته وأسند ظهره ووضع ذراعه على المكتب وقال:

- ناهد ما الذي جعلك تحاولين الانتحار؟ أهي صرخة استغاثة بسبب الوضع الذي تمرين به؟

تملكتني نوبة من اليأس والاستسلام فاعترفت له قائلة:

- كنت أحس بالألم الشديد، ورفعت يدي لاشعورياً إلى قلبي وأكملت أريده أن يختفي، أن يرحل إلى الأبد، لقد شاهدتُ حلماً غريباً تلك الليلة، وهذا الحلم سبق وأن عاودني مراراً وتكراراً وسردت له تفاصيل الحلم.

وأطرق يفكر قليلاً ثم قال:

- ناهد ما رأيك بوالدتك؟

- إنها امرأة مسكينة مغلوبة على أمرها.

فقال بلهجة المحقق:

- وما الذي جعلك تحكمين عليها أنها مسكينة؟ ما المواقف التي حدثت لتتوصلي إلى هذه النتيجة؟

فقلت بألم:

- بسبب والدي، طلقها وتزوج من أخرى ولم يهتم لدموعها وتوسلاتها، رحل من دون وداع على الرغم من جريي وراءه وبكائي له (سالت دمعة من عيني فقطعت مجراها بطرف إصبعي وصمتّ).

-هل أنتِ غاضبة بسبب ما فعله؟

تنهدت قائلة:

- أحياناً أكره والدي، بالرغم من التشابه الكبير بيننا، وأطلقت ضحكة ساخرة وأكملت:

- إنني آخذ من ملامح وجهه، عينيه، شعره ومن طباعه، أشابهه في عناده وفي حبه للحرية، في السيطرة وبطريقته في الحديث، مشيته، ضحكته، إنني نسخة مؤنثة منه.

فقال لي مبتسماً:

- يبدو أنك تحبينه.

فقلت له بحدة:

- لا أنا أمقته، الأمر الذي يضايقني هو أن والدتي كانت مستسلمة له فهي دوماً تقول بأنها تخلت عن دراستها من أجله، لقد تنازلت عن كل شيء وفي النهاية تركها ورحل، إن والدتي غبية، كان يجب عليها عدم التنازل عن كل شيء من أجل رجل.. إنها غبية... غبية.

- وكيف كانت علاقتك مع والدتك؟

- كعلاقة أي بنت بوالدتها.

- أنا متأكد أنها علاقة يسودها جو من التوتر.

- أحياناً كنا نتشاجر، لكنها سرعان ما استسلمت لجنوني وانهمكت في البحث لي عن زوج مثلما فعلت مع شقيقاتي، إنها ترغب في التخلص منا سريعاً.

- ماذا عن علاقتك بشقيقاتك؟

ابتسمت قليلاً وقلت له: كنت أرغب بتقليد نهى وأن أكون طبيبة مثلها ثم رغبت بتقليد نور وأن أصبح عارضة أزياء، وبعدها نمت لدي الرغبة في تقليد نوال وأن أمضي مضيفة جوية لكنني سرعان ما سئمت من هذه التغيرات وكونت لي شخصيتي الخاصة.

- ناهد لقد ذكرتِ لي فيما سبق إنهن أربع فتيات، ولم تتحدثي إلا عن ثلاث والرابعة كيف كانت علاقتك بها؟

هززت رأسي قليلاً كمن تذكر شيئاً وقلت:

- نرجس أصغر أخواتي كانت تبلغ السابعة عشرة عندما توفيت.

- أعتذر لجعلك تمرين بكل هذه الذكريات، لكن هل لك أن تذكري كيف ماتت في هذه السن المبكرة؟ هل كانت تعاني من مرض أو قضت أجلها في حادث؟

نظرت إلى عينيه بتحدٍ:

- انتحرت بسبب الحب، كانت حُبلى،وأنا من قتلتها وسببتُ الدمار لمنزلنا.

- وكيف كان ذلك؟

- دسستُ إحدى رسائلها الخاصة التي بعثها حبيبها في مكتب والدي ولذلك انتحرت.

- كم كان عمرك ذلك الوقت؟

- سبع سنوات.

- هل تحدثتِ مع أحد بعد هذه الحادثة؟

- كلا، إن موتها نذير شؤم، فبعد موتها خيمت سحابة سوداء على منزلنا، كان والدي يلوم والدتي على استهتارها وعدم الاكتراث للعادات والتقاليد العربية وتقليدها الأعمى للغرب مما أدى إلى انتحار أختي خوفاً من الفضيحة.

- هل كان والدك صارماً؟

- في ما يخص الرجال فقط، كان يختلف مع والدتي دوماً بسبب سماحها لشقيقاتي بتكوين علاقات الحب المحرمة مع الرجال وترددهم على مسكننا، مما أثار استياء أفراد عائلة والدي كثيراً وتدخلهم في هذا الموضوع.

- ناهد كنت طفلة في ذلك الوقت، أتكرهين نفسك بسبب موت أختك وتفرق عائلتك، إنك لست الملامة فأنا متأكد من أن ما حدث ليس له دخل بالرسالة أبداً، فتوقفي عن تعذيب نفسك وتصالحي معها.

بعد عدة مناقشات حاول الدكتور تغيير مجرى الحديث:

- ناهد كيف كانت حياتك قبل دخول فيصل إليها؟

- كنت امرأة أخرى طموحة، أحب المطالعة وقراءة الكتب، أبحث عن ذاتي وأطمح أن أجدها في عمل أمارسه وأحبه.

- والآن؟

- أعتقد أنني لا أصلحُ لشيء.

ابتسم وقال:

- ناهد عندما تنظرين إلى المرآة هل تشاهدين نفسك أم تشاهدين شيئاً آخر؟

سكتُّ للحظات وقلت بصوت مكبوت وأنا أحاول أن لا أبكي: أنا أكره فيصل أكرهه، إنه يجعلني أشبه والدتي كثيراً.

- هل تكرهين أن يتم تشبيهك بوالدتك؟

- أنا أمقت ضعفها واستسلامها.

- ونزار؟

- نزار يجعلني أخترق الضباب فأجد نفسي الضائعة، كنت عمياء قبل دخوله الى حياتي، وهو من جعلني أرى جمال الحياة وأرغب في الاستمرار بها، والآن بعد رحيله عدتُ عمياء مرة آخرى وأرغب بالموت.. أنا أكره نزار.

- ناهد أنا في الحقيقة محتارٌ من مواقفك، هل تكرهين والدك أم والدتك أم أنك تكرهين فيصل أم نزار؟

- أنا أكره والدي بسبب خيانته لوالدتي، وأكره والدتي بسبب استسلامها وضعفها له وبسبب إهمالها لنفسها وعدم قدرتها على فهم والدي فتركها، وأكره فيصل لأنه يجعلني أرى نفسي محل كل امرأة ضعيفة لا تستطيع أن تبدي برأيها، امرأة جاهلة تختبئ خلف ظلال الرجل، وأكره نزار لأنه جعلني أجد شيئاً بحثت عنه طويلاً لأعيشه للحظات ويتضح بعدها أنه مجرد سراب وأوهام.

- ونفسك يا ناهد هل تكرهينها؟

فبكيت وأنا أقول له:

- نعم، أكرهها لأنها عاجزة وضعيفة، لقد قتلت نفسي وحطمتها.. أكره كياني.

فجأة تملكتني النوبة فسقطت أمام الدكتور، وعندما نهضت وجدته واقفاً إلى جانبي يفكر، والممرضة تجلس بقربي على الأريكة.

ثم أمسك بيدي وربت عليها بخفة وقال:

- ناهد يبدو أنك مرهقة سأوصلك إلى مسكنك.

أومأت بإشارة تدل على الموافقة وأسندت رأسي إلى حافة المقعد، ثم وقف الدكتور وساعدني على النهوض وأوصلني إلى مسكني.

في اليوم التالي ذهبت إليه، تبادلت معه أطراف الحديث ثم قال:

- ناهد منذ متى وهذه الحالة تراودك؟

- هل تقصد حالة الإغماء، في الحقيقة لا أعلم بالضبط متى، لكنني أذكر أنني كنت طفلة صغيرة عندما تملكتني للمرة الأولى، ولم أكن قد بلغتُ السابعة.

- أعتقد أن هذه النوبة تتملكك في حالات معينة، هل تذكرين متى تراودك بالضبط؟

- امممم تقريباً تراودني عندما يخونني فيصل، وراودتني مرة عندما أمسكني فيصل متلبسة بخيانته، وعندما أتذكر ضعف والدتي واستسلامها لوالدي وينتابني الضيق.

- أعتقد أنها تراودك عندما يرفض عقلك الباطن الحالة التي تمرين بها.

- لا أعلم.

- إن العقل الباطن يختزن الكثير من الذكريات التي مرت عليك في مختلف مراحل حياتك، فبعض هذه الذكريات يرفض عقلك الواعي تصديقها أو تذكرها ولكنها تظل موجودة في عقلك الباطن.

- في الحقيقة لم أستوعب ما تقوله.

- دعيني أشرح لك أكثر.

مثلاً عندما تخشى فتاة من القطط هنالك لخوفها أسباب، وربما

هاجمتها قطة في سن مبكرة من حياتها فنسيت هذا الموقف لكنه ظل عالقاً في عقلها الباطن ويسبب لها الخوف من القطط من دون علمها لسبب خوفها، أي هو من يبعث بمشاعر الخوف لها كلما شاهدت قطة... مثال آخر عندما يصاب شخص بحادث سيارة ويصطدم بمركبة، لنفترض أن لونها أحمر، وطبعاً عندما تسألينه عن لون المركبة تجدينه لا يستطيع تذكرها ولكنه لاشعورياً عندما يصادف مركبة حمراء في الشارع تجدين قدمه تضغط على الفرامل، فعقله الباطن لا يزال يذكر الحادث ويخزنه ويسبب له الخوف من المركبة الحمراء.

- وهل ما يحدث لي بسبب موقف رأيته في حياتي؟

- نعم أنا على يقين تام بذلك، وهذا الموقف حدث في مراحل عمرك المبكرة وسنقوم باكتشافه في الأيام القادمة، لكن في البداية يجب عليّ أن أعلمك كيف تحبين نفسك بدرجة معقولة وتتعلمين كيف تقدرين ذاتك.

- كيف أحبها؟

- إن الإنسان يحب ذاته عندما يقوم بإنجاز عمل يزيد من إعجابه بنفسه، وأظن أنك فقدت هذا الشيء منذ سنوات بسبب قيامك بأعمال تشعرك بالملل والإهانة، اسمعيني يا ناهد عندما تحبين نفسك ستتغير حياتك بأكملها.. ولن تسمحي لأيّ كان أن يقلل من قدرك وقيمتك، سوف تتلألئين كالماسة الثمينة ويشع منك إشعاع النجاح والفخر ولن تورطي نفسك بعلاقات فاشلة، هل تعلمين أن الفتاة التي تورط نفسها بقصص الحب الفاشلة لا تكن أي احترام لذاتها، لأنها لو أحبت نفسها وقدرتها لما سمحت لأي إنسان أن يمسها بسوء ولو بكلمة واحدة، وسوف تجبرُ من حولها على احترامها وفرض ذاتها عليهم، وهنا يأتي السؤال: ما هو الشيء الذي سوف تنجزينه ويجعلك تزهين بنفسك؟ المقصود، أيّ حلم كان يراودك في مرحلة من عمرك، ولكن ظروف الحياة أجبرتك على التخلي عنه.

مررت أصابعي بين خصلات شعري وقلت:

- لا أظنني أملك حلماً أو شيئاً أزهو به.

- ناهد، كل إنسان منحه الله شيئاً مميزاً وموهبة رائعة ولكنه لا يستغلها بسبب عدم قدرته على اكتشافها، إبحثي في نفسك عن شيء تجدين نفسك موهوبة به حتى ولو كان أمراً تافهاً بالنسبة لك أو لمن حولك.

- في الحقيقة كنت أطمح أن أكون مذيعة، وكنت أملك القدرة على الحوار وسبق لي أن شاركت في محطة التلفاز التابعة لمدرستي، ولكنني تخليت عن هذا الحلم منذ سنوات مضت.

نظر إليّ الدكتور بتحدٍ وقال:

- ناهد هل تزعمين أنك عنيدة؟

فقاطعته قائلة: إنني عنيدة.

- أثبتي لي ذلك، إنني أتحداك أن تكوني مذيعة، سأساعدك للدخول إلى امتحان المذيعات، ولكن يجب عليك أن تبذلي الجهد وتساعدي نفسك بنفسك للحصول على الوظيفة وتضعي عنادك وإصرارك وكل الآلام التي مرت عليك والظروف كدافع لنجاحك لكي تثبتي أنك لستِ فاشلة.

فقلت له بثقة:

- أستطيع أن أثبت لك ولغيرك قدرتي على النجاح.

فابتسم ابتسامة كبيرة وهو يقول:

- والأهم أن تثبتي ذلك لنفسك.

***

هاتفني الدكتور وأخبرني بموعد الامتحان، وأمضيت يوماً بأكمله عند الكوافير، وطبعاً قمت بقراءة بعض الكتب حتى أزيد من ثقافتي وبذلت جهداً كبيراً في القراءة.

وحان اليوم الموعود المحدد، كان هنالك الكثير من السيدات الراغبات بهذه الوظيفة، ولكنني أردت أن أثبت للجميع قدرتي في الحصول على هذه الوظيفة وقدمت الامتحان الشفهي وواجهت اللجنة بثقة ثم قدمت الامتحان الكتابي.

لا أعلم ما هي الحالة التي تملكتني في ذلك اليوم، وكيف وضعت كل طاقتي في العناد للحصول على هذه الوظيفة، وبعد مرور عدة أيام تم إبلاغي بنجاحي في الامتحان وحصولي على الوظيفة، كدت أن أطير من الفرح فذهبت إلى الدكتور كي أبلغه بذلك.

دلفت الى مكتبه وأنا فرحة وقلت له:

- دكتور حصلت على الوظيفة.

فنهض ومد يده لي مصافحاً وهو يبتسم:

- ألف مبروك يا ناهد يجب علينا الاحتفال بهذه المناسبة.

- ما رأيك أن أدعوك على الغداء؟

- حسناً ولم لا.

- هيا بنا.

وأثناء تناولي الطعام معه قلت له:

- دكتور أنا أشكرك على مساعدتي للحصول على هذه الوظيفة.

نظر إليّ الدكتور مبتسماً: ناهد حصلتِ عليها بمجهودك، فأنا لم أقم بشيء يذكر، فقط أجريت مكالمة مع صاحبي كي تشاركي في الامتحان وأبلغني أنك أبهرتِ اللجنة بأسلوبك وثقافتك.

أحمر وجهي خجلاً... فقال: أرأيتِ يا ناهد ما الذي يحدث عندما تضعين عنادك في الطريق الصحيح، والآن يجب عليك التركيز على عملك الذي يجب أن تشغلي نفسك به.

(11)

وقت الرحيل

مضت الشهور وأنا منهمكة في العمل واستطعت الحصول على برنامجي الخاص وأمطرت عليّ المحطات فرص العمل، أما بالنسبة لفيصل فلم يكن يبدي أي اعتراض، فعملي أعطاه فرصة لخيانتي وأفسح له المجال كي يطارد الفتيات.

أثناء جلوسي مع الدكتور في مكتبه كنا نتبادل أطراف الحديث ونحن نرتشف الشاي.. فقال لي:

- كيف هي أمورك مع فيصل؟

فأطلقت ضحكة عفوية وقلت له بثقة:

- العمل غيرني كثيراً يا دكتور، وبعد واقعة نزار أحسست بأني لم أعد أهتم بالرجال كثيراً، فإهانات فيصل التي كانت تبكيني سابقاً الآن تضحكني ومحاولاته المستمرة لإغاظتي أصبحت بلا جدوى، فعندما يتركني في مكان ما ويرحل من دون إخباري أصبحت أكمل السهرة وأتعرف على أناس جدد، أمضيت أضحك من فيصل بعد أن اكتشفت أنه مجرد رجل مريض ومهما امتلك سيظل يشعر بأن هناك ما ينقصه.

فقال وهو لا يستطيع إخفاء سعادته:

- عظيم يا ناهد، الآن وبعد أن أحببت نفسك لا تسمحي لأحد بتحطيمك، فقط يبقى أمامك خطوة واحدة.

وضعت الكوب على الطاولة وتساءلت قائلة:

- وما هي؟

- إيجاد حل لعلاقتك بفيصل، فأنتِ الآن لم تعودي بحاجة لأمواله وأمنتِ نفسك من ناحية الاستقرار المادي لكنك تحتاجين إلى الحب والتقدير والى الاستقرار العاطفي.

فقلت له بأسى:

- إنني أنتظر فقط زواجه ممن يختارها ويرحل عني.

بدا الانفعال على ملامح الدكتور وقال:

- ناهد أنت بنت ذكية، جميلة، طموحة، هل تعتقدين أن الفتاة التي سيختارها فيصل لتكون شريكة حياته أفضل منك؟

فأجبته ببرود متجنبة النظر إليه:

- لا.. لكن يجب عليه إطاعة والديه.

فقال بحدة:

- أذكر أنك أخبرتني ذات مرة بإعجابك بالرجل الذي يكون رجلاً بمعنى الكلمة، وخوف فيصل من والديه يعتبر ضعفاً ويخدش رجولته.

ابتسمت وقلت له:

- نعم.

عقد ذراعيه وقال:

- ناهد أنتِ تستحقين أن يكون لك زوج وأبناء، إنه حقك في الحياة، نصيحة مني.. لا تجعلي أي شخص يسلبك هذا الحق، إنك ذكية وتدركين مغزى حديثي، وأنتِ لستِ مدينة لفيصل بشيء فلا تضعي احتياجاته قبل احتياجاتك.

***

مضت الشهور واجتهدت في العمل، لم يعد لدي وقت لفيصل أو غيره حتى استطعت الوقوف على قدمي ولم أعد بحاجة إلى فيصل بعد اليوم، واتتني الفرصة للعمل في إحدى المحطات المشهورة في دولة أخرى، أسعدني ذلك حينها وأدركت أن موعد الرحيل قد حان؛ أعترف أنني صنعت نفسي بمال فيصل، لا أنكر فضله عليّ في كل شيء.. لكنني أحس بأنني سددت ديني معه، فثلاث سنوات ونصف من الإهانات والصفعات والشتائم والعذاب تكفي لتسديد كل هذا الدين.

خلعت دبلته التي مكثت طويلاً في إصبعي لدرجه أنها خلفت أثراً مؤلماً، قلبتها بيدي ومر شريط الذكريات أمام عيني فقطعته قبل أن يشدني الحنين فأهزم امامها.

وضعت الهدية التي اشتريتها له وهي عبارة عن ساعة ثمينة نحت على ظهرها حروف اسمي وأرفقتها برسالة كتبت فيها: "إنني كنتُ ألفظ أنفاسي الأخيرة، ثم أطلق روحي لتذهب إلى خالقها، أموت مراراً وتكراراً عندما تجرحني أو تهينني، لكنني لم أكن أتحدث، كان صمتي جواباً لك، لكن للأسف أعماك الغرور وجعلك عاجزاً عن فهمي أو تحسس حزني، حاولت كثيراً تغييرك لكنني أعترف بعجزي، أعلم أنك عهدتني قوية واليوم أكشف لك عن ضعفي واستسلامي، لم أعد أستطيع العيش في كنفك وأنا على علم بكوني مجرد شيء مؤقت في حياتك إلى أن تجدها، تجد زوجة المستقبل، كيف تتوقع مني أن أعيش وهم الحب معك وأن أعلق كل آمالي عليك وأكتشف أنك مجرد سراب ستتلاشى مع الأيام، صدقني إن حبك كمفعول المخدر بدمي وأنا أموت موتاً بطيئاً ولكني في الوقت نفسه أحاول انتزاعه مني، إنني أصبحت مدمنة على صوتك ولمساتك وعلى وجودك بحياتي.

اليوم أرفض التحدث إليك، وسأجعل القلم يبوح لك عن

أسراري وعن معاناتي معك، عندما أبكي هل تتوقع مني أن أمسح دموعي بالمال؟؟ عندما أريد شخصاً يحتضنني هل تتوقع من المال أن يغمرني بحنانه؟؟ هل أضع مالك أمامي وأحدثه؟؟ أعترف لك بعجزك عن فهمي وفشلك في تغييري، أعلم أنني مهما اجتهدت لن أحظى باحترامك يوماً، فكيف تحترم سلعة ابتعتها بمالك؟؟؟ إنني لا ألومك بل ألوم نفسي على غبائي واستهتاري والسماح لنفسي أن أكون عشيقة رجل مثلك، أعترف أنني حطمت نفسي بنفسي وقتلت بسمتي وكرهت أفكاري فعاقبتها أنت بسجن أبدي... فكنت مأمور السجن، حتى تعلمت أن أحب نفسي وأؤمن بها وبقدراتها.

إننا كعصا المغناطيس عالقين ببعض، أنتَ ترفض التنازل عن مالك وعائلتك وعراقة نسبك وترضى بي كزوجة، وأنا أرفض أن أتخلى عن حريتي ومبادئي وأكون مجرد زوجه محاطة بأربعة جدران، كما قلت إننا مرتبطان ببعض كالمغناطيس، نحن عالقان ببعض، أنتَ اللون الأحمر بأنانيته وأنا اللون الأزرق بتضحياتي ويجب علينا الخضوع للواقع والتيقن بأننا لن نجتمع أبداً ولن نتقابل، ولكن سوف نظل ملتصقين ببعضنا بعضاً، ولأجل ذلك.. كان قراري.. قررت التحرر والرحيل من حياتك وإلى الأبد.

إنني على يقين من أنك سوف تتهمني بالجحود لكنني بريئة من ذلك، فأنا مجرمة بسبب سماحي لك بتعذيب قلبي وغسل دماغي حتى جعلتني أدرك وأؤمن أن عملي الوحيد هو إرضاء غرورك كرجل، لقد سئمت من تمثيل الدور وسئمت من ضعفك وخوفك من البوح بمشاعرك تجاهي أمام الجميع، اليوم سأترك العز وأترك الثراء وأجري خلف طموحي وأحلامي؛ إنني أتخلى عن كل ذلك كي أثبت لك قدرتي على مواجهة الحياة وحدي ومن دون أموالك، إنني أتخلى عنها لأسترد كرامتي ولأتصالح مع نفسي وأحررها من عبوديتك، لقد عادت ناهد بشقاوتها وقوتها وطموحها وأفاقت من غيبوبة الحب التي وضعتها

بها وماتت ناهد الضعيفة الخاضعة لك ولأموالك، أشكرك يا فيصل على أتعس أيام حياتي.. فهي التي صنعتني.. وكما أردتها أنت وأقول لك اليوم وأنا أداعبك برياح الرحيل، اعذرني فأنا لم أحببك يوماً ولكنني أحببت الحب نفسه وخنتك مراراً وتكراراً مع الحب عندما بادلته الشعور ولم أتشوق إلى معرفتك لكنني تشوقت لأن أخوض التجربة وأتذوقها... الوداع".

حزمت أمتعتي وودعت شقتنا الصغيرة وصعدت إلى الطائرة تاركة حبه وقناعي الذي أرتديه لسنوات لأرضيه خلفي واختفيت عن حياته، أرهقت نفسي في العمل بحيث لم أترك وقتاً للحب بعد أن اكتشفت أن الحب مجرد خدعة يستعملها الرجال كي تسقط الضحية في شباكهم، وطبعاً لم أنسَ الدكتور، وكلما سنحت لي الفرصة ترددت عليه.

مرّت السنوات وأنا على هذه الحال من العمل الدؤوب والمتواصل وأنا أخطو على سلم المجد والنجاح والشهرة، والآن أصبحت أمتلك شقة فاخرة في وسط المدينة وأعود كل ليلة وحدي، واحتضن وسادتي فهي أفضل من حضن ألف رجل، كان يزورني طيف نزار في أحلامي.. فأتخيل أنني معه في منزلنا تحت الشجرة الكبيرة، وأننا صعدنا على الأرجوحة الكبيرة وظللتنا أغصان الشجرة وداعبنا هواء سويسرا النقي، كنت أتعذب كثيراً عندما أصحو من النوم بعد ليلة كان هو بطل أحلامي وللآن أتساءل أين هو؟ وما حاله؟ هل لا يزال يذكرني أم أصبحت بالنسبة إليه من صفحات الماضي المطوية؟

(12)
سامحني قلبي ليس للبيع

كعادتي اليومية أجلسُ في الشرفة كل صباح أشرب القهوة وأتصفح المجلات والجرائد؛ سقط الفنجان من يدي وفاجأني ما رأيته، أمسكت الجريدة وغادرت على عجل، وكالمعتاد قادتني قدمي إلى الدكتور، دخلت مكتبه من دون استئذان:

- دكتور.. دكتور.. آه.. آه.. يا دكتور.

نظر إلي مبتسماً:

- ناهد، ألا تغيرين من طباعك أبداً؟

- لقد تزوج يا دكتور.. تزوج، وتملكتني نوبة بكاء وأنا أسقط على الكرسي.

- ومن الذي تزوج يا ناهد؟

رميت الصحيفة على الطاولة وقلت له: أنظر.. أنظر..

فنظر إليها ثم ضحك:

- هل تبكين بسبب زواج فيصل؟؟ ناهد لقد انتهت علاقتكما منذ سنوات مضت.

صرخت في وجهه: أعلم.. لكنني لم أكن أؤمن بنسيانه لي بهذه السرعة.

- ناهد اعقلي.. أنتِ رحلتِ عنه من دون وداع.

نطقت متذمرة:

- كلا، لقد تركت له رسالة.

وقال بسخرية:

- وترفضين الاعتراف بأنني على حق، أنا على علم بطباعك وأكمل، أنظري إلى معصمه، فهو لا يزال يرتدي الساعة التي قمت بشرائها له.

قفزت من مكاني وأمسكت بالصحيفة:

- نعم... إنها هي، هذا يدل على احتلالي لذاكرته مهما طال الزمن.. إلى اللقاء. لا أعلم كيف صدقته في ذلك الوقت فقد تبين أنه كان يسخر مني.

صاح بي الدكتور أثناء خروجي:

- ناهد.. وقال مازحاً يا مجنونة تعالي لزيارتي غداً.

في اليوم التالي حددت موعداً وذهبت إلى الدكتور:

- أهلا وسهلاً يا ناهد ما أخبارك اليوم؟؟؟

- بخير.. ولله الحمد.

- وما أخبار حياتك العاطفية؟

تنهدت بقوة:

- لا أزال أعاني من الفراغ العاطفي.

- عزيزتي ناهد أنتِ تملكين قلباً طيباً وأنتِ امرأة حنونة، لكن المشكلة تكمن أن مستوى العاطفة لديك مرتفع قليلاً.

- هل هذا يعتبر مشكلة كبيرة؟

- كلا يا ناهد لكن يجب عليك أن تتعلمي أين تفرغين هذه العاطفة؟ والأهم أن تبحثي عن الأشخاص المناسبين.

- في الحقيقة.. لم أستوعب ما تقوله.. أوضح لي الأمر أكثر.

- هنالك الكثيرون ممن يحتاجون إلى الحنان والعطف.

- مثل من يا دكتور؟

- اسمعيني يا ناهد، أنتِ لديكِ فراغ عاطفي ويجب عليكِ أن

تتعلمي كيف تملأينه من دون أن تسيئي إلى نفسك، سوف أريك غداً صباحاً الطريقة المناسبة لملأ هذا الحيز وسوف تشعرين بكل الرضا عن نفسك.

- حسناً يا دكتور غداً سأمر عليك صباحاً.

في اليوم التالي اصطحبني الدكتور إلى مبنى قديم كتب على لافتته الكبيرة المعلقة أمام مدخله دار الأيتام.

فقلت له متسائلة:

- دكتور، هل سوف تجعلني أتبنى طفلاً؟

فنظر إليّ من طرف عينه وقال:

- لا.. يا ناهد اصبري ولا تتعجلي.

عندما دخلت كان هناك عشراتٌ من الأطفال الصغار، ألقيت التحية على المديرة وجلسنا معها في المكتب فقال الدكتور للمديرة:

- هذه ناهد التي حدثتك عنها.. وسوف تكون عند حسن ظنك،

ثم نظر إليّ وأكمل:

- ناهد عزيزتي، أريدك أن تأتي كل يوم وقت فراغك لتجلسي مع هولاء الأطفال.

- حسناً ولكن لماذا؟؟

- افعلي كل ما أطلبه منك وتأكدي من أنك لن تندمي.. والآن سوف أتركك هنا.

- حسناً.

جلست مع الأطفال وآلمني كثيراً ما شاهدته، رأيت أطفالاً بريئين، براعم صغيرة.. تبدو عليهم التعاسة، نظرتُ إلى ملابسهم وطعامهم ولعبهم القديمة والدار المتآكلة بحسرة وسألت المديرة قائلة: لماذا الدار على هذه الحال؟

فأجابت بأسى:

- بسبب قلة الدخل، فقد جفت أنهار المتبرعين منذ زمن وعدد

الأطفال في تزايد والميزانية بسيطة، حاولت جاهدة طلب المساعدة من الجهات المختصة ولم أجد إلا الوعود.

شعرت بالخجل وأنا أنظر إلى نفسي وملابسي الثمينة التي بثمنها كنت أستطيع إدخال البهجة على قلوبهم الصغيرة، وأدركت كم أنا تافهة أعطي الحب لمن لا يستحق وكيف أنفق المئات على ملابس أرتديها لمرة واحدة. جلست مع الأطفال وكنت أستمع إلى أحلامهم وأمنياتهم، وفي اليوم التالي أحضرت معي بعض الألعاب والحلويات وناقشت المديرة بتخصيص حلقة تلفزيونية مخصصة نجمع من خلالها التبرعات لصالح الأطفال، واقترحت على مديري في العمل الفكرة ولاقت استحسانه، واستطعنا جمع الأموال من القلوب الرحيمة لأجل هؤلاء الأطفال الأيتام.

كالمعتاد ذهبتُ لزيارة الدكتور فقال لي:

- حدثيني يا ناهد ما رأيك بفكرتي؟

- في الواقع أنا فخورة بما أنجزته وقررت زيارة الأطفال في المستشفيات والمشاركة في الجمعيات النسائية التي تدعم المرأة والطفل.

***

كنت في مسكني أنظر إلى صوري التي تجمعني بالأطفال وأعلم أنني وجدت ذاتي لمساعدة الآخرين وإدخال الفرحة على قلوبهم، وضعت عاطفتي كلها لمساعدة الضعفاء والأيتام المحتاجين.. وبذلك أصبحت أزهو بنفسي ولم أعد لأخطائي السابقة لأبحث عن رجال مدمرين أسهموا في تحطيمي وتحطيم ذاتي.

أعترف أنني كنت مريضة في يوم من الأيام، واحتاج علاجي سنوات طويلة كي أتخلص من كل الحقد والكراهية التي أكنها للحياة..

وتوطدت علاقتي بالدكتور ولم تعد مواعيدنا تنحصر على المكتب فقط، كنت أرافقه إلى المحاضرات والندوات وأستشيره في كل أموري.

وأثناء جلوسي معه قال:

- ناهد ما أخبار النوبة التي كانت تصيبك.

فابتسمت وقلت له:

- اووووه إنها لم تعاودني منذ فتره طويلة ولكن الحلم لا يزال يعاودني.

- يجب علينا حل لغز هذه النوبة والبحث عن أسبابها الحقيقية.

- وكيف لنا ذلك؟

- بذهابك إلى المصدر، ثم تساءل قائلاً: ناهد منذ متى لم تزوري وطنك؟

- منذ سنوات طويلة.

- ألم يحن الوقت للعودة إلى ديارك؟؟

ضحكت قائلة:

- هل تريد التخلص مني يا دكتور؟

- لا يا ناهد.. أقصد أن تزوري عائلتك وتكتشفي سبب النوبة، فأنا على يقين من أنها مرتبطة بعائلتك.

- سأفكر في الأمر.

- عزيزتي.. أنتِ شجاعة ولا تخشين شيئاً، هل تعتقدين أن والدك لا يزال غاضبا منك؟

- كلا.. لقد كنت أجري مكالمة لشقيقاتي.. ومن حين لآخر أهاتف والديّ لكنني لا أملك الرغبة بلقائهما.

- ناهد إنكِ تملكين الفرصة الآن فلا تضيعيها من يديك حتى لا تكملي مشوار حياتك وأنتِ في حالة شك.

- مشكلتي تكمن في عدم قدرتي على كشف مراوغتك

وخداعك.. لأنك دوماً على حق، سأفكر في إجازة لأنطلق الى مسقط راسي.

بعدها بأسابيع حزمتُ أمتعتي وتوجهت إلى سويسرا.

كانت أول محطاتي هي زيارتي المفاجئة لوالدي، عندما نظر إليّ ارتعش جسده واقترب مني، وضع يديه على وجهي وأمسكني بقوة كأنه يحلم: ناهد ابنتي؟

حادثته بفتور مجرد من المشاعر: نعم يا أبي إنها أنا.. ناهد.

جلستُ بالقرب منه أحاول أن أجهض الكلمات وأرسم الابتسامة على وجهي.

كان يتحدث عن أحداث عائلتنا حتى قاطعته: أبي هناك سؤال أريد إجابتك عليه وبصدق.

- ما هو يا عزيزتي؟

- لماذا طلقت والدتي؟

- لماذا ترمين عليّ كل اللوم ولا تفكرين ولو للحظات، فربما لا أكون أنا من أراد الطلاق وهي التي نشدته؟؟! اسمعيني يا ناهد، لقد أصبحت كبيرة لتعلمي الحقيقة، إن والدتك هي من طلبت الطلاق وافتعلت المشاكل حتى حدث ما أرادت، وبمجرد وقوع الطلاق وانتهاء مدة العدة حتى تزوجت والدتك بالسر، لقد كانت على علاقة مع رجل آخر وأرادت الطلاق مني لأجل الزواج به.

نهضت من جانبه منتفضة وصرخت في وجهه:

- لا أصدقك إنك كاذب، والآن دعني وشأني.. لقد أخطأت بزيارتي إليك وخرجت من عنده غاضبة.. ألا يكفيه كل ما فعله بوالدتي والآن يتهمها بالخيانة.. وصلت إلى البيت ودلفت من دون استئذان، فجأة سمعت والدتي تضحك كمراهقة صغيرة واتجهت إلى مصدر الصوت فوجدتها جالسة في غرفة الجلوس مع عمو عصام وكان يقبلها، استغربت من منظرها: ماما! ما الذي يحدث؟

فصاحت والدتي بدهشة:

- ناهد..؟؟.. ناهد.. حبيبتي.. وأخيراً التم شملنا من جديد؟؟.. ما أجملك يا ابنتي لقد كبرتِ وأصبحتِ شابة جميلة.

اقتربت مني وحاولت احتضاني، صددتها وقلت لها: ماما أجيبيني لماذا يقبّلك عمو عصام بهذه الطريقة؟؟ إذن والدي كان محقاً، أنتِ متزوجة؟؟!

ومسحت على رأسي وهي تقول:

- ناهد ابنتي إجلسي لنتحدث.

في تلك اللحظة أحسست بغضب عارم لم أستطع السيطرة على أعصابي، فصرخت باكية وكادت النوبة أن تتملكني.. فجأة بدأ قطار الذكريات يلوح لي، وتذكرت أنني سبق وشاهدتها مع عمو عصام في وضع حميم لكنني رفضت تصديق هذه الصورة المشوهة وأتاني صوت والدتي:

- لا تبكي يا حبيبتي، لم أرد أن أخبرك بموضوع زواجي، وجهدت وشقيقاتك بإخفاء الموضوع عنك حتى لا تتضايقي.

فقلت بلهجة غاضبة:

- أخواتي كن يعلمن.. ومن غيرهن، ثم لوحت بيدي متسائلة: هل كان الجميع يعلم؟

- حبيبتي كنتِ مراهقة عنيدة وحساسة للغاية وخشيت أن يصيبك مكروه.

- آها.. الكل يعلم إلا أنا، إذن كنتُ الوحيدة المغفلة بينكم.. تعمدتِ إلقاء اللوم على والدي وغرستِ الكره في قلبي تجاهه طوال كل هذه السنين واتهمتِه بالخيانة.. وفي النهاية أراك أنتِ الخائنة.

- عزيزتي.

دفعتها قائلة:

- دعيني وشأني.

اتجهت إلى غرفتي واستلقيت على فراشي واستسلمت للبكاء إلى أن غلبني النوم.

كانت الساعة تشير إلى الخامسة مساءً عندما أيقظتني والدتي وأخبرتني بقدوم شقيقاتي، وعندما همت والدتي بمغادرة الغرفة قلت لها:

- أمي.. أين ذهبت هذه المرأة التي كانت تسكن هذه الغرفة؟

فاستدارت ونظرت إلي بدهشة:

- ناهد.. هل أنت بخير؟؟؟

ضحكت على والدتي وقلت: لا عليك، اتركيني قليلاً سألحق بك بعد قليل.

نظرت في ما حولي وشعرت بالراحة والأمان كطائر مهاجر عاد إلى عشه.. فتحت خزانتي وأدراجي وتأملت غرفتي وابتسمت، يا ترى أين أنا؟ في أي زاوية تكمن شخصيتي القديمة؟ نظرت إلى صوري واطلعت على مذكراتي؛ في الحقيقة عجزت على فهم شخصيتي القديمة، كنت أظن أنني أعلم كل شيء وعندما واجهت الحياة اكتشفت كم كنت جاهلة وحمقاء.

لقد غيرتني الحياة كثيراً.. ضحكت على صوري وتعجبت من جرأتي ومن ذوقي في اختياري للملابس، قرأت مدوناتي واكتشفت كم كنت غبية وعنيدة وسطحية في فهمي للحياة بأنها سهلة.

ناهد.. ناهد..؟ (سمعت من يناديني) فخطوت نحو غرفة الجلوس واستقبلتني عائلتي بالقبلات والدموع، أحسست بأنني امرأة غريبة بالرغم من تواجدي وسط الجميع، لكني لم أكن قد تعرفت بعد على حشود الأطفال الذين كانوا يثيرون كل هذه الضجة في البيت.

حادثتني إحدى شقيقاتي: ناهد ألا تزالين للآن على عنادك، وترفضين الزواج؟؟ ألا تشتاقين إلى زوج يحميك من مصائب الدنيا وأطفال يملأون عليك حياتك؟

عقدت ذراعي ونطقت بكبرياء:

- أنا أحمي نفسي بنفسي.. وعملي يملأ عليّ حياتي، دعيني هكذا فهذا أفضل لي، فأنا لا أحتاج لزوج ينكد عليّ وأطفال يجلبون لي الصداع.

ضحكت والدتي وقالت: ناهد ابنتي لم تتغير أبداً.

قبل موعد رحلتي حدثت والدي واعتذرت له عن سوء تصرفي وطلبت منه زيارتي في المدينة التي أقيم فيها، وفور عودتي.. لم أخفِ عن الدكتور شيئاً.. فأخبرته بكل ما حدث.

- دكتور لقد كادت النوبة أن تتملكني لكنني استطعت اجتيازها.

- حقاً وكيف ذلك؟

- لا اعلم؟

- ناهد لقد سبق وأن أخبرتني بتردد عمو عصام على منزلكم منذ أن كنت طفلة.

- نعم أذكر ذلك.

- هل كانت النوبة تتملكك عندما يزوركم؟

قطبت جبيني محاولة التذكر ثم قلت:

- أظن ذلك، لقد استفسرت والدتي عن هذه النوبة وقالت لي إنها كانت تصيبني منذ أن كنت في الخامسة من العمر.

- ألا تستطيعين العودة إلى الوراء كي تتذكري ما كان يحدث قبل أن تتملككِ النوبة.

سكتُّ قليلاً أفكر.

فقال: هل أساعدك يا ناهد... ألم تشاهدي والدتك معه أثناء غياب والدك؟

صمتُّ قليلاً ثم قلت: أحياناً تلوح لي هذه الصورة، ولكنني كنت أطردها من ذهني وأرفض تصديقها.

- لكنه الواقع، وسبب إصابتك بهذه النوبة هو مرور هذه الصورة في عقلك الباطن ورفض عقلك تصديقها فتقعين ضحية للنوبة.

- إذن سبب نوبتي هو خيانة والدتي.

- نعم أنتِ لم تكوني تكرهين والدتكِ بسبب ضعفها واستسلامها، فهذه الأمور مجرد غطاء، كنتِ تكرهينها بسبب إدراكك للواقع على الرغم من رفضك تصديقه وتدركين أنها هي الخائنة وليس والدك لكنك رفضتِ تصديق هذا الأمر، وظلت الصورة عالقة في عقلك وتسبب لك نوبات هستيرية.

سكتُ للحظات أفكر فقال:

- ما حدث يا ناهد كان درساً لك، ظلمتِ والدك لسنوات ورفضتِ البحث عن الحقيقة وتسرعتِ باتخاذك القرار والنظر إلى الأمر من جهة واحدة، أرجو أن تتعلمي عدم اتخاذ قرارك للأمور على عجل فيكون حكمك عشوائياً ومن ظواهر الأحداث فربما يكون حكمك خاطئاً وتظلمين من حولك من دون الشعور بذلك.

- حسناً لقد استوعبت الموضوع تماماً وتعلمت من أخطائي.

- هل تعلمين ما يقوله المثل في هذا المقام؟

- ماذا يقول؟

- "الغائب عذره معه".

- تقصد من يا دكتور؟

- أقصد نزار.. فربما كان حكمك خاطئاً أيضاً.

- ولماذا اختفى إذن؟؟

- لا أعلم.. لكن يجب عليك البحث عن الحقيقة قبل إصدارك لأحكامك جزافاً مثلما حدث مع والدك، لقد حملت في داخلك كرهاً شديداً للرجال، وعملت على تشبيههم بوالدك لدرجة أنك زرعت الخوف في نفسك وأصبح لديك كل هذا الكم الهائل من الرهبة من الزواج إسقاطاً لما يمكن أن يحدث لك كما حدث مع والدتك، وجاء اليوم لتكتشفي بنفسك أنك كنت مخطئة تماماً في استنتاجاتك، وأن والدتك لم تكن هي الضحية بل كانت هي الجانية، ربما لن تتقبلي

هذا الكلام مني ولكنها هي الحقيقة على الرغم من مرارتها، أليس هذا أفضل بكثير من أن تعيشي في جو كئيب من الأوهام.

- سوف أفكر بكلامك والآن اعذرني.. سأتجهز للسفر.

كعادتي كنت أسافر كثيراً في إجازاتي حتى التقيت بفيصل مصادفة في إحدى الدول الأوروبية، همست لصاحبتي "نور" أنظري هناك.. لقد كنت في يوم من الأيام مجنونة بغرام هذا الرجل.

قالت:

- الرجل الذي يرتدي القميص الأزرق؟

- نعم.. إنه هو.. لقد كنت أتهرب منه منذ سنوات.

- إنه ينظر إليكِ.

- نعم من الأفضل لنا مغادرة المكان بسرعة.

- ناهد، لم تخبريني عنه من قبل؟

- إنها قصة طويلة.. لكن وكما يقول المثل "من لم يرضَ بجعلي كحلاً لعينه أرفض أن أجعله حتى حذاء لقدمي".

بعدها بأيام كنت أجلس في المقهى ولمحت فيصل قادماً نحوي فاضطربت حواسي، وعندما اقترب مني ألقى عليّ التحية ثم جلس بالقرب مني وباشر بالحديث: ناهد.. منذ عدة أيام وأنا أنتظرك في هذا المقهى، ووصلتني أخبار تمضية وقت فراغك هنا.

مد يده وقدم لي علبة لأفتحها، دهشت عندما وجدت فيها دبلتي التي أعدتها له في يوم من الأيام.. نظر إلي طويلاً وقال:

- ناهد.. هل تتزوجينني؟؟

ابتسمت وباشرته بالقول:

- سامحني يا فيصل.. فقلبي ليس للبيع.

ونهضت من مكاني ثم خطوت مبتعدة عنه، وأنا أحتضن معطفي.. ضحكت في داخلي.. وابتسمت من كل قلبي، لقد انتصرت عليه واكتشفت أنني لم أحب فيصل ولا نزار لكنني وقعت ضحية للحب

والبحث عن ذلك الشعور الرائع كما هو الحال مع الكثير من البشر الذين يكتشفون، وبعد سنوات طويلة، أنهم في وهم نسجه الحب لهم وأخضعهم له لسنوات.

إنني أشكر فيصل وأشكر نزار فهما في يوم من الأيام قتلا قلبي حتى أصابتني مناعة من الحب.. إنني بفضلهما اليوم امرأة قوية ولم أعد مراهقة تهزني كلمات الأغاني والمواويل، لكن أتمنى أن يسامحني فيصل بسبب جحودي ونكراني له لكنني أرفض أن أبيع قلبي له من جديد ولا أزال أتساءل عما حدث لنزار.

تعلمت أن لا أحكم على الأحداث من ظواهرها بل أبحث في أعماقها فربما أجد الحقيقة، لقد ساعدني الدكتور كثيراً واستطاع فك عقدي واحدة تلو الأخرى فاستطعت التقدم في حياتي وتحقيق نجاحاتي.

إنني أسير وأحمل شعاراً جديداً في الحياة وهو.. " قلبي ليس للبيع ".

رفعت هاتفي المتحرك وهاتفته: ألو ألو.... دكتور لن تصدق ما حدث.

وهنا استدعتني السكرتيرة قائلة إنّ الدكتور في انتظارك، فتساءلت قائلة يا ترى ألا أزال أحمل هذا الشعار... هل حقاً إن قلبي ليس للبيع؟؟؟؟؟؟؟

***

الشخصية الثانية

فيصل

كل شيء في الحياة قابل للبيع والشراء.

عزيزتي المرأة، إذا أردتِ الارتباط برجل فاستفسري عن طفولته، فهي من صقلت شخصيته الحقيقية التي يحاول دوماً إخفاءها.. ولكنها سوف تظهر بشكل واضح بعد الزواج.

عزيزتي الزوجة لا تلومي زوجك على قسوته بل ابحثي عن الأسباب.

(13)

أسكنُ بين ذكرياتي

كانت الشمسُ الحزينة تختبئ خلف السحاب ثم تطلُّ لثوانٍ لترسل أشعتها كالقبلات الخجولة الحنونة إلى الأرض ثم يحجبها السحاب مرة أخرى؛ كان الضباب مخيماً على الجو وكانت الأرض الرطبة توحي أن السماء بكت بالأمس ولكنها لم تبكِ لوحدها فالعشاق شاركوها البكاء.

نجتاز الطرقات والمنازل حتى نصل إلى أحد المطارات الأوروبية، وفي الزحام، وبين ممراته الواسعة المختلطة بشتى أنواع الأجناس، من خلال أجهزة التفتيش الدقيقة، وفي أسواقه المفتوحة وبين وجوه المارة وبين أصوات المضيفات اللاتي يعلنّ عن موعد الرحلات، يجلس رجل في الثلاثينيات من العمر على أحد المقاعد المتناثرة في أرجاء المطار ويفرد قدميه أمامه، وفي عينيه نظرةُ فراغ، ملامح وجهه تظهرُ انكساره، ويحمل بين أصابع يده خاتماً ذا فص ألماسي، ينظر إليه للحظات ويقلبه بين أصابعه، ثم يضعه في حجر كفه ويضغط عليه بقوة فيتوهم أن الحزن اجتمع في هذا الخاتم فيخنقهُ محاولاً جعله يلفظ أنفاسه الأخيرة، ثم يرفق لحاله فيشيح بنظره عنه بألم. لقد أصبح هذا الخاتم بالنسبة إليه كجمرة تحرق قلبه أكثر مما تحرق أصابعه وتؤلمه كلما نظر إليها.

لكن من هو هذا الرجل؟

إنه فيصل، ذو الملامح الرجولية، والتقاسيم الصلبة، ذو عينين يسطع منهما بريقُ الذكاء، وأنف بارز يخترق السماء من شموخه، وشعر امتزج فيه وقار الشيب فغدا تاجاً يتوج رجولته؛ جسمه متناسق رياضي يبدو أنه رسم بفرشاة فنان.

لنقتحم أعماقه بقوة ونستعمرها، لنمتلك بصره ونخضع حواسه ونسرق سمعه، لنمتزج به، لنعرف خفايا هذا الرجل ذي الملامح القاسية، لعلنا ندرك وجهة نظره ونستوعب أفكاره.

فأتانا صوته الحزين متحدثاً:

هل تعلم ما هو الشيء الذي يجعل قلوبنا تنبض بالحياة، الأمر الوحيد الذي يجعل قطعة اللحم التي تدعى قلباً تضخ بالدماء وتتميز حيث يتعلق توقفها بتوقف الحياة، الشيء الذي يكون بمثابة أمل لك لتنهض من نومك وتتجول في الشوارع تبحث في وجوه الناس عن شيءٍ ربما فقدته، الشيء الوحيد الذي يبعث الروح في حواسك فيجعلك ترى العالم بنظرة لم تعهدها من قبل وتشعر بأشياء لم تدرك وجودها يوماً. وعندما تخطو في الطرقات تشعر أن قدميك لا تكادان تلامسان الأرض وأن رأسك أصبح بين السحاب فلا تسمع من ضجيج الدنيا شيئاً، وما أن تستنشق الهواء حتى تجد أن صدرك مليء بعبير رائع لا يوجد له مثيل.

إنه يا عزيزي عبيرُ الحب، إن الحب عندما يستوطن قلبك ويخضعه مهما قاومته يجعلك إنساناً آخر تنظر إليه في المرآة فلا تتعرف عليه، في عينيه بريق السعادة وبشرته تشربت بالحب وعلى شفتيه بقايا من همسات العشق، يجعلك كإنسان منوم مغناطيسياً تحت سحر عيون المحبوب، إنسان مدمن يشتاق لأخذ جرعاتٍ من الحب.

إن الحب يخلقُ الرحمة في قلوب البشر، وأين ما كان نجده يملأ المكان بالبهجة والسرور، إنه داء ودواء، شقاء وسعادة، لقاء وفراق ومن لم يغزُ قلبه الحب لم يعرف معنى الحياة.

إنه يجعلنا مميزين، فنحن نشعر أن هناك من ينتظرنا ويخشى علينا ويضحي بحياته من أجلنا ويصيبنا جنون العظمة في ما يتعلق بالمحبوب فنعتقد أنه إنسان آخر لا يخطئ، لا يكذب، إنه ليس بشراً.. إنه طاهر ونقي، إن الحب لا يعمي أعيننا بل يجعلها ترى الجمال والإيجابيات بشكل أوضح، يخفي العيوب ويطهر القلوب، هذا هو الحب.

عندما تجد إنساناً قاسياً عديم الضمير بثّ في شرايينه الحب ستراه يصابُ بمسٍ من العشق وسيتحول إلى إنسان آخر لم تعهده يوماً، وهذا ما حدث معي عندما تذوقت طعم الحب.

إنني عندما أحببتها كنت أتضور جوعاً للعشق، كنت جائعاً لدرجة الموت وأرغب بتناول الحب، آه لو تدرك هي فقط كم أردت أن أجعل حبنا يكبر في دنيا مليئة بالكراهية.

إنني كنت دوماً كرجل ذي علاقات نسائية متعددة، أجيد لغةَ الجنس الناعم وأتفنن في استخدام الكلمات ولكن معها هي بالذات أصبحت أبكم لا أكاد أنطق بحرف أمام سحر كبريائها.

هل تدرك الإحساس عندما تتوق إلى شيء حتى درجة الموت ويكون بالقرب منك، أمامك بين ناظريك ولا تستطيع أن تلمسه، كصائم ينظر إلى طعامه فيسيل لعابه لكنه لا يلمسه بسبب وجود حاجز يفصل بينهما، هكذا كنا، إن الحاجز الموجود بيننا كان عقلنا... مبادئنا... وطباعنا.

إنها هي التي كانت مستقبلي.. محت جراحي وماضيّ بقبلاتها.. هي من رسمت قدري وشكلت قلبي فتحول إلى قطعة من العجين بين يديها تلعب به كيفما تشاء.

كم يلزمك يا ترى من قسوة لتواصلي بعدك عني، إن قلبي هو عش الغرام.. فتعالي يا عصفورتي الجميلة لتسكني بين ثنايا القلب، لأحميك بين ذراعي... تعالي يا من شغفني حبها عن العالم، يا من

رحلت وفي حقيبتها حواسي وسعادتي، يا من سرقت الروح، أرجوك عودي إلي، اسقيني حبك، اعصفي بقلبي بنوبات جنونك لكن... لا تتركيني.

إنني رجلٌ ثمل ثملتُ حباً، أبكي فتتساقط دموعي لتشكل نهراً يحمل ذكرياتي وماضي، وأرى صورتها تتراقص على سطحه، إنه نهرٌ من ثمالة الحب.

أثناء جلوسي في ردهة الانتظار سرت الرعشة في جسدي وأنا أنظر إلى هذه الأرض الصلبة المنتشية بالبرودة التي تزيد من إحساسي بالوحدة.. تركت لعيني العنان لتتفقد ما حولها، فها هنا طفل صغير يبكي محاولاً استدراج عطف والدته، وهناك فتاة آسيوية فرحة تلتقط الصور لرفيقاتها، وهنالك يجلس رجلٌ طاعن في السن يقرأ أحد الكتب، والناس يمرّون جيئة وذهاباً وأنا جالسٌ انظر لما حولي، مجرد وجوه تمر أمامي من دون أن أرى ملامحها، فكل شي تلاشى وغدا طيفها يستعمر كل الوجوه التي أنظرُ إليها.

***

يا للأسف إني في يوم حبيتك
قلب وإحساس وعمر عطيتك
في كل طيف يمر أتخيلك
وعيون تشكي تقول ودها تلمحك
وأقول آه يا قلب وين ساكنك

***

إن الحياة مستمرة والزمن يكمل خطة سيره وكل شيء يبدو طبيعياً، ولكن بالنسبة لي أشعر أن الزمن توقف وإحساسي بالوقت تلاشى، فالصدمة الواقعة عليّ أفقدتني الإدراك بما يحدث حولي.

بعد مرور بعض اللحظات الكئيبة قررت الاتجاه نحو الحانة الموجودة في المطار، فلا يزال هناك متسع من الوقت على موعد رحلتي، خطوت بضع خطوات ثقيلة كأنني جثة هامدة لا تقوى على الحركة، وبعد مشقة استطعت الوصول، جلست في زاوية الحانة مع ذكرياتي وعندما تناولت أول كؤوسي رأيتها تطل منه بابتسامتها، ارتشفت ذكرياتها وتركتها تجري في دمي لتنقلني إلى ماضيّ علها تعلم به فتعذرني.

هل أنا السبب؟ هل أنا المخطئ؟ أرجوك يا ناهد استوعبيني، وبعينيك احتويني وانتشليني من بحر الأحزان الذي تركتني أغرق في لجتّه، إرمي بأشواقك لي لأتمسك بها فتكون لي الأمل.

إجمعي أشلاء قلبي الذي دهسته قدماك بلا رحمة، فقط افهميني أو أتركك أنت يا من تقرأ وتعيش بين سطور ماضيّ أن تتلطف بي.

نعم إن اعتقادي في الحياة هو أن كل شيء قابل للشراء والبيع، إنني لست برجلٍ مادي لكنني رجل واقعي، أرجوك لا تلمني، فقط إسمع حكايتي قبل كل شيء، ومن أين أتى شعاري في الحياة؟

عندما أتيت إلى هذا العالم لم أولد إنساناً قاسياً، كنت طفلاً حنوناً جداً، ذا روح نقية طاهرة تشابه الورقة البيضاء ولكنها تلوثت وتلونت، فما الذي أصابها حتى أصبحت سوداء كدجى الليل.

لا يوجد إنسان طيب ولا إنسان شرير بل توجد ظروف صقلت نفسه البشرية فتكونت شخصيته.. عندما فتحت عيني على الدنيا، وقع نظري على أول حب، الحب الطاهر... حب الأم، نعم هي من عشقتها وكبر هيامي بها مع ازدياد سنوات عمري، أحببت شعرها المعطر بالياسمين، همتُ بها، أحببتها وأنا أجري خلفها في حديقة منزلنا فأمسك بشعرها الأسود المنسدل حتى ركبتيها فيتسلل كالماء من بين يدي ونفترش أرض الحديقة ونجلس فوق العشب الأخضر.

كانت ضحكاتنا تملأ المكان وتحيط بنا هالة من السعادة حتى

أجدها تتجمد فجأة من دون سابق إنذار وتقف بخوف وتسحبني من قميصي لأقف بجانبها ثم تدفعني لأقبّل يديه، وأرفع عيني ببطء لأرى وجهه المتجهم ثم يصيح في وجه والدتي فجأة:

- ألا تدركين أنتِ زوجة من، ألم تعلمك والدتك أن لا تتمرغي في التراب كالأطفال؟ أين كبرياؤك؟ ماذا سيقول الخدم عندما يشاهدون سيدة المنزل تتصرف كطفلة؟ أتعلمين أنني المخطئ عندما تزوجتك.

فقالت له والدتي بتحدٍ:

- لم أرتكب أي خطأ، كنتُ ألهو مع ابني، هل يعد اللعب مع الأبناء شيئاً مخجلاً ولا يدخل في نطاق طبقتك المخملية.

اقترب منها ورفع يده وهوى بها على صدغها بقوة، فانهارت أمام قدميه تبكي وسال الدم من شفتها، أرعبني ما شاهدت فبكيت، لم يهتم والدي ببكائي بل صاح بوالدتي:

- أنتِ زوجة رجل محترم، أنا أرفض أن تسيئي إلى سمعتي بهذه الطريقة، إن تصرفاتك تحرجني دوماً وملابسك تثير الشكوك والشبهات وخروجك الدائم يجعل ألسنة الناس ترميك بالسهام.

كنت أبكي بطريقة هستيرية، فنظر إليّ والدي ثم دفعني بقوة نحو الأرض:

- اخرس.

فنهضت والدتي من مكانها وحملتني بين ذراعيها وهي تبكي، وجرت بي إلى غرفتي ثم وضعتني في فراشي وجلست على ركبتيها بالقرب مني وراحت تتحدّث وهي تربت على شعري:

- حبيبي فيصل إن والدك رجل قاسٍ وشرير، قريباً جداً سنتخلص منه ونرحل إلى مكان آخر وتكون لنا عائلة جديدة.

- هل سنأخذ وليد معنا؟

كلا لن نأخذه، إنه ينقل أخبارنا إلى والدك ويشعر بالغيرة من علاقتنا المميزة، فقط سنأخذ إخوتك الصغار معنا.

- ومتى ذلك؟

- قريباً جداً وأشاحت بعينيها بعيداً وأطرقت تفكر.

في صغري كنت أرغب دوماً بالزواج من أمي وأحب وضع الزهور لها على سريرها، وأتشوق للاختباء تحت غطائها ودفن رأسي في وسادتها واستنشاق رائحة شعرها الأسود كدجى الليل والتحديق في ملامح وجهها وعينيها الغامضتين ووجهها المستدير كالقمر؛ كانت والدتي ممتلئة الجسد، قصيرة القامة وترتدي وجوهاً كثيرة؛ فعندما تكون مع والدي ترتدي وجه الوقار والاحترام وعندما تكون مع صديقاتها ترتدي وجه الغرور، أما بالنسبة لأقاربنا فهي تكون في أفضل الوجوه ألا وهو وجه الضحك والراحة، أما أشد الوجوه التي ترتديها والذي كنت أمقته وهو وجه القسوة الذي اعتدت أن أراها به عندما تتعامل مع الخدم ومن حولها، لقد كانت تقوم بتبديل وجهها مثلما تقوم بتبديل ملابسها.

لقد كانت علاقة والدتي بوالدي تتسم بالاحترام ويختفي بريقها بجانبه فلا تستطيع إبداء رأيها في أي موضوع كان، وتلتزم الصمت عندما يهم بالحديث، ولا تتحدث حتى يسمح لها بذلك؛ وعندما يقف يجب عليها الوقوف والسير خلفه حانية رأسها، خاضعة له، يعاملها كأنها السكرتيرة الخاصة به، فيمطرها يومياً بالأوامر وهي تتلهف على خدمته؛ فأوامره بالنسبة إليها هي كلام غزل وصراخه دليل على حبه وصفعاته مجرد قبلات، لم يسبق لي رؤيتها إلا نادراً تصرخ احتجاجاً على كلام بدر منه أو تتظاهر بالحزن عندما يتخلف عن موعده، لم يكن يسعدها إلا شيء واحد.. ألا وهو هداياه الثمينة لها.... وكيف تتباهى بها أمام صديقاتها وقريباتها.

في اليوم التالي خرجت والدتي معي ومع أخي وليد صباحاً

وذهبنا إلى منزل أمها (جدتي) وجلسنا للحظات ثم أمرت السائق بالعودة إلى المنزل واصطحاب وليد معه، فاستعارت سيارة والدتها وانطلقنا في شارع صحراوي طويل، كنتُ مستمتعاً بمشاهدة المناظر حتى قالت لي أمي وهي تداعب شعري بحنان:

- أتعلم إلى أين سوف نذهب؟

- لا.

فقالت وهي تراقب الطريق: إلى والدك الجديد.

- حقاً.

فابتسمت وهي تقول: إنه رجلٌ حنون للغاية سيسعد بلقائك، فأنا دوماً أتحدث عنك عندما ألتقي به.

توقفت المركبة في استراحة شبه موحشة، وألقت والدتي نظرة على نفسها من مرآة المركبة الأمامية ثم طلت شفتيها بالروج وربتت على تسريحتها، وخرجت من السيارة تعدو فتلقاها رجل وسيم بذراعيه وأمسكت بيده وشدته نحو السيارة وفتحت الباب وهي تقول: ابني فيصل.

فنظر إليّ الرجل وقال وهو يربت على رأسي: وكم عمرك يا جميل؟

- أربع سنوات.

فابتسم وهو يقرص وجنتي ويقول: أنا عمو قاسم.

ثم عبث بجيبه قليلاً وأخرج قطعة حلوى وسلمني إياها فأخذتها بخجل.

فقالت لي أمي: ماذا تقول لعمو قاسم؟

- شكراً

ثم احتوى أمي تحت ذراعه وأمسكتني هي من يدي ودخلنا إلى المقهى الصغير الموجود في الاستراحة فجلست أمي مقابلة للرجل وأنا أتوسطهما فنظر إلى وجهها وأمسكه بيده وسألها: هل ضربك؟

وردت بأسى: نعم.

فضرب الرجل بقبضته على الطاولة وقال: الحقير.

- لا بأس بذلك يا قاسم.

- ولكن يا دينا أنا أحبك وأكاد أجن.

- والحل يا قاسم.

- أن تهجريه وتطلبي الطلاق ونتزوج.

- ولكن عائلتي ستحاربني، أنسيت إنه ابن خالي.

- لا يهمني، أنا أحبك وأرغب برعايتك.

وساد الصمت بينهما للحظات ثم نظرت إلي وقالت: أووه نسيت أن أطلب لك شيئاً تأكله.

فأشار قاسم للجرسون فأتى وقالت له أمي: كوب حليب ساخن وسندوتش بالجبن.

فقاطعتها: أرغب بالمثلجات.

فقالت ببرود: وبعض المثلجات.

ثم أدارت وجهها إلى قاسم فأدرك مقصدها وقال: لا أرغب بشيء وأكمل: لماذا أحضرت الطفل معك؟

- أيزعجك وجوده؟

-لا، ولكن سوف تتشوه صورتك أمامه.

- اطمئن، إنه مجرد طفل لا يدرك شيئاً.

بعد بعض من المناقشات نهضت والدتي وعادت إلى منزل جدتي وهي شاردة الذهن، ومع مرور الساعات عادت إلى المنزل، وكان والدي هناك جالساً في غرفه الجلوس مع أخي وليد فقال لها: أين كنتِ؟

فقالت له وهي تجلس على الأريكة: في منزل والدتي.

فقال لها باحتقار: كاذبة، حقيرة.

فأجابته بتحدٍ: لا تكلمني بهذه الطريقة أنا لا أسمح لك.

فصرخ بها: وليد أخبرني أنك أمرت السائق أن يعيده إلى المنزل، ومن ثم خرجت مع ابنك المغفل فيصل.

فردت ببرود: لقد ذهبت للتسوّق.

فقال لها بريب: كل هذا الوقت؟

فقالت له من دون أن تنظر إليه: نعم.

نظر إليها بسخرية وقال: لا أرى شيئاً في يديكِ ما الذي ابتعتِه من السوق؟

رفعت يدها تتأمل أظفارها وهي تقول: لم يعجبني شيء.

- فازدادت لهجته حدة وهو يردد بعصبية: إنكِ سافلة.

- لا تكلمني بهذه اللهجة أمام أبنائك.

نهض والدي مقترباً منها ثم أمسكها بقوة من ذراعها:

- تحدثي أين كنتِ؟

فقالت بنبرة خائفة: لقد كنتُ في السوق اتركني، إنك تؤلمني.

- لا لن أتركك يا خائنة، أتظنيني مغفلاً... ألا تعلمين من أنا...

ثم رفع كفه وصفعها ثم تلتها صفعة أخرى.. وأمسكها من شعرها وطرحها أرضاً وركلها على جنبها وهو يصرخ كالمجنون: خائنة أنتِ خائنة.

فصاحت والدتي به وهي تهرب منه: أكرهك... طلقني، ودوّى في المكان صوت بكائي.

كان والدي يتنفس بطريقة هستيرية وصدره يرتفع ويهبط... وحبيبات من العرق تتسلل من جبينه، أسند ذراعيه إلى الحائط وضرب بقبضته على الجدار وقال لها: اذهبي إلى منزل أهلك، لا أرغب بوجودك في منزلي الطاهر، أنتِ تدنسينه بقذارتك.

فنهضت وأزاحت خصلات شعرها المتناثرة على وجهها وهي تتجه ناحيتي، ثم أمسكت بيدي وهي تقول لوليد أحضر أختك وأخاك.

اقترب والدي مني وسحبني بقوة: لا لن تأخذي الأولاد، إذا رغبتِ بالطلاق فارحلي لوحدك وانسِ أنكِ أم.

فبكت والدتي ثم احتضنتني وهي تقول: سوف أعود لآخذك معي لنكون عائلتنا الخاصة.

وبكيتُ وأنا أراها ترحل من أمامي... في ذلك الوقت أصابتني موجة من الحقد على الرجل الذي استولى عليها وأقنعها بفكرة الرحيل.

رحلت والدتي لسنوات طويلة ولم يطلقها والدي وتزوج من أخرى... وبعدها عادت والدتي لكنها لم تكن المرأة الطيبة الحنونة نفسها بل تحولت إلى جماد، عادت من دون روحها فقد فقدتها... أو انتزعتها منها قسوة الحياة بوحشية وضعفت أمام حرمانها من أبنائها ومن فقرها وحاجتها إلى المال بعد أن تخلى قاسم عنها، فقد رفض جدي إيواءها، ومنذ ذلك اليوم أصبحت كالجارية أمام والدي، لقد ماتت روحها الجميلة.

ومرت السنوات وأنا أدرك أشياء لم أكن أدركها من قبل، فلم أكن أدرك مدى ثراء عائلتنا وعراقتها، فقد اعتدت رؤية زوار منزلنا يقفون لوالدي احتراماً ويجلس بينهم بفخر كأنه سلطان وكان كذلك بالنسبة إلي؛ كنت أشعرُ ناحيته بحب ممزوج بالخوف.. ولم أدرك مكانته إلا عندما ذهبت إلى المدرسة ورأيت احترام المدرسين له والهالة التي يُحاط به عندما يحادثهم فلا يجرؤون على مقاطعته، وطغى على مسمعي تهامس من حولي عن مدى ثراء عائلتنا؛ كنا نملك المال ونسكن في قصر يقف في خارجه حارس يرتدي الملابس العسكرية وتحيط بنا حديقة واسعة تتوسطها نافورة للمياه وقد غصّ منزلنا بالخدم.

كانت عائلتنا متوسطة الحجم؛ فلدي أخ يدعى وليد أكبر مني بعامين انقطعت أخباره عنا منذ زمن، وأخت تصغرني بعام تزوجت

وهي صغيرة من ابن عمي تدعى علياء، ثم يأتي أخي محمد الصغير الذي يصغرني بثلاث سنوات وهو جرّاح للقلب، ووالدي كما ذكرت سابقاً لديه زوجة أخرى، لكننا لا نزورها ولا نختلط بها أبداً.

ولكن على الرغم من ثرائنا هل كانت حياتنا مثالية؟

للأسف كلا، لقد كان والدي قاسياً، وحول منزلنا كشركة من شركاته.. لم يسبق لي أن شاهدتُ والدي يمزح معنا أو يبدي عواطفهُ نحونا، كان يعاملنا كما يتعامل مع موظفيه، كم كنت أتمنى لو يصطحبنا يوماً إلى الخارج أو يعلمنا بعض المهارات التي يفتخر الآباء بتعليمها لأبنائهم.

لكن هل كان والدي قاسياً مع الجميع؟ لا أعتقد، فأنا أذكر ذات مرة عندما وقعت عيني عليه في أحد الأيام مع امرأة جميله جداً، شقراء، طويلة القامة، نحيلة الجسم، يغلب عليها الطابع الأجنبي، رسخت صورتها في عقلي... وتمنيت أن أتزوج مثلها... وعندما صارحت أخي بذلك... أطلق ضحكة عالية... ملأت أركان الغرفة... ثم قال وهو يطيل النظر إليّ إنّ هذا النوع من النساء للتسلية... والحب... أما النساء اللاتي يشبهن والدتي فهن من النوع الذي يصلح للزواج... والتربية... هنا أدركت فوراً... امرأة أتزوجها... وامرأة أحبها.

أما بالنسبة لوالدتي فقد تحولت إلى امرأة أخرى يغلب عليها طابع القسوة... فعندما يغيب والدي عن المنزل... يعلو صوتها بالصراخ والأوامر وتتحول إلى امرأة خارقة. لقد كانت من النوع الذي لا يمكن أن أتخيلها يوماً فتاة كباقي الفتيات، إنني أتصورها أماً فقط لا غير، فلا أظن أنها خلقت مم خُلقت النساء، فأمي أطهر وأشرف من أن تكون مثل هؤلاء النساء، حتى عندما أحبت أحبت بشرف.

كان والدي هو من يضع أسس تربيتنا أما والدتي فهي التي تحرص على تطبيقها، فالويل لنا إن كذبنا أو أخطأنا أو امتنعنا عن أكمال طعامنا، فوالدي يشترط أن الطعام الذي يتم وضعه في الطبق

يجب علينا أن نتناوله بأكمله ولا يبقى شيء منه إلا الفتات، ونكون ملزمين بما وضعناه ولا يمكن لنا أن نبدي أي تذمر بخصوص أي شيء.

على الرغم من ثرائنا إلا أننا لم نكن نحصل على مصروفنا بطريقة سهلة، فالكل في المنزل لديه واجبه المكلف به وما أن ينتهي من ذلك حتى يتم إعطاؤه مصروفه كمكافئة له أو كمرتّب شهري، ومن يتهاون في إنجاز الأعمال يجد عقابه بانتظاره، وهو حرمانه من المصروف... كانت أختي تتذمر من هذا الوضع بسبب وجود الخدم لدينا فلماذا نعمل في المنزل؟

لقد وصل تذمرها إلى والدي فاجتمع بنا على سفرة الطعام وقال بصوته الوقور:

- إنني أجبركم على العمل في المنزل حتى لا أتسبب بإفسادكم بالنقود، أريدكم أن تدركوا أن الأموال لا تأتي بالطريقة السهلة بل يجب أن تعملوا وتتعبوا حتى تحصدوا النتيجة، إن تصرفي سليم وعندما يمضي بكم العمر سوف تدركون ما أعنيه.

كان أخي وليد دوماً يتحدى والدي بعينيه ولا يتوارى عن التذمر من تصرفاته أمام والدتي بل إنه حاول الإمساك بزمام أمور المنزل... ولم ينفع ضرب والدي له ولا حرمانه في شيء؛ كنت معجباً بقوته وشخصيته الفذة لكنني لا أجرؤ على إظهار هذا الإعجاب خوفاً من والدي، وفي الوقت نفسه كان حقدي ينمو في قلبي كالشجرة، ولن أنسى أنه كان جاسوساً لوالدي في يومٍ من الأيام.

عندما بلغت العاشرة من العمرٍ كان وليد يصطحبني معه دوماً لنمارس هواية كرة القدم في أحد الأحياء حتى طمحتُ أن أكون لاعباً، فقد كنت أفضل اللاعبين وأثارني تصفيق الجماهير لي وهتافهم باسمي، ولكن هل يوافق والدي على ذهابي للتسجيل في النادي؟ وصارحت والدتي بالموضوع فأشاحت بوجهها عني وعلقت عينيها في الفراغ وأطرقت تفكر كالمعتاد.

ثم قالت لي إنها سوف تجعلني أحادث والدي بعد عودته من العمل؛ وانتظرته لساعات وقلبي يرجف رهبة، فوالدي بالنسبة لي شيء عظيم ومحادثتي له تجعل جسدي يرجف من الرعب كأنني أقف أمام سلطان من الأساطير القديمة.

انتظرته لساعات حتى عاد من عمله وجلس مع والدتي في حديقة منزلنا كالمعتاد تحت المظلة الكبيرة التي كانت مفتوحة من جميع الجهات وفيها مقعد خشبي كبير جداً وضعت بين جنباته وسائد من الإسفنج، وأمامه طاولة كبيرة، زجاجية السطح وعن يمينه ويساره مقعدان صنعا من القش، وهما يحتويان على وسائد من الريش.. وأمامهما طاولة صغيرة خشبية.

بعد مرور بعض الوقت استدعتني والدتي فذهبتُ إليهما متعثراً بخطواتي... كان والدي جالساً فوق المقعد الكبير المصنوع من الخشب، يرتدي جلبابه الأزرق وعمامته البيضاء وقد تمدد فوق الكرسي وجعل جسده منحنياً وارتكز على ذراعه رافعاً قدميه على المقعد فارداً إحداهما وواضعاً الأخرى فوقها، انحنيت بسرعة لأطبع على كفه قبلة، فنظر إلي وأصابعه تعبث بالسّبحة، ثم قال موجهاً الحديث إلى والدتي الجالسة على الكرسي الآخر المنشغلة بتقطيع الفواكه: ما هي أخبار فيصل في المدرسة؟

فقالت بصوت خاضع وهي تتجنب النظر إليه ويداها مشغولتان بتقطيع الفواكه:

- إنه من المتفوقين يا أبا وليد.. وكل المدرسين يشيدون بتفوقه وذكائه، وإن نسبته بلغت التسعة والتسعين.

ثم نظر إليّ وقال بتجهم: لقد أخبرتني أمك أنك تريد محادثتي في أمر ما.

فقلت له مبتلعاً ريقي ناطقاً بأحرف متقطعة مرتعشة: إني أرغب بالتسجيل في النادي القريب من منزلنا لأنتسب إلى فريق كرة القدم.

فنظر إلي وقال ببرود: لماذا؟

فقلت له بسرعة حتى أشاركه أحلامي: لأغدو لاعباً ماهراً.

فأطلق ضحكة عالية ثم قال: هل تحلم يا فيصل أن تصبح لاعباً في كرة القدم؟

فقلت له برجاء: نعم يا والدي أتمنى أن أكون لاعب كرة قدم في المستقبل.

فنظر إليّ بسخرية وقال: وهل كرة القدم سوف تضمن لك مستقبلاً؟ هل سوف تحترف فيها (ثم أشار بيده ناحية المنزل) وأكمل حديثه، وتملك منزلاً كهذا؟ هل سوف تتفاخر أمام أبنائك أنك لاعب كرة قدم؟

قلت له وأنا أنظر إلى الأرض: نعم يا والدي إنني ماهرٌ في كرة القدم وسأكون لاعباً ناجحاً.

فاعتدل في جلسته وقال: إنك ابن عز وتحمل اسمي، أتظن أنني سوف أسمح لك بأن تكون مجرد لاعب كرة قدم؟ إنها لعبة للفاشلين فقط.

فقاطعته قائلاً: ولكن يا والدي هذا مستقبلي وأنا من أختاره.

فرفع يده وهوى بها على وجهي بصفعة قوية كادت أن تجعلني أقع أرضاً وصرخ بي قائلاً: أتقاطعني لتتحداني وتحدد مستقبلك بنفسك؟

فسالت دموعي فعاجلني بصفعة أخرى وهو يقول: أتبكي يا ولد ثم أمسكني بقوة من ذراعي وقال إن الرجال لا يبكون، أسمعت ذلك.. ثم دفعني بقوة جعلتني أسقط أرضاً وأكمل حديثه وهو يقف: سوف تدخل كلية التجارة وتغدو تاجراً مثلي ومن الأفضل لك أن تنسى موضوع كرة القدم.

ثم غادر وأنا لا أزال على الأرض أمسح دموعي بطرف قميصي، فقالت لي والدتي وهي تضع السكين في الصحن بعد أن انتهت من

تقطيع قلبي بسكوتها عن الدفاع عن أحلامي أمام والدي: إن قسوة والدك دليل على حبه لك يا فيصل، غداً عندما تكبر سوف تدرك ذلك لوحدك.

والآن امسح دموعك وخذ قطعة التفاحة هذه واذهب لتذاكر دروسك.

وقفت متجاهلاً النظر إليها، ومددت يدي إلى قطعة الفاكهة ثم وضعتها في فمي وجريتُ إلى غرفتي مكسور الخاطر. كنت أبلغ من العمر عشر سنوات عندما قتل والدي أول أحلامي.

***

عدت إلى واقعي عندما حادثتني النادلة قائلة: هل ترغب بكأس أخرى يا سيدي؟

فأجبتها بإشارة من رأسي، فحملت كأسي وغادرت وأنا أتبعها بعيني ثم نظرت إلى عصفورٍ يقف على طرف حاجز النافذة، ارتعش جناحه ثم طار وهو يحملني مرة أخرى إلى ذكرياتي.

لم يقتل والدي أحلامي فقط بل قتل قلبي وعواطفي... أذكر عندما كنت في سن الثالثة عشرة كنت عائداً من المدرسة فصادفت قطة صغيرة تائهة، اقتربت مني فمددت يدي أمسح بها على رأسها برفق فلعقت يدي ثم تبعتني إلى المنزل، أعجبت بها كثيراً وخشيت رفض والدي اقتنائي لها، وقفت أمام باب حديقة منزلنا بعد أن حييت الحارس ثم أدرت برأسي متجولاً بنظري في الحديقة فتيقنت من خلوها، فرفعت القطة بحركة سريعة وركضت بها إلى داخل الحديقة ثم خبأتها في ركن من أركانها.

أمضيت أهرّب لها الطعام يومياً من دون علم عائلتي، وأشركت معي الحارس بعد أن رشوته بالمال والطعام.. مر أسبوع على وجود

القطة، وأثناء لهوي بها في حديقة المنزل كنت أجري وأختبئ خلف الأشجار فتتبعني فأهرب منها وأنا أطلق ضحكاتي لتصل إلى عنان السماء حتى اصطدمت عيني بوالدي ينظر إلي وهو يعبث بشاربه، ثم صاح باسمي فجمدت ساقي في مكانها من الخوف وانعقد لساني فقال لي:

- فيصل هل تلعب مع القطط؟

فأحنيت رأسي إلى لأرض وارتجفت شفتي فقال لي وهو يضرب يداً بيد:

- ممتاز، رائع لقد ربيت فتاة وليس رجلاً.

ثم صرخ بي قائلاً: تحدث يا ولد أتربّي القطط كالفتيات؟

أوشكت على البكاء... فقال لي بسخرية: لن أناديك فيصل بعد اليوم سوف أطلق عليك اسم حنان فأنت فتاة، ثم اقترب مني ودفعني بقوة أمامه واتجه ناحية القطة التي كانت ترتعد خوفاً منه.. ونظر في ما حوله فرأى عصا غليظة مصنوعة من الخشب فاتجه ناحيتها وحملها وقال لي بقسوة: خذ.

فنظرت إليه بتوسل فصاح بي: خذها.

فأخذتها منه بيدٍ ترتعش وقال لي: اضرب بها القطة، فنظرت إليه وأنا أوشك على البكاء فقال وهو يدفعني بقوة: اضربها... خذلتني قدماي وأبت أن تتحركا وارتعش جسدي وأنا أنظر إلى هذه القطة الصغيرة... فبكيت فصفعني والدي وقال بتهكم:

- أتبكين يا حنان، ثم ضرب رأسي وأكمل: اضربها... أو أقتلها أنا.

فنظرت إليه بدهشة ثم قلت له: سوف أضربها أنا.

واندفعت إلى القطة ورفعت العصا، ثم هويت بها عليها فانطلقت صيحاتها وهي تتألم لتملأ المكان، وحاولت الهروب مني فتبعتها وأنا أضربها، فقد تلاشت صورتها وحلت مكانها صورة والدي واختفى

صوت بكائها وحل مكانه رنين ضحكات والدي، حتى هربت القطة المسكينة ووقفت أنا كثور هائج، يرتفع صدري ويهبط وأنا أحاول التنفس واختلطت دموعي بقطرات العرق واحمر وجهي وبرزت عروقه، فأتاني صوت والدي الواقف خلفي وهو يقول: هكذا أريدك يا فيصل... رجلاً وليس فتاة..

لا تدع عواطفك تسيطر عليك في اتخاذك للقرارات، ثم سار عائداً إلى المنزل... فقذفت بالعصا على الأرض واتجهت إلى غرفتي وأغلقت الباب وجلست فوق سريري ودفنت وجهي في كفي وبكيت. . . فجأة تداركت نفسي ومسحت دموعي وقلت لا، لن أبكي، أنا فيصل الرجل، وليس حنان الفتاة ثم ضربت بقبضتي على سطح الفراش وقلت: أنا رجل أنا رجل ومنذ ذلك اليوم وأنا أعتبر أن قسوتي دليل على رجولتي.

بعد مرور عدة سنوات على هذه الحادثة وفي سن المراهقة بالتحديد، كنت في المزرعة جالساً في الحديقة وحدي وتحت ظلال النخيل أراجع دروسي، فأتى كلب جائع ضئيل الحجم وعبر من أمامي، حدقت فيه للحظات ثم أمسكت الساندويتش الموجود أمامي وقطعت منه قطعة ورميتها له فالتهمها بسرعة وحرك ذيله يميناً وشمالاً بحركة سريعة.

فأخذت الساندويتش وقطعته إلى فتات ورميت بقطعة أخرى ثم وقفت وسرت عدة خطوات وأنا أرمي بقطع السندويتش والكلب يتبعني حتى دخلت إلى إحدى الحظائر المهجورة ورميت بالقطع هناك فتبعني الكلب، وما أن دخل حتى أغلقت الباب خلفه ثم أدرت رأسي بحثاً عن عصا... وأمسكتها... ثم رفعتها وأنا أردد... أنا رجل ولست بفتاة تغلبني العواطف.. وهويت بها على رأس الكلب، فأطلق صرخة ألم... ثم أتاني صوت والدي وهو يردد... أنتَ فتاة... أنتَ حنان... فاشتعل في داخلي الغضب وفجرته على الكلب المسكين وأنا أردد سوف

أجعل والدي يفتخر بي، أنا رجل حتى تلاشت قواه أمامي فرميت العصا على الأرض وأطلقت قدمي خارج الحظيرة وأنا أحاول أن أتنفس كالغريق الذي يصارع الأمواج.

جلست على الأرض وضممت ركبتيّ إلى صدري وأحطهما بذراعي، وبعد مرور بعض اللحظات توقفت وعدت إلى طاولتي وأخذت كوب الماء الموضوع عليها، وعدت إلى الكلب بسرعة فوجدته غارقاً في دمائه. أهالني المنظر، فاقتربت منه وجلست على ركبتي محاولاً سقيه الماء لكنه كان يلفظ أنفاسه وهو ينظر إليّ ثم تحررت روحه، فوقعت على وجهي أبكي ثم نهضت جارياً نحو الخارج وأنا أردد أنا لست بفتاة وأصرخ وأقول: أنا لستُ بفتاة، وعلا صوت صراخي حتى هرب سرب من الطيور كان واقفاً فوق أغصان إحدى الأشجار.

***

أما بالنسبة لي وتقييمي لشخصيتي، ففي الحقيقة كنت ولا أزال أعتبر نفسي ناجحاً في كل المقاييس وفي كل شيء.. وأسير حسب خطة وجدولة معينة ومدروسة، وقد تعلمت بحكم خبرتي عدم الإقدام على خطوة إلا بعد دراستها واستخلاص جدواها ومردودها المستقبلي؛ فمنذ صغري وأنا متفوق بين أقراني، أجلس في المقاعد الأمامية، منظم ومرتب، أحافظ على الوقت والجهد معاً، كنت من النوع الذي يبلغ الأستاذ بتحركات الطلاب وغشهم حتى اختاروني رئيس الفصل.. كنت أفرح بإغاظة أصدقائي وإثارة حسدهم، كانت الصفات التي يتم نعتي بها تفرحني لأنني أعلم بأنه كلما ازداد نجاحي كثر حسادي.. كان جميع الطلاب يكرهونني وينعتونني بـ(الفتان) أو الجاسوس.

أما بالنسبة إلى مستواي المدرسي فقد كنت الأول دوماً على صفي والأول على المدرسة، لقد نبذني من حولي بسبب اختلاف أفكاري ونظرتي إلى الأمور أو ربما بسبب نضج عقلي قبل أوانه.

لقد عانيت كثيراً مع السمنة، فأذكر أنني كنت سميناً للغاية وقد امتلأ وجهي بالحبوب واضطررت لوضع نظارة طبية بسبب ممارستي للقراءة وبكثرة.. تعرضت للكثير من السخرية من أقراني وإلى الكثير من المقالب يوماً بعد يوم حتى إنني كرهت ذهابي إلى المدرسة، وكان أخي يقف دوماً في صف هؤلاء الأشقياء ولم يكن يدافع عني بل كان يزودهم بالمعلومات عما أكره وما أخاف منه.

ولم تأتِ محاولات المدير لكفهم عن أذاي بنتيجة، بل ازدادوا سخرية مني، وحمل لهم أخي موضوع لقبي الجديد وهو (حنان) فكانوا يطلقون عليّ اسم حنان، ولم أستطع ردعهم فتحولت أيامي في المدرسة إلى جحيم لا يطاق، لكنني كنت أضع معاناتي في كتبي وأعلم أنني سوف أكون رجلاً مهماً في المستقبل، وسوف يكونون جميعاً تحت إمرتي وسأنتقم منهم أشد الانتقام.

***

(14)

يأتِ عبثاً

وضعت الكأس بقوة على المنضدة حتى كدت أن أحوله إلى أشلاء ثم أطلقت سراح عيني لتتفقد ما حولها، لقد كان كل شيء طبيعياً، نظرتُ إلى ساعتي وأدركت أن هنالك وقتاً كافياً على موعد الرحلة.

أخذت نفساً عميقاً وعادت أفكاري الحزينة تملأ صدري كالهواء البارد الثقيل وهمس قلبي مغتاظاً:

عندما رفضتني ناهد لم أيأس، فأنا مصممٌ عليها هذه المرة وسأظل مطارداً لها ومتابعاً حتى تخضع وتعود إليّ من جديد، كنت ولا أزال أمتلك كل شيء، أجوب الشوارع بسيارتي الفارهة.. وأرى الفتيات يلاحقنني بنظراتهن في كل مكان.. وأمضي الليل بمحادثة من يقع عليها الاختيار، أتعرف على الآلاف منهن من كل الجنسيات والأعمار لكني لم أكن أرتاح لواحدة منهن سوى ناهد، كن يشعرنني بأنهن استغلاليات يسعين وراء المادة وعندما كنت أحادث الواحدة منهن سرعان ما اكتشف أنها على علاقة مع مئات الشباب غيري.. الرؤية واحدة.. هن غدارات، غدارات وخائنات أيضاً وعندما أتصيد إحداهن فما هي إلا أيام معدودة أو لحظات، عندما تعرفني عن قرب وتكتشف مدى ثرائي، حتى أراها سلمت نفسها لي بكل سهولة؛ إنهن ساقطات يبعن أجسادهن ولا يعرفن معنى الحب الحقيقي.

استنتاجي هذا لم يأتِ عبثاً، عندما بلغتُ السابعة عشرة من عمري داعب الحب قلبي، لكنه لم يكن حباً، فأنا الآن اعتبره عبثاً ولهواً أو عشق مراهقة، كانت هذه الفتاة تكبرني بعدة سنوات، التقيتها مصادفة في إحدى المكتبات العامة، فأنا بطبيعتي أحب الذهاب إلى المكتبة، فصديقي هو كتابي، فحتى الكتاب أشتريه بالمال.

كانت نظراتها ملتهبة تجاهي، إنها أول فتاة تعيرني الاهتمام، خيم عليّ القلق وانتفضت ساقي لتعلن عن توتري، كانت المكتبة خالية تقريباً، فالساعة تقارب الثالثة مساء.

أدرت رأسي يميناً ويساراً لأتأكد من أني أنا المقصود، ثم نظرت إليها مرة أخرى، لقد كانت كبيرة في السن، ربما تكبرني بسبع أو ست سنوات، لكنها جميلة ومثيرة لدرجة كبيرة، كل جزء من جسدها يدعوني للاقتراب منها، لكن خذلتني قواي وشلني الخجل وانعقد لساني من قوة الصدمة.. اقتربت مني حتى تسلل عطرها إلى أنفي محدثاً قشعريرة سرت في جسدي.

أدرت رأسي بسرعة إلى كتابي وأطلت النظر إليه وتصبب العرق مني واهتزت كلماته واختفت حروفه لكنني كنت أحدق فيه.. جلست على المقعد المجاور لي حتى كاد كتفها يلاصق كتفي ثم همست قائلة: ماذا تفعل هنا وحدك؟

فأدرت وجهي نحوها مبتسماً ببلاهة.

فاتسعت ابتسامتها كاشفة أسنانها البيضاء ذات البريق السحري وقالت:

- لقد شاهدتك عدة مرات هنا وحدك تتصفح الكتب ثم أكملت بصوت يزداد عذوبة:

- أنا فاطمة، أمينة المكتبة، فأحسست بخذلان كبير، فهي لم تأتِ لتكلمني لأنها راغبة بي كما كنت أعتقد بل لأنها كانت تعمل في المكتبة ثم أضافت وهي تنهض وتربت على تنورتها برفق: إذا احتجت

إلى أي شيء فبإمكانك طلب المساعدة ثم ابتعدت عني لتقوم ببعض الأعمال.

وما أن خلت المكتبة حتى دنت مني مثلما فعلت أول مرة، وجلست بمحاذاتي وتركت خصلات شعرها تدغدغ وجهي.. ثم سألتني وهي تداعب يدي بأصابعها ذات الطلاء الأنيق:

- اسمك فيصل أليس كذلك؟؟ فابتسمت وأنا أشير برأسي بالإيجاب، ثم قالت: لمن هذه السيارة التي في الخارج؟

وبحركة سريعة أخرجت المفتاح من جيبي ورفعته أمام عينيها:

- هل تقصدين هذه المركبة؟ إنها واحده من سياراتي.

فاتسعت عيناها وبرقت بنشوة غريبة فقالت لي وهي تتعمد الانحناء عليّ:

- وكم عمرك يا فيصل؟

في ذلك الوقت اضطررت للكذب فأخبرتها:

- إنني أبلغ من العمر تسعة عشر عاماً.

فأطلقت ضحكة عالية ثم وضعت يدها على وجهي تداعبه وقالت: إنك صغير جداً.

فقلت لها برجاء: لكنني رجل.

فضحكت وهي تتفحصني بعينيها ولوت شفتيها: أعتقد ذلك.

ثم نهضت منصرفة.

كصبي مراهق مرت عليّ أحلام اليقظة وتخيلتها تقع في حبي، لكنها كانت جميلة وبلا ريب تملك مئات المعجبين، فلن تنظر إلى ولد مثلي فكيف السبيل إليها يا ترى؟؟ ومرت الأيام وهذه الحسناء متربعة على عرش قلبي.

قرّرت البحث عن خيط يدلني على الطريق، وبعد قراءتي لعدة روايات عاطفية ومشاهدة الأفلام الرومنسية، كتبت إليها رسالة وألحقتها بباقة من الورد ووضعتها على رف مكتبها واختبأت خلف

بعض الرفوف أراقبها وهي تقرأ الرسالة ثم تضحك قليلاً وتعود لقراءتها.. فجأة نظرت إلى مكان اختبائي واتجهت نحوي فحاولت التظاهر بالانشغال بالكتب التي أمامي لكنها اقتربت مني وقالت لي:

- شكراً يا فيصل على الباقة، لقد شاهدتك وأنت تضعها، لكن الورود تذبل مع مرور الأيام، إذا أردت أن تملك قلبي فاجذبه بشيء لا يذبل.

فأجبتها ببلاهة:

- وما هو الشيء الذي لا يذبل؟

فضحكت وهي تقول:

- لا مانع لدي أن تكون الهدية شيئاً مصنوعاً من الألماس، فالألماس يدوم، هذا لو أردت لعلاقتنا أن تدوم.

نعم إنني أريدها أن تدوم، فإذا كانت تريد الألماس فسوف أحضره لها مهما بلغ سعره، وابتعتُ لها الألماس وانتظرتها خارج المكتبة وما أن خرجت حتى ناديتها فاقتربت مني وهي تبتسم وقالت: أووه فيصل ماذا تفعل هنا؟

فأجبتها وأنا مزهو بنفسي:

- اصعدي إلى السيارة، أحضرت لك مفاجأة.

أدارت رأسها يميناً ويساراً حتى تأكدت من خلو المكان ودلفت إلى المركبة وأغلقت الباب بقوة وقالت وأنفاسها تضطرب:

- ماذا أحضرت لي؟

ثم تداركت نفسها وقالت بصوت عذب:

- يعجبني الرجل الذي يسعى من أجل كسب قلبي.

فأخرجت لها الهدية التي اضطررت لسحب مبلغ كبير من حسابي لأجلها.

وما أن فتحتها بلهفة حتى انطلقت منها صرخة إعجاب كتمتها

بسرعة بوضع يدها على فمها حيث أفقدها بريق الألماس حواسها، فازدادت ابتسامتي اتساعاً وقلتُ لها: - أعجبتك؟؟

فنظرت إليّ بإعجاب:

- لقد سرقت أنفاسي، ثم مدت أصابعها ووضعتها خلف رأسي وجذبتني ناحيتها ولثمت شفتي بقبلة فذقت طعم أول قبلة في حياتي؛ لم تكن كما تصورتها أو تخيلتها... لكنها كانت جيدة في ذلك الوقت.... فأدركت فوراً كلما كان سعر الهدية باهظاً كلما كلفها أن تفعل لي شيئاً مميزاً.

فاطمة كانت أستاذة في الحب لتعلمني حيل النساء، استفدت من علاقتي معها فاكتشفت أنّ النساء خلقن بقلوب أشدُّ قسوة من الحجارة، خلقن بضمائر منعدمة، خلقن من دون عقل أو تفكير، إن تفكيرهن المحدود يقتصر على المال ثم المال، إنهن يمقتن الرجل الصادق بعواطفه ويزهون فرحاً عندما يتم الكذب عليهن.

كانت فاطمة تبلغ من العمر سبعة وعشرين ربيعاً، تطلقت حديثاً وهي أول امرأة ذاب قلبي حباً وهياماً بها مثلما كنت أعتقد في ذلك الحين.. كانت تدعوني لزيارتها في مسكنها ليلاً ثم تمتص أموالي وأنا مبتسم، وتبكي ظلم القدر لها فتشتعل في داخلي الرجولة وأخفيها بين ذراعي وأجعل أصابعي تتسلل إلى خصلات شعرها المبعثرة وأعدها بأني سأكون بلسماً لجروحها، ثم أهيم في خيالي أيقبل والدي أن أتزوجها؟ هل أجرؤ على البوح له بمشاعري؟ ثم أذكر لقب الطفولة فينتفض جسدي معلناً رفضه.. لا لن أستسلم لعواطفي فأنا رجل ولست بفتاة، أنا فيصل ولست بحنان ثم أكتفي باحتقاري لطليقها، آه كم كنت أمقته وأتشوق للانتقام منه وأرسم الخطط التي سرعان ما أنساها.. كان عقلي يعلم سبب حبها لي ولهفتها على أموالي، لكن قلبي يرفض تصديق الواقع، تجاهلت هذا الموضوع وأقنعت نفسي أنها تحبني لشخصي وليس لمالي.

بعد مرور عام على علاقتي بها لاحظتُ تصرفاتها الغريبة، انتهى زمن الحب وحل موسم الشجار والنزاع، كانت ملامح وجهها تزداد عبوساً كلما رأتني وتطلق بعض التنهيدات التي تدل على ضيقها مني وأنا ألاحقها بحثاً عن جواب لمعاملتها القاسية معي، حتى قررت مراقبتها؛ ومضت الأيام وأنا أتبعها، حتى شاهدت أحد الرجال يخرج من مسكنها فاندفعت بجنون وكدت أحطم الباب ففتحته وهي تصرخ قائلة:

- يا مجنون أتريد إيقاظ الجيران؟

فنظرت إليها بشك وعلا صوتي قائلاً: من هذا الرجل الذي غادر للتو؟؟

فنظرت إلي ثم ابتعدت عني وهي ترفع شعرها عن وجهها وقالت ببرود: إنه حبيبي.

دارت الأرض تحت قدمي وتجلت فوق عيني غمامة سوداء، أوشكت على البكاء فقلت لها كطفل مكسور الخاطر:

- وأنا، ألست بحبيبك؟

نظرت إلي طويلاً ثم أطلقت ضحكة ساخرة وقالت: أجننت، إنك مجرد طفل، ماذا أفعل بك، هل أقوم بتربيتك؟

وساد الصمت للحظات ثم سالت دموعي التي جاهدت في منعها من أن تعلن خذلاني وضعفي فنظرت إليّ بشفقة وقالت: فيصل، إنك مجرد طفل أنا أريد رجلاً.

حدقت في وجهها بحزن وأجبت: أنا رجل.

فضحكت قائلة: وهل تظن أنك رجل بسبب قدرتك على ممارسة الجنس، إنك طفل، طفل يا فيصل... أرجو أن تتفهم الموضوع.

- كيف لي أن أتفهم وماذا كان بيننا؟ ألم يكن حباً؟

جلست على الكنبة ورفعت ساقيها ثم قامت بفردهما وقالت: لا،

لم يكن حباً بل كان مصلحة، معاملة تجارية، إني أرغب بالمال وأنت ترغب بالجنس، إنها معادلة متساوية، عادلة.

لا أزال أذكر كم دمعة ذرفت تلك الليلة بسبب حديثها هذا، لم تكن تحبني لشخصي بل أحبتني لمالي، مال والدي... إن مفتاح قلوب النساء هو المال، إن والدي كان محقّاً، يجب أن لا أدع عواطفي تسيطر على قراراتي، أن تعمي عيني، فالحب خلق للفتيات فقط، وليس للرجال وترامت لي أصوات ضحكات والدي الساخرة وهو يدعوني بحنان.... فوضعت يدي على أذني وأغمضت جفني بقوة، وأنا أردد لست بفتاة أنا رجل، أنا رجل.

حاولت منع نفسي منها حتى أتاني خبر مرورها بوعكة صحية وإقامتها في إحدى المستشفيات، فقررت الذهاب إليها، فوجدت على وجهها إمارات الاستغراب من زيارتي لها، كانت محاطة بصاحباتها ثم همست لهنّ فانطلقت بعض الضحكات الساخرة.

ناولتني إحداهن زجاجة لمشروب غازي لم أكن أعلم أنها قامت برجها إلا عندما فتحتها، وانفجرت في وجهي وانسكبت على ملابسي، فامتلأ المكان بأصوات ضحكاتهن.

كانت مجرد فتاة منحرفة أرادت أن تستغل شغفي تجاهها، فبعد أن نهبتني أموالي أدركت أنها خائنة حقيرة، سخرت مني وتركتني لكنني انتقمت، نعم زرعت في قلبي بذور الانتقام والحقد على النساء، وسقيتها بشكوكي وآلامي وذكرى والدتي التي لم أبح لأحدٍ بها فأنا وحيد، وحيد.

تسمرتُ أمام المرآة أنظر إلى ملامحي وإلى النظارة التي تتقدم وجهي، وإلى وجهي السمين المكتنز المعدوم الملامح، إنني على يقين من أن الفتيات لن يحببني أبداً لشكلي ولكن لمالي.

خلعت النظارة ورميتها بعيداً وأجريت عملية لتصحيح النظر ومارست التمارين الرياضية حتى أصبحت شاباً وسيماً، عندما بلغت

العشرين من عمري عدت إليها، لأذلها بمالي وبسلطتي وبقوتي، لأسخر منها أمام الجميع حتى لا تستطيع أن تسخر مني... كنت أبرحها ضرباً فتزداد حباً.

لم أكتفِ بها، فغروري الرجولي المحطم أراد الانتقام من صاحباتها، اشتريت أجسادهن بمالي وأخضعتهن لي بسلطتي، ولم أكتفِ بالنساء بل قمت بشراء أصحابي حتى لا أكون وحيداً.

نعم كنت لا أملك أصحاباً أو رفاقاً حتى ذهبت إلى الجامعة، وهنالك التقيت بمجموعة من الشباب، ومع الأيام توثقت علاقتي بهم، كنا نخرج إلى دور العرض وإلى المطاعم وكنت دوماً من يتولى عملية دفع الحساب، لم أهتم لذلك في بادئ الأمر حتى تذكرت ما فعلته معي فاطمة وكيف قامت باستغلالي، لقد كانت صداقتنا مجرد علاقة مصلحة، لم يكونوا يدعونني للحضور معهم إلى حفلاتهم أو رحلاتهم، فقط تتمّ دعوتي إذا أرادوا الخروج إلى مكان ما ولا يملكون المال.

أذكر موقفاً حدث لي ذات مرة حين كنت في إحدى الرحلات مع أصحابي أو من كنت اعتقدتهم كذلك، وقمنا بحجز جناح يتكون من ثلاث غرف، كنا خمسة أشخاص وفضلت النوم وحدي في إحدى الغرف وتركتهم يتقاسمون الغرفتين، وعندما يثقل الشراب رؤوسهم يعبر لسانهم عن أبشع الألفاظ تجاه بعضهم بعضاً، فيدهشني ما أسمع من قصص ومغامرات وألفاظ لم أسمعها من قبل بسبب البيئة المحيطة بي والتي ترفض هذه الأمور.

لقد حدث أمر غريب حين كنت نائماً ولم أغلق باب الغرفة، وعندما نهضت اكتشفت أن أموالي الموجودة في المحفظة اختفت، تملكني شعور غريب وأحسست بصعوبة الموقف، فأنا سأشير بإصبع الاتهام إلى رفاقي واضطررت في النهاية أن أخبرهم بالأمر وكان ردهم مفاجئاً لي، سخروا مني واتهموني بالكذب.

كنت متأكداً من أن أحدهم هو من سرق مالي، لكنني لم أجرؤ على تحديده، وفي النهاية قررت إبلاغ الأمن الموجود في الفندق وتم استدعاء الشرطة وبعد ساعات طويلة وتحريات مكثفة اكتشفنا أن السارق هو عادل، الشاب الذي كان برفقتنا والذي كان يحب إغضابي والتسبب في إحراجي لكنني كنت أتجاهله حتى لا أعكر جو الرحلة، وطبعاً وجدتها فرصة للانتقام منه،فلم أتنازل عنه وتم اقتياده إلى السجن وازداد احتقار أصحابي لي فقررت تركهم، فالوحدة أحب إلي من أن يتم استغلالي.

كبرت وأنا أزداد قوة وصلابة، كنتُ أرفض أن أكون الثاني في كل شيء لكن الله شاء أن أكون الثاني بين إخوتي، ومع مرور الأيام حقدت على أخي وكرهته، كان هو مركز اهتمام العائلة وكان الناس يدعون والدي باسمه (أبا وليد)، كنت أكرهه بل أمقته وانتهز الفرص كي أخبر والدي بعلاماته الهابطة في المدرسة أو أفعاله السيئة حتى أشوّه صورته في نظر والدي، إنه هو من كان السبب في رحيل والدتي، عندما وشى بأمي ونقل أخبارها إلى أبي، إنني لن أسامحه على ما فعل أبداً.

لكن لا يمكنني القول إن أخي كان فاشلاً في كل شي، بالعكس لقد كان فاشلاً في كل الأمور إلا أمراً واحداً وهو معاكسة الفتيات، وعندما تخرجت في الجامعة أسست معه شركة كنت أشغل مركز نائب المدير ولكنني كما ذكرت سابقاً أمقت أن أكون الثاني أو النائب، كان أخي يحرجني أمام الموظفين ولا يستمع إلى أفكاري، إنه يقف كحجر عقبة أمام طموحي، فأنا أذكر أنه ذات مرة في أحد الاجتماعات، وأثناء حديثي أمرني بالسكوت أمام جميع الموظفين متعمداً إحراجي، حتى قررت تنفيذ خطتي فأزيح من أمامي ما يعرقل طريقي.

في اليوم الموعود استدعيت المحاسب (حسان) العامل معنا في

الشركة، فطرق الباب وأمرته بالدخول وأنا أراقب جسده المكتنز وهو يهتز عند أقل حركة:

- مرحبا حسان تفضل بالجلوس (وأشرت إلى الكرسي الذي يقابلني)، وبعد أن جلس قلت له:

اسمعني يا حسان، أعلم أنك تختلس مبالغ صغيرة من حين إلى آخر، فقاطعني والانفعال بادٍ على وجهه:

- أقسم بالله أني لم أسرق شيئاً.

فأسندت ظهري إلى حاجز الكرسي وقلت له باحتقار:

إذن أخبرني لماذا هناك بعض الفواتير الناقصة؟

سكت المحاسب قليلاً وارتعشت أطرافه خوفاً، فوضعت ذراعي على الطاولة وانحنيت قليلاً وأنا أحدثه بهدوء:

إسمعني جيداً.. أستطيع رميك حالاً في السجن والقيام بترحيلك أنت وعائلتك من البلد (فنظر إلي خائفاً) فأكملت حديثي:

- لكنني أريد منك خدمة، وإذا لم تنفذها سأرميك في السجن بتهمة الاختلاس من أموال الشركة أما إذا قمت بتنفيذها فلك مكافأة كبيرة.

فقال لي مستسلماً متوسلاً:

- أوامرك يا سيدي.

فرفعت ورقة بيضاء في وجهه وقلت له:

- أريدك أن تحصل على توقيع أخي على هذه الورقة البيضاء، وبعدها تنفذ كل ما أقوله لك وبالحرف الواحد، إذهب الآن واجعله يوقع أولاً.

فقال وهو يقضم أظفاره توتراً:

- لكن كيف يا سيدي؟

فاعتدلت في جلستي ثم قلت له ببرود:

- أره استمارة قام بتوقيعها وأخبره أنه نسي توقيع صفحة منها في

الوقت الذي سأقوم أنا بإلهائه بالحديث، الآن سوف أذهب إليه ثم تتبعني، وما أن أطرف لك بعيني حتى تقوم بحثّه على التوقيع.

ذهبت إلى أخي في مكتبه وكان كعادته يعاكس إحدى الفتيات على الهاتف، فاستدرت حول مكتبه وجلست على حافة الكرسي بجانبه وقلت له:

- لدي صور رائعة لإحدى الفتيات في هاتفي المحمول وجعلته ينظر إليها، في تلك الأثناء أبلغت السكرتيرة أخي بحضور المحاسب ومعه بعض الأوراق فدخل حسان فطرفت له بعيني ووضع المحاسب الأوراق أمام أخي وقال له:

- أحتاج لتوقيعك على بعض الأوراق يا سيدي.

فقال له أخي: لقد سبق وأن وقّعتها؛ نظر إلي حسان ثم أكمل وهو يبتلع ريقه:

- لقد غافلك النسيان على توقيع إحداها، ووضع الأوراق على الطاولة فسحبتُ رزمة الأوراق ونظرتُ إليها متصنعاً الاهتمام، ثم قلت لأخي:

- راجعتُ الأوراق من قبل، إنها من أجل المشروع الجديد فوقعها أخي من دون النظر إليها.

بعد نجاحنا في أخذ توقيعه على الورقة المطلوبة أصدرت أمراً لحسان بتحويل مبلغ كبير من المال لحساب أخي، وبعد مرور عدة أيام تصنعتُ الحزن وطرقتُ باب مكتب والدي وقلت له بنبرة تحمل بعض الاحترام والأسى معاً:

- والدي، أعتقد أنه من باب العلم يجب عليّ إطلاعك على أمر هام وخطير.

فنظر إليّ والدي باهتمام وقال:

- ما هو هذا الأمر يا فيصل؟؟

فقلت وأنا أتصنع المزيد من الحزن:

- لا أعرف.. كيف أخبرك يا والدي، نظرت إلى الأرض وأكملت بصوت خافت:

- أخي يختلس أموال الشركة ورفعت ورقة أمام عينيه، أنظر إلى هذه الورقة، فسحبها والدي من يدي وأكملت:

- لقد طلب من المحاسب صرف مبلغ كبير من أجل مشروع ما، وحول كل هذه الأموال لحسابه الخاص، وإن كنت لا تصدقني فالمحاسب بنفسه سيطلعك على كل ما حدث، استدعيت المحاسب، وبعد لحظات دخل وهو يرتجف خوفاً وينظر إلي مستنجداً، فقال له والدي بحدة:

- هل صحيح ما يقوله فيصل؟؟

فتبادل النظرات معي ثم قال:

- نعم يا سيدي.. لقد حصل كل هذا الأمر.

هنا امتقع لون والدي وأمر السكرتيرة باستدعاء أخي حالاً؛ كان والدي دوماً يعتبر أخي مصدر تهديد له، وكان هو في قرارة نفسه يرغب بإمساك دليلٍ يقوده إلى تحقيق غايته، من دون الظهور كأب سيء، فأتى أخي مسرعاً وهو لا يعلم بالموضوع.

لقد قام والدي بمواجهة أخي بما حدث، وشهد المحاسب زوراً بالأوراق التي معه، هنا وقف أخي ونظر إلي بدهشة وقال: هل تتهم أخاك بالسرقة؟؟ هل تبيعني يا فيصل؟؟؟

فأجبته وأنا أكاد أبصق في وجهه:

- أنت مجرد لص حقير تسرق والدي.

انهار أخي على الكرسي الذي بجانبه وقال: (حسبي الله ونعم الوكيل)، الله سينتقم منك يا فيصل.

- كفى تمثيلاً.

وهنا تحدث والدي بلهجة غاضبة:

- لم يعد لك مكان هنا في الشركة والمنزل، أنت مطرود منهما..

ولا أريد رؤيتك مرة أخرى.. ولا تقل إني والدك.. منذ اليوم لم تعد ابني.

أحسست بنشوة الانتصار فور سماعي هذا الكلام من والدي.

بعد ذلك استدعيت المحاسب وأعطيته مبلغاً كبيراً من المال وقلت له:

- والآن خذ جائزتك، وبعد شهر سأوظفك في شركة صاحبي، فلا يوجد مكان للصوص أمثالك هنا في شركتي.

بعد طرد أخي من الشركة تم تعييني أنا مديراً لها؛ كنت أفضّل لو قام بسجنه، لكن والدي اكتفى بمعاقبته وحرمانه من الميراث حتى أصبح يشدد أن يدعى أبا فيصل؛ ربما كنت قاسياً مع أخي لكنه كان يستحق كل ما جرى له، حيث إنه بليد وكسول وفاشل ويظن أن المال سيأتيه على طبق من ذهب.. وقد كان جاسوساً لوالدي قبل أن يعلن تمرده عليه.

أرجوك يا من تشهد اعترافي لا تسئ الظن بي وتعتقد أن الحقد مزورع في قلبي وشجرة القسوة تظلل حياتي، فلقد نشأت على مثل هذا النظام، وتم سقي عقلي بهذه الأفكار فأصبح شعاري أن كل شيء يتم شراؤه وبيعه بالمال، حتى عندما يضرب والدي والدتي يقوم بشراء بعض الهدايا لها فتكتم غيظها، وعندما يعود وهو ثمل لا تتكلم أبداً.. أكان يشتري بماله سكوتها وخضوعها له حتى سمعتها تقول لأختي يوماً: إن الرجل سواء أكان فقيراً أو غنياً سيظل سيئاً ويضرب زوجته ويخونها، فالأفضل أن تتزوجي رجلاً غنياً يقوم بإغراقك بالمال والهدايا كتعويض عن إساءته، إن والدي اشترى قلب والدتي وأخضعها بماله وعادت له بعد مدة وتركت من استولى على قلبها، وهي فضلت المال على الحب.

أعادني صوت طائرة تقلع إلى عالمي، فنظرت إلى الكأس مرة أخرى ورميت ما بها من كحول في جوفي عسى أن يطفئ النار لكنها

ازدادت اشتعالاً، وطلبت من النادلة فاتورة الحساب، وبعد أن انتهيت من الدفع قررت التجوال بين أركان المطار.

فجأة تذكرت... آه يجب عليّ الاتصال بأحمد، فأخرجت هاتفي من جيبي وأدرت رقمه، لكنه لم يقم بالرد.

أحمد صديقي الوحيد في هذه الحياة، فعلى الرغم من مساوئه وجدته الأخ والصديق وكاتم أسراري.. لقد كان برفقتي عندما كنت في المدرسة لكنه انتقل إلى مدرسة أخرى. لم تكن علاقتي به وثيقة إلى أن شاهدته في أحد اجتماعاتي المقامة في شركة صديقي، كان جالساً في قاعة الانتظار وما إن رآني حتى هب واقفاً، وقدم يده لي مصافحاً، فنظرت إليه متفحصاً، ثم سألته مستفسراً، فأنا لم أتعرف عليه فقال: أنا أحمد يا فيصل ألا تذكرني (أحمد طارق) زميلك في الفصل، وهنا تذكرته... أحمد الذي كان يضحك أحياناً مع الطلبة عندما يستهم بي الضيق فابتسمت له مزهواً بنفسي قائلاً له:

- أحمد ما هي آخر أخبارك وما أخبار زملائنا؟

فقطب جبينه محاولاً التذكر ثم قال: (علي) تخرج من الجامعة ولا يزال يبحث عن وظيفة (وأنا أبتسم وأتذكر، علي من كان يرمي الأوراق ويتسبب بإزعاجي) ثم أكمل قائلاً: وفتحي، إبراهيم، يوسف يعملون في الجيش أما أنور، وسامي، ويحيى فإنهم ينتقلون من عمل إلى آخر.

فابتسمت بسخرية، ها هي نبوءتي تحققت لهم، إنهم فاشلون وأنا من نجحت وحصدت نتائج تعبي فنظرت إليه ببرود: وسألته: وأنت ما الذي جاء بك هنا؟

فقال لي بتوتر: لقد أتيت سعياً للحصول على الوظيفة الشاغرة وأوصاني قريبي خيراً لها وسكت لثوانٍ ثم أكمل: وأنت ماذا تفعل هنا؟

فقلت له بغرور: أتيت لحضور أحد اجتماعات الشركة، ألا تعلم أني مدير لشركة من شركات والدي.

ففغر فاه مندهشاً ثم تمالك نفسه وقال: مبروك لقد أمسيت مديراً.

نظرت إلى ساعتي وقلت له: أنا مضطر حالياً للذهاب وأتمنى لك التوفيق في الحصول على الوظيفة، ووضعت نظارتي الشمسية على عيني واتجهت نحو باب الخروج، وما أن خرجت من الشركة واستقليت السيارة حتى أدرت رقم صاحبي مدير الشركة التي يرغب أحمد بالتوظف فيها:

- الووو.... مرحبا أسامة... أريدك في خدمة.

فقال بسرعة: أوامرك يا فيصل أنتَ..

فقاطعته قائلاً: هنالك شاب يدعى أحمد طارق جالساً في ردهة الانتظار يرغب بالحصول على إحدى الوظائف في شركتك.

فقال: هل ترغب أن أجيز الوظيفة له؟

فقلت له بحدة: لا، أريدك أن تقوم بطرده فوراً من الشركة.

فقال بهدوء خاضع: حاضر.

والآن إلى اللقاء، أغلقت الهاتف وأنا مزهوٌ بما فعلته، فأحمد لم يدافع عني يوماً.

مرت الشهور حتى زارني والدي في مكتبي وقال لي:

-فيصل إن صاحبي أوصاني بتوظيف أحد أقاربه، وسيأتي اليوم ليستلم الوظيفة، ولا أريد أي نقاش في الموضوع فلتقم بتوظيفه حالاً.

فقلت له وأنا ألثمُ رأسه بقبلة: أوامرك يا والدي.

أبلغتني السكرتيرة بحضور الموظف الجديد، فأمرت بدخوله وتفاجأت عندما شاهدت أحمد يدخل، وعلى وجهه ابتسامة، لكنني تمالكت نفسي، وبعد ترداد بعض المجاملات قال لي متذمراً:

- لم أوفق في الحصول على تلك الوظيفة لكن الحمد الله على كل شيء...

وسكت للحظات ثم أكمل: لكن يسعدني جداً أن أتوظف لديك يا فيصل، ثم نظر إلى أصابع يده وأكمل بخجل: كما تعلم إنّ ظروفي باتت صعبة وإني المسؤول عن عائلتي، وألتمس عطفك... وأرجو كرمك، تمالكت نفسي للحظات ثم أتاني صوت والدي يتسرب من أعماقي ليحاصرني من جميع الجهات (لا تدع عواطفك تسيطر على اتخاذك للقرارات) فانتفضت طارداً لهذه الأفكار وقلت له: أنا على أتم الاستعداد لأساعدك يا أحمد.

مضت السنوات وعلاقتي بأحمد تتوثق حتى بات يعلم بأسراري فيكتمها، ويساعدني حتى في حياتي الشخصية، وأنا اشتري صداقته وأمطره بالأموال لأجبره على الصمت حتى غدا كالكلب الوفي.

***

اتجهت نحو الطائرة وهممت بالصعود، تجولت عيناي بين المسافرين.. جلست على الكرسي وكان على يميني رجل طاعن في السن يفصل بيني وبينه الممر الصغير وإلى جانبي تجلس امرأة جميلة، يبدو أنها أميركية، وما أن ارتفعت الطائرة لتشق السماء حتى فتحتُ كتاباً قمت بشرائه من مكتبة وجدتها في ردهة المطار وباشرت بقراءته فوجدت ذكرياتي تنبع من بين سطوره، فأبحرت من خلاله إلى ماضيّ.

توليتُ جميع أعمال والدي وكنت رجل أعمال ناجحاً من الدرجة الأولى، عشقت العمل وتحصيل الشهادات، أفنيت حياتي بأكملها منهمكاً في الدراسة والعمل.

واجهتني الكثير من المشاكل في العمل؛ فالموظفون لا يهمهم غير الراتب ولذلك لم يكونوا يقومون بإنجاز أعمالهم بالمستوى

المطلوب، فهم سيستلمون أموالهم عاجلاً أم آجلاً، والإنسان العربي بدوره نشأ على من يعطيه الأوامر ومن يراقب عمله، فلا توجد لديه رقابة ذاتية لذلك كنت صارماً في معاملتي معهم وقاسياً فلا أبتسم ولا أجامل أبدًا.

اكتسبت جميع مهاراتي من والدي الذي جعلني رجلاً ذكياً، حذقاً لا يمكن لأحد خداعي، وتسببت صرامتي بفايروس الكراهية الذي فتك بقلوب الموظفين لي لكنني كنت أضع دوماً مصلحة الشركة أولاً؛ إنني رجل حازم وليس بعدواني، فلا أتشاجر معهم من دون سبب، وكل موظف يعرف حدوده فلا يتخطاها، وعندما أقول كلا وأرفض اعتدت وضع البدائل والمبررات والأسباب حتى أكسب ثقة الموظفين.

إنّ العمل كان يرهقني بل يستنزف وقتي بسبب تعرضي الدائم لبعض الاختلاسات في الشركة. وبعد مرور السنوات اكتشفت أنني على علاقة مع عملي ولم يكن لي حياة عاطفية أبداً، فقط بعض العلاقات العابرة التي لا تتعدى الأيام.

ولشعوري القاسي بالوحدة قررت والدتي اختيار زوجة المستقبل حتى تبعدني عن العمل.. كانت تلح طوال الوقت حتى استسلمت لها أخيراً وبدأ البحث عن زوجة المستقبل التي كانت والدتي يوماً بعد يوم تزيد من شروطها فتخرج مع قريباتي للبحث عن هذه الزوجة وتحضر اللقاءات العائلية والمناسبات ثم تعود إليّ ولسانها يردد شتّى أنواع الحكايات وأوصاف الفتيات، فتتحدث عن مدى جمال هذه الفتاة ومدى ثراء أخرى، وذكاء تلك، وكنت أحرك رأسي وأنا لا أستوعب ما تقوله، فأنا مشغول في تطوير أعمال والدي؛ وما أن تنتهي من حديثها حتى أقول لها الجملة المكررة دوماً: (إن الأمر راجعٌ لكِ يا أمي وأنا أثق باختيارك) فتبتسم قليلاً ثم تنهمر دموعها وتقول: لقد كنت أتمنى أن أفرح بأخيك وليد... فيتمزق قلبي من الألم، ألم تكوني تكرهينه؟ أليس هو السبب لما حدث لنا؟ ما أغرب

النساء وكم هن متناقضات ولكنني كنت أتجاهل الموضوع تماماً ولا أخوض فيه.

بعد مرور عدة أسابيع حادثتني والدتي أثناء تواجدي في العمل، وطلبت مني إلغاء جميع اجتماعاتي وأعمالي في نهاية هذا الأسبوع، وأنها وجدت الفتاة المناسبة لي، ابتسمتُ للحظات وتشوقت لفكرة الزواج، وفجأة، ومن غير سابق إنذار أحسست بشيء يكتم صدري؛ إنه الخوف من سجن الزواج وتقديم حريتي كقربان لها، لكن هل كان والدي مخلصاً لوالدتي؟

كلا، فعلى الرغم من زواجه من امرأتين كان يحب النساء ويشتريهن بماله، إذن سأتزوجها لتنجب لي الذرية فقط... أما نزواتي فسوف تكون خارج هذا القفص وسوف أجعلها تخضع لي كما خضعت والدتي لأبي، ولن تذهب لغيري فأنا لن أكون قاسياً كوالدي بل سوف احترمها لتحترمني، إني أفضل من والدي وعلى يقين من أنها لن تخونني أبداً؛ بالفعل انتظرت اليوم الموعود وأنا أحاول كتم فرحتي وتشوقي لمشاهدة زوجة المستقبل، ووضعت على وجهي قناعاً يدل على عدم مبالاتي لمشروع الزواج وذهبت برفقة والدي وبعض نساء العائلة لمشاهدة الفتاة، دلفنا الى منزلها وجلسنا في غرفة الجلوس، كنت متوتراً للغاية فلم أنتبه للأشخاص المحيطين بي.

لقد كان والدها يجلس بيني وبين والدي على الأريكة نفسها، وتعمدت الجلوس مقابلاً للباب حتى أستطيع اختلاس النظر إليها ما أن تدخل... فجأة دخلت فتاة جميلة جداً.... بهرت بها، قبلت والدتي وخالاتي وقريباتي ثم جلست على الكرسي المقابل لي بعد أن صافحتني بخجل فتحدثت والدتها (إنها ريم شقيقة العروس الكبرى) وما هي إلا لحظات حتى دخلت أختها ياسمين تسير بخجل وبالكاد ترفع عينيها من على الأرض، وأطلقت والدتي زغرودة ثم أخذتها بين ذراعيها وقبلتها، واتجهت نحوي ومدت يدها فالتقطتها، وما أن لامستها حتى سحبتها بتوتر ثم جلست بالقرب من أختها، وساد

الصمت لعدة ثوانٍ، بعدها دار حديث النساء وهنّ يروين الحكايات وأنا أدقق في ملامحها، إذ ربما أصابتني خيبة أمل وتمنيتُ لو كانت الكبرى هي من وقع عليها الاختيار لكنني تداركت خيبتي وجلست أتفحص العروس وألتهم أختها بنظراتي.

بعد ذلك، قالت والدتها: لماذا لا تجلس بجانبها وتحادثها، فنظرت نحو والدي أستأذنه فأشار عليّ برأسه بالموافقة، فاتجهت ناحيتها ونهضت أختها ريم من جانبها لتفسح لي مكاناً للجلوس واتجهت لتستقرّ بالقرب من والدتها... وبعد مرور عدة دقائق محرجة نظرت إلى وجهها الذي تجمع فيه الدم فأصبح أحمر اللون فقررت الإمساك بدفة الحديث فقلت لها: كم تبلغين من العمر يا ياسمين؟

أجابت من دون أن ترفع رأسها: ألم تخبرك والدتك بذلك؟

فقلت لها محاولاً الحفاظ على اللهجة الجدية نفسها: لكنني أحب سماع ذلك منك.

- عمري اثنان وعشرون عاماً.

- وما هي أهدافك في الحياة؟

فرفعت عينيها بدهشة ثم ضحكت وهي تقول: أهدافي لا تختلف عن غيري من بنات جنسي، أن أتزوج من رجل يوفر لي الحياة المثالية وأنجب منه الأولاد.

لم تعجبني إجابتها ثم تداركت نفسي قبل أن أهم بالحديث، فأنا أتيت لأخطبها وليس لأوظفها في الشركة؛ وساد الصمت مرة أخرى بيني وبينها وخلق جوٌ مشحونٌ بالتوتر، فكانت هي تجول بنظرها بين الوجوه المحيطة بنا ثم تنظر إلي بخجل حتى اقتربت أختها وجلست بالقرب منها وقالت:

- إن ياسمين من أبرع الطهاة ألم تتذوق الحلويات.. لقد صنعتها بيدها ثم سحبت أحد الأطباق ورفعته لي، فتناولت قطعة مجاملة لها والتهمتها، ومضى بعض الوقت حتى حان موعد الرحيل ووالدتي لا تكف عن إبداء إعجابها بالفتاة. طبعاً لم أرغب بالسؤال عن أختها

الكبرى حتى لا أثير الشكوك وصعدت خالتي ووالدتي معي في السيارة، فقالت أمي لخالتي في طريق العودة: كنا سوف نخطب الكبيرة ريم لكنها متزوجة من رجل الأعمال ياسر الدرنوق، وهنا تذكرته، إنه ياسر الذي ينافسني في أعمالي، فشاهدت خالتي تغمز لوالدتي وتهمس لها: أليس ابن قاسم الدرنوق ابن الرجل الذي....

وهنا تذكرت أنه هو الرجل اللطيف الذي شاهدته في طفولتي، ثم قبضت بقوة على مقود القيادة، وسرق مني والدتي وسمّم حبنا. بعد عودتنا إلى المنزل وأثناء جلوسي في غرفتي أتى والدي وطرق الباب ثم دخل.. كنت أعمل على بعض المشاريع، وعندما شاهدته وقفت له احتراماً وخطوت ناحيته وقبلت رأسه ثم انحنيت أجمع الأوراق، فجلس على السرير وجلست أنا مواجهاً له فقال:

إسمعني يا فيصل، أظن أن هذه الفتاة مناسبة لك من حيث المستوى المعيشي والنسب وأرغب أن تكون زوجتك فأنا أعرف معظم أقاربها.

نظرت إلى رزمة الأوراق التي أمامي وفكرت قليلاً فأتاني صوته:

- ما رأيك يا فيصل؟

فقلت له وعيناي متشبثتان في رزمة الأوراق: أنا أفعل ما تأمرني به يا والدي.

فربت على كتفي وقال: إن تربيتي لن تضيع سدى كما حدث مع أخيك الفاشل وليد.

ونهض وتركني وحدي، فلم أهتم كثيراً بموضوع زواجي لأنه صفقة عقدتها لأجل والدي وليس من أجلي. وهكذا، وبعد مرور الأسابيع تمت خطوبتي على ياسمين التي تصغرني بثلاث سنوات. في البداية أغراني جمالها، فهي تشبه والدتي في صباها إلى حد ما، فعيناها بلون العسل وتحميهما رموشها التي غدت كالسيوف؛ شعرها أسود لامع، يغطي ظهرها كشلال منسدل وابتسامتها تشعل في قلبي

النار... كانت ممتلئة قليلاً ولكنها طويلة للغاية، تقربني في الطول، اعتقدت أنها سوف تملأ حياتي بهجة وسروراً، لكنها صدمتني بتصرفاتها؛ إنها ثرثارة جداً وما أقوله لها تسرع بإذاعته بين أفراد عائلتها... ودوماً تجعل أختها تتدخل في ما بيننا؛ كنت أنتهز الفرص التي تجمعني بأختها حتى أتبادل معها أطراف الحديث، أعجبت بشخصيتها وبهرتني جاذبيتها ونظرتها للأمور وطريقتها في التحدث وتعمدتُ أن أبدي إعجابي بها في كل لقاء فتقابلني بالصد.

أما بالنسبة لياسمين فهي كانت واقعة في حب ثروتي، فقررت الاستسلام لمطالب والدتي والخضوع لهذه الفتاة وشرائها بمالي، أما عواطفي فيجب عليّ التخلص منها أو أبحث عن فتاه خارج نطاق الزواج أبوح لها بمشاعر القلب. ومضت الأيام، فهذه الفتاه على الرغم من ذكائها المزعوم إلا أن حديثها كان تافهاً، فمعظمه عن الماركات وعن فلانة وما اشترت أو عن عمليات التجميل التي قامت بها صاحبتها لدرجة اتصالها بي أثناء عملي كي تسألني في أمور تافهة.. هل تظن أن أنفي يحتاج لعملية تجميل؟؟ أو ما رأيك لو أقوم بتغيير لون شعري؟؟ أو تتحدث عن القيل والقال.. حذرتها آلاف المرات بعدم الاتصال بي إلا إذا كانت المسألة ضرورية لكنها لم تكن تفهم، كانت تقتلني بطلباتها ولا يعجبها العجب حتى إنها حاولت تغيير مظهري كما تريد، هل من الممكن أن تتخيلوا رغبتها بتغيير لون شعري إلى اللون الأشقر وحلق شاربيّ والقيام بحمّام شمسيّ حتى يصبح لوني برونزياً ومشابهاً لفنانها المفضل عمرو دياب، والأدهى من ذلك أنها تجرأت ورمت ملابسي واستبدلتها بملابس غبية، وقالت إنها آخر صيحات الموضة.

أغضبتني كثيراً بتصرفاتها؛ فأنا رجل أعمال لا عارض أزياء أو مطرب.. وماذا سوف يقول عني والدي وأصحابي إذا رأوني أشقر الشعر وبرونزي اللون مرتدياً الملابس الغبية؟

تحليت بالصبر لأجل أختها فقط، وأثناء جلوسي في مكتبي بحت بهواجسي لأحمد وأخبرته بهيامي بأختها ريم فقال لي (فرق تسد.. يجب عليك التفريق بينها وبين زوجها).

أدرت الكرسي نصف استدارة ثم قلت له وأنا أعبث بالقلم:

- وكيف السبيل إلى ذلك؟

اقترب أحمد من نافذة المكتب وضم ذراعيه إلى صدره وهو ينظر إلى الخارج:

- دع الأمر لي.

وبالفعل بدأ بتنفيذ خطته، وبحث عن فتاة لديها معرفة قديمة بريم وعثرنا على (سمية) صديقتها ثم أقنعها بتنفيذ الخطة، وهي أن تخبر ريم بخيانات زوجها المتكررة لها.. وتم تنفيذ الخطة.. وبعثنا لريم صوراً إلى زوجها برفقة إحدى الفتيات... وكانت خطيبتي الثرثارة تخبرني بنتائج الخطة، وتخبرني بعودة ريم إلى المنزل وهي حزينة ثم أجبرت على العودة لزوجها، وكنت ألمح التغيرات الطارئة عليها فأدرس ملامحها الحزينة وأكتشف الحيرة التي تشرق من عينيها، وكنت أداعبها ببعض الهمسات فأقول لها: لو كنت لي لما نظرت لغيرك.

وكانت سمية تخبرها بإعجابي بها، وإنني تمنيتها أن تكون لي لكن الأقدار شاءت أن أخطب أختها، وشيئاً فشيئاً وقعت الفتاة بين أحضاني ورويت ظمأي منها... كنت أتلذذ بتدنيس قدسية زواج منافسي الأول ياسر ابن من سرق والدتي في يوم من الأيام وقتل حبها لي.

كانت ريم حنونة للغاية، مختلفة عن أختها، فعشت قصة الحب المحرمة معها، وأثناء وجودنا معاً صارحتني برغبتها بالطلاق من زوجها وشردت بأفكاري، أهي إشاره تطلب بها مني أن أتزوجها هي وأترك أختها، لا لا مستحيل فهذه المرأة خائنة وخانت زوجها وأختها من قبل فلا يمكنني أن أئتمنها على منزلي، وهل من الممكن السماح لها بهجر أطفالها؟ أنا لن أجعل طفلاً بريئاً يعاني مما كنت أعانيه.

الحل الوحيد إنهاء علاقتي بها. فبدأت أتهرب منه، وكادت أن تجن وكلما ازدادت ملاحقاتها لي ازداد احتقاري لها... إن الرجل يمقت المرأة التي تلاحقه، حتى أخبرتني برغبتها بمقابلتي وأتت إلى الشركة فنهرتها واضطررت لتحديد موعد معها حتى لا تعيد فعلتها، فقالت لي إنها حامل، وهنا وقعت عليّ الصدمة ووقعت أمامها منهاراً ومتسائلاً: هل هو ابني؟ أم أنها تكذب، ثم أمسكتها من ذراعها وقلت لها: يجب أن يتم إسقاطه.. فرفضت ذلك... وبكت أمامي وقالت ماذا سوف أقول لزوجي.. اقتربت منها بهدوء وقلت لها: أخبريه أنك وقعتِ.... إكذبي عليه... اخدعيه.

لكنها رفضت... فقلت لها: لست مسؤولاً عما سوف يحدث، فنظرت إليّ من تحت دموعها وقالت: أتتخلى عني.

فقلت لها: إنني مضطرٌ لذلك، فعلاقتنا لم تعد كالسابق فأسقطت وجهها بين كفيها وأخذت تبكي فنظرت إليها باشمئزاز ورحلت فتبعتني ورمت بجسدها تحت قدمي وهي تبكي توسلاً فدفعتها وأكملت طريقي وأنا أستمع لصوتها الثائر وهي تقول: الله سوف ينتقم منك في عرضك، لم أهتم لها ولم يرتعش لي جفن.

كانت أمامي مشكلة كبيرة ألا وهي أختها المزعجة إذ يجب عليّ التخلص منها.. كنت مطمئناً بعدم بوح ريم بما حدث، فذلك يسيء إليها أكثر مما يسيء إليّ.. وبالفعل طلقتها بعد شهرين فقط وادعيت بأن سمعتها سيئة وأنها كانت تقيم علاقة محرمة مع صاحبي قبل زواجها بي.. وإنها ليست عذراء ولجأت إلى عملية جراحية حتى تعود كما كانت؛ وإلى اليوم أرفض الاعتراف بأني تجرأت عليها كثيراً وظلمتها وشوهت سمعتها في كل مكان وهي لم تسكت عني وقالت بأني لا أتمتع بقدرات الرجولة، وإني سليط اللسان، وهذا ما أدّى إلى رفضي كزوج من قبل الكثير من العائلات.

***

(15)
لعبة القدر

أيمكن للحب أن ينمو في قلب إنسان مهجور؟ أيمكن لشجرة جفت من عطش السنين وهي تتشوق لقطرةِ ماءٍ أن تزهر أوراقها وتتلون بالألوان الخضراء لمجرد أن ترتوي من أول قطرة ماء؟

أهكذا الحب يحيي القلوب؟ أهكذا الحب ينحت قلوباً كانت شامخةً كالجبال؟ أيكون كشعاع الشمس الذي يذيب الجليد؟ أيكون كالرياح التي تعصف بأكوامٍ من الرمال فتبعثرها؟

أهكذا نحت الحب عِواطفي وأذابت ابتسامتها القسوة المتراكمة في قلبي وعصفت وتلاعبت بي رياح الحب لمجرد نظرة واحدة من عينيها؟

هل تؤمن بوجود إنسان يدخل حياتك بمحض المصادفة، ولا بد من أن القدر وضعه في طريقك لأسباب؟ أنا آمنت بذلك بعد دخولها حياتي وتركها بصمة دامغة فيها، لكن هل وضعها الله في طريقي ليعاقبني على أفعالي أم ليحيي قلبي بعد موته؟

إبحث يا من تشهد اعترافي عن الجواب بين هذه السطور فقد عجزت عن إيجاده.

اهتممت كثيراً بأعمالي الخاصة وازدهرت تجارتي الخارجية وأصبحت مضطراً للسفر إلى بعض الدول المجاورة كي ألتقي بتجارها. أصبحت رجلاً مرموقاً وتاجر أعمال من الدرجة الأولى، كانت صور

نجاحي تملأ الصحف اليومية، وكان والدي يتفاخر بي دوماً، فظننت أن المال هو سر السعادة حتى شاء القدر أن ألتقيها.

اضطررت للسفر من أجل القيام بتوسيع أعمالي وأعمال والدي، وذهبت إلى الكثير من الاجتماعات المقامة في عواصم الدول الأوروبية، وأثناء سفري إلى لندن اكتشفت أن الاجتماع تم نقله إلى سويسرا، تضايقت كثيراً من هذا الأمر ولكن القدر رسم خطته ووضع في طريقي بعض الأسباب ليسهل عملية دخولها إلى حياتي؛ فلولا هذا الاجتماع المقام في بلدتها لم أكن لألتقيها يوماً ولم ينتشلني أي شخص من هذه الوحدة الموحشة.

بعد إعلاني عن تذمري وانتقادي لاستهتار هذه الشركة الأجنبية، وعدم إبلاغها عن تغيير مكان الاجتماع اضطررت للسفر ووصلت إلى جنيف فجراً... ذهبت حالاً إلى الفندق لأرتاح من مشقة السفر واخترت غرفة تقع في الطابق الأخير؛ لم أنظر إلى محتواها، فأنا ما أن خلعت ملابسي واستلقيت فوق الفراش حتى دخلت في نومٍ عميقٍ.

نهضت بتكاسل والنوم لا يزال يثقل جفني، نظرتُ إلى الساعة وكانت تقارب الواحدة ظهراً فاتجهت ناحية الحمام وقدماي تصطدمان بقطع الأثاث. وبعد الاستمتاع بحمام منعش جلست في الشرفة أتأمل المناظر الجميلة والسماء الزرقاء الملبدة بالغيوم،ثم هبطت إلى البهو واتجهت إلى المطعم الموجود في الفندق... تناولت طعامي لوحدي ثم أجريت مكالمة لأحمد لأخبره عن مكان وجودي ولأستفسر عن موعد وصوله، فقد قررت تمديد إقامتي لعدة أيام لأتجول في المدن.

تبقّى على اجتماعي يومان فقط... تنزهت في جنيف حتى حان موعد الاجتماع وحضرته برفقة أحمد الذي وصل إلى جنيف صباحاً ثم انطلقنا إلى زوريخ بالقطار.

عندما شارف وقت الظهيرة اتجهت مع أحمد إلى أحد المطاعم الذي كان ذا واجهة زجاجية لا يغطيها شيء حتى تسمح بدخول

النور... اخترنا الجلوس على أول طاولة بالقرب من الباب لنستطيع مراقبة المارة والتعليق عليهم ولنمتع أعيننا بجمال نساء أوروبا؛ جلس أحمد إلى يساري وتبادلنا الحديث ونحن نتناول الغداء؛ فجأة رأيت شيئاً دغدغ قلبي، لا أعلم لماذا اضطربت حواسي عندما وقعت عيناي عليها وهي تهم بالدخول.

كانت تسير بخطوات واسعة وتضرب الأرض بكعب حذائها كأنها تعلن عن تمردها وترفع خصلات شعرها الشقراء التي يداعبها الهواء فينثرها أمام وجهها فتعيدها بإهمال مثير خلف رأسها.. دخلت إلى المطعم وهبّ المدير يستقبلها بابتسامة أشرقت في المكان فدبت الحياة فيه وأجبرتني على رسم الابتسامة على محياي، فأحنيت رأسي حتى لا أجعل أحمد يلاحظ ابتسامتي، وكان هو الآخر مشغولاً بملاحقتها بنظراته. كانت ترتدي قميصاً قطنياً عاري الأكتاف أبيض اللون وعليه بعض الخطوط الزرقاء وتحته تنورة زرقاء قصيرة جداً ترتفع إلى الأعلى كلما أسرعت بخطواتها؛ وفي يدها جاكيت طويلة تحتمي بها من تقلبات الجو، فمرّت من أمامي وجلست مقابلة لي إلى إحدى الطاولات مع مجموعة من الفتيات، ولم تتلطف عليّ ولو بنظرة.. كنت أراقبها بعيني بحذر خوفاً من أن تلاحظ نظراتي أو يكتشفها أحمد ثم أخذت من صدري هواء عميقاً أعلن من خلاله عن استسلامي لهذا النوع من الجمال.

أتعلمون كيف يتسلل النوم إلى أعيننا ويتركنا نائمين من دون أن نعرف متى نمنا وكيف نمنا، هكذا تسلل حبها إلى قلبي البكر فلا أعلم متى أو كيف وقعت به.

بعد مرور بعض الوقت غادرت المكان مع صاحباتها فأظلمت الدنيا في عيني وانخلع قلبي، أترحل وقلبي بدأ يخفق بالحب؟ عدت في اليوم التالي إلى المكان نفسه، وجلست أنتظرها بفارغ الصبر حتى أتت مع صاحباتها وبعض الرجال، أصابتني الغيرة عندما شاهدتها

برفقة هؤلاء الرجال وازداد غيضي عندما كانت أصابعهم تلامس هذه التحفة.

كانت فوضوية للغاية، فانتهزت هذا الأمر، واستدعيت المدير وأخبرته أن يأمرها بالصمت أو سوف يخسر زبائنه لأنها تسبب الإزعاج لرواد المطعم... نظر إليّ المدير طويلاً ثم أومأ برأسه واتجه إليها ليخبرها، فرفعت رأسها، والتقت عيناي بعينيها للمرة الأولى فأشعلت في قلبي شرارة حب لن تستطيع أي امرأة إلى اليوم أن تجعلها تخمد. وبعد مرور عدة دقائق نهضت متجهة نحو باب الخروج، وقبل خروجها تعمدت الاصطدام بالنادل ليسكب كل ما في يديه فوق رأسي؛ نهضت مغتاظاً من تصرفها لكنها هربت كأنها طيف مر للحظات ثم تلاشى.

تلك الليلة لم أستطع النوم حتى إنني عندما نمت لساعات معدودة رأيتها في أحلامي وعدت إلى المكان نفسه علّ وعسى أن أراها ثانية... ومرّ الوقت طويلاً لكنها لم تأتِ وخرجت من المطعم واعتذرت لأحمد بسبب عدم قدرتي على مرافقته وتجولت في هذه المدينة وحيداً، أسير على قدمي وأحدق في وجوه المارة أبحث عنها، أفتش عن شيء جميل كان أمامي ولم أجعل عيني ترتوي منه حتى تشبع، أرهقني السير فعدت إلى الفندق ثم جلست أفكر مرة أخرى.. ربما خافت مني ولذلك لم تأتِ. ثم فكرت للحظات من أن المدير لا بدّ يعرفها شخصياً بسبب أسلوبها في الحديث معه وربما يعرف مكان وجودها فيدلني عليها، وهكذا قررت استفسار المدير عن مكانها. نهضت في اليوم التالي وكان آخر يومٍ لي في زوريخ وتجولت في الشوارع والأسواق... أعد الثواني حتى حان الوقت فقلت لأحمد:

- هيا بنا نذهب إلى المطعم الذي ذهبنا إليه بالأمس.

فقال أحمد متذمراً:

- هنالك عدة مطاعم أفضل منه.

فنظرت إليه بغضب فصمت وسار خلفي حانياً رأسه. وعند وصولنا انتظرتها بشوق لكنها لم تأتِ فاستدعيت مدير المطعم وسألته:

- هل تذكر تلك الفتاة المزعجة التي كانت تجلس إلى تلك الطاولة؟ وأشرت إليها بإصبعي.

فابتسم المدير:

- تقصد تلك الفتاة الشقراء التي طلبت مني طردها.

- نعم هي بعينها؟ أين هي؟ لم أشاهدها منذ ذلك اليوم.

فقطب بين حاجبيه وقال:

- لا أعلم، لكنها تتردد دوماً على مطعمنا.

اعتدلت في جلستي وقلت له:

- أتعرف أين بإمكاني أيجادها؟

ولاحظت نظرات أحمد الفضولية فتجاهلتها، قال بتردد:

- كلا.. لا أعرف.

فابتسمت ابتسامة صغيرة وقلت له:

- ألا تملك رقم هاتفها؟

- لا يا سيدي.. لا أملكه.

أخرجت بعض الأوراق النقدية من محفظتي وأنا ألمح نظراته الملتهبة بطرف عيني وسلّمته إيّاها:

- هل هذا سوف يجعلك تتذكر؟

وكشف المدير عن أسنانه بابتسامة واسعة خبيثة:

- نعم بدأت أتذكر القليل.

وهنا أعطيته المزيد من المال، ورددت الابتسامة له:

- والآن؟

- اسمها ناهد، طالبة في جامعة زوريخ تأتي كل يوم مع زملائها من الساعة الثانية حتى الساعة الخامسة، تحب المزاح كثيراً ليس لها علاقات عاطفية مع الشباب وتحب تناول.......... و...........

أطلقت ضحكة قوية ثم رفعت يدي قائلاً:

- كفى، كفى إسمعني، هل تملك رقم هاتفها، وأين أستطيع العثور عليها اليوم؟

وبحركة سريعة أخرج دفتراً من جيبه الخلفي، ثم كتب على إحدى أوراقه رقم هاتفها ومزقها وسلمها لي وهو يقول:

- هذا رقم هاتفها، والليلة سوف تذهب للسهر مع رفاقها في هذه الحانة. كتب اسم الحانة على ورقه ثانية وناولني إياها، فشكرته وسار مبتعداً.

قادني الحب إلى مكان تواجدها وقادتني قدماي بشوق إليها ووقعت عيناي عليها.. رأيتها ترقص بفستانها الأصفر الذي يكشف معظم أجزاء جسدها بشكل مثير وتناثرت خصلات شعرها فوق وجهها وحولها الشباب فرحين بها، تضايقت كثيراً وشبهتها بالحلوى التي يجتمع عليها الذباب... كان معنا بعض الشباب العرب الذين صادفهم أحمد وتعرف إليهم أثناء دخولنا إلى الحانة، وعندما لاحظ أحدهم نظراتي الملتهبة إليها اقترب منها ودعاها إلى طاولتنا فشاهدتها تضحك ثم تشير بإصبعها إلي، وبعدها أتت برفقته وتملكني الذهول عندما علمت أنها عربية، فعيناها بلون البحر المخضر المحدد بالسواد وبشرتها مشربة بلون الورد، شعرها عسلي اللون يغلب عليه الشقار يمتد إلى أسفل ظهرها، وملامحها طفولية، جلست معنا وهي ثملة للغاية وبعد ساعة قالت لصاحبي:

- ماذا ستفعلون فيما بعد؟

رد عليها صاحبي: لا شيء.

- إذن سترافقونني إلى حفلة أصدقائي، ولا أقبل رفض دعوتي، فأنا أصر على حضوركم.

ترددت قليلاً ولكنني سرعان ما اندفعت لخوض المغامرة، وتبعناها إلى الحفلة المقامة في إحدى الشقق؛ كانت الموسيقى صاخبة

وتجعل دمي يتراقص وأنا أنظر إليها وهي ترقص بخطوات مسرعة ومنتظمة فأتشوق للرقص معها وأفكر في خطوات الرقص، وما إن أهمّ بالوقوف حتى أجد أن الأغنية انتهت فأجلس في مكاني، حتى اقتربت مني وهي تضحك وانحنت عليّ وتناثر شعرها فوق وجهي فتملكني شعور مكهرب، وأمسكتني من يدي وسحبتني إلى حلبة الرقص فتسمرتُ في منتصف الحلبة وأنا محرج، فقالت لي وهي تهزني: أرقص معي.

فهمست في أذنها:

- إنني لا أجيد الرقص.

فنظرت إلي بعينيها كأنها تحتضنني بهما ثم اتجهت ناحية أحد أصحابها وحادثته لدقائق وعادت وهي تقول لي: سوف أعلمك الرقص. لقد توقفت الموسيقى فجأة ثم انبعثت موسيقى أخرى رومانسية وهادئة فوضعت كفها على ذراعي وأمسكت بيدي الأخرى ورفعتها قليلاً حتى جعلتها مساوية لمستوى صدرها ثم تحركت بهدوء وهي تقودني معها.. لا أعلم ما الذي قادني إلى الرقص معها؟ أهي هذه الموسيقى الرومانسية؟ أم هو الحب الذي يجعلنا نصنع المعجزات؟ رقصت معها ثم جعلتها تدور فسقطت بين ذراعي، فضحكت والتصقت بي وأغمضتُ عيني وأنا أحاول أن أجعل هذه الذكرى لا تنتهي، وتملكني شعور رائع عندما وجدتها في أحضاني فهممت بوضع يدي على ظهرها وضغطت بقوة عليها خوفاً من أن يهرب مني هذا الحلم الجميل، حتى اندفعت الموسيقى الصاخبة مرة أخرى فأحسست أن جسدها انتفض فجأة؛ فربما كانت هي الأخرى في حلم جميل حين رفعت رأسها ببطء وصدرها يرتفع ويهبط ونظرت إلي وتعمقت في أعماق عيني حتى جاء فجأة أحد رفاقها وسحبها بقوة واحتضنها محاولاً جعلها ترقص معه، تضايقت من انتهاء هذه

اللحظات الجميلة وكانت عيوننا لا تزال معلقة ببعضنا بعضاً على الرغم من ابتعادها عنّي.

بعد مرور بعض اللحظات رأيتها تبتعد عن حلبة الرقص، فجلست لوحدها على ذراع الأريكة واضعة قدميها فوق طاولة صغيرة، فاقتربتُ منها فنظرت إليّ ثم أحنت رأسها تنظر إلى الكأس الموجود في يدها، جلست إلى جانبها وانتهزت الفرصة لكوننا لوحدنا وحادثتها:

- أريد أن أشكرك على ما قمتِ به ذلك اليوم.

فقالت بسخرية:

- طبعاً، يجب عليك أن تشكرني، فأنا أنقذتك من سخرية بعضهم على ملابسك القبيحة وأجبرتك على تغييرها.

ابتسمت لها ثم وقع نظري على الكأس الموجودة بيدها وقلت لها:

- ألم تشربي بما فيه الكفاية؟

فأطلقت ضحكاتها في الهواء وقالت:

- ومن تظن نفسك؟ والدي؟

فلويت شفتي وأنا أقول:

- من المؤسف لفتاة في مثل سنّك أن تؤذي نفسها بهذه الطريقة.

فقالت لي وقد ازدادت لهجتها سخرية:

- والآن أعتقد أنك تحولت إلى طبيب نفسي. ما رأيك أن تترك عنك هذا الهراء وترقص معي؟ ونهضت قبل سماع جوابي ثم سحبتني لأراقصها.. حاولت مجاراتها على الرغم من عدم إجادتي للرقص.. حتى توقفت قليلاً وقالت وهي تتحسس معدتها:

- اووه أشعر بالجوع.

انتهزت الفرصة وقلت لها بسرعة:

- ما رأيك أن أدعوك على العشاء؟

رفعت كتفيها من دون اكتراث:

- حسناً.

وذهبت لإحدى صاحباتها لتبلغها بذهابها معي، أما أنا فقد حادثت أصحابي وأخبرتهم بأنني سوف أغادر معها فضحك أحمد وقال: بهذه السرعة.

فقلت له مزهواً بنفسي: إنه أمرٌ طبيعيٌّ جداً.

ذهبت إليها وساعدتها في ارتداء معطفها ثم وضعت يدي خلف ظهرها وقدتها بلطف.

وعندما شاهدت ناهد مركبتي قالت بمرح: واو.. سيارة رائعة.

فقلت لها بفخر:

- لقد استأجرتها.. أنا أمتلك سيارة من الطراز نفسه في بلدي.

فصعدت بجانبي ثم قالت:

- آااه صحيح صدقتك.

أدرت رأسي ناحيتها وأنا أقود المركبة ببطء:

- هل تحاولين تكذيبي.

فأطلقت ضحكة ثم قالت:

- كلا، أتشك بنفسك دوماً.

فقلت لها باهتمام:

- حسنا أخبريني أين ترغبين تناول العشاء؟؟

فقالت وهي ترمي برأسها على الكرسي:

- لا أعلم.

- وكيف لا تعلمين، إنك خبيرة في المكان.

فقالت وهي تداعب خصلات شعرها:

- أخبرني أين تقيم؟

- في فندق ألدين.

فقفزت من على كرسيها وقالت بلهجة مرحة:

- آااه كم أحب هذا الفندق.

- إذن سوف نتناول الطعام هناك.

فأجابتني بابتسامة: طبعاً ولم لا.

بعد أن تناولنا طعام العشاء في مطعم الفندق صعدت معي إلى غرفتي ورمت بنفسها على فراشي، وأمسكت كتاباً كان موجوداً بجوارها، وقلبته قليلاً ثم قالت:

- كاتب رائع.

فقلت وأنا أجلس بالقرب منها:

- هل قرأتِ هذا الكتاب من قبل؟

- نعم، إنه من أروع الكتب إنه (لألبيرتو مورافيا).

وقامت بتحليل الكتاب لي بطريقتها المميزة، أعجبتني نظريتها واستغربت منها كيف لفتاة مثلها أن تكون مثقفة إلى هذه الدرجة، فقلت لها وأنا أخلع ساعتي:

- ناهد أين والداك؟

فأطلقت ضحكة عالية وقالت:

- ولماذا تسأل عنهما، أنا لم أسال عن والديك؟؟

فاستلقيت بجانبها متكئاً على ذراعي:

- إذا كان السؤال يضايقك فلا تجيبي عليه.

فقالت وهي ترفع خصلة من شعرها:

- أمي نائمة في المنزل.

- ألا توبخك على تأخرك؟

فنهضت جالسة وقالت لي وهي تحدق في وجهي:

- لماذا هل أنا طفلة؟

- كم عمرك يا ناهد؟

- سوف أبلغ التاسعة عشرة قريباً.

- هل تدرسين؟

- نعم، فأنا في الجامعة سنة ثانية لكنني أتغيب باستمرار، لقد دخلت إلى المدرسة في مرحلة مبكرة فتخرجت وأنا صغيرة.

فقلت لها بلهجة المحقق:

- منذ متى تعاقرين الخمر؟

- منذ ثلاث سنوات.

قلت لها بدهشة: منذ كان عمرك ست عشرة سنة؟؟

- نعم، وصاحت بتذمر هل أنا في جلسة تحقيق؟؟

فكرت قليلاً ثم قلت لها وأنا أنحني عليها:

- كلا ناهد، وترددت للحظات.

- ماذا؟

- هل تعملين بالساعات أو بالليلة؟؟؟

فدفعتني بقوة وهمت واقفة وصاحت بي وهي تسحب ثنايا فستانها نحو الأسفل:

- ماذا، هل تظنني عاهرة؟ هل تصرف الفتاة بحرية يعطيك الانطباع أنها عاهرة؟

فوقفت بجانبها متوتراً:

- لا لا.. لم أقصد ذلك.

هنا اتجهت ناهد نحو الباب فتبعتها وأمسكت بها بقوه من ذراعها: ناهد اسمعيني أنا آسف، لم أقصد إهانتك، هذه أول زيارة لي إلى وطنك، وفي الحقيقة لم أكن أعلم النظام السائد، أرجوك لا ترحلي.

فحاولت التخلص من قبضتي وهي تقول:

- أنت رجل متخلف تظن أن كل فتاة تشرب الخمر وتذهب إلى الملاهي هي مجرد فتاة عاهرة، إنني أعيش في دولة أوروبية واكتسبت كل عاداتهم وتقاليدهم ولا أحمل في عقليتي المتحضرة أفكاركم المتحجرة فإذا كنت تظنني فتاة أحتاج لأموالك القذرة فأنت مخطئ

للغاية يا عزيزي، لم أتوقع أن تكون بهذه العقلية التافهة، تباً لك ولعقلك المتحجر، أنت تعاقر الخمر فهل قمت بإهانتك وإخبارك إنك رجل سيء.

فسحبتها بلطف وأنا أقول لها بصوت خافت:

- آسف، هل من الممكن نسيان ما حدث؟ أرجو أن تتفهمي الأمر، نظرت إلي طويلاً ثم عادت إلى الغرفة وجلست على المقعد هذه المرة وقالت: حسناً سامحتك.

ودارت بيننا الكثير من المناقشات، ولم أحس بالوقت يمضي معها حتى اخترقت أشعة الشمس السحب الرمادية؛ نظرت إلى ساعتها ثم صاحت بتعجب أوووه إنها العاشرة صباحاً.. ونهضت وهي تكمل حديثها يجب عليّ الذهاب.

فقلت لها برجاء:

- ألا تمكثين لتناول طعام الإفطار معي.

فنظرت نحوي وهي تقول:

- لا أستطيع، أشعر بالتخمة، أرجو أن تطلب سيارة أجرة.

استسلمت أمام مطلبها ورفعت الهاتف لأحدث موظف الاستقبال ثم أغلقته وجلست أنظر إليها وأفكر، فقطع تفكيري رنين الهاتف... أجبت، فكان موظف الاستقبال يعلن عن وصول سيارة الأجرة ورافقتها حتى الردهة وقلت لها:

- ناهد.. هل يمكنني الحصول على رقم هاتفك؟

أخرجت من حقيبتها قلماً وأمسكت بيدي ثم قلبتها وكتبت على باطن كفي رقمها ورحلت وهي تحمل قلبي معها... عدت إلى الغرفة.... واستلقيت على فراشي فداعبتني رائحة عطرها، وما إن هممت بالنوم حتى سمعت صوت طرق، فنهضت بكسل متجهاً بخطوات بطيئة إلى الباب... فتحته فأطل وجه أحمد مبتسماً وقال: أخبرني ماذا حدث؟

رفعت يدي في وجهه وحركتها بعفوية فتبعني، قمت بحك فروة رأسي وأنا أقول له: دعني أنم، فأنا أشعر بالإرهاق واستلقيت فوق الفراش.

فاقترب أحمد مني وقال: أخبرني فقط ما الذي حدث؟

فقلت له: لم يحدث شيء، فارتسمت على وجهه علامات الخيبة لأنه كان يرغب أن يشبع فضوله بمغامرة عاطفية شيقة.

- هيا قم لتتجهز.

فنظرت إليه مندهشاً: إلى أين؟

- إلى المطار، أنسيت موعد الرحلة؟

فتأوهت قائلاً: أووه لقد نسيت بالفعل موضوع السفر، لكنني مرهق وأرغب في النوم.

فسحبني من ذراعي قائلاً: لتنم في الطائرة.

نهضت مجبراً كي أستعدّ للسفر، وجلست تحت رشاش المياه لتنهمر عليّ اللحظات الجميلة التي اشتركنا فيها منذ ساعات مضت... ينعشني كلامها وتسعدني ملامح وجهها وهي تدافع بقوة عن آرائها فأطلقت ضحكة تدل على سعادتي ثم جففت ذكرياتها منطلقاً إلى المطار.

عدت إلى موطني، كانت السماء غير السماء التي اعتدت رؤيتها والهواء غير الهواء الذي أستنشق، حتى إحساسي اختلف تجاه كل شيء، فهل يحيي الحب حواسنا ويجعلنا نبصر أشياء لم نكن نلمحهامن قبل؟

ومر اليوم الأول ببطء ولم أهاتفها على الرغم من لهفتي لذلك ووضعت خطة بتركها لعدة أيام، وبعدها أجري مكالمة لها حتى لا أظهر مدى لهفتي. وبعد يومين هاتفتها فأتاني صوتها الدافئ.

- الوو.

- الووو مرحبا ناهد.

فقالت لي باستغراب من يحادثني؟

- أنا فيصل.

فقالت بتساؤل: من فيصل، هل من الممكن أن تذكرني بك؟

فأصابتني بضربة في قلبي، لكنني تمالكت نفسي وقلت لها بهدوء:

- أنا فيصل الذي تعمدت الاصطدام بالنادل ليسكب ما يحمله على رأسي.

فأطلقت ضحكة عالية وقالت: آه فيصل الرجل المعقد.

- أخبرتك أن تنسي هذا الأمر.

- حسناً أنا آسفة.

- أعتذر على سفري بهذه الطريقة، فأنا عدت إلى وطني بسبب ظروف العمل ولم أستطع توديعك.

- لا بأس بذلك فأنا على كل حال أكره الوداع.

- وما هي آخر أخبارك؟

- لا شيء جديداً.

- وأخبار الدراسة.

ضحكت قليلاً ثم قالت:

- كالمعتاد.

- لا يا ناهد، أنسيت حديثنا أن شهادتك هي سلاحك لمواجهة العالم.

- وماذا سوف أفعل بها؟

- ستساعدك للحصول على عمل.

- جمالي هو الذي سيساعدني.

- لكنه سوف يذبل على مر الأيام أما الشهادة فلا تذبل ولا تسقط قيمتها أبداً.

- آوووه حسناً يا والدي العزيز.

- أنا لا أقصد شيئاً، لكنني أكبر منك وأملك خبرة في ما يتعلق بهذه الأمور.

- حسناً يا خبير، دعني الآن أكمل نومي، فالساعة تقارب الرابعة فجراً.

- حقاً أنا آسف لم أكن أدرك ذلك.

- لا بأس.

- سوف أحادثك فيما بعد.

- حسناً.

- إلى اللقاء.

- إلى اللقاء.

أغلقتُ الخط لحظة دخول أحمد إلى مكتبي فلمح سعادتي فقال بمكر:

- ماذا بك؟

- لا شيء.

- ولماذا أنت فرح إلى هذه الدرجة؟

- أنا سعيد دوماً.

فضحك أحمد قليلاً وقال بمكر:

- هل حادثت ناهد؟

فابتسمت وقلت له: نعم.

- على ما يبدو أنها سبب سعادتك.

فتجاهلته وابتسامتي تزداد اتساعاً.

مر الوقت بطيئاً حتى حل المساء فقررت إجراء مكالمة لها، ورنّ الهاتف مع دقات قلبي لكن صوتها الدافئ لم يأتِ، وأعدت الاتصال ولم تقم بالرد.

في اليوم التالي أعدت الاتصال بها ولم تقم بالرد وتكرر الأمر حتى مر أسبوع وهي تتجاهلني.

كنت أتجول بمركبتي ليلاً، فداعبني شعور بالتحدي، فأنا أمام تحدٍّ غريب، فكل الفتيات يركضن خلفي إلا هذه الفتاة لماذا؟ ألا تعلم هذه المغفلة عن مدى ثرائي؟ ألم ترَ وسامتي الساحرة؟

إذن لماذا تتهرب مني؟ وأصاب غروري كرجلٍ جرح بسبب تصرفها، وأثناء قيادتي للسيارة انبعثت موسيقى الرحباني منه لتحمل ما تبقى من عقلي إليها، فأتذكّرها وهي ترقص وتدور والنظرة التي ألمحها بعينيها وشعرها العسلي الطويل الذي أرغب بغرس أصابعي بين خصلاته؛ إنها الحياة وأنا قادم إليها بشوق فقررت السفر... انعطفت تجاه المطار وصعدت على متن أول طائرة تتجه إلى بلدها، ولم أقم بإخبار أحد بأمر سفري، وذهبت إليها أبحث عن ذلك الشعور الذي منحتني إياه لساعات ثم جعلتني أستمد سعادتي منه لأيام حتى بدأ ينفذ، فأتيت أبحث عنها لأتذوق جرعة أخرى منه كأنها بائعة للمخدرات تتحكم في حياة أحد المدمنين.

ما إن هبطت الطائرة واتجهت إلى الفندق حتى قادتني قدمي إلى المطعم الذي لمحتها فيه أول مرة، جلست أنتظرها لساعات في المكان نفسه وأحدق في مكانها الخالي الذي ربما كان يشتاق إليها أكثر مني حتى أتت. وما إن شاهدتني حتى ابتسمت مقتربة، وهي تمد يدها لي مصافحة، التقطت يدها بشوق وضغطت عليها ولم أشأ تركها ثم قلت لها معاتباً:

- ناهد لماذا تتجاهلين مكالماتي؟

فانطلقت ضحكة عفوية منها، ثم سحبت يدها وجلست بجانبي، فجلست أنا بدوري فقالت:

- ولماذا أحادثك؟

احتقن الدم في وجهي فأنا لم أتوقع هذا السؤال، ولم أستطع التفوه بإجابة مقنعة، فداعبت الكأس الموجودة أمامي بأصابعي، فقالت لي وهي تربت على يدي الملقاة على الطاولة:

- حتى أحبك وتحبني؟

فرفعت عيني لكي أغرق في بحر عينيها المخضر، الذي يجعل أمواج الحب تتلاعب بي وقلتُ لها:

- أخبريني ما الذي ترغبين به؟

فقالت لي: إنني أرفض الحب، فأنا لم أحب يوماً.

فتملكني اليأس وبدأ الحزن يكتسح ملامحي، فأكملت حديثها:

- أيمكن أن يجتمع الغروب والشروق في مكان واحد؟ فأنت تحمل في عقلك مبادئك التقليدية وأنا أحمل الفكر الأجنبي. إن عروقنا تضخ بدماء العادات المختلفة، أنا الحياة بما فيها من نور وتفاؤل وحرية وأنت الموت بما فيه من ظلام وغموض وسجن، أنا البداية وأنت النهاية، تقتلني بقسوتك ويأسك وأبعث فيك الحياة بحبي لها ونشاطي وسعادتي، وكل منا يحاول أن يجذب الآخر إليه، فأنا الحياة وأنت الموت.

فقلت لها: ولماذا تعتقدين أنني أنا الموت؟

فقالت لي من تحت رموشها: لأنك دوماً عبوس الوجه متشائم لا تعرف كيف تستمتع بالحياة بل تسعى أن تبث يأسك فيها ككل عربي.

فقاطعتها قائلاً: وكيف حكمتِ عليّ بذلك؟

- من خلال ما شاهدته بعيني، إنك تعتبر السعادة أمراً مرفوضاً وتحب أن تكون جاداً في كل شيء، فأنت تضحك بجدية وتأكل بجدية وتسير بجدية وأعتقد أنك تنام وقناع الجدية لا يزال فوق وجهك.

- ولماذا لا تجربينني؟

- أخشى أن تسمم سعادتي وتحول تفاؤلي الأبيض إلى تشاؤم أسود.

فأطلقت ضحكة وقلت لها: أنا أطلب منك اختباري فقط لأيام.

تنهدت ثم فتحت فمها محاولة التحدث، فقلت لها بسرعة وأنا أحتوي يدها الموضوعة فوق سطح الطاولة:

- ناهد، لقد أتيت إلى هنا لأجلك، ولم أحضر شيئاً معي غير محفظتي وهاتفي لأنكِ أشعلتني شوقاً ولهفة، فأتيت مسرعاً إليكِ تاركاً حياتي خلفي.

فابتسمت قليلاً مما شجعني لأقول لها المزيد فأكملت:

- سوف أمكث معك حتى تعلمي أنني لست كما تعتقدين.

وداعبت أرنبة أنفها وأنا أقول:

- سوف أجعلك تشاهدين شخصيتي الحقيقية ومن دون أقنعة.

فاتسعت ابتسامتها ثم أومأت برأسها إشارة تدل على موافقتها وتشربت وجنتاها بعبير الخجل، ثم ضربت بقبضتي على الطاولة وأنا أقول: أووه لا أملك ما أرتديه وأرغب بالاستحمام، هل من الممكن أن تصطحبيني إلى السوق؟

فنظرت إلى ساعتها وقالت: هلم بنا، وذهبت معها إلى بعض المحلات في شارع (بانهوف شتراسيه) وجعلتها تختار لي ملابسي وأنا أضحك تارة وأتجادل معها تارة أخرى، وهي تحاول إقناعي، وفي النهاية أخضع لها ثم أمسك بيدها بقوة وأجرها إلى قسم الملابس النسائية وأعرض عليها بعض الملابس فترفض، فأقول لها إنه دوري في اختيار الملابس، وبعد بعض المشاحنات تستسلم لي... وهكذا انقضى اليوم الأول في السوق ثم عدت إلى الفندق وتواعدنا على اللقاء وقت العشاء.. استلقيت فوق سريري وأدرت جهاز الهاتف لأتفاجأ بعدد الرسائل والاتصالات... خفق قلبي خوفاً عندما شاهدت رقم والدي... أدرت رقمه وتصنعت الجدية:

والدي: الووو الووو أين أنت يا فيصل؟

- أنا في سويسرا.

- ولماذا؟ أهكذا تسافر من دون إخبارنا؟

- طرأ عليّ أمر هام يتعلق بالعمل ونسيت ترك ملاحظة... غادرت والكل نائم ولم أحمل معي أي شيء.

- والآن هل كل شيء جيد؟

- إن الموضوع يحتاج لعدة أيام حتى أنتهي منه.

- حسناً، لكن لا تنسَ أن تهاتف والدتك فقلبها مشغولٌ عليك.

- حاضر.

- مع السلامة.

أقفل الخط وتنهدت بقوة لانزياح أكبر همومي ومخاوفي.. أغمضت جفني لأرتاح قليلاً ونمت نوماً عميقاً ولم أنهض إلا على صوت طرق الباب فنهضت من نومي وفركت عيني وأنا أنظر إلى الساعة: يا الله إنها الحادية عشرة والنصف، تأخرت على ناهد، اتجهت ناحية الباب وما إن فتحته حتى صاحت بي ناهد بتذمر وهي تخطو نحو الداخل:

- كنت نائماً.. توقعت ذلك.

فابتسمت بإعجاب وأنا أنظر إليها وهي متأنقة وقد رفعت شعرها العسلي الممزوج بالشقار وجمعته فوق رأسها فغدا كتاج يتوج جمالها، ولبست فستاناً أبيض اللون يحتضن ثنايا جسدها كأنه يخشى من وقوعها وتزينت ببعض الحلي.

ثم قلت لها: اعذريني يا ناهد كنتُ مرهقاً.

فجلست على السرير وهي تقول: حسناً، هيا استعد فأنا في انتظارك.

دخلت إلى الحمام وهممت بحلاقة ذقني فوجدتها قد تبعتني ووقفت عند باب الحمام وصاحت بي: لا لا تحلق ذقنك، إنك أوسم بهذه الشعيرات المبعثرة.

فقلت لها: حسناً اخرجي ودعيني أتجهز... دفعتها بلطف مغلقاً الباب خلفها.

عندما خرجتُ من الحمام وجدتها قد قامت بترتيب ملابسي وكل ما قمت بشرائه، ثم ناولتني البدلة البيضاء وهي تقول: ارتدِ هذه البدلة حتى نبدو كثنائي جميل.

خرجنا لتناول العشاء، وبعد الانتهاء منه قررنا التجول سيراً على الأقدام بالقرب من البحيرة التي تتوسط المدينة لنكون في ضيافة القمر ونمتع أعيننا بمشاهدة ظلال جبال الألب المحيطة بالمدينة من كل جهة. لقد كانت المدينة تزداد شاعرية ليلاً فاقتربت منها ووضعت ذراعي فوق كتفها ثم جذبتها بلطف ناحيتي: إن البرد يزداد ليلاً وأنا أخشى عليك من المرض.

فابتسمت وهي تقول: لنجلس فوق هذا الكرسي.

جلستُ بالقرب منها ثم دنوت قليلاً حتى لاصقتها فقلت لها:

- ألم تزوري الوطن العربي من قبل؟

- كلا.

فابتسمت وأنا أقول: يجب أن تزوري مسقط رأسي.

فنظرت إليّ وهي تقول: أيوجد هناك مثل هذه المناظر الرائعة؟

- يوجد لكن مثل جمالك لم أرَ.

فابتسمت بخجل ثم حولت بنظرها عني لتحدق برجل وامرأة يسيران بالقرب منا وهمت بالوقوف ونادت: نور، نور وهي تفتح ذراعيها فاحتضنتها المرأة الشابة ثم احتضنها الرجل، اقتربت مني هي والمرأة والرجل فنهضت ومددت يدي مصافحاً فقالت ناهد:

- فيصل أتى زائراً وهو جديد في المدينة.

فصافحتني المرأة وقالت ناهد:

- أختي نور... عارضة أزياء، ونظرت إلى الرجل وأكملت: إنه خالد زوجها.

ثم قلت مبتسماً: إنها تشبهك ولكن لون عينيها مختلف.

فقالت أختها نور:

- لماذا لا تأتي لزيارتنا في منزلنا العائلي يا فيصل؟

فنظرتُ إلى ناهد متسائلاً فقالت ببرود: حسناً سوف أصطحبه معي في نهاية الأسبوع.

وودعتها نور ثم عدنا إلى مكان جلوسنا.

فقلت لها: أهي شقيقتك الكبرى؟

- نعم إنها ثاني أخواتي، فأنا لدي نهى ونور ونوال ثم نرجس ونفضت رأسها وهي تقول: لقد توفيت نرجس منذ زمن طويل.

وضعت يدي برفقٍ على كتفها وقلت لها: اووه أنا آسف.

فقالت لي بحدة: أرجوك لا تكرر ما يقوله الناس لي دوماً.

وسكتُّ للحظات ثم قلت لها: منذ متى وأنتِ في سويسرا؟

ابتسمت قائلة: ولدت هنا، وكذلك جميع شقيقاتي؛ فوالدي كان يسكن هنا برفقة عائلته ومن ثم التقى بوالدتي التي كان والدها سفيراً لدولتهم وتزوجا منذ زمن بعيد.

فقلت لها وأنا أعبث بخصلات شعرها: إذن أنتِ سويسرية المولد.

- نعم وأنا أحمل الجنسية السويسرية وأعد مواطنة.

- ممتاز.

- لكنني لا أشعر بالانتماء لهذا الوطن.

- ولماذا؟

- لأن الدم العربي يحن بي دوماً إلى العرب والجو الدافئ... إلى وطني وجذوري.

وبعد صمت أكملت: تأخر الوقت ويجدر بي العودة.

رافقتني إلى الفندق ثم قالت: يجب عليك أخذ قسط من الراحة، فغداً سوف نذهب إلى بعض الأماكن الجميلة، فأنا المرشدة السياحية لك الآن.

عدت إلى غرفتي وتقلبت حتى ساعات الفجر الأولى؛ فشوقي

إليها أكبر من أن يغلبني النوم ثم استسلمت له قبل طلوع الشمس.

نهضت الساعة العاشرة على طرقات الباب فاتجهت بسرعة وأنا شبه نائم، وكنت أعلم أنها ناهد، وكما توقعت كانت هي فقالت وهي تنظر إلي: هيا بنا إنها الساعة العاشرة صباحاً ودفعتني نحو الحمام.

وعندما انتهيت من الاغتسال قالت: أريدك أن تعيد السيارة، فأنا أمتلك سيارتي الخاصة. هيا بنا، وصعدت إلى سيارتها الشفروليه، الرجولية التصميم فهي تشبه الشاحنة ولكن بحجم أصغر.

ثم أكملت وهي تتحس معدتها: إنني جائعة ولم أتناول طعام الإفطار ولكنني جعلت والدتي تعد لنا بعض الشطائر والشاي.

فقلت لها متسائلاً: إلى أين سوف نذهب؟

- سنذهب إلى حديقة زوريخ للحيوانات، إنها حديقة خلابة جداً، وأحضرت الكاميرا لنقوم بالتقاط الصور.

ولم أنطق بأي كلمة، اكتفيت فقط بتحريك رأسي موافقاً لها، وانقضى اليوم بالتصوير وملاطفة الحيوانات ثم تجولنا في المدينة مساءً.

وفي اليوم الذي يليه اصطحبتني إلى الملاهي المائية وتدعى (الباماريه)، وعندما عدنا في الليل ودعتني قائلة: غداً سوف نذهب لزيارة عائلتي.

في اليوم التالي أتت لتصطحبني إلى منزلها وتوقفتُ أمام محلٍ للزهور لأبتاع باقة من الورود، وعندما شارفنا على الاقتراب أشارت بيدها إلى أحد المنازل الكبيرة الذي تحيط به أشجار كثيفة وحديقة غناء قائلة: هذا هو منزلي.

دخلنا إلى المنزل، وجلت بنظري فيه حيث إن الديكور يدل على ذوق عال ويضفي جواً دافئاً مريحاً على من يدخله واصطدمت عيناي بامرأة ملامحها جادة وعلى شفتيها ابتسامة مصطنعة فقالت ناهد:

- أمي... ندى.

فصافحتها ثم أخذت الباقة مني وسلمتها إلى الخادمة من دون أن تنظر إليها أو تشكرني.

لم تكن ناهد تشبه والدتها أبداً، فناهد مرحة جداً مقارنة بجدية أمها لكنني لم أعلق على الأمر... صافحت أفراد العائلة، نهى وزوجها الدكتور أحمد، ثم نور التي سبق وأن شاهدتها مع زوجها خالد ثم نوال فقالت والدتها:

- إن زوجها يعمل كابتن في إحدى شركات الخطوط الجوية واضطر للسفر.

جلسنا إلى طاولة الطعام التي تجلس في مقدمتها أم ناهد وإلى يمينها جلست أنا ثم ناهد ثم نوال، وجلست نور في الطرف الآخر مقابلة لي ثم زوجها خالد وتليها نهى، وجلس أحمد مقابلاً لوالدة ناهد، وما إن بدأنا تناول الطعام حتى قالت والدتها:

- كم تبلغ من العمر يا فيصل؟

- ثمانية وعشرين عاماً.

- إنك أكبر من ابنتي بما يقارب العشر سنوات.

ثم سكتت لدقائق تنتظر جواباً لكنني لم أجبها.

فقالت لي: وأين تعمل؟

فقلت لها ببرود: لدي بضع شركات وأدير أملاك الوالد.

فنظرت إليّ بإعجاب وقالت: ممتاز جداً، وهل أنتَ متزوج؟

فرفعت ناهد رأسها وحدقت بدهشة في والدتها:

- لا، لقد كنت خاطباً منذ مدة لكنني انفصلت عن خطيبتي لأنها لا تتوافق معي.

- ولماذا؟

صمتُّ قليلاً أفكر وأنا ألمح نظرات هذه المرأة الذكية:

- أنا لا أحب التكلم عن أعراض الناس بسوء.

فابتسمت بثقة ثم حولت عينيها إلى نوال وهي تصيح بها: لا تأكلي كثيراً حتى لا تسمني، لا عجب أن شركة الطيران تخلت عنك.

ونظرت نوال إلى أمها بغضب وهي تكمل عشاءها.

بعد العشاء جعلتني والدة ناهد أرى صوراً لناهد في مراحل مختلفة من عمرها، وروت لي بعض الحكايات التي تتعلق بطفولة ناهد وأثار استغرابي عدم وجود والدها وعدم وجود أي صورة له لكنني لم أقم بطرح أي سؤال، حتى هممت بالانصراف فرافقتني ناهد مودعة لي وصعدتُ سيارة الأجرة التي تنتظرني خارجاً.

في اليوم التالي أتت إليّ وتنزهنا في المدينة وتناقشنا في مختلف الأمور، وهكذا توثقت علاقتنا حتى عدت إلى وطني فعادت إلى تجاهلي وكلما ذهبت إليها استقبلتني بشوق حتى فاجأتني بحضورها إلى موطني.

أسرني وجودها كثيراً في بلدي وتعمدت تدليلها حتى تعاود الكرة وتزورني مرة أخرى؛ ما أعجبني فيها أنها لم ترمِ بنفسها عليّ كالأخريات ولم تطلب مني شيئاً.. كنت أعرف هدفي جيداً وأعمل على الوصول إليه، أمسيت أزورها أسبوعياً في وطنها متجاهلاً عملي المهم؛ أصبحت هي أهم أولوياتي وتعمدتُ شراء الهدايا لوالدتها في كل زيارة فأنا على علم بطبيعتها؛ فهي أمرأة مادية جداً واكتشفت أنها تطلقت من والد ناهد منذ زمنٍ طويلٍ.

كان أمامي هدف معين وهو إقناع ناهد بالانتقال للإقامة في وطني حتى أكون قريباً منها، فقمتُ بترتيب رحلة لنزور فرنسا بلد الحب والعشاق، وطبعاً مكثت في شقتنا التي ابتاعتها عائلتي منذ زمن وحاولت الترفيه عن ناهد وكنت أؤدّي دور المضيف. لقد تجوّلنا في المتاحف والمدن وابتعت الكثير من الهدايا لها ولعائلتها، وبعد مرور عام على علاقتنا صارحتها برغبتي في انتقالها إلى بلدي، وكانت قد أتمت عامها الثالث في الجامعة ووعدتها أن أجعلها تكمل دراستها في

موطني.

أوهمت والدتها برغبتي بالزواج من ناهد، ولكن يجب عليّ إقناع عائلتي بذلك وسلمتها مبلغاً نقدياً ضخماً اشتريت به رضاها وموافقتها، وعدت إلى وطني مزهواً، فأنا أحمل كنزي الثمين معي.

***

(16)
إنني لا أفهمها

تعرضت الطائرة لبعض المطبات الهوائية فنهضت من ذكرياتي مشمئزاً كرجل عاد إلى الحياة فلم يستطع تذوق لذتها وأراد العودة إلى قبره حيث الذكريات الدافئة، أغلقت الكتاب الذي لم أستطع قراءة كلماته، فمن دونها الكلمات تضيع والحروف تتلاشى والجمل تكون سراباً، وأيامي من دونها مجرد صفحات فارغة.

لا أزال أذكر عندما تلامست شفاهنا للمرة الأولى، فسرت في أجسادنا رعشة الهيام، كأن الحياة تتدفق في عروقنا لأول مرة، ربما كانت حياة الحب. فمنذ عدة سنوات كنت أحمل أغلى ما في حياتي وأعود به إلى أرض الوطن، واليوم أنا عائدٌ وأحمل في ثنايا القلب جرحاً لن تداويه السنين، وبذلك أثبت للجميع أن هناك جروحاً لا يمكن أن يداويها الزمن، هذه الجروح لا تندمل إلا عندما يعالجها صاحب الجرح، فهو كما قلت الداء والدواء؛ فالمحبوب عندما يرحل لا بد من أن يهديك أجمل هدية، وكلما ازددت حباً له كلما كبر حجم هذه الهدية، إنه يهديك ذكرى مؤلمة تظل قابعة في ذكراك، تظل في قاع الذكريات، ولكنها تطفو من حين إلى آخر لتذكرك بوجودها وتتسبب في ألمك لتعلم أن الحب مهما بلغت روعته ازدادت قسوته، أهديكِ حباً فتهدينني جرحاً، هذا هو الحب في حالتي، جارح ومجروح، وكبرياء ممزق نهشته كلاب الخيانة وذئاب الغدر.

عزيزتي ناهد أهديتكِ قلباً لم أهدِهِ لأحد من قبلك، وسوف أطاردك حتى أستعيده... أشكوك يا غاليتي في محكمة الحب، والذي يقرأ هذه السطور سيكون القاضي، فهل سيبرّئني من كل التهم التي نسبتها إلي؟ أم يحكم عليك بالسجن المؤبد في قفص الحب ويطالبك بإعادة قلبي لي؟

أسقيتك حباً وأسقيتني سماً، أذقتك شهداً وأذقتني مراً، كم أنا حزين بعدك، إنكِ بداية النهاية.

ضغطت على زر استدعاء المضيفة فأضاء المصباح الموجود في السقف فأتت إليّ بابتسامتها المصطنعة... طلبت منها كوب شاي بالحليب وأدرت رأسي أنظر إلى ما حولي وأدقق في الوجوه وأحسدها لأن هناك من ينتظرها عندما تهبط من الطائرة، أما أنا فتنتظرني ذكرياتها في وطني لتكون رفيقتي، وتحاصرني وتطلق ضحكات السخرية التي تذكرني بفشلي، أعترف بنجاحي كرجل في كل أعمالي لكنني فشلت في الحب وما أسوأ هذا النوع من الفشل.

وعادت المضيفة وانحنت تقدم لي كوب الشاي ثم قالت: هل ترغب بشيءٍ آخر يا سيدي؟

فحركت رأسي نفياً، ونظرت إليّ وهي تبتسم، وربما كانت تندب حظها الذي يجبرها على الابتسامة لي واضطرارها لمشاهدة ملامح وجهي الكئيبة التي ماتت ابتسامتها منذ زمن؛ وضعت قطعة سكر وحركت الشاي بالملعقة لتتحرك الذكرى مرة أخرى.

اعتدلت ناهد في جلستها وأومأت برأسها إلى نافذة الطائرة وهي تنظر إلى الغيوم:

- فيصل أنظر ألا تبدو السماء كلوحةٍ رائعة؟

نظرت إليها ببرود وتثاءبت:

- إنها جيدة.

وقطع حديثنا صوت كابتن الطائرة يعلن عن وصولنا إلى أرض

الوطن، فأتت المضيفة لتتفقد أحزمة الأمان وصمتت ناهد للحظات تفكر ثم قالت:

- إلى أين سوف نذهب عندما نهبط؟

فقلت لها بتذمر: لا تكرري السؤال ذاته، وتجعليني أكرر لك الجواب نفسه للمرة الألف، أخبرتك مراراً وتكراراً عن مكان وجهتنا.

وفكرتُ للحظات لماذا النساء دوماً يلححن بالأسئلة على الرغم من معرفتهن بأجوبتها؟ لماذا تتوتر وتقلق المرأة دوماً وتقتل نفسها في التفكير في أشياء تافهة وتضخمها؟ ثم عادت ناهد إلى تساؤلاتها:

- فيصل في أي فندق سأقيم؟

ولم أجبها، فقد سبق وأن أجبتها عن هذا السؤال وأعدت اسم الفندق لها.

ثم أكملت: فيصل لماذا لا تتحدث؟ امم إلى متى سوف أقيم في الفندق؟

تنهدتُ وقلت لها ببرود:

- لعدة أيام حتى نؤمّن الشقة التي تريدينها.

- وإذا لم تعجبني أي شقة؟

-هناك الكثير من الشقق الجميلة وأنا متأكد من أن إحداها ستعجبك.

- فيصل أنت تعرف كم أنّ ذوقي مميز ولا يعجبني شيء.

فصحت بها بتذمر: إذا لم تعجبك الشقة سأقوم باستئجار فيلا لك.

- وإذا لم تعجبني الفيلا؟

في تلك اللحظه نفذ صبري وصرخت في وجهها بتذمر اوووه سوف أبني لك فيلا، قصراً، عمارة بأكملها، فقط اخرسي، إنّ رأسي يؤلمني وأشعر بالإرهاق من مشقة السفر.

- لماذا تحدثني بهذه الطريقة؟

فأجبتها بلهجة غاضبة:

- لأنك غبية ولا تفهمين.

فقالت بعصبية: غبية لأنني وافقت على الذهاب معك إلى وطنك.

ثم أسندت ظهرها وأدارت رأسها نحو النافذة.. لكزني تأنيب الضمير وصمتُّ للحظات ثم ربتّ على كتفها:

- حبيبتي آسف لم أقصد الصراخ في وجهك.

فنظرت إلي والدموع تتلألأ بين رموش عينيها:

- أنتَ دائماً هكذا.

- حبيبتي تضايقتُ من تردادك للأسئلة المتكررة.

- أنت تعلم عندما تضطرب حواسي أطرح الأسئلة حتى أقلل من توتري.

أخذت نفساً عميقاً وأنا أقول: حسناً أنا آسف.

فنظرت إلي ببراءة فابتسمتُ لها، ووضعت أصابعي خلف رأسها وسحبتها ناحيتي لأطبع قبلة على جبينها.

ما إن هبطت الطائرة بنا حتى توجهنا إلى الردهة، فأطل وجه أحمد من بين الحشود ولوح بيده منادياً لنا، ألقيت عليه التحية وصافحته ثم أمرته بحمل حقائبنا وتوجهنا إلى أحد الفنادق واخترت أفخم جناح لها، فهي كانت لا تتوارى عن تأدية واجب الضيافة لي في بلدها.

كان الجناح كشقة صغيرة، توجد فيه شرفة كبيرة تطل على البحيرة الصناعية ودورتان للمياه وغرفة للمعيشة وغرفة للنوم. ودخلت ناهد لتستحم وجلست أنا مع أحمد أناقشه في بعض أمور العمل، بعدها اتجهت ناحية الحقائب وفتحت حقيبتي وأخرجت مغلفاً كبيراً أبيض اللون ثم جلستُ على الأريكة وأتت ناهد وجلست بالقرب مني وهي ترتدي ثوباً ضيقاً للغاية، رمادي اللون، ورفعت خصلات شعرها

فوق رأسها، كان أحمد يلتهمها بعينيه فنظرت إليها ثم أمرتها بلهجة باردة أن تذهب فوراً لتغيير ملابسها.

نظرت نحوي لبرهة ثم أدارت رأسها وقالت: سأغير ملابسي لاحقاً.

فقلت لها بجدية: الآن.

ألقت عليّ نظرة عتاب ثم نهضت وسارت ببطء نحو الغرفة وأغلقت الباب خلفها بعنف.

فقلت لأحمد وأنا أخرج الأوراق من المغلف وأرتّبها: أحمد هذه أوراق ناهد أريدك أن تدخلها أفضل جامعة بعد أن تعادل المواد.

فقال لي: حسناً وماذا عن السكن؟

اعتدلت في جلستي وعبثت بأزرار القميص محاولاً فكه: لا تقلق خابرت مكتب العقارات ليبحث لنا عن شقة فخمة، رائعة.

- هل سترافقها أم تريدني أن أذهب معها؟

- طبعاً سأرافقها وأشاهد معها الشقق.

ووقف أحمد ومد يده مصافحاً وهو يقول: حسناً استأذنك الآن، فالساعة شارفت على التاسعة مساء وأرغب في أخذ قسط من الراحة.

فناولته الأوراق وقلت له: لا تنسَ الانتهاء من هذا الموضوع بأسرع وقت ممكن.

- حاضر.

خرج وذهبت إلى ناهد وطرقت الباب ثم فتحته فوجدتها لا تزال ترتدي ملابسها وهي تقف أمام النافذة تحدق نحو الخارج وهي تستند إليها بيدها واضعة رأسها على الزجاج، اقتربت منها وطبعت قبلة على كتفها فنظرت إلي والحزن متشربٌ في ملامحها فقلت لها:

- ماذا بك؟

- لا شيء.

ثم اتجهت ناحية السرير وجلست عليه وانحنت تخلع حذاءها

فاقتربتُ منها وجلستُ إلى جانبها وقلتُ لها: أين ترغبين بالذهاب حتى نتناول العشاء؟

فقالت ببرود وعيناها معلقتان في الفراغ: حيثما ترغب.

انتصبت واقفاً وأنا أقول: هيا بنا إذن.

خرجنا إلى أحد المطاعم والصمت لا يزال مخيماً على الجو وقلبي يتساءل ما الخطأ الذي ارتكبته حتى تظل هكذا صامتة طوال الوقت ولا ترغب بالتحدث معي؟ لماذا النساء هكذا دائماً حساسات وعاشقات للنكد؟ تناولنا الطعام ونحن نتفادى النظر إلى بعضنا بعضاً، وعندما جلست في السيارة هممتُ بإغلاق بابها لأنها لم تغلقه بإحكام، فردت ذراعي وانحنيت عليها، ولاشعورياً طبعت على صدغها قبلة بسيطة وابتسمت ابتسامة مرتعشة... ومن ضعفها عجزت عن الاستقرار على شفتيها ثم أغلقت الباب وانطلقنا.

ثم فكرت للحظات بأنها ربما تشعر بالحزن بسبب ابتعادها عن عائلتها، وما أن عدنا إلى الفندق حتى أخبرتها محاولاً إبداء اهتمامي بها: ناهد ألا ترغبين بمحادثة والدتك لإبلاغها بوصولك.

أجابت ببرود وهي تجلس على الأريكة: كلا.

جلستُ على سريرها وأنا أقول: ولماذا كل هذا الحزن، بإمكانك زيارتهم عندما تشائين؟

فنظرت إليّ بغضب: لا أريد زيارتهم.

- لماذا أنت غاضبة وحزينة؟

حدقت في عيني وقالت لي ببرود: ألا تعلم حقاً.

- كلا، لذلك أتساءل عن سبب حزنك.

فصاحت بي قائلة: أنسيت ما فعلته بي أمام أحمد!

أدهشني حديثها فأكملت كلامي: وما الذي فعلته؟

- قللت من احترامي أمامه.

فقلت لها وأنا أحاول التمسك بأعصابي: وكيف ذلك؟

فقالت وهي توشك على الانهيار: عندما أمرتني بتغيير ملابسي أمامه.

- وأين الإهانة في ذلك؟ إن ملابسك فاضحة، وأنا كرجل لا بد أن تفترسني الغيرة.

- لا تحاول تبرير فعلتك.

- هذه هي الحقيقة ولماذا أنتِ غاضبة؟

- لأنك قللت من قيمتي أمامه وأظهرتني كجارية لك.

- لا، ليس صحيحاً.

- إنها الحقيقة والواقع، فأنا لا أسمح لك بتقليل قيمتي أمام أيّ كان، ويجب عليك الانتباه لطريقة كلامك معي.

- إنك تقللين من قيمتك بملابسك الفاضحة.

فنظرت إليّ بدهشة، فسيطرت على أعصابي وأكملت:

- يبدو أن أعصابك مرهقة.

فأشاحت بوجهها عني ونهضت متجهة إلى إحدى المرايا ثم قالت:

- فيصل إذهب إلى منزلك، إنك تثير استيائي.

- لا أرغب بتركك لوحدك في أول ليلة لك بعيدة عن موطنك.

أدارت جسدها لي، ووقفت أمامي وصرخت بطريقة هستيرية: أخرج.

ابتسمت لها وانصرفت، فأنا أدرك أنها مجنونة من الطراز الأول.

عدت إلى المنزل واستلقيت فوق فراشي أفكر؛ إنّ ناهد تشعرني بأني أمام تحدٍ يجعلني أموت شوقاً إليها، أريد تحويل هذه البنت العنيدة، الشقية، العابثة إلى امرأة محترمة، بلا شك ستكون هذه أعظم إنجازاتي، مما سيعزز من كبريائي واستحساني لنفسي، إنها بالنسبة لي مشروع قيد الإنشاء، إنها ستكون حلم الطفولة، امرأة للحب، هذا إذا أردت أن أكون كوالدي، فيجب أن أتصرف مثله وأن

أتزوج من امرأة كوالدتي، وأن أبحث عن عشيقة جميلة مثل المرأة التي شاهدتها معه.

في اليوم التالي اصطحبتها للبحث عن الشقة التي ترغب بها، تركتها تختار ما تريده وتتولى زمام الأمور حتى وقع اختيارها على شقة قريبة من محل إقامتي.

كنت أقف مستنداً إلى الباب عاقداً ذراعي على صدري، وعلى وجهي ابتسامة رضا، فما أجمل هذا الشعور عندما يجد الرجل امرأة تقدر ما فعله لأجلها.. كانت ناهد مبهورة بالمنظر البديع الذي تطل عليه الشقة وتجولت في أركانها بخطوات واسعة... كانت فرحة جداً وتدور على نفسها كالأطفال وهي تتفحص الغرف وتشدني من ذراعي لأسايرها في الإعجاب.

كانت الشقة فخمة للغاية، واسعة، أرضيتها من الرخام، وما إن تدخل حتى تجد ممراً عريضاً مضاءً بمصابيح صفراء اللون، ويتسع الممر تدريجياً حتى تجد نفسك في غرفة الجلوس الواسعة جداً وفي زاويتها حانة صغيرة، وفيها شرفة تطل على الكورنيش، وإلى يمينها تجد غرفة الطعام ومطبخاً ذا تصميم أميركي وغرفة أخرى صغيرة.

أما في الجهة الأخرى فتجد الغرف الكبيرة، فخصصتُ غرفة لي ولكتبي، ووضعت فيها مكتباً صغيراً وجهاز الستريو والكثير من أقراص الموسيقى الرائعة لأمثال بتهوفن وعمر خيرت وشوبان، وتركت الغرفتين لها فجعلت إحداهما خزانة لملابسها وأحذيتها وأحضرت مصمماً للديكور ليصمم الشقة كما تحلم بها حضرة الأميرة، وطبعاً أحضرت لها خادمة تجيد الطهو، وسيارة خاصة بالموديل الذي تريده وأغرقتها بالمال والهدايا.

كانت الخطوة التالية أن أجعلها تمضي وقتها في شيء مفيد، فأعدتها إلى صفوف الدراسة بعد أن اخترت لها جامعة مرموقة وعيّنتُ نفسي مشرفاً عليها وجعلت أحمد يصطحبها يومياً إلى الجامعة ويعود

بها، وكنت أراقب علاماتها وأساعدها في دروسها، وأحاول تشجيعها على المتابعة وتمضية كل وقتها في التعلم، لكنها عنيدة وطائشة ولا تريد التخلي عن حياة اللهو والسهر.

بعد مرور عدة شهور طويلة كنت جالساً في مكتبي أحدق في الساعة، ثم فكرت لدقائق لماذا لا أخرج لتناول الغداء معها؟ فقررت محادثتها.

- مرحبا حبيبتي.

- أهلاً حبيبي لقد فاض شوقي لك.

وأطلقت ضحكة عالية وأنا أدور بالكرسي نصف استدارة:

- يا كاذبة كنتُ معك بالأمس.

- انقضت اثنتا عشرة ساعة منذ لقائنا.

- أتحبينني إلى هذه الدرجة؟

- وأكثر.

ابتسمت مزهواً:

- هل ترغبين بتناول الغداء معي، فلديّ ساعتان من الوقت قبل موعد اجتماعي.

- حسناً ولِمَ لا، فقط إجعلني اعتذر للفتيات حيث إنني قد واعدتهن على الذهاب معهن لتناول الغداء.

- حسناً.

وسمعت بعض الهمسات ثم قالت لي:

- هل تريد أن نتقابل في مكان ما أو سوف تمر وتصطحبني معك؟

- سأمر لاصطحابك معي، فقط انتظريني عند مدخل الجامعة.

- حسناً لكن لا تتأخر فالحر شديد.

- أعدك بذلك.

نهضت متفقداً علّاقة المفاتيح التي تضم مفتاح السيارة، وهممت بالخروج، فإذا بوالدي يدخل إلى المكتب وهو يقول:

- فيصل ألا تعلم بما حدث للسيد عبدالله صاحب شركة الشحن.

قبّلتُ رأسه ثم قلت له:

- تفضل يا والدي.

فجلس على المقعد المقابل لمكتبي، وجلست على المقعد المقابل له فقال:

- الرجل المسكين خسر كل أمواله في البورصة.

- ما هذه الأخبار السيئة، فنحن نطالبه ببعض المال، كيف سوف يسدد دينه إذا لم يعد يملك المال؟

- لا يهم، كان صاحبي لسنوات، ويجب عليّ مد يدي لأنتشله من الغرق.

- وماذا سنستفيد منه إذا ساعدناه.

- فيصل، أنا أعرف الرجل منذ زمن، إنها عشرةُ سنين، يجب عليك تغيير طريقة تفكيرك؛ فالصداقة والإنسانية أهم من المال.

ففكرت لدقائق (لكنك أنت يا والدي من علمتني عدم ترك عواطفي تتحكم بقراراتي).

ثم قال والدي: أكنت خارجاً؟

- نعم للغداء.

- جيد... أنا لم أتناول غدائي بعد سأذهب معك ونعود بعدها للاجتماع.

حسناً وخرجت مع والدي، وأثناء قيادتي لسيارتي تذكرت ناهد، آه يا ربي ستغضب مني.

فبحثت عن هاتفي في جيبي.

(والدي): عمَّ تبحث؟

- هاتفي، يبدو أن النسيان داهمني فتركته في المكتب.

- يمكنك إجراء مكالمة من هاتفي.

- شكراً يا والدي، لا أرغب بإجراء مكالمة، كنت أبحث عنه فقط.

وتناولت الطعام بينما تحدث والدي عن إحدى الصفقات وأنا أفكر بناهد، لا بد أنها تشتعل غيضاً مني، لكن لا بأس سأشرح لها ما حدث، إنها متفهمة.

وعندما عدتُ مع والدي إلى الشركة اتجهنا فوراً إلى الاجتماع ثم عاد معي إلى مكتبي لنناقش ببعض الأمور، وعندما وقعت عيناي على هاتفي ذعرت، فقد اتصلت بي ناهد ما يقارب العشرين مرة، وأرسلت لي الكثير من الرسائل النصية، لماذا الفتيات هكذا؟ فعندما لا يجيب الرجل عليهن يرسلن له عشرات الرسائل ويزعجنه بالمكالمات؟ فإذا لم يردّ الرجل من المكالمة الثانية فلا تتوقعي أن يرد عليك ولو اتصلتِ مئة مرة، ولماذا تطاردينه بهذا الشكل، فهل سيهرب منك إلى المريخ مثلاً؟ آه كم أنّ النساء مزعجات.

وما أن خرج والدي حتى أدرت رقمها بسرعة لكنها لم تقم بالرد، يبدو أنها غاضبة ولا ترغب بمحادثتي.

وبعد يومٍ شاق ومتعب جداً حيث إنني انهمكت في العمل منذ الصباح خرجتُ من الشركة في وقت متأخر واتجهت إلى محلٍ لبيع الزهور، وبعدها إلى محل للمجوهرات واخترت لها قرطين من الياقوت ثم ذهبت إليها وجفوني مثقلة من الإرهاق والتعب.

طرقتُ الباب ففتحت لي الخادمة واندفعتُ بخطوات سريعة أبحث عنها فوجدتها نائمة فوضعت الهدية بجانبها وانحنيت أقبلها.. ففتحت عينيها وقالت وهي تدفعني:

- إذهب لا أرغب برؤيتك؛

- حبيبتي صدقيني.....

وقاطعتني:

- صدقيني، ماذا؟ ظروف؟ وما هي هذه الظروف التي تستدعيك لإلغاء الموعد وتمنعك من الرد على هاتفك؟ وأشاحت بوجهها.

أمسكتها برفق وأنا أقول: حبيبتي حضر والدي إلى مكتبي وأنا أهم بالخروج.

وقاطعتني: لا تكمل أرجوك، لا أريد الاستماع إلى حكاياتك الملفقة.

- لا تتهميني بالكذب أرجوك، إنكِ دوماً تلقين اللوم عليّ ولا ترغبين بالاستماع إلى ما سأقول.

- لأنك كاذب، لقد وعدتني.

- قلت لكِ كنت مجبراً.

- لا تكذب، جعلتني أعتذر لصديقاتي، وأجلس في هذا الجو لساعات أنتظر وصولك ولم أتناول غدائي، إذا كنت لا ترغب بلقائي فقط أخبرني.

- أنا أرغب بذلك، أنتِ تعلمين بأهمية وجودي قربك.

- ولهذا السبب لم تتخلف عن ميعادنا.

ضقت ذرعاً بها فقلت لها بلهجة غاضبة:

- ولماذا أنتِ غاضبة، أنا أتناول معك العشاء يومياً؟ وأراك أكثر مما أرى أفراد عائلتي.

- أنا غاضبة لأن الكذب عنوانك.

أمسكتها بقوة من ذراعها:

- أفضل أن تتحدثي معي باحترام، وإذا لم تكوني راغبة بتصديقي فهذه مشكلتك، قلت لكِ كل ما في الأمر إنّ والدي أتى إلى مكتبي وفاجأني بذهابه معي لتناول الغداء، ومن شدة ارتباكي نسيت هاتفي ثم عدت إلى الاجتماع وما أن انتهيت من عملي حتى أتيت إليك وأنا متعب جداً، أنظري إليّ ألا تلاحظين إرهاقي، أنا رجل جدّي في العمل وأدير شركات عدة، طبعاً لن تدركي التّعب والإرهاق والضغط الذي يقع فوق رأسي، فأنتِ نائمة في المنزل ولا تعلمين ما يدور في الخارج.

وتركت ذراعها وخرجت متجهاً نحو غرفة الجلوس ورميت بجسدي فوق المقعد، وبعد مرور عدة لحظات أتت إلي وجلست على حافة المقعد وهي تقول:

- أعتذر لك عما بدر مني لكنني كنت أريد لقاءك.

- رأيتني الآن.. ولوحت بيدي متسائلاً هل أراك سعيدة بذلك؟ طبعاً لا.

ووضعت أصابعي على فمي وعلقتُ نظري في الفراغ فسكتت للحظات ثم أزاحت خصلات شعرها عن وجهها وهي تقول:

- ما رأيك بالأقراط، ألا تتناسب مع لون عيني؟

رفعت رأسي ونظرت إليها وقلت لها بعتاب:

- نعم، لذلك ابتعتها، ثم أدرت وجهي إلى الجهة الأخرى.

نهضت ثم سارت بدلال نحو التلفاز وقامت بتشغيله وعبثت قليلاً في جهاز التحكم وهي تقلب القنوات، ثم توقفت قليلاً ورفعت مستوى الصوت فانبعثت منه أغنية مصرية شعبية وقالت:

- أتعلم أنني أجيد الرقص الشعبي.

اكتفيت بالنظر إليها وعدم الإجابة، وارتكزت بذراعي على حافة المقعد وأسندت رأسي بيدي.

خلعت فردة حذائها وركلت بالأخرى في الهواء، وبدأت تهز وسطها ثم رفعت شعرها فوق رأسها وهي تحرك جسدها بتناغم على صوت الموسيقى، بعد ذلك، هبطت على ركبتيها وفردت ذراعيها وقامت بهز نهديها، ابتسمت لها ثم رفعت رأسي إلى الأعلى ضاحكاً، ووضعت يدي على عيني فاقتربت مني وانحنت عليّ قائلة: أتضحك هيا قم ارقص لي، فنهضت ثم شرعت بتقليد رقصتها وأنا أضحك، فبادلتني الضحك ودفعتها على الأريكة وأنا أدغدغها.

- أتسخرين مني؟

فقالت وهي تضحك:

- كلا، أسخر منك، وحاولت دفع يدي وهي تقول: كفى أرجوك كفى.

فجأة أتت الخادمة وقاطعتنا قائلة:

-سيدي هل أقوم بتجهيز العشاء الآن؟

- نعم، وجلست بالقرب من ناهد.

- مع من كنتِ ستذهبين لتناول الغداء؟

- مع صديقاتي.

- من رقية؟

- كلا... تركتها منذ أسابيع.

- لماذا، لقد كانت فتاة طيبة جداً؟

- إنها مملة.

- تقصدين أنها عاقلة ولا تساعدك في أعمالك المجنونة.

- كلا، إنها لا تتفق مع شخصيتي.

وعادت الخادمة لتقطع حديثنا:

- إن السفرة جاهزة.

فنهضت ثم مددت يدي لأساعدها على النهوض، وجلسنا نتناول طعام العشاء فقلت لها:

- ومن هؤلاء الصديقات الجدد؟

رفعت كوباً من الشاي وقالت: مجرد فتيات معي في الجامعة.

- أيدرسون معك؟

فقالت بسأم وهي تنظر إلى الطبق الموضوع أمامها: نعم.

- ما أسماؤهنّ؟

فرفعت رأسها وقالت: لماذا، أتعرف كل البنات الموجودات في الجامعة؟

- أرغب بمعرفة أسمائهن فقط.

فقالت بدهشة فاتن.. ونعمة وأزهار وعفاف.

- حسناً أرغب بالالتقاء بهن.
- لماذا؟
- حتى أعرف أخلاقهن.
فنظرت إليّ بشك وقالت: فقط لتعرف أخلاقهن؟
فقلتُ بحدة: نعم فقط.
- حسناً سوف أدعوهن غداً.
- لا تقومي بإحضارهن إلى الشقة بل سندعوهن إلى الخارج.
- حسناً في نهاية الأسبوع.
- حسناً.

ومرت الأيام بسرعة حتى حان موعد اللقاء، فاصطحبت ناهد معي وذهبنا للقائهن في مطعم ياباني في أحد الفنادق، ومن أول نظرة أدركت فوراً أنهن فتيات سيئات السلوك لكنني أجّلتُ موضوع الحديث إلى وقت آخر وجلست معهن إكراماً لناهد، كن يتهامسن وينظرن إلى الرجال ويطلقن ضحكات مبتذلة حتى قالت لي المدعوة فاتن:

- فيصل، ما رأيك أن نمضي إلى الحانة الموجودة في الطابق العلوي وأن تقوم بدعوة رفاقك للحضور.

فأجبتها ببرود: حسناً.

أجريت مكالمة مع أحمد وطلبت منه الحضور مع بعض الرفاق.

وصعدنا إلى الطابق الذي توجد فيه الحانة، وكانت فاتن لا تتوارى عن إظهار إعجابها بي، لكنني تجاهلتها تماماً، فهذا النوع من الفتيات لا يستهويني أبداً، وانتهى الليل وأعدتُ ناهد إلى الشقة وبعد عدة أيام أتى أحمد إلى مكتبي:

- فيصل هل تعرف فاتن صديقة ناهد؟
- نعم ما بها؟
- أتعلم أنها خرجت مع أحد أصحابنا ومارست معه الجنس مقابل المال؟

- حقاً؟

- نعم، لقد أدهشني معرفتها بناهد.

فضربت بيدي على سطح المكتب:

- آه من ناهد، إنها لا تصغي إليّ أبداً لكنني سأجعلك تخبرها بذلك، وضغطت على رقم ناهد من هاتف المكتب ووضعته على المكبر فأجابت:

- الوو مرحباً حبيبي.

- مرحبا ناهد، أحمد يريد إخبارك بأمرٍ ما.

فقالت ببرود:

- حسناً.

(أحمد): مرحبا ناهد.

- مرحباً أحمد.

- أرغب بإطلاعك على أمر ما.

- وما هو؟

- أعلم أنك فتاة صالحة على الرغم من نوبات الجنون التي تنتابك.

فقاطعت أحمد قائلة: شكراً وضحك أحمد ثم أكمل، ولكن ليس معناه أن ترافقي فتيات كفاتن.

- وما بها فاتن؟

- إنها فتاة سيئة تتقاضى المال مقابل الجنس.

- إنها حياتها وهي حرة.

- لكنكِ لا تدركين نيّاتها... إنها سوف تسعى لجعلك مثلها.

- أحمد أرجوك، أنا على يقين تام من أن فيصل هو الذي أجبرك على التفوّه بهذا الكلام.

- كلا صدقيني، فتلك الليلة ذهبت برفقة أحد رفاقي وأخبرني بما حدث.

- آه حسناً دعني الآن، فأنا مشغولة، إلى اللقاء.

وأغلقت الخط، فكرت في حل أبعد به فاتن عن ناهد التي كانت تجيز لها التردد على مسكننا... فتلتهمني فاتن بنظراتها محاولة إغرائي وأنا أصدها، بل أصبحت تطاردني بشكل واضح، فأخبرت ناهد أثناء جلوسي معها في الشقة فقالت وهي تضحك:

- أتعلم أنني سئمت منك.

فنظرت إليها بدهشة:

- ولماذا؟

فقالت ببرود وهي تلف خصلة من شعرها على إصبعها:

- لأنك دوماً تكذب.

ضممت أصابع يدي وضربت بقبضتي على الكنبة بعصبية:

- لا تتهميني بالكذب، هل تريدين أن أثبت لك ذلك؟

فقالت بشيء من التحدي، وفي عينيها نظرة سخرية: نعم أثبت لي ذلك.

لكن أولاً هل تعدينني أنكِ سوف تتركينها إذا أثبتُّ صحة ما أقول.

- نعم سوف أتركها.

حسناً، غداً سأدعوها للخروج، وسوف تشاهدين بنفسك أنها ستحضر ولن تخبرك، وشردت بعينيها تفكر ولم تجبني، فرفعتُ هاتفي وأدرتُ رقم فاتن، وبعد تبادل بعض التحيات والمجاملات قلت لها محاولاً تصنع الضيق:

- لقد سئمت من ناهد.

وأطلقت فاتن ضحكة مبتذلة ثم قالت: ألم أخبرك أنها لا تصلح لك.

- أرغب في لقائك غداً.

فجحظت عينا ناهد.

- حسناً، أتناسبك الساعة الرابعة مساء.

- نعم ولكن أين؟

- سوف أحدد لك المكان.

- أنتظر اتصالك.

فقلتُ لها مبتسماً: ما رأيك؟ لكنها لم تجب، بل شردت في خيالها. وفي اليوم التالي حددت اللقاء في شقة أحمد، وجعلتُ ناهد تختبئ في إحدى الغرف. كان أحمد عائداً من العمل ويغط في نومٍ عميق وما إن أتت وحاولت استمالتي حتى ظهرت لها ناهد وارتجفتَ أطراف فاتن كأنها شاهدت شبحاً أمامها ثم قالت لناهد:

- إن الأمر ليس كما تعتقدين.

فأجابتها ناهد وهي تندفع إليها: حقاً؟

وأمسكتها من شعرها وطرحتها أرضاً وصعدت فوقها وهي تبرحها ضرباً، وأنا أنظر إلى هذه الفتاة المجنونة الغيورة وهي تضرب صديقتها بوحشية، وخرج أحمد وهو شبه نائم من غرفته وقال لي:

- فيصل أمسك بناهد.

- لا، دعها تشفي غليلها.

فصاح أحمد بناهد: ناهد يا مجنونة أتركيها وحاول رفعها عن الفتاة.

فدفعت يده وهي تقول: دعني، وأمسكها أحمد مرة أخرى بقوة من جذعها ورفعها إلى الأعلى وناهد تصرخ غيضاً وهي تردد أيتها الحقيرة.. إنك مجرد فتاة ليل.

نهضت فاتن وهي تحاول ترتيب نفسها وقالت: نحن لا نختلف عن بعضنا بعضاً... إنكِ فتاة ليل أيضاً.. أتظنين أنه سوف يتزوجك، إنكِ مغفلة ومن سابع المستحيلات أن تتطور علاقتكما إلى الزواج. إنه يتسلى بك حتى يتزوج وبعدها سوف يركلك.. ألا يسلمك المال مقابل الجنس، إذن نحن نتشابه واندفعت خارجاً ووقفت ناهد تنظر إلي بحزن وهي تفكر.

أثناء عودتنا إلى الشقة بكت ناهد، وعندما استفسرتها عن سبب بكائها لم تجبني، وما أن وصلنا إلى مكان سكنها حتى قالت لي: أرجوك دعني وحدي، وأغلقت باب السيارة وركضت باتجاه المصعد.

واكتشفت فيما بعد أنها تصالحت مع فاتن وضربت بكلامي عرض الحائط، ورفضت استمرارها في هذه العلاقه غير المتوازنة الأطراف، وما أغضبني قيامها بعصيان أوامري. وبعد مشادة كلامية حدثت بيننا بسببهن أصبحت تخرج معهن إلى حفلاتهن المليئة بالمجون وحثالة المجتمع. كنت أخشى أن تثمل وتسلم نفسها إلى أحدهم، فيضيع مشروعي الصغير، لذلك قررت قطع المصروف عنها حتى تتأدب وتطيع أوامري ولا تعصى كلامي، فأنا الرجل وليست هي، أنا من أقودها لكنها لم تهتم، كانت تحصل على المال الوفير من هذه الحفلات، كدت أصابُ بالجنون أثناء بحثي عنها حتى أصبحت تلعب معي لعبة جديدة، وهي إقناعي بذهابها الى الفراش مبكراً وتخرج متسللة معهن.. إنها تستغفلني؟

راقبتها حتى إنني رشوتُ حارس العمارة ليخبرني بسلوكها ووضعتُ أجهزة تنصت في الشقة؛ كنت أستمعُ إليها تتحدث مع صاحباتها وتنعتني بالغبي والأبله، اكتشفت أن لديها هاتفاً آخر تخبئه عني؛ المجرمة كنت أعلم أن ترويضها سوف يكون صعباً لكن ليس بالمستحيل بالنسبةِ لي.

تعمدت عدم مواجهتها حتى لا أخسرها، لكنني قررت النوم في شقتها في نهاية الأسبوع، فرفضت وقالت إنها لا تشعر بالراحة عندما تنام إلى جانب رجل.. كانت تتحجج بحجج وهمية لكنني لم أكترث وخضعت في النهاية، لكن ما حيرني هو استسلامي للنوم العميق وعدم قدرتي على النهوض باكراً؟ انتابتني الشكوك، وبحثت بين أدراجها لأجد الجواب... كانت المجرمة الصغيرة تدس لي الحبوب المنومة في الشراب وتخرج؛ حاربتها بصبر وثبات، وإصراري على هزيمتها كان

كبيراً، إنها كالفرس البرية أتفنن بترويضها كأي رجل عنيد يحب التحدي، وأمضيت أسهر معها في كل مكان حتى لا تخرج مع أحد غيري وافتعلت المشاكل بينها وبين صاحباتها حتى تتركهن.

وعندما واجهتها صاحت في وجهي قائلة: إن حديث فاتن مصيب، أنتَ تتسلى معي فقط.

أسقطتُ رأسي بين يدي:

- ناهد أرجوك لا تجعلي فاتن تتلاعب بعقلك.

- إنها الحقيقة يا فيصل.

فرفعت رأسي أنظر إليها:

- كلا، أنا أحبك ولو أردت التسلي بك لما أحضرتك إلى موطني وأطلعتك على كل مجرى حياتي.

- ولماذا لا تدعوني لأقابل عائلتك؟ مضى ما يزيد عن العام، وأخبرتني أنك لن تصارحهم إلا بعد انتهائي من الجامعة وها أنا ذا قد تخرجت! لقد أدخلتك إلى منزلي ورحبت بك فلماذا لا تدعوني أنت بدورك؟

فقلت لها بألم:

- لا أستطيع.

- لماذا، أتخجل مني؟ ثم وقفت وأكملت حديثها بتهكم، ألا أناسب مستواك الراقي أو مجتمعك المخملي، أنا كذلك ابنة عائلة راقية. إنّ والدي في ثراء والدك، لماذا تنظرون دوماً إلى الناس بتكبر وكأنكم أسياد الكون؟ ونظرت إلي تنتظر جواباً فتجاهلتها ثم ابتعدت عني وهي تقول:

- أنتَ مجرد حفنة تراب تدوسها الأقدام، إنك تسكن في العالم الثالث، أتعلم، أنا أفضل منك، فأنا أملك ثقافة الغرب.. وأحمل جنسية أفضل الدول.

فقاطعتها قائلاً: إنكِ مجرد حثالة.

- طبعاً أنا حثالة لأنني صدقتُ وعودك الوهمية ثم صرخت بي قائلة: أخرج لا أرغب بمشاهدتك.. وأدارت جسدها عني.

نهضتُ متجهاً نحوها وأمسكتها من ذراعها: كلا لن أخرج، اسمعيني جيداً، قلت لك سابقاً لا أستطيع إعلام عائلتي بشأننا حالياً، فقط أطلب منك الانتظار قليلاً حتى أتحرر من سلطة والدي، وبعدها سوف أتزوجك وأضعك في الصورة وأجبرهم على تقبلك، هل استوعبتِ الآن.

فرمت بجسدها على فراشها: كلا لن أفهم إلا عندما تعرفني على عائلتك وتتزوجني.

فجلست على حافة السرير بجانبها وحدثتها بعصبية: أتظنين أن الأمر سهل جداً، تباً للنساء لأنهنّ لا يستوعبن إلا ما يحلو لهنّ، وخرجتُ وأنا أصفق الباب خلفي.

أرهقتني هذه الحروب فقررت الترفيه عن نفسي والعودة إلى علاقاتي العابرة، أصبحت ألعب بذيلي... أحسست بلذة الانتقام منها. فقد تعلمت أساليب الخداع وطبقتها، كنت أحادثها وأقنعها بخلودي إلى النوم وأغلق هاتفي وأفتح الهاتف المتحرك السري الذي لا تعلم به كما كانت تفعل بي. كنت أذهب للسهر مع أصحابي في الأماكن التي كانت تتردد عليها. في الحقيقة لا علم لي كيف حصلت هذه المجرمة على رقم هاتفي السري، وكيف علمت بأمره؛ تقول حدسها هو من دلها على السر لكنني لا أصدقها.

وهنا تأتي الحكاية: رن هاتفي الذي لا تعلم ناهد به، وإذا بفتاة تحادثني بلهجة مغرية وتطلب لقائي، أثارتني هذه الفتاة المجهولة كأي رجل حيث تكون الغرائز هي المتحكمة دوماً؛من منا يرفض فتاة جميلة تأتي إليه بقدميها ولا تريد منه شيئاً؟

لا أعلم كيف استطاعت خداعي وإغرائي بالذهاب إلى الفندق، كنت مثاراً بصورها المغرية التي أرسلتها لي، وأحسست بالفضول

عندما جرتني إلى السرير وأنا مربوط العينين وقامت بتقييدي إلى عمود السرير وأحكمت وثاقي، انتابتني نشوة السعادة حتى ظننت أني في حلم رائع، وعندما أزالت الشال عن عيني صُعقت كأنني لمحت شيطاناً أمامي، إنها ناهد.. ناهد المجرمة مع إحدى صديقاتها.

إنها مجنونة، رجوتها حلّ وثاقي لكنها رفضت وحملت ملابسي معها، تركتني عارياً تماماً في غرفة الفندق، وما أحرجني هو دعوتها لأصحابي كي يتفرجوا على فعلتها المجنونة، بعدئذ ذهبتُ إلى شقتها، كنت سأقتلها لكنها هربت... في البداية حاولت نسيانها لكنها جعلتني أضحوكة أمام أصحابي، كرهتها ذلك الحين وقررت إيجادها، ذهبت إلى موطنها ورشوت الجميع عل وعسى أن أعثر عليها لكنها تفننت في الاختباء عني حتى أرسلت إحدى الفتيات لتخبرني أنها حامل.. ناهد حامل.. وسوف تتزوج كيف؟؟؟؟

دارت بي الدنيا رغبة بالصحبة فالوحدة قتلتني، واستدعيت إحدى الفتيات إلى غرفتي.. فجأة سمعت صوت طرق الباب ففتحته وكانت ناهد، أتت إلي، وعندما رأيتها تلاشى كل الغضب المكنون في داخلي، اعتذرتُ للفتاة وطلبتُ منها الرحيل وأعدت ناهد معي إلي بلدي ثم أصررت أن تجهض هذا الطفل لكنها بكت ورجتني بعدم إجبارها على قتله ووعدتني بتحمل مسؤوليته، لكنني رفضت أن يكون لي ابن بهذه الطريقة. عانت كثيراً أثناء إجهاضها للطفل وخشيت من حدوث مكروه لها. في ذلك الوقت أحسست بمدى حبي لها، وأقنعت عائلتي بأنني مسافر لكي أعتني بها. تركت عملي لأجلها.. فأصبحت هي من أهم أولوياتي.

بعد تلك الأحداث تغيرت ناهد كثيراً، أصبحت مستسلمة لي لكنني سقطت ضحية حبها، وعادت والدتي إلى موضوع زواجي وذهبت معها مجبراً لمشاهدة إحدى الفتيات... أغلقت هاتفي حتى لا تتصل ناهد وأرتبك أمام الجميع، لم أكن أعلم أن ناهد قد هاتفت

أحمد تستفسره عني فأجابت خطيبته التي أخبرتها بذهابي مع عائلتي لخطوبة إحدى الفتيات.

عندما ذهبت إلى ناهد وجدتها حزينة ووجهها أصفر كأنها بكت كل دموعها، وعندما انتهت بكت دمها، فاقتربت منها وجلستُ على طرف السرير وقلت لها: ماذا بك؟

فنظرت إليّ وهي تقاوم البكاء أمامي وتحدثت بلهجة متعثرة:

- أحقاً ذهبت من أجل خطوبتك؟

فمررت أصابعي بين شعري بحركة سريعة:

- ناهد أرجوك.

- لا أريد الاستماع إلى أكاذيبك، أتبحث عن زوجة لك وأنا موجودة؟ أم أنك توهمني بالحب؟

مسحت بإصبعي على أطراف وجهها:

- ناهد حبيبتي إنني فقط أساير عائلتي.

فرفعت رأسها وصرخت بي:

- أنتَ كاذب حقير وعدتني أنك سوف تتزوجني.

فأدرت بجسدي عنها وقلت مسنداً رأسي بيدي:

- لا أستطيع، يجب أن أتزوج فتاة يختارها لي والدي.

فأتاني صوتها المخنوق:

- وأنا، ماذا عني أنا؟

فاستدرت نحوها... وأمسكت بها من ذراعها برفق:

-أنا أحبك، لكنني لا أستطيع الزواج بك في الوقت الحالي.

حاولت التحدث لكن الألم شل لسانها، فحدقت بي بانهيار وبكت ثم تحول بكاؤها إلى نحيب فربت على ظهرها:

- ناهد عزيزتي هل أنتِ مستعدة للتخلي عن أفكارك الغربية؟ عن سهراتك وملابسك المبتذلة؟ أنا أعرف أنكِ لا تملكين القدرة على خنق حريتك بيديك.

وازداد بكاؤها فأكملتُ قائلاً: حتى لو تزوجت لن يتغير أي شيء، فمن سأتزوجها سوف تكون لإنجاب الأطفال فقط أما أنتِ، وابتلعت ريقي وأكملت، أنتِ الحب.

رفعت رأسها وصرخت بي ووجهها محتقن بالدماء:

- أتقصد عدم صلاحيتي لأن أكون زوجة لك.

ارتعش جسدي خوفاً وتلعثمت وأنا أقول بتوتر:

- كلا سوف أتزوجك لكنك لن تكوني الأولى.

فمسحت أنفها بسطح يدها:

- إذن كلام فاتن كان صحيحاً، أنتَ تتسلى بي فقط وأشارت بيدها ناحية الباب وصاحت بملء فمها: أخرج من هنا حالاً، لا أرغب بمشاهدتك، وأكملت بهستريا: أخرج وأحاطت وسادتها بذراعيها وبكت بألم.

خرجتُ وأنا أحاول منع دموعي من التساقط ثم ذهبت إلى منزلي... كان والدي جالساً مع أمي يشاهد التلفاز في غرفة الجلوس وأختي مشغولة بالاطلاع على إحدى المجلات، وما أن دخلت حتى قال والدي:

- تعال يا فيصل واجلس معنا.

وذهبت إليه أجرّ قدمي... جلست بالقرب منه فقال: متى نحدد موعد الخطوبة؟

وقلت له والغصة تملأ قلبي: كلا.

فقال والدي وهو ينظر إلي: كلا.. كلا ماذا؟

أحنيت رأسي: كلا، لن أتزوج.

فقال والدي مغتاظاً: لماذ، ألا تعلم أن بزواجك منها سوف ندمج بعض شركاتنا مع شركات والدها ونوسع أعمالنا.

- والدي لا أريد الارتباط بها.

- لماذا؟

فرفعتُ عيني أتفرس ملامح والدتي التي كانت ترتجف برعب:
- والدي هذه حياتي، ولا أريد أن تكون حياتي مرتبطة بالعمل، أن أتزوج لأجل المشاريع تباً للمشاريع.
نهض والدي وقال: هذا كلام جديد يا فيصل.
فنهضت ببطء وأنا أقول: سوف أتزوج الفتاة التي أرغب بها.
- آه قل هكذا منذ البداية ومن هي هذه الفتاة؟
- إنها فتاة سويسرية المولد وأنا... اضطربت قليلاً فالكلمات ترفض الخروج من فمي لتواجه والدي، ثم لاحت صورتها في ذاكرتي وهي تبكي بألم فنظرت إليه بتحدٍ وقلت: أنا أحبها.
فشهقت والدتي ووضعت يدها على قلبها، وجفلت أختي وبحلقت بي بذهول فصاح والدي وهو يضرب كفاً بكف: ممتاز جداً، تتزوج من فتاة عديمة النسب والأصل وتحرجني أمام الجميع.
فرفعت رأسي عالياً وصورتها القابعة في ذاكرتي تمدني بالقوة:
- على الأقل عندما أتزوجها لن أضطر للبحث عن علاقات خارج نطاق الزواج، سوف أتزوج من امرأة أحبها.
فصفعني والدي بقوة وقال: ألا تعلم أنت تحدث من؟
فصرخت: أنا رجل ولم أعد طفلاً حتى تضربني.
- أتقاطعني وترفع صوتك، أخرج من منزلي.
فصاحت والدتي وهي ترتمي على يد والدي تقبلها:
- لا يا أبا فيصل إنه لا يزال طفلاً ولا يفهم.
فنظرتُ إليها بحزن ثم هممت بالخروج... تتبعتني وهي تبكي لكنني لم أملك الشجاعه للعودة... خرجت من المنزل وتجولت في الشوارع ثم عدتُ إلى شقة ناهد وكانت لا تزال على حالها كما تركتها... أخرجت وجهها من أحشاء المخدة وهالني منظرها، شعرها المنكوش وعيناها المحمّرتان كأنها مجنونة، نظرت إليّ بغضب وقالت: ماذا تفعل هنا؟

نظرت إليها ببرود وقلت لها: ألم تطلبي مني محادثة عائلتي لتوافق على زواجنا.

فرفعت حاجبها وقالت بشك: نعم، أتريد إقناعي أنك أصبحت شجاعاً لتقدم على هذا الأمر.

وسحبت المقعد بيدي لأقربه من السرير وجلستُ عليه وخلعت حذائي وأنا أقول: نعم وتمَّ طردي من المنزل بسببك.

فنهضت من فراشها وجلست على ركبتي وأسندت رأسها إلى صدري وقالت: لماذا؟

فأحطتها بذراعي وتركت يدي تداعب شعرها بحرية:

- ألا تفهمين، واجهت عائلتي لأجلك.

اعتدلت في جلستها ثم نظرت إليّ بشك فقلت لها: ألا تصدقيني؟

ووضعت رأسها على صدري: لم أقل ذلك.

- لكن عينيكِ تقولان.

وسكتت للحظات... قبّلتُ رأسها ثم قلتُ لها: أنا مرهق وأرغب في النوم.

- حسناً نَم هل أوقظك صباحاً؟

- كلا لن أذهب إلى العمل.

قاطعني رنين هاتفي فأخرجته من جيبي ونظرت هي إليّ مستفسرة:

-إنه أخي، ووضعت إصبعي على شفتي أطلب منها الصمت.

أجبته ضاغطاً على زر الميكرفون لتسمع ما يقوله:

- فيصل أين أنت.

- لماذا؟

- إن والدتي منهارة وتبكي.

- دعها تبكي.

- فيصل، ماذا جرى لعقلك، أتتشاجر مع والدي من أجل فتاة وتترك المنزل؟

- لم أتركه، لقد طردني والدك.

- أنت تعلم بقسوة والدي وعدم تفهمه لأمور الحب، لكن أنسيت من نحن؟ إن زواجك لن يتم إلّا باختيار فتاة من طبقة تساوي طبقتنا الاجتماعية.

- لكنني سئمت من هذه الحياة، أنا رجل ومن حقي الاختيار.

- تزوجها لكن بالسر، أتعلم أن والدي يشتعل غضباً منك ويهدد بحرمانك إذا لم تعد إلى رشدك.

- محمد أرجوك، أجِّل الموضوع حتى وقت آخر أشعر بالإرهاق.

- حسناً.

وأغلقت الهاتف ونظرتُ إلى ناهد وهي تفكر بحزن:

- أصدقتني الآن؟

- وما الحل؟

- لا يوجد حل، سيحرمني من المال ونعيش في فقر أليس هذا ما تريدينه؟

فقالت وهي تضع إصبعها في فمها: ومن أين نأتي بالإيجار؟

فابتسمت وأنا أهزها: ستعملين يا شاطرة.

فقالت بدهشة: أنا.

رفعتُ خصلة من شعرها استقرت على وجهها ووضعتها خلف أذنها:

-نعم أنتِ حتى تعلمي كم كنت أتعب لأجلك والآن دعيني أنام.

نهضت من على ركبتي... خلعتُ ملابسي وتمددت على الفراش... سحبت الوسادة وثنيتها تحت رأسي... أغمضت عيني وأنا أجذب نفساً عميقاً وتركتها تفكر.

في اليوم التالي نهضتُ متأخراً جداً وأغلقتُ جهاز الهاتف حتى

لا يزعجني أحد وكانت ناهد لا تزال في ملابس النوم وتتجول في أركان الشقة وتلقي بالأوامر على الخادمة، جلستُ على طاولة الطعام فأتت ناهد تحمل في يدها بعض الأطباق التي تحتوي على طعام الفطور ثم قالت وهي تتجنب النظر إلي:

- هل ترغب بالقهوة أم الشاي؟

- أرغب بكوب من الحليب الساخن، واتجهت إلى المطبخ وبعد عدة دقائق عادت بإبريق من الحليب الساخن.. ثم قالت وهي تمد يدها إلى حبة الزيتون وترميها في فمها:

- إلى أين سوف تذهب اليوم؟

- لن أخرج.

نظرت إلي متسائلة: لماذا؟

- لا رغبة لي.

- حسناً، سوف أخرج أنا.

ورفعتُ كوب الحليب وتجرعت منه ثم قلت لها وأنا أمص شفتي السفلى: إلى أين؟

- سأذهب إلى السوبرماركت لشراء بعض المستلزمات.

وسحبتُ قطعة توست ووضعتُ عليها بعض الجبن:

- لا داعي للخروج، أرسلي الخادمة لتحضر لك ما تشائين.

- أفضل الذهاب لوحدي ولن أتأخر، إنها مجرد ساعة.

- ومتى تذهبين؟

- بعد قليل.

ونهضت متجهة إلى غرفتها، وبعد لحظات خرجت منها وهي ترتدي ملابس الخروج وقالت:

- لن أتأخر كثيراً، وإذا رغبت بشي هاتفني ثم خرجت وأنا أتبعها بعيني.. انتهيت من تناول طعام الفطور ثم جلست وحدي في غرفة الجلوس وبحثت عن شيء أقرأه، فكتبي الموجودة في غرفة

المكتب قرأتها آلاف المرات ولم أجد إلّا بعض مجلات نسائية في غرفة الجلوس فاضطررت لتصفحها ثم رميتها بعيداً؛ لا أعلم سبب شراء النساء لهذا النوع من المجلات الهابطة وما يضحكني هو قسم المشاكل الذي يحتوي الموضوع ذاته دوماً، أحببته وهجرني، ساعديني يا دكتورة، لماذا النساء هكذا؟

أدرت التلفاز وقلبت المحطات الفضائية وأنا أتثاءب سئماً؛ وبعد مرور الوقت استدعيت الخادمة لتعد لي كوباً من القهوة فأتت وهي تحمل بعض الصحف اليومية فناولتني إيّاها وهي تقول بلهجتها العربية الركيكة:

- مدام طلبت مني إعطاءك هذه الصحف.

سحبت إحداها وباشرتُ القراءة... بعد مرور ساعة ونصف عادت ناهد إلى الشقة.. وتسمّرت أمامي قائلة: ألم تفعل شيئاً في غيابي؟

فنظرت إليها ثم تحدثت بلهجة جافة: كلا.

- لماذا ألم تحادث والدك؟

- ناهد، لا تتدخلي في الموضوع أرجوك.

فاقتربت مني وجلست على الأريكة وقالت: حسناً لا داعي للعصبية.

لاحظت أنها عادت من دون أي أكياس، فعاودتني الذكرى وشاهدت والدتي تسكن ناهد.

فقلت لها وأنا أضم أوراق الصحيفة: ناهد أين الأكياس؟

فقالت لي من دون النظر إلي: أي أكياس؟

- ألم تقولي إنك ذاهبة إلى السوبرماركت؟

جفلت ونظرت إلي... ارتجفت شفتاها وبدت على وجهها الحيرة ثم قالت: لم..

فقاطعتها وأنا أرفع حاجبي: لم تجدي شيئاً يعجبك.

- نعم لم أجد شيئاً يعجبني.

- إنكِ كاذبة، لم تذهبي إلى السوبرماركت، أخبريني أين كنتِ؟
فقالت وهي تقف وتسير بضع خطوات: ذهبت إلى السوبرماركت.
رميت بالصحيفة على الأرض ووقفت متجهاً نحوها... أمسكتها من ذراعها وسحبتها ناحيتي وأنا أصرخ بها:
- أتعتقدين أنني مغفل.. أخبريني الآن أين كنتِ وإلّا، وسكتُ للحظات.
فقالت وهي تنظر إلى عيني بتحدٍّ: وإلا ماذا؟
ففجرت غضبي عليها وصفعتها بقوة فردت الصفعة لي فدفعتها على الأريكة وانقضضت عليها... أمسكتها من معصمها وثبتها بقوة وأنا أقول لها: تضربينني يا حقيرة.
كانت ناهد تقاومني بعنف وتحاول ركلي بركبتها على بطني حتى أحسست أنها تضربني لأنها تكرهني، كانت النظرة في عينها مليئة بالحقد والكراهية ثم تراخت قبضتي فحاولت إخراج نفسها من تحت جسدي وزحفت على الأريكة حتى وقعت أرضاً، بعدها نهضت وهي تصرخ بي: أجننت أتضربني يا نذل... يا ابن......
وهنا أظلمت الدنيا أمامي، واندفعت إليها وأبرحتها ضرباً حتى أخرجت كل الغضب الذي بي على جسدها، ثم تمالكت نفسي وابتعدت عنها... أسندت رأسي إلى الحائط وضربته بقبضتي، نهضت ناهد من على الأرض وهي تبكي وتربت على شعرها وتزيح خصلاتها المبعثرة عن وجهها، ثم مسحت بظهر كفها على شفتيها ونظرت إلى سطح يدها الملوثة بالدم واتجهت نحو غرفتها بخطوات سريعة ودموعها تتساقط من عينيها، تضايقت على ما فعلته بها فتبعتها.. فوجدتها قد سحبت حقيبة كبيرة من أسفل السرير، ووضعتها فوقه وفتحتها عن آخرها وقامت برمي كل ما تقع عليه يداها في جوف الحقيبة.. ولم تنظر إلي ولم تعرني أي اهتمام، فقلت لها بصوتٍ هادئ: ناهد.

فتجاهلتني، فاقتربت منها وأمسكتها من ذراعها: ناهد.

فدفعتني وصاحت بي: سأهجرك، اكتفيت منك... أنا أكرهك.. وأكره تقلبات مزاجك، أنظر إلى فعلتك فرفعت يدي محاولاً مسح شفتيها الداميتين.

فدفعتني وصاحت بطريقة هستيريه: اتركني لا تلمسني.

وانحنت تغلق حقيبتها، فانهرت أمامها وجثوت على ركبتي، ودفنت رأسي في فستانها وأحطت ركبتيها بذراعي وبكيت كطفلٍ صغير: آسف صدقيني لن أضربك مرة أخرى، ناهد أرجوك لا تتركيني، إن أعصابي مرهقة وأنا متوتر جداً... أعذريني لأني فجّرت غضبي عليك.

لكنها سحبت الحقيبة واتجهت نحو الباب... تبعتها باكياً: أرجوك لا ترحلي.. وحاولت سحب الحقيبة منها لكنها دفعتني، ووقفت تنظر إلي ثم خرجت وتركتني وحدي وأنا أبكي كطفلٍ هجرته والدته.

أمضيت اليوم بأكمله أفكر بما حدث لي، لقد تشاجرت مع عائلتي لأجلها وهكذا تعاملني الحقيرة ناكرة المعروف، إنها تفتعل الشجار معي لأنني لم أعد فيصل الرجل الغني مالك الشركات، لذلك لم تعد تحترمني، أنا السبب، فقد كنت أعاملها بحب مبالغ به... إنها لا تستحق كل ما فعلته لأجلها.. وأمضيت الليل متجرعاً الخمر حتى أسقطني في نومٍ عميق.

نهضت في وقت متأخر من الصباح وحادثت والدتي التي بكت عندما تناهى صوتي إليها، توسلتني العودة إلى المنزل واستسلمت أمام طلبها وأرسلت إلى ناهد رسالة على هاتفها لتعود إلى مسكنها، وبالطبع لم تكلف نفسها حتى بالاستفسار عني ومعرفة إلى أين سوف أمضي.

عندما عدت اتجهت إلى والدي الجالس في مكتبه يقرأ إحدى الاستمارات، وقبّلتُ رأسه ويده واعتذرت له، فقال:

- أغلق الباب وتعال اجلس بجانبي.

وأغلقته ثم امتثلت لأمره، فقال:

- أطردتك من مسكنها؟

فنظرت إلى الأرض، فقال:

- اسمعني يا بني، هنالك نوع من الفتيات تستحق أن تحارب الكون من أجلها، وهنالك نوع ما إن تشاهدك تحارب حتى تمل منك سريعاً وترحل وتتركك وحدك، وأعتقد أنك أدركت من أي نوع هي، فيصل عندما ذهبت إلى سويسرا كنت أعلم سبب ذهابك، لكنني تجاهلت الأمر فأنت أصبحت رجلاً وليس من حقي التدخل في علاقاتك الخاصة، ولكن أن تصل إلى حد الزواج منها فأنا مجبر على منعك من ذلك وإعادتك إلى رشدك، إن هذه الفتاة المدعوة ناهد لن تتخلى عن حريتها أبداً وتخضع لك، ستتمرد ما أن تتاح لها الفرصة وسوف ترى بعينك حقيقة ما أقوله، وحتى لو تزوجتها ولم تهتم بنظرات الناس وكلامهم، لكن تذكّر هذه الفتاة ستكون أماً لأولادك وبناتك، هل ستسمح لبناتك إقامة علاقات محرّمة مع الشباب؟ هل تستطيع تمالك أعصابك وأنت تشاهد رجلاً يدنس شرف ابنتك؟

إن هذه الفتاة لا تدرك معنى العادات والتقاليد، ولا تدرك قيمة المرأة ومكانتها في المجتمع الإسلامي، ولن تجد مشكلة وهي ترى ابنتها ترحل مع رجل وتسكن معه من دون عقد زواج، أيمكنك مشاهدة هذا الأمر والصمت؟ ألن يحترق قلبك وأنت ترى شرفك تلوثه الأيادي؟

فيصل أنا لا أجبرك على هجرها ما دمت تحبها وتشعر بالراحة تجاهها، لكنني أجبرك أن تدرك الاختلاف بينك وبينها وأن تكون رجلاً عليها، وأن تجعلها تدرك حدودها ولا تتخطاها؛ كن كالسيد وهي الجارية لك، حطمها وتفنن في طرق إذلالها حتى تكون هشة وتحتاج إليك كحاجتها إلى الهواء، اغرس في عقلها فكرة أنها لا

تستحقك وأنك أفضل منها، أنا والدك ولي خبرة مع النساء وخصوصاً هذا النوع.

لم أنطق بأي كلمة، أدهشني حديثه وكيف أصبح كصديق لي وتلطف بحالي ولم يقم بإذلالي.. ثم تركني لأرتاح لكنني لم أستطع تذوق طعم الراحة؛ فصورتي وأنا أبكي أمام ناهد وأتوسلها وهي لا تعيرني أي اهتمام تذكرني بالماضي، رسخت هذه الصورة في عقلي وكان لا بد لي أن أجعلها تشاهد مدى قوتي، وذهبت في اليوم التالي إلى الشركة وأنا لا أزال أفكر بالانتقام منها فدخل أحمد إلى مكتبي مسرعاً وهو يقول:

- أين كنتَ ولماذا لا ترد على مكالماتي؟

فنظرتُ إليه من دون اهتمام وأنا أسحب إحدى رزم الأوراق المتراكمة على مكتبي، فقال أحمد وهو يجلس: ألم تعلم ماذا فعلت ناهد المجنونة؟

فرفعت رأسي وحدقت به قائلاً: ماذا فعلت؟

أتت إلى الشركة منذ يومين.. وقابلت والدك، نهضت من هول الصدمة وقلت له: وبعد.

- تشاجرت مع والدك وكنتُ حاضراً على الموقف، فعندما أتت تطلب مقابلته رفضت السكرتيرة ذلك فدفعتها ودخلت وتبعتها محاولاً إيقافها وعندما شاهدها والدك قال لها: مرحباً ناهد.

فجلست من دون أن يأذن لها وقالت: إذن أنت تعرفني.

فقال لها: كل ما يجري في حياة ابني أعرفه أولاً بأول.

فقالت له بتحدٍّ: وكل ما يتعلق بحبيبي وعائلته أدركه تماماً، ثم أكملت بثقة: لم آتِ إلى هنا لأتوسلك وأطلب منك أن تغفر لابنك، فابنك لم يرتكب أي خطأ حتى تطرده من المنزل، أنا هنا لأخبرك أنك عندما تكبر فإنّ أبناءك سيرمونك في الشارع لأنهم لا يكنّون لك الحب، إنهم يحبون أموالك فقط، أنتَ من حوّلهم إلى أشخاص

ماديين.. وأنت من نزع الرحمة من قلوبهم، إنك رجلٌ قاسٍ ولا بد أن والدك كان يعاملك كما تعامل أبناءك الآن، ألم تكن تكره والدك؟ ألم تفرح لموته؟ إذن أتريد أن يكرهك أبناؤك كما كرهت والدك؟ لماذا تجعلهم يتذوقون حياتك البائسة؟ وتظن أنك تصقلهم... ألم تقع في الحب؟ وأجبرك والدك أن تتزوج قريبتك، أتنتقم لنفسك في أبنائك؟ أتحطمهم كما حطمك والدك في يومٍ ما؟

فصرخ بها والدك: أخرسي.

- كلا لن أخرس، فأنت ليس لك الحق لتطلب مني الصمت، فأنا لا أخاف منك ومن نقودك التي ورثتها من والدك ولم تعرف قيمتها يوماً ولا تحاول أن تكون رجلاً عليّ، إذهب لزوجاتك وأبنائك واظهر قوتك.

- سوف أتصل بالشرطة ليرموكِ في السجن.

- هل تريدني أن أهاتفهم أنا؟ أتحداك أن تحاول المساس بي، سوف ألجأ إلى السفارة وأخبر الإعلام وأفضحك أمام الناس... أتعلم ماذا سوف يقول الناس عنك؟ إن عشيقة ابنك لقنتك درساً وخطفت ابنك منك.

فانهار والدك على مقعده وحدّق بها بغضب، فقالت له وهي تتجه نحو الباب: سأغادر لكن إعلم أنك خسرت ابنك وأن أموالك لن تشفع لك عندما تكون طاعناً في السن ووحيداً والكل هجرك.. كوالدك تماماً.

وانصرفت.

فقلتُ له:

- أحقاً حادثت والدي هكذا؟

- نعم لقد جعلته يغضب ويترك الشركة.

وهنا أدركت لماذا تغيّر والدي معي حيث إن ناهد هي من أيقظت فيه شيئاً لم يستطع أيّ شخص إيقاظه ألا وهي الرحمة في

قلبه، ثم انتابتني نوبة ضحك وأنا أفكر كيف لهذه البنت أن تهزأ من والدي بهذا الشكل؛ يبدو أنني لم أكن أعرف قدرتها ثم أحسست بالذنب بسبب ضربي إياها واتهامها بالكذب وتوهمي بخيانتها، فخرجت من الشركة واتجهت نحو مسكنها لكن الصورة السيئة عادت لتهاجمني وتذكرني كيف بكيت أمامها ولم تكترث بتوسلاتي فغيّرت اتجاهي وعدت إلى المنزل.

مضت الأسابيع وأنا أحاول السيطرة على نفسي وعدم العودة إليها كنت أخوض أي مغامرة عاطفية فقط لأنساها فأجد نفسي لاشعورياً أقارن هذه الفتاة بناهد ثم أحكي لها عن ناهد وعن عنادها وشقاوتها وذكريات أوروبا، فتستمع إلي الفتاة وفي عينيها بريقٌ من السعادة والاعتزاز لهذا الحب ثم تسدل عليَّ بعض النصائح وتطلب مني العودة إلى ناهد.

لقد فاجأني أحمد بحفلة عيد ميلادي حيث كنت مشتت الفكر فلم أنتبه لذلك... فجأة وجدتها تطل بين الوجوه كأن في قلبي بوصلة تدلني عليها... اقتربت مني بهدوء وطبعت قبلة على صدغي ثم همست لي قائلة:

- أرجو أن لا يكون وجودي قد أثار استياءك لكن لم أكن أرغب بتفويت يوم عيد ميلادك، ثم سكتت للحظات، بعدها أكملت، والآن أستأذنك للمغادرة واستدارت وهمت بالخروج فأمسكتها من ذراعها ودنوت منها حتى لاصقتها ودفنت وجهي بين خصلات شعرها، أشتمها فاستدارت ونظرت إليّ بحزن.

فقلت لها: ناهد اشتقت إليكِ.

فاقتربت مني حتى لاصقتني وقالت وهي تسند رأسها إلى صدري: لقد اشتقت إليك حتى ملَّ الشوق مني، وانتظرتك كل يوم في شقتي، علَّ الحنين يجعلك تعود إليّ، ليتك تدرك كم قتلني انتظارك.

فأحطتها بذراعي وجعلت أصابعي تلاعب شعرها وقلت لها: ناهد أحبك، فبكت بين ذراعي.

كنت ألمحها وهي تحادث المدعوين وأحاول استعادة ذاكرتي، هل كان جمالها أخاذاً هكذا؟ أم أنها ازدادت جمالاً بعد فراقنا لأسابيع، أم أن حبها ازداد في قلبي فأعمى عيوبها؟ أحياناً أتساءل عن سبب حبي لها، سأكتفي بالقول إنها كشعاع الشمس تنير ما حولها وتجعل الحياة تدبّ فيّ عندما تنظر إلي فقط، أحبها على الرغم من عدم قدرتي على فهمها وهي ليست قادرة على ذلك، لقد كانت دوماً تشكو مني ومن إحراجي لها أمام الجميع لكنها لم تكن تدرك الأسباب.

لو تعلم سبب رفضي كي أجعل الذين حولي يدركون مدى حبي لها لعذرتني؛ أخشى عليها من أعدائي، وأخشى على هذا الحب أن تدنسه ألسنة العذال... لو تعلم فقط أن أعدائي يبحثون عن نقطة ضعفي وهي نقطة ضعفي، فإذا أدرك أحدهم بحبي لها سوف يسعى جاهداً في تحريضها عليّ، ولذلك أتعمد إظهار اللامبالاة وأتجنب غيرة أصحابي وحسدهم.

لن أستطيع إظهار رقة قلبي تجاهها؛ فبعضهم ينظر إليّ كرجل قوي ذي شخصية رائعة لا يمكن لامرأة قيادتي... لماذا لا تستوعب ناهد ذلك؟

وأحياناً كنت أتعمد إهانتها أمام الجميع لأحطمها فقط لأنها كانت تغيظني كثيراً وتظهر نفسها أميرة، وتحب أن تكون دوماً على حق ولا يعجبها العجب، بل وتبدي تذمرها أمام الجميع ولا تخفي شيئاً وما يزيد من حقدي عليها أنها عندما تدخل معي إلى مكان تسحر الكل بطلّتها وأكون بجانبها كالصعلوك.. فوسامتي وإنجازاتي تضيع بسبب سحرها.. هذه هي الحال، الكل ينظر إلى المرأة الجميلة الغبية.. وينسى الرجل العبقري الناجح الذي هو أنا.

حتى أصحابي يتناسون وجودي ويضحكون على طرائفها وتسحرهم بأحاديثها وأكون أنا مختبئاً خلف ظلها؛ وذات مرة علّق أحدهم قائلاً: كل رجل عظيم مثلك يا فيصل (جعلني قوله كالطاووس الذي يتباهى بجمال ريشه) وراءه امرأة أعظم مثلك يا ناهد.. ابتسمت ثم ضحكت بصوتٍ عالٍ، حطمني قوله وكأن كل الشهادات المعلقة على حائط مكتبي والتي حصلت عليها بكفاءاتي وإنجازاتي كانت سببها هي.. هل تناسوا تعبي وسهر الليالي كي أصل إلى هذا المركز المرموق وما حققته على مرّ حياتي؟؟!!

كنت أريد صفعها وتحطيمها وتفجير كل الغضب الذي يعشعش في داخلي على وجهها البريء، تمالكت نفسي وقلت لهم: تقصدون راقصة عظيمة، فناهد مجرد راقصة في بلدها لا تملك أي احترام لذاتها، ووضعت بعض النقود في الجزء العلوي من قميصها وضحكت.. وأنا أغمز لها: فقط كي أذكرك بالأيام التي مضت.

حتى إنهم وعندما أفصحوا عن رغبتهم بدعوتي لإكمال السهرة في مكان آخر.. اعتذرت لهم بسبب انشغالي بأعمال مهمة في الصباح فألحّوا عليّ أن أترك ناهد لتسهر معهم.. وأمضيت شخصاً غير مهم في حياتهم.. وأصبح وجودي أو غيابي غير مؤثر وطبيعي، فالمهم أن الآنسة ناهد تذهب معهم.. وعندما ترددت هي خوفاً مني تذمر أصحابي وقالوا إذا لم تأتِ ناهد فلن نذهب لتكملة السهرة.. فاضطررت للموافقة وأنا أشعر بالصدمة من موقفهم، لماذا لم يلغوا السهرة من أجلي... إن أفعالهم تبث الشك في قدراتي والإحساس بأنها أفضل مني في كل شيء على الرغم من أنني من صنعها، ولي الحق وكل الحق في تحطيمها متى شئت.

أذكر في إحدى المرات أنني اصطحبتها إلى حفلة لأحد الأصحاب، وكنت أرغب أن تلتفت الأنظار إليّ لا أن تخطفها.. وما أغضبني كثيراً أنها ثملت وراحت تراقص أصحابي حتى إنها تجرأت

وقاطعت حديثي وأجابت على هاتفها الجوّال الذي حذرتها آلاف المرات أن تغلقه أثناء وجودها معي.. إنها تنسى أو تتناسى من تكون هي؟؟ ومن أكون أنا؟؟ ومن أين جاءت؟؟ أعترف أنني كنت قاسياً معها عندما ضربتها وأنزلتها في الطريق، وتعرضت إلى ذلك الحادث المروع بسببي لكنني عوضتها بشرائي لها مركبة فخمة.

انتقدني أخي وقال عني إنني مجنون.. لكنه لا يفهم، صدقوني إنه لا يفهم.. فهذه البنت لا أستطيع خسارتها، أحس أنني أدمنتها.. إنها تسحرني وتملأ الفراغات التي في داخلي، فعندما أكون غاضباً أحس بأنها تمتص كل غضبي، وعندما أكون حزيناً فإنها تضحكني من القلب.. أرتاح إليها كثيراً.. إنها تجيد فن الإصغاء إليّ وإلى مشاكلي.. أعترف أنها الوحيدة التي تجعلني أشعر بأني الرجل الذي يمتلك كل شيء في الدنيا، تشعرني بقوتي.. بذكائي.. وبنجاحي.. تعجبني نظرتها البريئة وفوق هذا كله لا أستطيع، ومهما فعلت، غضّ النظر عن أهمية وجودها معي وعندما ألمس جسدها أشعر بأنها ملكي.. كل ما في جسدها ملكي.. إنها ملكي أنا وحدي.

أشعر بحبها الصادق لي وكيف يعوّضني عن كل الحنان الذي فقدته وافتقدته.. عندما تجلس بجانبي وتدللني، ولكن في كل علاقة شوائب فعندما تملكها العناد أقوّم سلوكها ببعض الصفعات ومن ثم أدلّلها ببعض الهدايا الثمينة والألماسات اعتقاداً مني أنها تنسيها تجريحي لها.

لكنني كنت مخطئاً للأسف، واكتشفت ذلك بعد فوات الأوان.

***

(17)

أتحبينه

نهضت من ذكرياتي متجهاً إلى دورة المياه الموجودة في الطائرة، وغسلت وجهي بالماء البارد وتركت قطراته تتسلل ببطء إلى ذقني، وأنا أتمنى لو كان بإمكاني أن أجعل ذكرياتها تتسلل هكذا إلى خارج قلبي وأغسل ذاكرتي منها.

عدت إلى مقعدي وحدّقت في السماء للحظات ثم سحبت سماعات التلفاز ووضعتها على أذني فانطلقت أغنية لأم كلثوم تشتكي بها عن أهوال الحب، وتقول: أنا وأنت ظلمنا الحب، وحملتني هذه الموسيقى إلى سماء الذكريات.

كم مرة خنتها؟ لقد خنتها بجسدي ولكنني لم أخنها يوماً بقلبي، إن هذا النوع من الخيانة يجعل جسدي يرتعش، ولكن هذه الرعشة لا تصل إلى قلبي؛ فقلبي محصنٌ بحبها، إنها تحاصره من كل الجهات وتهاجم أعداءها ومن يرغب بالاستيلاء على هذا القلب، وإذا حاولت الانقلاب على حبها أخضعتني بابتسامة، هل كانت تعلم بخيانتي لها فتتجاهلني؟ وإذا كانت تعلم لماذا لا تشعر بالغيرة تجاهي، ألا تحبني؟ أم أنها لم تكن تعلم بخيانتي لها، أحتار وأقع ضحية الشك، أطعم الخيانة مرٌّ إلى هذه الدرجة؟ ألهذه الدرجة يحرق القلب؟ ألهذه الدرجة تشتعل بي الرغبة بالانتقام؟

لقد كنّ كالوجوه العابرة التي لا تدقق في ملامحهن وسرعان ما تنسى أسماءهن وتفاصيلهن، هكذا كنّ لم يتركن في القلب أي ذكرى؟

لأستعيد لكم بعض الوجوه التي كانت مجرد عابر سبيل في حياتي.

أماني فتاة ذات شعر كستنائي اللون، وعينين حادّتين تجد فيهما الرغبة والإثارة لخوض المغامرة وشفتين تدعوانك لتذوقهما، قصيرة القامة ويبدو أن مشرط الجرّاح التجميلي ساهم كثيراً في نحت ملامح وجهها وجسدها؛ كانت تكبر ناهد بأعوام ولجأتُ إليها لتمنحني الحب والاهتمام عندما أهملتني ناهد.

لمحتها ذات يوم في أحد المطاعم وأنا برفقة ناهد والرفاق، كنت أختلس النظرات إليها وهي لا تتفانى في إرسال ابتساماتها الساحرة، وعندما ازدادت نظراتها أمرت ناهد بالذهاب إلى دورة المياه فنظرت لي بعتاب، ثم سحبت قدميها وجرت حزنها خلفها، فاستدعيت النادل ليحمل الكرت الخاص بي إليها وأنا مزهوّ بما فعلته أمام رفاقي وبقدرتي في جذب النساء لي، وما هي إلا لحظات حتى عادت ناهد وهي تحمل على وجهها تكشيرة كبيرة كأنها تبرجت بها في دورة المياه وجلست بجانبي ووضعت رسغها أسفل ذقنها ثم أطلقت لخيالها العنان، نظرتُ إليها وآلمني ما شاهدته من حزنٍ قد خيّم على وجهها، فحاولت الترفيه عنها وسرد بعض مغامراتها علّي أدخل البهجة إلى قلبها، فنظرت إليّ بعتاب ثم أشاحت بوجهها عني ودخلت في سبات من الحزن وازدادت تجهماً.

إني أحياناً أعجز عن استيعابها، فلماذا تفخم حديثي وتستخدم ما أقوله لشن الهجوم عليّ وإلقاء اللوم على عاتقي؟ إنني لا أقصد الإساءة إليها، أحب المزاح معها وإسعادها فقط، لكن سرعان ما ينقلب الموضوع ضدي.

مع مرور الأيام حادثتُ أماني عدة مرات حتى حان موعد عيد

ميلاد أحد أصحابي، ذهبت إلى ناهد فوجدتها في غرفة الجلوس، جالسة في الظلام وهي تنظر إلى التلفاز، تضم ركبتيها إلى صدرها وتحيطهما بذراعيها ولا تزال بملابس النوم، تاركةً شعرها من غير تسريح، ما إن شاهدتني حتى نظرت إليّ ببرود، ثم رسمت على وجهها تكشيرة كبيرة، فاقتربت منها بهدوء فارداً ذراعي محاولاً احتضانها فقالت لي وهي تدفعني بعنف:

- ماذا ترغب؟

وأشاحت بوجهها عني.

جلست بجانبها وقلت لها وأنا أنظر إليها برجاء: ناهد، ألن ترافقيني إلى الحفلة؟

أدارت رأسها ناحيتي بحركة سريعة وحدقت بي كأنها ترغب بالبصق عليَّ وقالت بحدة:

- لماذا أذهب معك؟ لتسخر مني أمام الجميع.

أسندت ظهري إلى الأريكة، ورفعت قدمي ووضعتهما فوق الطاولة الصغيرة:

- كلا، أرغب بوجودك معي فقط.

فأدارت رأسها ناحية التلفاز وقالت: وأنا لا أرغب بك.

أخرجت من صدري تنهيدة قوية ثم أمضيت أفكر لماذا تعاملني بهذه الطريقة؟ ما هو الجرم الذي ارتكبته حتى أتسبب بحزنها؟ كل ما في الأمر هو رغبتي بتواجدها معي وتمضية بعض الوقت الممتع وهي تقابل رغبتي بالصد.

ألقيت نظرة على الساعة، وكان هنالك وقت متاح لإقناعها بتبديل رأيها فابتسمت وأنا أقول لها: لا يوجد داعٍ للخروج، لنجلس معاً ونتسامر حتى الصباح.

فقالت بسخرية: حقاً؟

ضغطت على شفتي بأسناني وتمتمت في داخلي: إن هذه الفتاة

تكتشف كل حيلي وتتلاعب بي كما تشاء، مثلما تتلاعب الرياح بالسفن، إنها تفهم صمتي وتقرأ أفكاري وتسبق كل تحركاتي، إن أوراقي أمامها مكشوفة، ومضت بضع دقائق أفكر بإيجاد خيط أبدأ به الحديث معها ثم قلت لها:

- أين ذهبتِ اليوم؟ وأنا أمد بإصبعي لأداعب خصلة تدلت على جبينها.

فقالت وهي ترجع رأسها إلى الخلف كي لا ألمسها: لم أخرج.

وعاد الصمت مرةً أخرى، تصنّعت السعادة ثم قلت: ألم تخبريني برغبتك للذهاب إلى السوق اليوم؟

فقالت وهي تتنهد ضيقاً: كنت أرغب بالخروج لكنني اكتشفت أن المال ينقصني.

وبحركة سريعة أخرجت محفظتي وسحبت كل ما بها من أوراق نقدية ثم سلمتها إيّاها وأنا أقول:

- أووووه يا حبيبتي لماذا لم تخبريني حتى أرسل لك المال مع أحمد؟

لا أعلم بماذا أخطأت لكنها حملت في عينيها نظرات البغض ثم دفعت بيدي وصرخت بي قائلة:

- أتظن أنك سوف تشتريني بمالك حتى أوافق على الذهاب معك إلى الحفلة، لقد قلت لك إنني لن أذهب ثم علا صوتها وهي تقول: دوماً تعتقد أن كل شيء في الحياة قابل للبيع والشراء إنني بشر ولست بسلعة ألا تفهم ذلك، خذ مالك وانصرف من هنا.

ثم أكملت حديثها وهي تلوح بيديها بطريقة هستيرية: إن وجهك يحثني على التقيؤ وصوتك (أمسكت بخصلة من شعرها وشدتها محاولة اقتلاعها) صوتك يثير اشمئزازي ويزيد من بغضي لك، وضربتني بالوسادة وصرخت بي، أخرج من هنا حالاً.

أصابني البكم من دهشتي لتصرفاتها، ولم أنطق بكلمة واتجهت

ناحية الباب ثم توقفت للحظات، فقد تذكرت أن المال ينقصها، فعدت إلى غرفة النوم... وضعت النقود على الرف الذي بجانب السرير، سمعت خطواتها وهي قادمة ثم وجدتها واقفة كالمجنونة أمام باب الغرفة واندفعت ناحية النقود فحملتها بيدها وصرخت بي قائلة:

- أتظنني عاهرة أرغب بأموالك، أتضع المال بجانب الفراش كي تزيد من احتقاري لنفسي ثم بكت وهي ترمي النقود في وجهي.

وقفت لدقائق أنظر إليها وهي تبكي بانهيار ثم هممتُ بالمغادرة، فأنا مرهق ولم أقصدها إلّا لأجد الراحة والهدوء وليس لإيجاد الجنون والشجار.

ولم أدرك سبب ضيقها، فهي من قالت إنها لم تكن تملك ما يكفي من المال، وأنا مسؤول عنها فلماذا افتعلت هذه المشادة؟ لماذا تتصرف كالمجنونة معي على الرغم من أنني لم أسئ إليها؟ كل ما في الأمر أنني رغبت في إسعادها، لماذا تلومني دوماً وتفسر تصرفاتي كما يهوى عقلها المضطرب وتتصور أنني أحتقرها وأتعمد إيلامها؟

كنت حقاً أرغب بالذهاب إلى الحفلة لكن لم أشأ الذهاب وحدي، وأثناء تجولي في السيّارة رنّ هاتفي فإذا هي أماني تهاتفني.

(فيصل): ألوور.

وقالت بدلال:

- أهلاً فوفو.

فقلت لها بجدية: اسمي فيصل.

فأطلقت ضحكة عالية مبتذّلة: أعتذر لك يا أستاذ فيصل.

فقاطعتها: ماذا سوف تفعلين الليلة؟

صمتت للحظات ثم قالت: لا شيء.

- أترغبين بالخروج.

فقالت بفرح: نعم لمَ لا.

- حسناً استعدي، سنذهب إلى عيد ميلاد أحد رفاقي، وما إن

أغلقت الخط حتى أدرت رقم ناهد فوجدته مغلقاً، وعندما اتصلت على هاتف الشقة وجدته مشغولاً فتيقنت من أنها رفعت سماعة الهاتف.

بعدئذ حان موعد اللقاء، واصطحبت أماني معي إلى الحفلة، وعندما دخلت إلى القاعة أتاني أحمد متسائلاً: أين ناهد؟

نظرت إليه غاضباً، ثم أكملت طريقي، ومضت الليلة كئيبة والرفاق لا يتوارون عن السؤال عن ناهد، وكلما هاتفتها وجدت هاتفها مغلقاً فتراودني الشكوك أنها مع رجل آخر وتطعنني الغيرة في قلبي.

أما أماني فكانت ترقص بابتذال وضحكاتها العالية تملأ المكان وتلاصق أصحابي بطريقة محرجة، لم أستطع تمالك نفسي وأنا ألمح خيالات ناهد وهي تخونني وأرسم في عقلي الأوهام، فغادرت مسرعاً تاركاً أماني خلفي، وقدتُ مركبتي بسرعة نحو مسكن ناهد وأنا أتنفس باضطراب ودقات قلبي تكاد تتوقف، ولم أنتظر المصعد بل جريت على السلالم حتى وصلت إلى مسكنها، ووضعت مفتاحي في قفل الباب واندفعت بجنون أبحث عنها... وما إن دخلت الغرفة حتى وقع نظري عليها نائمة ووجهها لا يزال متجهماً... تنفست الصعداء ثم اقتربت منها واضعاً يدي على شعرها أربت عليه برفق، ففتحت عينيها ونظرت إلي ثم أدارت جسدها إلى الناحية الأخرى، فخلعت قميصي ثم رفعت الغطاء واندسست بجانبها ونمت قرير العين... مرتاح أنها لم تكن مع غيري.

***

هل توقفت خياناتي على أماني فقط؟

كلا، فبعد مرور عدة شهور أقمت علاقة مع أحلام، كانت

صغيرة في السن؛ لم تكن بجمال ناهد لكنها تدب بالحياة والشباب وحب المغامرة. كنت أفرح عندما أستمع إلى خططها المضحكة لإيجاد طريقة لمقابلتي من دون علم أهلها، ومضت الأسابيع وأنا مشدودٌ إليها؛ ما ميزها أنها ممتعة جداً لكن ما يثير استيائي هو تقليلها من شأني أمام الجميع فهي لا تعاملني كما أستحق.

حتى حدث ما لم يكن بالحسبان، أمضيت معها ليلة في أحد الفنادق، ولا أعلم لماذا كانت ناهد تهاتفني باستمرار وإلحاح وأنا عاجز على الرد على مكالماتها... وكما يبدو فإنها كانت تشعر بخيانتي لها، ولمحت أحلام اضطرابي كلما رنَّ الهاتف فأخبرتها أنها الفتاة نفسها التي تطاردني وسبق وأن أخبرتها بأمرها... ابتسمت أحلام بعفوية ثم قالت: أتريد مني محادثتها لتكف عن الاتصال بك؟

ازددت اضطراباً ثم قلت: كلا، لقد اعتدت ملاحقاتها لي، سأتركها حتى تسأم مني فتكفّ عن إزعاجي.

بعد مرور بعض الوقت استسلمت للنوم ثم نهضت بعد ساعة على حركة تصدر بالقرب مني، وبحثت عن أحلام فوجدتها في الشرفة تتحدث بالهاتف، فعدت أدراجي ووقع بصري على الرف القريب من السرير فلم أجد هاتفي، بحثت عنه بعيني، وبحركة سريعة أدرت رأسي ناحية الشرفة... وطرأ في ذهني أنها تتحدث من هاتفي، فاندفعت بجنون نحوها وسحبت الهاتف من يدها ثم أغلقت الخط... نظرت بسرعة إلى قائمة المكالمات فوجدت ما كنتُ أخشاه؛ إنها قد حادثت ناهد، رفعت رأسي واصطدمت عيني بابتسامتها الساخرة... أمسكتها من ذراعها وقلت لها بلهجة غاضبة:

- ماذا قلتِ لها؟

فدفعتني محاولة التخلص من قبضتي وقالت باحتقار: قلت لها الحقيقة، ثم أكملت، لقد أخبرتها بما صدر منك وادعائك بملاحقتها لك.

فأمسكتها مرة أخرى وشددت بقبضتي على ذراعها وقلت لها:

- سوف تحادثينها الآن وتخبريها أن الموضوع مجرد دعابة.

دفعتني بقوة وهي تقول بتحدٍّ: كلا لن أفعل.

فقلت لها وأنا أضغط على أسناني: إن لم تحادثيها بالحسنة سوف أجبرك على ذلك أيتها السافلة.

ورفعت كفها محاولة صفعي، فأمسكتها من معصمها وصفعتها بقوة عدة مرات ثم سحبتها من شعرها ورميتها على السرير وأطرقت أفكر في إيجاد حلٍ لهذه المصيبة التي لم تكن بالحسبان، وهممت أتحرك في الغرفة بجنون ثم رفعت هاتفي وأدرت رقم أحمد ولكنه لم يقم بالرد عليّ... عدت إلى التفكير، جلست بالقرب من أحلام وقلت لها برجاء:

- أرجوك يا أحلام حادثيها فقط ولك ما ترغبين به.

فقالت وهي تصرخ: كلا لن أفعل... أرفض أن يتم التلاعب بي بهذه الطريقة.

لم أتمالك نفسي فصفعتها مرة أخرى وأمسكتها من ذراعيها وصرخت بها قائلاً: سوف تقولين لها ما أرغب به وإلا.....

تركتها ثم نكست برأسي وأسقطته بين يدي وعدت إلى تفكيري.

فأتاني صوتها الباكي متسائلاً: إذا كنت تحبها إلى هذه الدرجة لماذا تخونها إذن؟

فقلت لها وأنا هائم بالبحث عن حل: هذا ليس من شأنك.

فجأة رفعت رأسي ونظرت إليها بتحدٍ: إن لم تحادثيها سأقوم بالاتصال بوالدك وأطلعه على مكانك.

نظرت إلي بدهشة ثم رفعت يدها ومسحت دموعها المنهمرة على وجهها وقالت: حسناً سوف أخبرها بما ترغب، لكن اعلم أن علاقتنا سوف تنتهي فوراً.

لم أفكر طويلاً، مددت لها الهاتف خوفاً من تغييرها لرأيها: حسناً.

نظرت إلي بلومٍ ثم أدارت رقم ناهد، وعندما أتاها الصوت قالت:

- أنا صاحبة أحد رفاق فيصل، وأردتُ المزاح معك قليلاً وصمتت للحظات ثم أكملت:كلا، إن فيصل غير موجود، لقد ذهب إلى دورة المياه وترك هاتفه هنا.. سكتت مرة أخرى ثم أغلقت الهاتف وسلمتني إياه وهي تقول:

- هل هذه الفتاة نفسها التي كنت تزعم أنها تخونك؟ تجاهلتها ولم أجبها، ففكري مشغول بما سوف أقوله لناهد... انتهت علاقتي بأحلام في تلك الليلة؛ فضلت تركها على أن تهجرني ناهد.

في اليوم التالي ذهبتُ إلى ناهد وحاولت أن أبدو كمن لا يعلم شيئاً عما حدث، جلست بالقرب مني تطيل النظر إلي ثم قالت بثقة: أين كنت بالأمس؟

فقلت لها بتذمر: كنت في أحد المطاعم.

- ولماذا تركت هاتفك عندما ذهبت إلى دورة المياه.

فقلت لها باللهجة نفسها: غافلني النسيان.

فقالت وفي عينيها يتلألأ الشك: ومنذ متى تنسى هاتفك؟

فأجبتها بغضب: لقد نسيته، ما هذا، هل أنا في لجنة تحقيق؟

فقالت وهي تتجاهل النظر إلي: كلا، لست في لجنة تحقيق وصمتت، لكنني كنت على يقين من أنها لم تقتنع بالحكاية لكنها قررت التلاعب بي وعدم المجادلة في هذا الموضوع، واكتفت برسم ابتسامة تثبت إدراكها للحقيقة.

أعترف بحبي للنساء ومطاردتهنَّ بنظراتي وتشوقي لخوض علاقة جديدة لكنني كنت أعود دوماً إليها؛ إن النحلة عندما تتنقل من زهرة إلى أخرى لا بد أن تعود يوماً إلى الخلية، وأنا كنت أتشوق للعودة

إليها... أحب تذوق الحب من غيرها، لكنني لم أهملها يوماً، كنت أدلّلها بالهدايا وأضع لها مبلغاً وفيراً من المال أليس ذلك بكافٍ لها، إذن لماذا تتذمر دوماً؟ لماذا لا يعجبها أي شي؟ وتلقي اللوم عليّ، لماذا هذا الحزن الذي يشع من عينيها؟ لماذا هذا الصدود عني؟ أرفض أن يطلق عليّ رجل خائن... من حقي الزواج من أربع، فالرجل لا يكتفي بواحده أبداً.

ونعود إلى آخر فتاة مرت في حياتي كعابر سبيل وكادت أن تستقر في قلبي بسبب تنحي ناهد عن عرشها، وربما هي الفتاة التي استمر وجودها طويلاً معي، إنها منافسة ناهد الوحيدة.

سعاد عارضة أزياء تقارب ناهد في السن، طويلة للغاية وعيناها وشعرها كدجى الليل، كانت باهرة الجمال، ذكية وقوية الشخصية، وتحب المال حباً جماً بل إنها تتجرأ وتخبرني بذلك من دون الاهتمام بوقع ذلك على مشاعري، لم تكن تنافس ناهد في الاستيلاء على قلبي لكنها تنافسها في الاستيلاء على جيبي.

كانت تعلم بعلاقتي مع ناهد، لكنها لم تهتم أو تبدي استياءها، التقيت بها أول مرة في إحدى الحانات، كنت جالساً على طاولة البار واضعاً ذراعي على المنضدة، أسند بها رأسي وأفكر بناهد وتصرفاتها معي ثم استدرتُ أفتش في الوجوه المحيطة بي فوقعت عيني عليها، كانت تشع كنجمة في سماء مظلمة وترتدي فستاناً أحمر اللون قصيراً جداً ومفتوحاً عند رقبتها حتى بطنها ويظهر ثناياها ولا يكاد يغطي شيئاً، وعندما دخل أحمد حياها ثم أتى وجلس بقربي وقال:

- ما رأيك بسعاد؟

أجبته وأنا أرتشف من الكأس: من سعاد؟؟

- هذه الفتاة التي حييتها للتو، التي ترتدي الفستان الأحمر.

فأدرت رأسي ونظرت إليها ثم لويت شفتي وقلت له: جيدة.

أدار أحمد كرسيه وأسند ظهره إلى المنضدة وباعد ما بين ساقيه وقال: ألا تذكرها، لقد كانت في حفلة عمر التي ذهبنا إليها منذ مدة.

-لا أذكرها.

- كنت متأكداً من ذلك فأنت لم تكن تنظر لأحد في الحفلة... لقد استولت ناهد على كل نظراتك.

ابتسمت ابتسامة صغيرة ورفعت الكأس مرة أخرى إلى فمي أتجرع السم.

ثم أكمل أحمد: إن سعاد تسألني دوماً عنك.

- حقاً؟

- نعم، يبدو أنها مهتمة بك.

كنت على علم بنوع سعاد، إنها فتاة صيادة، تصطاد الرجال الأثرياء فأطلقت ضحكة وأنا أقول له: لماذا لا تدعوها للجلوس معنا؟

- حسناً واستدعاها أحمد فأتت ورائحة عطرها تسبقها، ومدت يدها مصافحة لي ونهض أحمد من على كرسيه وجعلها تجلس بالقرب مني، ثم قال: سوف أذهب إلى الخارج لأحادث خطيبتي وأعود، فأشرت من رأسي بحركة تدل على الموافقة.

ثم قالت لي سعاد وهي تضع كأسها على المنضدة: أين ناهد... لا أشاهدها معك؟

فقلت لها ببرود ومن دون النظر إليها: إنها في الشقة.

- ولماذا؟ هل تشاجرتما من جديد؟

فقلت لها بلهجة جافة: هذا ليس من شأنك.

فأطلقت ضحكة ثم قالت: حسناً أعتذر، لن أتجاوز حدود قلبك، لكن ما يحيرني هو هذا الحزن الذي يزحف على ملامح وجهك؟

- أنتِ تتوهمين؟

- ملامح وجهك تظهر انكسارك.

فرفعت الكأس وسكبتُ كل ما به في جوفي ثم قلت لها: أنا رجل لا يهزني الحب.

فابتسمت وهي تقول: إن الحب لا يفرق بين الرجال والنساء، إنه كالموت يأتيك بلا إنذار، كالإيدز لا علاج له وأدارت رأسها تتفقد ما حولها ثم أكملت لماذا لا نخرج من هنا؟

- وأين سوف نذهب؟

- إلى مسكني، يوجد لديّ كل أنواع الشراب، إنه أفضل من هذا الجو الخانق.

- وأين تقيمين؟

- في وسط المدينة في شارع المملكة.

- حسناً هيا بنا، ورفعتُ يدي إلى النادل أشير عليه بإحضار الحساب، بعدها خرجتُ أتبعها وكان أحمد واقفاً في الردهة فلوّحتُ له مودعاً.

اتجهنا نحو مسكنها وصعدت معها إلى شقتها، كانت شقة على الطراز الحديث، فهي ذات غرفة واحدة وغرفة معيشة ومطبخ أميركي الطراز، كان أثاثها باللونين الأبيض والأسود، وقد وضعت فوقه بعض الفراء الأبيض المنقّط بالأسود، وبعض القطع السوداء والبيضاء على الأرائك والسيراميك وزيّنت المكان ببعض اللوحات والحيوانات المحنّطة بالإضافة إلى الستائر المصنوعة من الخرز... أشعلت بعض الشموع ثم ضحكت وهي تقول:

- أنا أفضل الجلوس على ضوء الشموع، وأكملت لي وهي تشير على الأريكة: تفضّل وارتميت عليها وفككت أزرار القميص العلوية واتجهت هي ناحية إحدى الخزائن ثم عادت وهي تحمل كأسين وزجاجة نبيذ ووضعتهم على الطاولة.

وقالت: أتحب أن أجلب لك بعض مكعبات الثلج؟

فقلت لها: كلا أنا أفضل أن أشربه هكذا مراً كحياتي.

فجلست بجانبي وثنت قدمها، وقامت بصب كأس لي وأخرى لها وقالت: في صحة الحب.

فرفعت كأسي وأنا أقول: في صحة الخيانة.

بعد مرور بعض الوقت نظرتُ إلى ساعتي التي كانت تقارب الساعة الواحدة والنصف فحاولت النهوض فقالت لي: إلى أين؟

- تأخر الوقت وأرغب بالانصراف.

فاقتربت مني ووضعت يدها على صدري وقالت بدلال:

- لماذا لا تنام هنا الليلة؟

نظرت إليها وخيل لي أنني أشاهد ناهد:

- كلا، لا أستطيع.

فقربت شفتها من شفتي وقالت: لماذا ألا أعجبك؟

فأدرت وجهي نحو الجهة الأخرى واعتدلتُ في جلستي:

- تعجبينني لكنني مرهق.

فقالت بحزن:

- إذن، دعني أطلب لك سيارة أجرة.

- كلا أستطيع القيادة، حملتُ هاتفي ومحفظتي الموجودين فوق سطح الطاولة ثم فتحت المحفظة وأخرجت بعض الأوراق النقدية ووضعتها على الطاولة:

- سررت جداً بلقائك يا ناهد ثم تداركت نفسي وقلت أعني يا سعاد.

انصرفت، لكنني لم أعد إلى المنزل بل توجهت إلى ناهد ووجدتها نائمة على الأريكة، فاقتربت وجلست بالقرب منها وانحنيت عليها أقبلها ففتحت عينيها ودفعتني بعنفٍ كالمعتاد:

- لماذا أتيت؟

فقلت لها بتذمّر وأنا أعتدل في جلستي: لماذا هل وجودي يضايقك؟ ألم يعد مرحباً بي هنا؟

فنهضت ناهد وقالت وهي تشتم ملابسي: أثملاً أنت؟

- كلا، وانحنيت عليها وأنا أقول بلسانٍ مثقل من الخمر:

- أنا ثملٌ في حبك فقط، وأطلقت ضحكات عالية ثم حاولت تقبيلها فدفعتني بقوة ونهضت من على الأريكة... نظرت لي باشمئزاز وقالت بسخرية وهي تتجه نحو غرفتها:

- هل أكملت سهرتك مع حبيبة قلبك؟

- أيُّ حبيبة يا مجنونة؟

توقفت واستدارت ناحيتي وقالت: ماذا... أتظن أني مغفلة؟ ثم نظرت إلى علاقة المفاتيح الخاصة بي وحملتها في يدها وأكملت:

- أرجوك لا تزعجني ولا تأتي للنوم في غرفتي.

واتجهت ناحية غرفتها وتركت الباب مفتوحاً فتبعتها وأنا أصطدم بقطع الأثاث... وجدتها تمددت على الفراش فاستلقيت بجانبها وأنا أقول: أرجوك يا ناهد أنا مرهق لا تتشاجري معي، ونمت بجانبها قرير العين.

استيقظت في اليوم التالي وأنا تعب وأعاني من آثار الخمر، وبعد مرور بعض الوقت جلستُ في غرفة الجلوس أتابع إحدى مباريات كرة القدم. وأثناء ذلك تناهي إلى مسمعي صوت رنين الجرس لكنني تجاهلته لدقائق بسبب تركيزي في المباراة، ثم اتجهت ناحية الباب وفتحته ولم أجد أحداً فنظرت إلى الأسفل فكانت هناك باقة ورود قلبتها بين يدي لكنني لم أعثر على أي خيط يقودني إلى مرسلها.

فاستدعيتها لأسألها عن سبب وجود شخص يضع باقة من الورود أمام باب مسكنها... أتت إلي وهي تنظر إليّ بسأم ثم أجابتني بطريقة استفزازية، ولم تكتفِ بذلك بل قللت من احترامي، فصفعتها واندفعت خارجاً... قدت مركبتي وأنا أشتعل غيظاً.

هل هي فرحة بسبب باقة الورود التي كانت تصلها؟ ألا تعلم أنه بإمكاني شراء محل من الزهور بأكمله لو شاءت، وكيف تتجرأ وتحادثني بهذه الطريقة؟ إنها تستحق تلك الصفعات التي تركت علامة على وجهها.

***

وبعد عدة أيام ذهبت إليها فوجدتها نائمة فانحنيت عليها أقبلها، كانت فرحة بعودتي وربما أدركت خطأها، وخرجنا من الشقة واتجهنا إلى أحد المطاعم الفخمة لملاقاة بعض الرفاق المهمين، وأثناء حديثي وجدتها تنظر إليّ بغضب وكأنها توشك على الانفجار، ثم نهضت واندفعت إلى الخارج، لكنها، وقبل خروجها، استدارت مواجهة لي ووجهت بعض الكلام الحقير ثم هربت، لقد تعمدت إحراجي أمام الجميع فاعتذرت لأصحابي وحاول أحمد تهدئتي لكنني لم أستطع المكوث في المكان واعتذرتُ عن تكملة العشاء وانصرفت أبحث عنها، اتجهت إلى مسكنها ولم أجدها... انتظرتها لساعات، يا ترى أين ذهبت هذه الحقيرة؟ بعد مرور بعض اللحظات خرجت من مسكنها واتجهت إلى شقة سعاد ففتحت لي الباب وأطلقت صرخة تدل على الفرح ثم كتمتها وقالت: أين كنت؟ لماذا لم تهاتفني؟

فقلت لها وأنا أخطو نحو الداخل: إنني مرهق سوف أنام الليلة هنا.

- أتناولت عشاءك؟

- نعم، أرغب بتجرع بعض الخمر كي يفقدني ذاكرتي فأنسى الهم.

- لماذا، ما الذي حدث؟

- ناهد الحقيرة قللت من احترامي أمام الجميع.

- وكيف ذلك؟

فسردت لها ما حدث فقالت: لن أدافع عنها لكن ألا تلاحظ أنك دوماً تهينها أمام الجميع.

- لأنها تستحق ذلك... أكرهها.

- إنك تكرهها لأنها جعلتك متيماً بها.

فقلت لها: أرجوك لا تزيدي من همي.

أمضيت الليلة مع سعاد أتذوق الحب منها ولم أشعر بشيء كأنني أؤدي واجباً فرض عليّ كرجل، وفي اليوم التالي ذهبت إلى ناهد وكدت أن أحطم الباب، وما أن شاهدتها حتى انهلت ضرباً عليها فاصطدمت عيني بعينيها، ووجدت بهما اللوم والعتاب كأنها تحادثني بهما وتقول لي أتضربني وأنا التي أمنتك على حياتي وأبحرت معك نحو المجهول، فتراخت قبضتي أمام نظراتها وجلست أفكر ما الحل يا ترى؟ فضربها لا يسعدني وإيلامها يقتلني، لماذا لا أستطيع التعبير لها بالكلمات عما يجول في قلبي؟ لماذا أضطر لاستخدام وسيلة الضرب معها؟ ربما يؤلمها ضربي لكنه يؤلمني أنا أكثر وهي لا تدرك ذلك.

انهالت دموعها لتزيد من ألمي وتزيد من كرهي لنفسي واحتقاري لذاتي، إنني تعيس بسبب عدم استطاعتي التعبير عن تعاستي؛ إن دموعها كالسكين تقطع قلبي، فهربت منها وعدت إلى سعاد التي طلبت مني إيصالها إلى منزل صديقتها، وأثناء خروجي معها كنت فرحاً بها وأستمع إلى بعض حكاياتها الطريفة، فقالت لي فجأة: أليست هذه ناهد، فنظرت من خلال مرآة السيارة الأمامية وصدمت... كانت ناهد تتبع السيارة بعينيها وسيطر عليّ التوتر وانتابتني الهواجس والشكوك، يا ترى ماذا سوف تفعل الآن، هل سوف تنفذ وعودها وتهجرني إلى الأبد؟ وشلني الخوف وأعجزني عن الإقدام على أي خطوة أو حتى الاتصال بها فقالت لي سعاد:

- أتركها لعدة أيام حتى تهدأ، ثم إذهب إليها حيث سيسهل عليك مواجهتها، وتكون هي في الوقت نفسه قلّبت الأفكار على مهل وأعطت الموضوع حقه.

وبالفعل بعد مرور الأيام وضعت قناع الجدية وعرجت على شقتها، كانت جالسة على المقعد الهزاز، وقد رفعت فستانها البسيط فوق ركبتيها وتركته يكشف عن ساقيها بطريقة مثيرة، وتركت شعرها منسدلاً وانحنت على إحدى المجلات تقرأها.

ألقيت عليها التحية وجلستُ بالقرب منها فنظرت إلي ببرود ثم عادت لقراءة المجلة؛ إنها تعلم بخيانتي لها لكنها هادئة على غير المعتاد وهدوؤها يقتلني بل يستفزني؛ ومضت اللحظات صعبة.. آه كم كنت أرغب، وبشدة في ذلك الوقت، أن أشاهد دموعها وأن ألمح غيرتها واندفاعها كالمجنونة إلي لتغرس أظفارها في جسدي وتبكي وتصرخ وتلطم وجهها وتندب حظها وتصرخ بي أنت خائن.. خائن، لكنها تجاهلتني تماماً، ولم تنبس بكلمة بل ظلت صامتة ولم تعرني أي اهتمام؛ حاولت استفزازها ودفعها إلى الحديث فسألتها قائلاً:

- ماذا فعلتِ خلال غيابي؟ لم تجبني ولم تهتم، لقد حاولت أن أجرحها بخيانتي لها فقتلتني بتجاهلها لي.

ومضت الأيام وهي تتجاهلني، حاولت بكل الطرق إشعال نار الغيرة وترك بعض الخيوط لتقوم بتجميعها وإحداث مشكلة كبيرة، لكنها ظلت صامدة، مزمومة الشفتين كأنهما قد تلاصقتا بسبب مرور زمن طويل على آخر مرة تحدثت فيها؛ كانت بشرتها صفراء تجعلني أشك أنها عصرت دمها الذي يحمل حبي وغدت امرأة بلا دم أو إحساس، ونظراتها اللئيمة توجه إليّ رسالة كالسهم تستقر في قلبي وهي أنك لم تعد تهمني، آه كم أن النساء قادرات على التجاهل.

كانت في الماضي تشكو عدم خروجي معها للتنزه، وفي الواقع أنا رجلٌ كثير الانشغال لا أملك الوقت الكافي لهذا الهراء.. إنني

أمتلك عدة شركات وأدير أعمال والدي فلا أستطيع إهمال أعمالي لأصطحبها إلى السوق أو السينما مثلاً، إنني أعطيها من المال ما يكفيها كي تسلي نفسها بنفسها، أما بالنسبة لرفيقاتها فأنا أرفض أن ترافق هؤلاء الساقطات، المنحطات فأنا أخشى أن يغسلن دماغها فتتشجع على تركي، ناهد حبيبتي ملكي أنا فقط، إنها ملكي وحدي، والآن أصبحتُ الاحظ أنها تعاندني كثيراً وترفض كل طلباتي حتى إنها أصبحت ترفض الاستسلام لي وما عادت تهتم بهداياي، وكأنها ملت مني وأمضت تحرجني أمام الجميع.

إنها غير مبالية بي، تلعب بهاتفها المتحرك وتضحك وأنا أموت بغيظي؛ إنها تهمل وجودي بجانبها... حاولت إقناعها بالسفر معي لكنها رفضت بل إنها فرحت بغيابي عنها، حتى اتصل بي أحد أصحابي وأخبرني بأنه رآها مع أحد الشباب.. تركت عملي وعدتُ إلى الوطن، انتظرتها ساعات طويلة في شقتها لأراها تعود في الساعات الأولى من الفجر ورائحة الثمالة تفوح منها، ففجرت غضبي عليها، ضربتها حتى سقطت أرضاً ولم تعد قادرة على الوقوف.. كانت تبكي بحالة هستيرية ثم ارتجفت أطرافها وبدأت تصرخ كأن هنالك مسّاً أصابها حتى هدأ جسدها ودخلت في سبات.

اقتربت منها وأحطتها بذراعي ورفعتها عن الأرض الباردة وخبأتها في حجري وجعلت أصابعي تمسح على خصلات شعرها برفق، وأحنيت رأسي أقبل جبينها فداعبتني رائحته، رائحة الرجل الآخر وتراءت أمام عيني المشاهد، أتختبئ بين ذراعيه عندما تخاف؟ أيحيطها بحنان كما أفعل؟ أيجعل قلبه يهمس لها بكلام الحب؟ أيطبع على مكان قبلتي قبلة فيزيل ذكراي؟ وتسابقت دموعي لتخرج من محجر عيني، وأحسست بحرارتها وهي تلامس بشرتي، كانت دموعي تتسابق لتخبرها بما سببته لي من ألم عندما جعلتني أتذوق طعم الخيانة، لقد بكيت ضعفاً عندما تخيلتها تنام في حجر رجلٍ غيري.

عندما نهضت، ورأت لحظة ضعفي تملكتها قوة خارقة فصرخت في وجهي ودفعتني خارجاً، رمتني ولم تهتم بي، هل نمت في تلك الليلة؟

كلا لم يغفُ لي جفن، لقد رفض النوم إراحتي، كيف استطاعت هذه المتعجرفة محادثتي بهذه اللهجة وتهديدي برميي خارج الشقة التي أقوم أنا بدفع إيجارها؟ أعطيتها كل شيء.. كل ما أرادته، وفعلت لها المستحيل كي تكون سعيدة، اعتنيت بها، غيّرت مجرى حياتها ورفعت من شأنها لكنها جاحدة وناكرة جميل.. خانتني نعم خانتني لكن هل من تخونني معه يفعل لها ما فعلت أنا لأجلها؟ أو حتى ربع ما فعلته، هل يضحي لأجلها؟ إنها وللأسف لا تفهم الشباب، إنهم عابثون فما أن ينال منها ما يريده فسوف يرميها في الشارع. نهضت باكراً وذهبت إلى العمل، كنت أسير مسرع الخطوات بين الممرات، لشعوري بإدراك الجميع بضعفي، وأني لست برجل، أنا فتاة تبكي على خيانة محبوبها؛ فالجميع يعلم أني حنان.

لكنني لا أزال أتساءل: أتحبينه، أتضحكينه بحكاياتك المرحة... أتجعلينه يسكن في ذكرياتك... أتنظرين إليه بالنظرة نفسها التي ألمحها في عينيك عندما أثير إعجابك، فقط اقتليني بجوابك... كي لا أحيا في الأوهام... أجيبيني فقط... جاوبيني... أتحبينه... أتحبينه؟

***

(18)

لأجمع أشلاءك

يا شوقي الذي كلما هربتُ منه وابتعدت عنه أجبرني على العودة، لقد احتلت قسوة الجفاف قلبي لسنوات حتى سقطت قطرة واحدة من طعم مختلف ألا وهو طعم الحب فتمسكت بها جذوري الجافة، كان الحب هو أملي لأرتوي وتنبت أغصاني، كنت أعيش ككائنٍ غريب يأكل ويشرب ويمارس الحب وينام، أما في النهار فهو يحتال ويكذب ويدوس كل من يقف في طريقه للوصول إلى ما يريده.. لم أكن إنساناً، ولم أعرف معنى الإنسانية إلا عندما حاربتني هي بسيف العشق فسقطت كجندي في ساحة المعركة مذلولاً وحاني الرأس، فيأسره العدو ويقيده بقيود الحب وما أسوأها من قيود.

يا ناهد يا عطر الحب، يا بلسم الجروح، يا حبّاً فظ قلبي البكر، يا شعاع الشمس لا تتركيني أرجوك، عودي إلي وأعاهدك أمام الجميع، أمام من يستمع إلى اعترافاتي، وأصرخ بها لتسمعني السماوات والأرض ولتسمعني كل المخلوقات والجبال والبحار، حتى الجماد، أعاهدك بانسلاخي عن كياني المشبع بالقسوة وعدم المساس بك، أعاهدكِ الرّفق بإحساسك المرهف كي تعودي كما كنتِ، إني على استعداد للتخلّي عن كل شيء لأحيا بقربك لبعض ثوانٍ، أفديك بسنوات عمري، وأقدم حياتي لك قرباناً، ولو نزفت دماً لوجدت اسمك انكتب بهذا الدم... إن قلبي ينبض بسبب وجودك في هذا

العالم، تريدينني أن أخبر الكون بحبي لكِ، تعالي إذن لأهمس في إذنك، فأنتِ بالنسبة لي الكون بأكمله.

إن قلبي يحتضر، فأرجوك أسعفيه بكلمة واحدة، قولي أحبك، أخبريني بها حتى لو كذبت عليَّ، اعتبريني مريضاً أو مهووساً فقد الأمل في الحياة فارفقي بحالي وأمديني بالأمل، عالجي قلبي بكلمة أحبك.

وأعود إلى الماضي وأذكر أنها عادت إليّ على الرغم من علمي أنها لم تتركه؛ ربما كانت تعتقد أني مغفل لكنني خضعت لها مجبراً، إن حبها أقوى من كبريائي لنفسي، عدت إليها لأني أعتبرها كالوطن، لا أرتاح إلا بين أحضانه، عدت إليها وجروحي تنزف.

ما هو أسوأ شعور يحتل قلب رجل يعلم أن معشوقته تنام في أحضان غيره؟

ما هو أسوأ من رجل يشاهد بصمات رجل آخر على جسد حبيبته؟ إن شفتيها موشومتان بآثار قبلاته... إن رائحته تخرج من مسامات جلدكِ.

في ذكراك يا ناهد همس القلب قائلاً: قبلات مرت على شفتي فاعتبرتهما كنزاً وفرحت بهما فرحة المبصر بعدما كان أعمى، ولم أكن أعلم حتى اليوم أن شفتيك كماء السبيل؛ فكل من يهب ويدب قد استسقى منهما.

لكني أنا فيصل، أنا رجل ولستُ فتاة، وإذا لم يتركها من نفسه سوف أجعله يندم لسنوات.. من يجرؤ على سرقة قلبي مني، من يجرؤ على سلبي نور عيني، الويل لك يا من تجرأت وتطاولت على أملاك غيرك، الويل لك يا نزار، أيها الطفل المدلل، سأعلمك من أنا وما هي قدرتي، لقد أشعلت في قلبي النار وحان الوقت لأحرقك بها، أتعصف بمركب حبي وتحاول إغراقه، أتبث سمك وأكاذيبك في أذن محبوبتي لتنتشلها مني.

كرجل منتقم أدرك دوماً كيف السبيل للانتقام من أعدائي وما هو الأسلوب المتبع، أبحث عن أغلى ما لديه وأسحقه بلا رحمة وأجعله يموت غيضاً وهو يرى أحب شيء لديه وقد دُمِّر، لكن أيحبها حقاً؟ إذا كانت ناهد هي من يحبها فأنا من سيحترق قلبي إذا مسها سوء.

وأنا في غمرة تفكيري في البحث عمّا يحبه نزار لأدمره فجأة رنّ هاتفي فإذا هي ناهد.. كانت تتحدث بطريقة هستيرية، ولم أستوعب ما تقوله، قدت سيارتي بسرعة إلى مسكنها وعندما دخلت وجدتها جالسة على الأرض تبكي وقد قطعت خصلات شعرها بالمقص، أفزعني منظرها وتصورت أن هناك أحداً قد توفي من أفراد عائلتها، ثم اندفعت فجأة إلى المطبخ واستلت سكيناً وحاولت قطع شرايينها، فأمسكتها بقوة واحتضنتها وهي تقاومني، وما لبثت أن استسلمت وبكت بألم وصرخت وهي تقول: نزار متزوج، وعندما سمعت اسمه أحسست بالألم يقطع قلبي ليمزق هذا القلب المجروح أكثر فأكثر، أهذا سبب حزنك يا محبوبتي، أتبكين على رجلٍ آخر وأنتِ بين أحضاني.

هاجمتها النوبة وأنا متسمر في مكاني عاجز عن فعل أي شيء، وأشاهد كيف تحولت إلى أشلاء امرأة، ومضى الليل وأنا بقربها حتى اطمئنّ عدم تكرارها لمحاولة الانتحار، وأهملت عملي لأجلها، وعندما استقرت حالتها عدت إلى منزلي.

وبعد مرور عدة أيام هاتفتني الخادمة وأخبرتني أن ناهد ثملة وتتصرف بتهور، فذهبت إليها مسرعاً، فوجدت الخادمة تبكي بتوتر وتشير بإصبعها إلى دورة المياه، فوجدتها هناك ملقاة على أرضية الحمام وقد نكست رأسها على المرحاض وأسندت ذراعيها إليه، وكان صدرها يرتفع ويهبط وهي تسعل تارة ثم تتقيأ؛ إنها في حالة انهيار، وهي تبكي وتموت من فرط حبها لنزار.. اقتربت منها محاولاً احتضانها فدفعت بيدي الممتدة إليها.. جلستُ بجانبها أنظر إليها، فقد

احمرّ وجهها وتبلل بالدموع، وكانت خصلات شعرها مبعثرة فوق وجهها وتنبعث منها رائحة القيء ثم أشارت لي بيدها ناحية منشفة معلقة، فنهضت لأحضرها لها وعادت للتقيؤ، فاقتربت منها بهدوء وربت على ظهرها برفق ثم رفعت رأسها وكانت تشهق محاولة التنفس، فدفنت وجهها في المنشفة ونظرت إليّ بعينيها المحمرتين وأسندت رأسها إلى ذراعي فأحطّها بالأخرى، وجعلت أصابعي داخل خصلات شعرها، فانهمرت دموعها ثم أصبح بكاؤها نشيجاً وانهارت قواها فوضعتها في البانيو وقمت بتحميمها وحملتها إلى مخدعها، فقالت لي بصوت مخنوق من فرط البكاء.. نزار آه....

وهنا أحسست بالخنجر المغروس يخترق قلبي أكثر فأكثر ويدميه، ثم قالت وهي تدفن رأسها في الوسادة إنه متزوج، وضربت بقبضتها على الفراش وبكت وهي تصرخ: إنه متزوج لقد خدعني؛ في تلك اللحظة كدت أن أبكي، آه كم أنَّ الحب يذل، إنني هنا بجانبها بسبب حبي لها وهي تبكي رجلاً آخر غيري، رجلاً سلب قلبها وحطمه، رجلاً حقيراً... إنها تبكي عدوي، احتضنتها حتى لا تشاهد دموعي التي انهمرت إشفاقاً على حالي، ألهذه الدرجة تهينينني يا ناهد ولا أزال متمسكاً بك؟ فأتاني صوت والدي يحاصرني، إنك فتاة، أنت حنان، فأغمضت عينيّ بقوة واعتصرت الدموع المتجمعة فيهما، وبكيت نعم أنا فتاة ولست برجل، فتاة تجري خلف عواطفها، هكذا يشعرني حبك يا ناهد؟ يجعلني أشعر بالمذلة، وكلما ازددتِ جفاء لي ازددت حباً لك... خبأتها بين ذراعي طوال الليل محاولاً إخراجها من العاصفة التي تمر عليها وتنزع كل ما بها من سعادة.

أدمنت ناهد على تناول الكحول؛ وجدتها ذات يوم مغمىً عليها من الثمالة فاضطررت لنقلها إلى المستشفى، وبعد بعض الفحوصات أخبرني الدكتور أن نسبة الكحول في دمها عالية جداً.. وبالطبع لم أتركها وحدها في غرفة العلاج على الرغم من أني كنت مرهقاً لدرجة

استسلامي للنوم على الكرسي، ولم أكترث لعملي ولا للاجتماعات المهمة فهي بالنسبة لي أهم، كنت أطعمها وأحممها وأجبرها على تناول الدواء وأخذتها إلى أفضل الأطباء محاولاً علاجها من إدمانها للخمر، حاولت رسم الابتسامة على محياها وإعادتها كما كانت، لكنها لم تعد ناهد القديمة التي عهدتها بحيويتها وجاذبيتها، لقد ماتت فيها الحياة، لم أنسَ ما فعله الحقير نزار بها.. وبالطبع قررت الانتقام منه.

كان نزار يلاحقها ويعمل على استرجاعها، فقررت وضع حد لمطارداته، وأوكلت إلى أحد أصحابي مراقبة أصدقاء نزار والبحث عن الحلقة الأضعف بينهم حتى وجدنا ضالتنا المنشودة في عمر زميل نزار في الجامعة، وكان هذا الأخير غارقاً في الديون بسبب إدمانه على تعاطي المخدرات فاستدعيته إلى مكتبي وحضر برفقة أحمد والارتباك بادٍ عليه فقلت له وأنا أمد يدي مصافحاً:

- مرحباً بك تفضل بالجلوس وأشرت له على المقعد المقابل لي، جلس عمر وعلى ملامحه يبدو التوتر والقلق، ونظراته تتنقل بيني وبين أحمد وقال:

- في الحقيقة لم أتشرف بمعرفتك عن قرب من قبل لكنني، بلا ريب، سمعت الكثير عنك واستغربت من طلبك الغريب في لقائي.

فقلت له وأنا أعتدل في جلستي:

- عمر أترغب بسيجارة، وأشرت لأحمد بإصبعي إلى علبة السجائر، ففتح هذا الأخير علبة من السجائر وقدمها له فقال وهو يرفع يده: لا، شكراً.

فضحكت قائلاً: للأسف، لا أملك سيجارة الحشيش التي تحبها.

فجحظت عيناه من الدهشة فأكملت حديثي:

- أتعتقد بجهلي بإدمانك للمخدرات.

فابتسمت وأنا أنظر لأحمد وقلت له وأنا أعبث بقلمي:

- عمر أنا على علم بمشاكلك المالية وتبديدك ثروة والدك في تعاطيك للمخدرات وأرغب بمساعدتك.

- وما السبب الذي يجعلك ترغب بمساعدتي؟؟

- لأنك شاب في مقتبل العمر، ومن المؤسف أن يضيع شبابك في السجن.

وصمتُّ للحظات أتفرس ملامح وجهه ثم قلت له بجدية:

- عمر سوف أدفع لك ربع مليون دولار.

فقال بشك: وما هو المقابل.

- لا شيء، خدمة صغيرة جداً فقط.

- وما هي؟

- نزار.

فرفع رأسه وقال لي بنظرة شك:

- ماذا به؟

ابتسمت وقلت له: أنت تعلم في هذا الزمن أنَّ كل شيء تحصل عليه بالمقابل، المقابل يا عمر أمر بسيط للغاية.

- لكنني لا أملك شيئاً حتى تطمع فيه، ونزار صديقي ولا يمكنني المساس به.

- بل تملك الكثير يا عمر، كل ما أطلبه منك خدمة صغيرة للغاية وبعد تنفيذها سأدفع لك ربع مليون دولار أخرى.

- وما هي هذه الخدمة؟

- أسمعني يا عمر، أريدك أن تضع هذه القطعة بحقيبة نزار ورميتها على الطاولة.

ومد يده المرتعشة وأمسك بالقطعة وبحلق فيها بخوف وقال: مخدرات، آسف.. لا أستطيع أن أفعل ذلك بنزار.

- كل ما أطلبه منك أن تضعها داخل حقيبة سفره وتترك الباقي عليَّ، وأعدك أن لا يعلم أحد بالموضوع.

- لا.. لا أستطيع.. أنا آسف.

نهض وهم بالانصراف فقلت له بسرعة:

- عمر، سوف أدفع لك نصف مليون حالاً، وبعد تنفيذ العملية سوف أدفع لك نصف مليون آخرى ما رأيك؟؟

تسمر عمر في مكانه يفكر، فحاولت إغراءه أكثر:

- لا تقلق على صاحبك.. فوالده سوف يخرجه من هذه الورطة.

- إذن لماذا تريد المساس به؟

- حتى يبعده والده عن ناهد.

فاستدار مواجهاً لي وقال: هل تعدني بتخليص نزار من هذه المشكلة؟

- أعدك بعدم إصابة نزار بأي مكروه، فقط سوف يبعده والده عن ناهد.

- وإذا لم أوافق على الاشتراك معك في هذه العملية.

هنا قلت له بلهجة حادة: سوف أخبر أصحابي الذين يعملون في قسم المخدرات عنك وسوف أرميك في السجن حتى تتعفن.

فنظر إلي ثم قال: لكنك وعدتني عدم حدوث مكروه لنزار.

- نعم وعدتك.

- حسناً سوف أشترك معك.

- ومتى سوف تنفذها؟

- إن نزار مضطر للسفر إلى بلده بسبب ظروف عائلية.

- إذن يجب عليك تنفيذ الخطة بأسرع وقت.

وحان اليوم الموعود واتجه نزار إلى المطار حتى يسافر، وتأكدت من وجود المخدرات في حقيبته، وقمت بالإبلاغ عنه ليتعفن في السجن ويضيع شبابه مثلما قتل قلب محبوبتي وجرحها بإخفائه أمر زواجه وسرقتها مني.

هنا أتى إلي عمر وهو خائف ومنهار:

- لقد وعدتني يا فيصل.

فقلت له ببرود: أعلم لكنني أخلفت بوعدي.

- سأبلغ الشرطة أن المخدرات ليست ملك نزار وأنا من وضعها في حقيبته.

فقلت له باستهزاء:

- أمرٌ جميل قيامك بالتضحية لأجل صاحبك، أنا متأكد من تصديقهم لك، وأن المخدرات تخصك نظراً إلى سوابقك في تعاطي المخدرات ويتم سجنك بدلاً عنه.

- سأخبرهم أنك من قمت برشوتي كي أدس له المخدرات.

(وأطلقت ضحكات عالية ثم قلت): ومن سيصدق مدمناً مثلك، إسمعني يا عمر ليس لدي الوقت لتضييعه معك.. والآن هل تريد باقي المبلغ أم لا؟؟

سكت عمر ووضع رأسه بين ذراعيه وبكى. هنا ابتسمت وكتبت له شيكاً بباقي المبلغ ونهضت من مكاني وربت على كتفه، فنظر إلي، ومددت له يدي بالشيك فتردد للحظات ثم أخذه وأحنى رأسه وقلت له: لا تقلق على صاحبك سوف يخرج بعد سنوات، والآن تستطيع الوقوف على قدميك بهذا المبلغ.

وعندما هم بالخروج توقف واستدار لي وقال:

- لماذا فعلت ذلك؟؟

- حتى يتعلم صاحبك عدم الإقدام على تحدي كرة أخرى.

وكي أحرص على عدم وصول الخبر إلى ناهد أخذت إجازه طويلة وسافرنا إلى الولايات المتحدة الأميركية، وبالتحديد إلى ميامي، وحتى أجعلها ترفه عن نفسها، لكن جمال ميامي لم ينسها ذكراه فأخذتها إلى باريس لتتذكر أيام حبنا، فبكت عندما شاهدت العالم يحتفل بالحب وقلبها مجروح، هربت بها إلى كل عواصم العالم الجميلة وهربت هي مني إلى ذكراه الذي ينبض في قلبها، ماذا أفعل

لك يا ناهد لتنسيه؟ وبعد مرور الشهور عدنا إلى الوطن... وكانت الهمسات التي تدور حول موضوع سجن نزار قد تلاشت.

أصبحت أمضي مع ناهد المزيد من الوقت علها تقع في حبي مرة أخرى، كنت ألمح الندم في عينيها، لكن حبنا انتهى وغربت شمسه، ومهما حاولت إسعاف قلبها كان يموت أمامي كأنني في الصحراء ولا أملك إلا حفنة مياه بين يدي لأجد هذا الماء يتسرب من بين أصابعي فأركض كالمجنون يميناً وشمالاً، ولكن ليس لي إلّا الاستسلام لهذا المصير؛ هكذا تسرب حبها من بين يدي ولم أستطع فعل شيء.

***

أنتِ سبب السعادة وأنا سبب الأحزان، أنا من افتعلت البؤس وابتكرت الوسائل لتحقيقه وعشت بين سطور التعاسة، وأنتِ من جهدتِ لتغييري وإدخال البهجة إلى قلبي، أنا وأنت مختلفان متناقضان متضادان ويجمعنا الحب.

الحب الذي أخضعنا، الحب الذي رمى كل الأضداد ولم يكترث لها، الحب الذي وجدته يشع من عينيك؛ كنت شعاع الشمس، ما أن تدخلي إلى أي مكان إلا وتنيرينه وتجعلين الحياة تدب فيه، وهذا ما حدث لي؛ لقد دخلتِ إلى كهفي المظلم وأضأته بابتسامتك، وبلمسة من يديك أذبتِ الجليد الموجود فيه، لقد أحييتني فقتلتك.

أما الآن فأنتِ مجرد أشلاء، أشلاء لروح كانت تملأ الأرض بهجة وأنا الآن من سوف يجمع أشلاءك، سوف أكون القمر الذي يضيء لك الظلام الحالك، سوف أكون لك النار التي تدفئك من البرد، سأكون لك الماء الذي يسقيك، سأكون لك أباً وأماً وعائلة.

ومضت الأيام وحالة ناهد تزداد سوءاً، وأصبحت تمضي الكثير من الوقت لوحدها وتحدق خارج النافذة، تنظر إلى السماء بعينين

حزينتين وسجنت نفسها في قفص التعاسة.. لم تعد تبتسم أو تضحك أو حتى تأكل، لقد كانت امرأة مهزوزة، ضعيفة، يائسة تجلس ويبدو على ملامحها الانكسار، لم تعد قوية الشخصية كما اعتدت أن أراها، لقد ماتت ناهد القديمة وأنا من تسبب بموتها، والآن أحاول جاهداً إعادة ما سلبتهُ منها بحقارتي وعدم مبالاتي. لقد كانت النوبة تعاودها دوماً وعجز الأطباء عن اكتشاف سبب عضوي لها فاقترح عليّ أحدهم أن اصطحبها إلى دكتور نفسي وعرضت عليها الفكرة فصرخت في وجهي وقالت: هل تظن أنني مجنونة. وبعد بعض المناقشات استطعت أخيراً إقناعها بالذهاب إلى من تشاء من الأطباء النفسيين وأن لا تخبرني باسمه حتى تطمئن بعدم تجسسي على خصوصياتها، ولكن الفضول قتلني فأوصيت أحمد الاستفسار عن دكتورها الذي ذهبت إليه وكان يدعى حمدان؛ هذا الدكتور المفعم بالنشاط والذكاء وغرور الشباب. لقد وثقت بعلاجه لأنه إنسان متفهم وأفنى سنوات شبابه في الولايات المتحدة الأميركية، واكتسب كل مهاراته من الغرب، لذلك احترمت اختيارها له وتركتها تذهب إليه.

وبعد مرور الأسابيع، وأثناء جلوسي معها في أحد المطاعم كنا نتناول العشاء لوحدنا فقالت لي وهي ترفع الشوكة إلى فمها:

- إن الدكتور حمدان يستفزني.

- لماذا، ماذا فعل ليثير استفزازك؟

- إنه لا يعيرني أي اهتمام.

- وهل يضايقك هذا الشيء؟

- نعم، ويجعلني أتساءل عن السبب.

- إذا لم يكن يروق لكِ اذهبي إلى أي دكتور آخر، على الرغم من أن أحمد أشاد به وبطرق علاجه.

فقالت بحدة:

- هل أخبرت أحمد بعلاجي لدى دكتور نفسي؟

فأجبتها ببرود:

- ناهد حبيبتي، إن أحمد ذراعي الأيمن، هل نسيتِ أنه من يستلم فواتير الدكتور؟

- أووه حسناً.

وصمتت... وبعد مرور هذه السنوات أصابنا الخرس الزوجي على الرغم من أننا لم نكن متزوجين، لكننا لم نعد نجد مواضيع نتحدث بها.. فنكتفي بالصمت.

لقد حدث ما لم يكن بالحسبان، لقد عاد الماضي ليهاجمني؛ أثناء خروجي مع أحمد إلى إحدى الحانات وجدت صاحبي عدنان هناك فاقترب منا وألقى علينا التحية، وعندما رفعت عيني لأحدق بالفتاة التي معه لم تكن إلا ريم أخت خطيبتي السابقة، احتقن الدم في وجهي وارتعشت شفتاي وأنا أجد هذه المرأة التي كانت في يومٍ ما امرأة محترمة ومتزوجة قد غدت تتصرف كفتيات الليل وترتدي ملابس لا تستر شيئاً وتتجرع الخمر. نظرت إليّ وابتسمت بسخرية ومدت يدها تصافحني، تبادلت النظرات مع أحمد ثم تحدث عدنان بحسن نية: أين ناهد يا فيصل، لماذا لم نعد نشاهدها معك؟

فابتلعت ريقي وارتعشت شفتاي فنظر عدنان إلى ريم وقال:

- إن فيصل هذا الرجل القاسي يذوب في حب ناهد، إنه كالخاتم في إصبعها.

فابتسمت ابتسامة صغيرة وقلت له: كلا، الأمر ليس كذلك أنتَ تبالغ، إنني مستمرٌ معها بسبب سنوات العشرة.

وانتهت الليلة بسرعة، وريم ترسل نظراتها إليّ كالرسائل.. في اليوم التالي رن هاتفي فإذا بصوت نسائي:

- مرحباً فيصل ألم تشتق إلي؟

وقلت بجدية:

- من يتكلم؟

وأطلقت ضحكة مبتذلة ثم قالت: أنسيت صوتي؟ أنا ريم.

فقلت لها بضيق:

- أهلاً ريم.

- لماذا تضايقت؟

- وما الذي جعلك تتصورين ذلك؟

- إن نبرة صوتك توحي بذلك.

- ماذا تريدين؟

- أرغب في لقائك.

- ليس لدي وقت.

- حسناً سوف أذهب إلى شقة ناهد، أنا متأكدة من أنني سوف أجدك هناك، وأكملت بسخرية، شارع جمال عبد الناصر، مبنى 38 شقة رقم 1467.

فقاطعتها:

- هل تهددينني؟

- كلا إلا إذا كنت تعتبره كذلك.

- حسناً أين تريدين أن نلتقي.

- في مسكني، الساعة الرابعة، أيناسبك ذلك.

- حسناً أعطني العنوان.

كتبت عنوانها في ورقة ووضعتها في جيبي وخرجت من الشركة وتوجهت إلى ناهد.. ابتسمت وأنا أراها تصرخ في وجهي: ماذا تفعل هنا، لماذا أتيت؟

فأحطتها بذراعي وقبلت وجنتها:

- أتيت لأجلك يا حبيبتي لقد اشتقت إليك.

فلمحت شبح ابتسامة ثم دفعتني قائلة: أنا لم أشتق إليك، وسارت بدلال وجلست على المقعد.

كنت أعلم أنها كاذبة، فأنا على علم بأسلوبها وأترجم كل جملة

تقولها. إن النساء دوماً يرددن عكس ما يرغبن به، فلماذا أتيت إلى هنا، معناها مرحباً بك، ولم أشتق إليك، معناها أنني أموت شوقاً لكنها تتدلل وتكابر هكذا هن النساء.

وبعد أن تناولت الغداء معها قلت لها وأنا أتجه إلى غرفة النوم: أيقظيني على الساعة الرابعة.

أغمضت جفني وما هي لحظات حتى أتت الخادمة لتوقظني، فنهضت وأنا أتمطّأ، ونظرت إلى الساعة فكانت الرابعة والربع، أسرعت إلى الحمام ثم غيرت ملابسي، وتأكدت من وجود الورقة المكتوب عليها العنوان، وودعت ناهد وذهبت بحثاً عن مسكنها حتى وصلت إلى المبنى الذي تقطن فيه، وترددت للحظات فقد تملكني إحساس غريب أن تكون ناهد قد تبعتني، فأدرت راسي في كل الاتجاهات ثمّ نظرت نحو البناية مرة أخرى، وكان هناك بعض العيادات فاطمأن قلبي؛ فيمكنني الادعاء بذهابي إلى إحداها.. وقفت عند بابها متردداً، وكانت الساعة بلغت الخامسة والنصف فضغطت على الجرس وانتظرت لثوان قاتلة ثم هممت بالانصراف، وما إن استدرت حتى سمعت صوتاً رقيقاً يقول:

- تفضل يا فيصل.

دلفت بسرعة إلى الشقة، ولم أنظر إلى محتواها، ولم أدقق في تفاصيلها ووقفت خائفاً كمراهق يخوض أول تجاربه.

فقالت لي: ماذا بك؟ تفضل بالجلوس.

رميت جسدي على أول مقعد وقعت عيني عليه، وقلت لها وأنا أتنفس بصعوبة، وأحس بقلبي يدق بعنف كأنه يوشك على الانفجار:

- أخبريني الآن ماذا تريدين؟

فقالت لي وهي تجلس على حافة المقعد وتلصق جسدها بجسدي: ألم تشتق إلي؟

ومررت يدها بين خصلات شعري فأحسست بتيار يسري في عروقي فانتفضت واقفاً: هل أحضرتني إلى هنا لتخبريني بذلك؟

فنهضت وأحاطتني بذراعيها وأسندت رأسها إلى ذراعي:

- كلا لقد استدعيتك إلى هنا لأذكرك بماضيك.

فدفعتها عني وخطوت خطوة إلى الأمام: لم يكن بيننا شيء؟

- يبدو أن ناهد هذه شاطرة، لقد جعلتك تنساني بسرعة.

- وهل كنت أفكر بك لأنساك؟

- إذن كنت مجرد لعبة تتسلى بها،أو هل كنت تنتقم لوالدتك الساقطة، هل تظنني لم أكن أعلم بماضيها؟

استدرت رافعاً يدي وصفعتها بقوة.

فصرخت ووضعت كفها على صدغها... رفعت رأسها تنظر إلي بحزن... حدقت بها لدقائق، كانت ترتدي قميص نوم وردي اللون شفافاً من الحرير، وارتدت فوقه روباً من اللون ذاته، فلاحظت نظراتي، فاقتربت مني وقالت وهي تقرب شفتيها من شفتي: أنسيت طعم شفتي؟

فأدرت بوجهي عنها إلى الناحية الأخرى، فأمسكت بذقني وأدارته ولا يكاد يفصل بيننا سنتميتر... ضعفت أمامها واستسلمت لها، وما إن انتهينا حتى نهضت من جانبها فنظرت إليّ وقالت: ستغادر؟

- نعم لا أستطيع إضاعة الوقت، يجب عليّ الذهاب إلى الشركة.

ثم أدرت رأسي أتفقد المكان.. لم ألاحظ عند دخولي كم كانت الشقة قديمة وكم أنّ أثاثها متهالك، فسحبت محفظتي من جيبي وأخرجت بعض الأوراق النقدية من فئة المئة دولار ثم وضعتها على السرير، فرفعت عينيها تنظر إلي، وارتعشت شفتاها وقالت وهي على وشك البكاء: أهذا ثمني؟

فلم أجبها، وقبل مغادرتي الغرفة قلت لها: ريم، لا تعاودي الاتصال بي.

غادرت الغرفة وأنا أستمع إلى صوت بكائها، لكنها لم تكف عن مطاردتي وتهديدي بالكشف عن ماضيّ أمام ناهد... لم أهتم لتهديدها بل ازداد اهتمامي بناهد حتى أكذّب جميع شكوكها بأنني كلما خنتها تحسنت معاملتي لها بسبب شعوري بالذنب، حتى لاحظتُ أن معاملتها تغيرت معي بل إنها أصبحت تبدي اهتماماً بي.

وبعد عدة أيام ذهبت إلى ناهد فبكت أمامي وسقطت على الأرض وهي تشد شعرها كالمجنونة وتقول:

- لماذا تخونني يا فيصل لماذا؟

فرفعتها عن الأرض وقلت لها: حبيبتي ناهد أنتِ تتوهمين.

- لا لست أتوهم، لقد حادثتني عشيقتك وأخبرتني بكل شي.

- أي عشيقة، أنا لا أملك سواك في حياتي.

- حقاً، ومن هذه الفتاة التي حادثتني.

- أتملكين رقم هاتفها؟

- نعم ومدت يدها وأخذت هاتفها من على الطاولة وعبثت به قليلاً وجعلتني أراه.

فنظرت إلى الرقم الذي كان رقم ريم، وحاولت عدم إبداء دهشتي ثم تصنعت الغضب وقلت لها:

- إن هذه الفتاة تلاحقني.

فمسحت دموعها وابتسمت ابتسامة صغيرة وقالت: كنت أشك أنها كاذبة لأنني دوماً أثق بك.

- لا تكذبي، فلو كنتِ تثقين بي لما بكيت وتصرفتِ بطريقة درامية.

- أنا أثق بك، لكن كان يجب عليّ الاطمئنان.

- حسناً يا عزيزتي وماذا ترغبين أن أفعل؟

- أن تحادثها الآن من هاتفك وتجعلني أنصت إلى المكالمة.

نظرت طويلاً إليها وهي تحاول أن تنظر إلي ببراءة تخفي خلفها خبثها، فرفعت هاتفي واتصلت بريم، وعندما أجابت زأرت كالأسد... هددتها وتوعدتها أن لا تتجرأ وتهاتفني أو تقترب من حبيبتي ناهد مرة أخرى، وأن ناهد قد علمت بكل شيء (حتى لا تستمر بتهديدي).

وأغلقت الهاتف ونظرت إلى ناهد وقلت لها: هل صدقتني الآن؟

فنظرت إليّ ببرود: أجل.

لقد أصبحت ناهد أكثر هدوءاً بسبب ترددها المستمر على الدكتور ربما لأنها وجدت شخصاً يرشدها وينصحها حتى حدث ما لم يكن بالحسبان.. فأثناء وجودي في المكتب كنت أفكر فيها.. وأنا أطرق بالقلم على سطح الطاولة الزجاجي، تلقيت اتصالاً هاتفياً من الخادمة التي تعمل لدى ناهد، وأخبرتني أنها حاولت الانتحار وتم نقلها إلى المستشفى.

لم يكن هنالك داعٍ للبحث عن سبب محاولتها الانتحار، إنه دكتورها المجنون الذي تُعالج لديه... جلست لساعات في المستشفى أراقبها، وعندما نهضت عاتبتها على فعلتها؛ إنني لا أفهم سبب رغبتها في الانتحار، لماذا تحسسني بالذنب إلى هذه الدرجة؟ وتجعلني أكره نفسي وأعاتبها، لماذا يا ناهد لماذا؟؟

فنظرت إلي وهي تحمل رسالة واضحة في عينيها، أنت السبب، إنها تلومني حتى وهي صامتة.. وبعد أن أعدتها إلى مسكنها ذهبت إلى رأس المشكلة، واقتحمت مكتبه، وحاولت السكرتيرة التي تعمل لديه منعي من الدخول لكنني دفعتها.

كان جالساً خلف مكتبه منكباً على بعض الأوراق، وما أن رفع رأسه حتى جحظت عيناه ووقف مكانه مندهشاً، فانقضضت عليه وأمسكته من ياقة قميصه ودفعته نحو الحائط، فتسبّب ارتطامه به بسقوط بعض شهاداته المعلقة.

فقال بصوت مرتعش: سبحان الله، كما وصفتك ناهد.

فقلت له مهدداً: اسمعني جيداً أيها المعتوه، أنا لا يهمني هراء الأطباء أمثالك، كل ما يهمني هو صحة ناهد وسلامتها، لا أعلم ما هو النقاش العقيم الذي دار بينكما وانتاب ناهد الضيق بسببه فحاولت الانتحار.. لكن أعلم أنك السبب وأنت من ضغطت عليها.

فقال وهو يحاول التخلص من يدي: ناهد مريضتي ولا شأن لك بما يدور بيننا، وتهمني سلامتها مثلما تهمك.

- أشك بذلك، أريد منك عدم مقابلة ناهد بعد اليوم واحتفظ بهرائك لنفسك.

- لا تستطيع منعي من إيقاف علاجي لمريضتي.

خرجت وأنا أنفجر غيضاً، حاولت إجبار ناهد على عدم الذهاب إليه لكنها ضربت بكلامي عرض الحائط؛ تجاهلتها وتركتها تتصرف على راحتها كيفما تشاء حتى لا تشتكي مرةً أخرى وتقول إنني أضيق الخناق عليها.

لم تعلم ناهد أبداً بأمر سجن نزار، وأشغلها الدكتور عني وبدأ تأثيره يظهر على شخصيتها.. لم تعد مثلما كانت الفتاة الشقية المدللة، لقد حولها الطبيب إلى امرأة متفهمة، فلم تعد تصرفاتي تغضبها ولم تعد تتشاجر معي على أتفه الأسباب، لقد ساعدني كثيراً، وشكرت الله أنها عادت إليه واستمرت بزيارته حتى إنها حصلت على وظيفة كانت فرحة بها، ووافقت على عملها حتى تمضي وقتها بالعمل ولا تقوم بإزعاجي بكلامها بأنني أهملها أو لا أخرج معها، وبالفعل ألهاها العمل عني.

***

(19)
غروب شمس حبنا

للنسيان طرق كثيرة، لكن نسيانك أنتِ بالذات يجعل الروح تحتضر. إنني أرفض أن أنساك يا أميرتي الصغيرة، وأؤمن بعودتك يوماً ما مهما طال ابتعادك.

أعود إلى الذكريات المؤلمة، كنت أؤمن بأهمية علاجها حتى تعود إليّ من جديد، ولم أكن أتصور أو أعلم أن دكتورها جهد في علاجها لتتخلص من سيطرتي وأن تخرج من خلف ظلي وأن تنسلخ من شخصيتها القديمة وتتحرر، كنت أرغب بعلاجها فقط وحدث ذلك... تعالجت وأدركت أنني سبب مرضها فرحلت بعيداً.

كعادتي كنت أتصل بها كل صباح، لكن في وذلك اليوم لم أجد جواباً... انهمكت في عملي حتى حل المساء فذهبت إلى شقتها بحثاً عنها فوجدتها قد غادرت، حزمت أمتعتها ورحلت عني وتركتني أواجه لوعة الهجران. وجدت دبلتها على الطاولة وبجانبها هدية ورسالة، قرأتها ثم فكرت لدقائق وعدت لقرائتها ثم بللتها بدموعي ووضعت رأسي بين يديّ أفكر. بعدها رفعت رأسي وحملت الهدية وفككت شرائطها الحمراء وأزلت غلافها فعثرت على ساعة... أخرجتها من علبتها، وعندما قلبتها كانت حروف اسمها منقوشة عليها مثلما انوشم قلبي بعشقها... ربما لا يصدقني أحد، لكنني إلى اليوم لم أخلع هذه الساعة؛ اندفعت إلى الخادمة أستفسر عنها، فتحدثت بلغتها العربية

الركيكة وبكت محاولة إقناعي بعدم معرفتها لمكان ناهد، لم يكن أمامي إلا دكتورها المعتوه، ذهبت إليه وتشاجرت معه واتهمته أنه من ناشدها الرحيل.

بحثت عنها في كل مكان لكنها كانت بارعة في الاختباء، فعدت إلى دكتورها مستسلماً، وتوسلته إخباري عن وجهتها، لكنه رفض وأنكر معرفته.. كنت أعلم بأكاذيبه وأنه هو من أقنعها بالرحيل لكن ما باليد حيله.

عدت إلى منزلي وكتبت إليها رسالة، وقررت أن أسلمها إياها عاجلاً أم آجلاً، وتكررت زيارتي لدكتورها المعتوه بحثاً عن أي خيط أتمسك به فيقودني إلى سعادتي، ولكن دكتورها تصنع الذكاء وحاول تحليل شخصيتي ومساعدتي.. هل كان يظن أنني اقتنعت بألاعيبه؟ لكنني قررت مجاراته، فربما يرفق بقلبي فيبوح لي بمكانها، خضعت له ولجلساته لكنني لم أكن أسمح له باعتباري أحد مرضاه، فأنا أذكى وأعقل منه.

سافرت إلى موطنها أبحث عنها في الطرقات والشوارع كالمجنون وأسأل الغرباء عنها وأعرض عليهم صورها ثم اهتديت إلى أول مكان جمعنا، جلست على الطاولة نفسها أحدق في أركان المطعم وأتذكرها حتى أتاني صوت غليظ:

- مرحباً فيصل.

فأدرت وجهي أنظر إليه فوجدت رجلاً ملأ الشيب رأسه وتسللت التجاعيد إلى وجهه... لاحظ استغرابي فقال: ألا تذكرني، أنا مدير المطعم الذي أرشدتك إلى ناهد.

نهضت ومددت كفي مصافحاً له: ألا تزال تذكرني؟

- وكيف أنسى الرجل الذي اختطف ناهد منا؟

فابتسمتُ ابتسامة صغيرة، ثم قال: أين ناهد؟

- لقد هجرتني.

- ولماذا، ما الذي فعلته بها؟

- لا شيء، كنت أرغب في أن أجعلها امرأة سعيدة.

- ربما رحيلها جعلها كذلك.

أحنيت رأسي، فربت على كتفي وقال: عزيزي فيصل أترك الطائر يحلق بعيداً، فإذا عاد فهو لك وإذا لم يعد لا تحزن عليه فهو لم يكن لك يوماً، أنت مسلم وأنا مسيحي لكننا نؤمن بالمكتوب، وما كتبه الله سوف يحدث، فلو كتبها الله لك سوف تعود ولو بعد حين ثم وقف وقال: استأذنك الآن.

عدت إلى وطني وأنا حزين جداً، كيف أنساها وكلما فتحت إحدى الصحف أو المجلات رأيتها تطل عليّ بابتسامتها وعينيها البريئتين تحدقان بي، أقسمت لنفسي أنني سوف أبحث عنها إلى أن أعثر عليها وأنتقم منها، هل تظن أني سوف ألوذ بالصمت عن الجريمة التي اقترفتها بي؟ هل تظنني أحد أولئك الشباب المغفلين الذين تقوم بالنصب عليهم ثم تلوذ بالفرار؟ لا وألف لا.. أنا فيصل فارس أحلام قلوب العذارى، فيصل الرجل العظيم، تجعله فتاة صعلوكة كناهد أضحوكة أمام الجميع.

ثم أنهار وأبكي وأقول سأبحث عنها بسبب حبي لها، كم أرغب أن تستوعب ذلك، لماذا لا تفهمني؟ فأنا مقيد بهذا المجتمع وأعجز عن إظهار حبي لها على الملأ... إن الرجل الذي يخضع لفتاة هو رجل ضعيف بنظر الجميع، إنني أحمي حبها بين ضلوعي خوفاً عليه، ألم ترَ ما فعلته ريم عندما علمت بعلاقتنا، وكم جهدت لإحداث المشاكل بيننا، ليت ناهد تعلم بذلك، فالسر إذا تعدى الشفتين انتشر، والحب إذا تعدى القلبين ضاع.

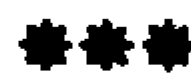
كنت أحثّ الجميع على أن يذكروا اسمي أمامها فتتجاهل وتتفنن بنكرانها، أهذا هو جزائي يا بلسم القلب؟

حاولت التصرف بحمق وإثارة غضبها فساهمت بنشر بعض الصور

التي تجمعنا... ظننت بل آمنت أنها ستثور كالبركان وستصب حممها عليّ، فلتحرقني بغضبها ولكن لا تحرمني قربها، لكنها كانت تمارس التجاهل بمهارة وتتفنن بصدي بمكر، فلم تعرني أي اهتمام وتركتني أحترق لوحدي في هذه النار التي أشعلتها، لقد نسيت كل ما كان بيننا، وأنني من سقيت بذورها حتى نمت وانتصبت فحرمتني من ثمارها.

استمرّ الأمر كذلك حتى لمحتها يوماً تسير في الجهة الأخرى من الشارع وتسمرت مكاني أنظر إليها، كم كانت سعيدة، ألم أكن أرغب بمنحها السعادة، فها هي تحلق بسماء السعادة، لكنها تركتني على الأرض أنظر إليها بشوق، تركتني من دون جناحين فلم أتمكن من التحليق خلفها، هل أتركها في هذه السعادة أم أرمي شباكي وأعيدها إلى جحيم الأرض؟

فأطرقت أفكر ثم استدرت وابتعدت عنها، كلا سأقاوم الأنانية مهما كانت مغرية وأتركها تعيش حياتها كما تريد، فحبي يغلب رغبتي بالتملك ومن يعشق يحب مشاهدة محبوبه فرحاً حتى لو كان سبب سعادته هو ابتعاده.



ومضت السنوات وعاد والدي إلى إلحاحه ومناشدته لحثّي على الزواج... خضعت له، فلا أمل يحثني على الاستمرار في هذه الوحدة القاتلة وتزوجت زواجاً تقليدياً من فتاة ذات جذور راقية اختارها والدي بعناية، تدعى (منال) ذات البشرة الصفراء والابتسامة الباهتة والعينين الحالمتين، كانت تردد دوماً: لا أريد جاهاً ولا مالاً بل أريد زوجاً يحبني ويمنحني جزءاً من وقته. كنت ألبي احتياجاتها المادية وأتجاهل عواطفها، ولم أنطق لها بكلمة أحبك متجاهلاً عينيها اللتين

تتوسلان هذه الكلمة، كنت كريماً بأموالي لكنني بخيل بعواطفي، فزواجي منها هو صفقة لإنجاب الأطفال.

ومضت الأيام والفجوة التي بيني وبين زوجتي تتسع، كنت أقارن تصرفاتها دوماً بناهد، فزوجتي على الرغم من دماثة أخلاقها إلا أنها لم تكن في مستوى جمال ناهد، ولم تكن تعير هيئتها أي اهتمام، فهي دوماً ما تجلس بشعرها المتقصف وملابسها الواسعة غير الأنيقة، فأنظر إليها والحسرة تتآكلني ثم لا أستطيع مقاومة الذكريات الشهية وصورة ناهد بملابسها الملتصقه بجسدها والتي كانت تتنقل بها في أركان الشقة، وشعرها الناعم كالحرير الذي عندما أشتم رائحته أغمض عينيّ للحظات حتى لا تهرب مني هذه الذكرى الجميلة.

أعترف بمحاولة منال كسب رضاي، فتفننت في الطهي باعتبار أنّ أسرع طريق إلى قلب الرجل هي معدته، وحاولت تعلم الرقص وما إن ترقص أمامي حتى أسخر منها... إنها كالعصى، ضعيفة لا يوجد لديها شيء يتحرك ويحرك غرائزي.

طال صبرها وازداد جفاي فلم أجهد نفسي في إخفاء نزواتي عنها بل كنت أعود إليها ثملاً وملابسي متشبعة بالعطور النسائية وأنظر إليها بقرف ثم أنام.

لقد سألتني يوماً ونحن نتناول طعام الإفطار: من هي ناهد؟

فنظرت إليها ببرود: لماذا؟

- لا لشيء، ولكن الفضول يحرضني للبحث عن هذه الفتاة التي يناديها زوجي العزيز دوماً في منامه.

تجاهلتها واكتفيت برسم تكشيرة كبيرة على وجهي وانصرفت.

ومضت الأيام حتى اكتشفت زوجتي السر، أذكر أنها عبثت بساعتي التي أهدتني إياها ناهد وشاهدت حروف اسمها عليها وقامت بمواجهتي: من هي ناهد.. هذه؟ أخبرني الآن.

فقلت لها وأنا أعبث بهاتفي: لا دخل لك بالموضوع، أعيدي الساعة إلى مكانها.

هنا اتجهت زوجتي نحو الحمام وقذفت بالساعة في المرحاض فهجمت عليها وأبرحتها ضرباً وأجبرتها على إخراجها، فبكت وهي تخرج الساعة فسحبتها بعنف من يدها.

فقالت لي وهي لا تزال جالسة على أرضية الحمام:

- لماذا تزوجتني؟

سحبت منديلاً ورقياً وبلّلته ببعض المطهر وباشرت بتنظيف الساعة ثم نظرت إليها وقلت ببرود: كنت مجبراً.

فرفعت رأسها تنظر إلي بتعاسة: حقاً وما هو ذنبي؟

فقلت لها بسخرية: وما هو ذنبي أنا.

فنهضت وهي تقول: أنت رجل، ألم تستطع الرفض.

فرميت بالمنديل وصحت بها: وكيف لي ذلك، ووالدي يصر على زواجي.

فصرخت في وجهي: إذن ألم يكن أفضل لك ولي أن تتزوج المدعوة ناهد.

فنظرت إليها بغضب: هذا ليس من شأنك.

فقالت وهي تغادر دورة المياه: أنت جبان لأنك تزوجتني بسبب والدك، كالفتاة تماماً يرغمك والدك على الزواج فتتزوج مجبراً.

وأصابتني بجرح في كبريائي الرجولي فقذفت الساعة على الأرض ثم هجمت عليها وضربتها حتى أدميتها... وضعتها في مركبتي، انطلقت بها ثم رميتها عند باب منزلها وانصرفت.

في اليوم التالي أتى والدي إلى مكتبي وهو غاضب:

- فيصل، أهكذا تحرجني مع صاحبي؟

لم أتحرك من مكاني وتجاهلت النظر إليه ثم قلت: إن ابنته وقحة.

فانحنى على مكتبي وضرب بيده على سطح الطاولة: سوف تعتذر منها وإلا..

قاطعته قائلاً:

- وإلا ماذا، هل سوف تضربني؟ أنظر إلى حياتي يا والدي أيعجبك ما فعلت بي؟ لقد سلبت مني سعادتي.

فشد قامته: أنا.

- كنت تعلم لو تزوجت ناهد.

فقاطعني:

- ناهد التي هجرتك بعد أن سرقتك.

- لم تسرقني، أعطيتها كل شيء برضاي.

فضحك والدي وقال: إنك لم تستطع أن تكون حبيباً مخلصاً لها فكيف إذن لو تزوجتها، سوف تتركك لأنك رجل خائن.

- مثلك يا والدي، أنت من علمتني أن أكون رجلاً خائناً، فأنت لم تكن وفياً لامرأة واحدة في حياتك.

ونظرت إليه فوجدته صامتاً ينظر إلي ثم خرج، تصالحت مع زوجتي على الرغم من كرهي لها، وأمضيت أقارنها علناً بناهد ولا أهتم بمشاعرها، وازداد إهمالي لها مع الأيام، فأصاب الهم زوجتي من هذا النفور القاسي تجاهها إلى أن طلبت الطلاق... لكنني رفضت حفاظاً على سمعتي ومكانتي في المجتمع، لأنّ فشل زواجي الثاني سيضعني بلا شك تحت عين المجهر؟ وسيتم إطلاق الحكم عليّ، لذلك لم أطلقها واكتفيت بتهديدها.

وأصبح عش الزوجية ساحة حرب، فكل شخص يحاول جاهداً جرح الآخر، وكنا نتبادل الشتائم طوال اليوم، حتى عدت ذات مرّة من السفر لأجد ابنة الأصول في فراشي مع السائق، أوقعني هول المنظر أمامها فقالت وهي تقترب مني: ربما أسأت لنفسي لكنها كانت محاولة تستحق التجربة والخوض فيها حتى ألقنك درساً بعدم

الاستهزاء بقدرات من حولك وكرامتهم. وهنا وضعت كرامتي بكفة وحديث المجتمع بكفة، ورجحت كفة الكرامة، فطلقتها ولكن الخبر كان كشعاع الشمس ينفذ إلى كل مكان، مما وضعني في موقف صعب جداً فلم أقوَ على مواجهة المجتمع واختبأت في المنفى بحثاً عن الأمان، ومع مرور الوقت قمت باستدعاء أخي ومصارحته برغبتي بالزواج من ناهد.

فحدق بي: فيصل، أجننت؟

فقلت له وأنا أمرر أصابعي في شعري بعصبية:

- أنظر إلى حجم الكارثة جرّاء كل فتاة اختارها لي والدي، فالأولى كانت فاسدة والثانية أفسدت سمعتي بخيانتها لي مع السائق.

- فيصل، هل نسيت تصرفاتك وأفعالك؟ كيف تتوقع من زوجتك تجاهل نزواتك وتعلقك غير الطبيعي بناهد؟ إنها امرأة أيضاً ولها مشاعرها.

- لكنني أمّنتُ لها كل ما تريد.

- فيصل، إن الحياة لا تدور حول المال فقط، في الحقيقة أعجز عن البحث عن حلٍّ لك؟

- الحل الوحيد هو زواجي ممن أحب، إن الندم لا يعيد ما مضى ولكن الأماني تحاصرني فيجب عليّ السعي للبحث عنها فهي سعادتي.

- ورأي والدك وعائلتنا.

- لم يعد يهمني، وافقت على خياره، وآن الأوان بأن يدعني وشأني ويترك لي مجال اختيار شريكة حياتي؛ إنني أرفض إعادة الكرة والزواج بأخرى عن طريق أهلي، أردت الزواج بناهد فقط، والآن أبلغ الخامسة والثلاثين وأرى ذرية أصحابي وأنا محروم وحيد لم أجد من تحبني بصدق كما أحبتني ناهد، لقد وطئت الأقدام سمعتي، لقد عاقبني الخالق بما فيه الكفاية فدعني الآن وشأني أختار من أحبها.

وساد الصمت القاتل في المكان ثم قال أخي وهو يعبث بساعته:

- أنا مضطر للانصراف الآن.

فأجبته ببرود شديد: كما تشاء.

- إلى متى سوف تمكث في هذه الشقة، إن والدي...

فقاطعته: سوف أمكث هنا إلى الأبد، هذا هو منزلي وأنا رجل هذا المكان، أما ذلك القصر فإنني أتخلى عنه لوالدي ليحكمه كما يشاء.

وغادر أخي وتركني وحيداً أقلب عيني في أرجاء المكان وأتذكرها، إنني أسجن نفسي مع ذكرياتها ولكن إلى متى؟

***

(20)

لأحيي ذكراك بقلبي

ربما استطعت أن أخبئ حبها في قلبي لكنه كان يشرق كالشمس من عيني فلا يبقى مكان إلا ويخترقه ليعلن عن حبي لها. إن التفكير بها يقتلني ويتملكني، وكلما وضعت رأسي على وسادتها وأغمضت عيني يراودني حلم الكرى.

مع مرور الوقت، توثقت روابط الصداقة بيني وبين الدكتور حمدان وكان يتردد عليّ يومياً في الشقة وأحكي له عن ذكرياتنا، وأقول: أتعلم، لن أتخلى عن هذه الشقة أبداً، فهذا المكان له ذكرى جميلة في قلبي ثم رفعت إصبعي وأشرت إلى المقعد الهزاز وقلت له:

- هنا كانت تجلس ناهد تتأمل السماء ثم ضربت بيدي على سطح الأريكة، وهنا كانت تتمدد دوماً لتشاهد التلفاز وتضع رأسها في حجري، أما هناك، أترى هذا المقعد الذي في الزاوية؟

فأدار الدكتور رأسه ونظر إليه ثم قال: ماذا به؟

- هناك تجلس عندما تكون حزينة ولا ترغب بمحادثتي؛ إنّ هذه الشقة مليئة بعطرها، ألا تشتمه، إنه عالق في قطع الأثاث والسجاد والستائر، كما يعلق حبها هنا وضربت بيدي على قلبي، وأكملت:

- سوف أريك شيئاً، ونهضت ووقعت على الأريكة من فرط الثمالة ثم نهضت مرة أخرى واتجهت نحو غرفتها وعبثت في أحد

الأدراج حتى عثرت على غايتي فحملتها وعدت إليه ووضعت العلبة في يد الدكتور، فقلّبها بين كفيه وأشرت إليه بكأسي: افتحها.

ففتحها وحمل الخاتم بين يده:

- ما هذا؟

- إنها دبلة ناهد.

فنظر إلي متسائلاً.

- ألا تفهم،عندما أجدها سأعيد إليها الدبلة، وعندما ترتديها هذه المرة لن ترتديه كخاتم يرمز إلى حبنا فقط بل سوف ترتديه كخطيبتي، سوف أتزوجها.

- إذن أنت مصمم.

- نعم، ولن أيأس حتى أجدها وأعرض عليها هذا الطلب.

- لماذا لا تتركها في حال سبيلها؟

- ألا تدرك أنها كانت الشيء الجميل النقي في حياتي؛ إنني أسكن في هذه الشقة لأحيي ذكراها ثم ابتسمت والدموع تتلألأ في عيني:

- كيف أحيا من دونها؟

فقال لي الدكتور وهو يحدق في كأسه: ألهذه الدرجة تحبها؟

- وكيف لا أحبها وأنا أحتاجها كحاجة الإنسان إلى الهواء، إنني أتحسر عليها كمن فقد بصره بعد أن تذوق هذه النعمة، إنني كرجل غني خسر أمواله فأصبح يقلب يديه في التراب.

وصمتُّ للحظات أسترجع هذه الذكريات الرائعة ثم أكملت:

- كنت أخرج من عملي وأحضر هنا لتناول العشاء.. فأجدها تنظر إلي بحزن، وأتساءل الآن كيف أعماني غروري عن قراءة عينيها، عن الإحساس بمعاناتها، لقد سلبتها أملها في الحياة وحرمتها من حلم كل فتاة، أن تتزوج وتسكن في منزل وتحظى بالأولاد، هذا ما

كانت تريده ناهد، وأن لا أكون مجرد شيء مؤقت في حياتها، وهذا الأمر يدل على مدى حبها لي. لقد أرادتني أن أكون لها طوال سنين العمر، أن تشاهدني وأنا أشيخ أمامها ونموت ونحن نحب بعضنا بعضاً، وهذا هو الوفاء الذي نسي والدي أن يعلمني إياه، وكيف يعلمني وهو لا يعلم كيف يكون رجلاً وفياً. لقد حاول والدي قتل قلبي وأحيته هي، ما بناه والدي بسنوات قامت هي بهدمه في لحظات.. ربما لا تستوعب ما أخبرك به لأنك لم تجرب الحب الحقيقي، هذا هو الحب، الآن أدركت فقط كم كانت تحتل مكاناً كبيراً في حياتي. وقطع حديثنا ظهور صورتها على التلفاز في إحدى الإعلانات، ابتسمت بسخرية وقلت له أنظر إليها: ناكرة الجميل أتعلم أنني سأعيش حياتي بأكملها وأنا في دوامة الندم إن لم أصارحها.

- وإذا عثرت عليها ماذا سوف تفعل؟

- سأغير من كل تصرفاتي، سوف أتعالج من أجلها.

- هل أنت مقتنع أنك إنسان مريض؟

- جميعنا مرضى نفسيّون، ونحمل عقداً من الماضي ونحتاج إلى شخص يساعدنا على اجتيازها.

فحدق الدكتور بكأسه ثم قال:

- لقد سمعت بأنها تقضي فترة الإجازة في إحدى الدول الأوروبية.

- هل من الممكن يا دكتور إخباري في أي دولة؟؟

- لا تقلق يا فيصل، غداً سوف أخبرك.

وبعد يومين هاتفني الدكتور وأطلعني على مكان تواجدها. لم أضيع المزيد من الوقت.. واندفعت مع حقيبتي إلى المطار، ركبت الطائرة المتجهة إلى المدينة التي تقضي ناهد فيها إجازتها. سيطر عليّ القلق والتوتر وتدربت آلاف المرات على الكلام الذي سأقوله لها،

تفقدت خاتمها الذي أحتفظ به وأنا على أمل رجوعها، وقرأت الرسالة عدة مرات ثم طويتها ووضعتها في محفظتي وبحثت عنها في كل مكان حتى رأيتها، ابتسمت لها وأنا أراها أمامي.. فرحت بعثوري عليها أخيراً، وفي اليوم التالي انتظرتها لساعات أمام المقهى الذي تتردد عليه.

***

(21)
كل شيء قابل للبيع والشراء

جلست أنتظرها لساعات وقلبي يدق بعنف مع كل دقيقة ثم رأيتها تجلس في المقهى، وقد فتحت حقيبتها، وأخرجت كتاباً وقامت بتقليب صفحاته فاقتربت منها بسرعة فلمحتني قادماً فجحظت عيناها وجلست أمامها، آه على الرغم من كل هذه السنوات لم تتغير أبداً. فنظرت إليها بحب ووضعتُ العلبة على الطاولة ثم دفعتها باتجاهها، فنظرت نحوي بتساؤل ثم أمسكت بالعلبة وفتحتها فبرقت عيناها، ونظرت إليّ نظرة لم أستطع إدراك معناها فقلت لها:

- ناهد هل تتزوجيني؟

توقعت أن تنتابها السعادة وترمي بنفسها على صدري كما كانت تفعل في الماضي وتمطرني بالقبلات لكنها صفعتني بجواب سخيف لايزال صداه يتردد في أذني بأن قلبها ما عاد للبيع، وسارت مبتعدة وأنا أتبعها بعيني... تركتني لكنني لم أيأس، سوف ألاحقها في كل مكان حتى النهاية، وإلى اليوم لم أفهم الهراء الذي تفوهت به بأن قلبها ما عاد للبيع، سوف أشتري قلبها وجسدها، وأشتري لها الدنيا وكل ما تريده سواء سيارة أو منزل حتى لو أرادت طائرة، ففي نظري كل شيء في الحياة قابل للبيع والشراء حتى أنتِ يا ناهد.. حتى أنتِ؟؟!!

إن المال هو مفتاح كل شيء، مفتاح حل المشاكل، مفتاح

الدنيا، حتى إنه مفتاح القلوب، كل باب مغلق لا يفتحه إلا مفتاح المال، هذه هي الحياة الآن فأنا لولا المال لما كنت أعامل بهذه الطريقة المميزة، إن الجميع يحترم المال وإذا كان المال ملكك فإنهم يحترمونك أنت.

من أنا من دون النقود، ماذا أساوي؟ ماذا يمكنني أن أعمل، من سوف يصغي إليّ؟ نحن عبيد المال والنقود، إنها تشغل تسعين بالمئة من تفكيرنا والعشرة الباقية نفكر بالجنس، أليست هذه هي الحقيقة؟! إنني أشتري أصدقائي واحترامهم لي بالمال، إنني أجذب الفتيات به.. إنني أقاتل وأنتقم به... عندما كنت صغيراً كنت أمقت والدي وأحتقر تصرفاته بل إنني أشمئز منها، ومع الأيام تحولت لاشعورياً إلى والدي، أنظر إلى نفسي في المرآة فلا أتعرف على الرجل الواقف أمامي، من هذا الرجل الذي لا يملك قلباً، من هذا الرجل الذي يسكنني.. أين ذهبت طيبتي؟ أين ذهبت رحمتي؟ كيف ومتى تحولت إلى إنسان آخر؟ أفكر لدقائق ثم أحك رأسي بطرف إصبعي وأحاول أن أتذكر متى بالضبط سكنني هذا الرجل، وكيف استسلمت له ولماذا لم أقاتل؟

وعندما أنظر إليها وأجد انعكاس صورتي في عينيها أراه، أرى فيصل الحنون، أرى وجهي من دون قناع وهي تنظر إلي، إنها تخترق بعينيها هذا الجسد وتشاهد روحي، إن عينيها كالليزر تخترق كل شيء، كأنها لا تنظر إلى ملامحي ولا تشاهد عينيّ التي تنبعث منهما الحقد، ولا تلمح جسدي الملطخ ببصمات غيرها ولا تلمح فمي الذي يتفوه دوماً بالكذب ويشتم، إنها تشاهد روحي فقط، هذه الروح البيضاء.

إنني معها أكون فيصل بشحمه ولحمه، ومع غيرها أكون رجلاً آخر لا يستطيع التعرف على نفسه، فقط يدير رأسه تلقائياً ما أن يسمع اسمه، وهو لا يدرك من هو كونه اعتاد على هذا الاسم فقط.

لو كان والدي لا يملك المال فهل سوف يحترمه الجميع؟ هل سوف تحتمل أمي قسوته؟ ألم ترغب هي الأخرى بماله... فجأة أذكر أمي وخيانتها، فأضع يدي على قلبي أتحسس الجرح.. لقد تحولت إلى والدي لذلك خانتني ناهد، وخانتني زوجتي لأنني بالنسبة إليهما إنسان حقير كوالدي.

وهبطت الطائرة وسحبت محفظتي وقرأت الرسالة وقررت إحراقها بأسرع وقت.. وعدت محطماً.. أنظر إلى السماء الكئيبة وأحدق في كل الوجوه بتعالٍ ثم خرجت من المطار بخطوات سريعة، وكنت أفكر فيها ولم أسمع إلا صوت المكابح ثم أحسست بشيء يرفعني ويقذفني بعيداً؛ إنني أطير ثم أصطدم بالأرض القاسية الدافئة، وشعرت بشيء حار يتدفق من رأسي وتنقّل بصري بين الوجوه التي تركض باتجاهي.. بعد ذلك، شعرت أن الهمّ الذي بي بدأ يتلاشى كأنني ارتحت ورغبت في النوم، وسرعان ما استسلمت له... لقد نمت وأنا مرتاح ولا أزال على يقين من أن كل شيء قابل للبيع والشراء حتى أنت ياناااااااهد.

الشخصية الثالثة

نزار

إن وراء كل مصيبة امرأة.

(22)
شبابي الضائع

في هذه السماء الملبدة بالغيوم تتساقط الذكريات كهطول الأمطار الخفيفة على الأرض فتسقي بذور الذكريات المؤلمة وتجعلها تنبت في أعماق الذاكره... نخترق الهواء مع حبيبات الأمطار المنهمرة حتى نصل إلى سجن المقاطعة الذي تحيط به الأسوار العالية وفي قمته أسلاك كهربائية، ونتسلل ببطء ونحن نستمع إلى نباح الكلاب البوليسية المدربة جيداً، وتشعرنا حيطان السجن الرمادية اللون بالاشمئزاز، فهي تسلبنا الأمل ما أن نلمحها ثم يخترق هذا الصمت القاتل صوتُ صفارة مزعجة، وتنفتح المكبرات الصوتية فيأتيك صوت خشن يأمر جميع المساجين التوجه إلى زنزانتهم، فتجدهم يسيرون ببطء كالآلات المبرمجة فيدخل كل منهم إلى زنزانته وتنغلق الأبواب.

نتجول بين هذه الزنزانات فنجد متهماً غزا الشيب شعر رأسه وتكسو ملامح الحزن وجهه وفي عينيه نظرة ألم وحسرة... ينبعث صوتٌ من أعماقه شبيهٌ بالأنين وهو يتذكر سنوات عمره التي دفعها ثمناً للحظات طيش... نتركه في بؤسه وندخل الزنزانة المجاورة فنجد شاباً ملأ جسده بالوشم وتحت عينيه هالتان سوداويتان، حليق الرأس ويتسلل الصوت المنبعث من أعماقه إلى مسامعنا..

(عندما أخرج من السجن سوف أكون أكثر حذراً حين أنفذ جريمتي الجديدة).

ثم نتركه وندخل إلى الزنزانة الأخرى فنجد شاباً نمت الشعيرات فوق ذقنه، وتمدد على السرير الحديدي المكون من طابقين.. كان يحتلّ الطابق العلوي وينظر إلى السماء بحزن.. ثم ينقلب على جانبه الأيمن ويغمض جفنيه محاولاً النوم.

فجأة يفتحُ باب الزنزانة ويدخل رجل يرتدي ملابس السجن الزرقاء وهو يبكي كطفلٍ عاجزٍ عن إخفاء دموعه، فيدفعه الحارس بيده وهو يقول له: هذا هو فراشك، فيجلس حيث أشار إليه ويحني رأسه ويجهش بالبكاء.

اعتدل الرجل في جلسته وقفز من أعلى السرير، فجلس بجانب الشاب الجديد وربت على كتفه، فرفع الشاب رأسه ونظر إليه ثم أجهش مرة أخرى بالبكاء، احتار الرجل ماذا يقول له ونطق وهو متردد:

- لا بأس... إنّ الأيام الأولى صعبة، لكنك سوف تعتاد على السجن بعد مرور بعض الأسابيع.

فأتاه صوته الباكي وهو يقول: لقد أضعت مستقبلي، وجعلتُ عائلتي تخجل مما فعلت.

وحلّت فترة صمت بينهما ثم مد الرجل يده تحت الفراش، وأخرج علبة سجائر وناولها إلى الشاب الجديد وهو يقول: خذ واحدة حتى تهدئ أعصابك.

فمسح الشاب الجديد دموعه بطرف قميصه ثم سحب سيجارة، فقام الرجل بإشعالها له وسحب لنفسه سيجارة وأشعلها، وأخذ نفساً عميقاً ثم فتح فمه وترك الدخان يتسلل منه، وقال وهو يفحص الشاب الجديد الجالس بجانبه: ما اسمك؟

- اسمي حسن، وأنت؟

فمد الرجل يده إليه مصافحاً: وأنا نزار.

- منذ متى وأنت هنا؟

- ما يقارب الثلاث سنوات.
- وكيف استطعت التحلي بالصبر كل هذه المدة؟
- السجناء لا يملكون إلا الصبر والأمل، ثم نهض وأكمل حديثه: نم الآن لأنه يجب أن ترتاح، فغداً سيكون يوماً شاقاً.

عندما عاد نزار إلى فراشه وتمدد فوقه محاولاً النوم، سمع صوت زميله وهو يبكي على شبابه الذي سوف يضيع بين جدران السجن، ففتح عينيه ونظر إلى السماء وترك دموعه تنساب لتحكي لنا عن ماضيه، وتعبر عمّا يجول في خاطره.

تتناهى إلى مسمعي أصوات الأمطار التي تتساقط خلف هذه الأسوار، أتقلب فوق سريري تارة إلى اليمين وتارة إلى اليسار، ثم أحدق في هذه الجدران الرمادية اللون التي تزيد من اكتئابي، وتمضي الأيام متشابهة لا لون لها ولا طعم، أما الوقت فيبدو أنه أقسم أن لا يتحرك؛ أمضي أيام شبابي بين جدران السجن وخلف هذه القضبان... إنني أعيش بلا أمل، لكنني على الرغم من ذلك أسلي نفسي بالذكريات، وأشدو بالأيام الجميلة كطائر في قفص يغرد على أمل خروجه في يوم من الأيام.

عندما تحيط بي هذه الحيطان وتضيق عليَّ حتى تكاد تعصر روحي لتفقدها الأمل أفكر للحظات بـ(نزار الملاحي) هذا الاسم الذي كانت ترتجف له قلوب الناس ومن حولي، أين ذهب بريقه؟ أين ذهب وقع هذا الاسم القوي؟ لقد ضاع بل تلاشى بين هذه الجدران التي لا تعترف بالعائلات أو بمركزها، فجميعنا هنا سواسية، وجميعنا يطلق علينا اللقب نفسه. (السجناء).

لقد شطب لقب عائلتي وأصبح اسمي نزار السجين، ما أسوأ أن يفقد الإنسان إحساسه بالحياة فيتحول إلى جثة هامدة لكنها بروح، روح مشوهة، أتساءل بحسرة أين أصحابي؟ بل ملايين معارفي أين هم؟ سحقاً لهذه الحياة التي يتخلى عنك كل من فيها ما أن تقع في

مصيبة، ومالي وأملاكي بماذا ستفيدني الآن؟ أنا في قبر الحياة وليس لي إلا رجائي وهو ربي.

ربما تكون الفائدة الوحيدة التي عادت إلي من هذا السجن هي أنني تقربت من خالقي، فكلما ابتعدت عن الدنيا خطوة اقتربت من ربي خطوات، ثم أفكر للحظات وأدرك أنه بعد مغادرة هذه الحياة فلن ينفعني مالي ولا لقبي ولا حتى أصحابي، لن ينقذني أحد، وأكبر دليل على صحة ما أقوله هو الوضع الذي أعيشه يومياً.

ثم أغمض عيني ويمر عليَّ خيالها فيهمس القلب تعالي، تعالي يا من بعثرتِ خيوط حياتي بأناملك... تعالي اليوم، وانسجي بهذه الخيوط أجمل قصة حب واتركيها لي، فربما تكون هي مجرد ذكريات لا تهمك، ومرت بين عينيك مرور الكرام، لكنني سأستمد بقايا حياتي منها لسنوات، أو تعالي وخذي بقايا الروح والعبي بها بيديك ثم اصنعي منها قناع النسيان لأرتديه كل مساء قبل أن أنام.

إنها مجرد ساعات قليلة وترسل الشمس رسائلها لقلوب الأحرار وتنسى من يقبع خلف الأسوار؛ وتمر عليّ اللحظات القاتلة، فأشعر أن جبال الكون كلها تستقر فوق صدري، وتحاول كتم أنفاسي فأصرخ قائلاً: أخرجي مع أنفاسي وخذي معك الحزن الذي سببته لي، سافري إلى عالم آخر لا أكون أنا فيه، وضعي ذكرياتك المؤلمة في حقيبتك، وارحلي يا من سلبتني قلبي وعقلي، لكنني لن أتركك تسلبين أملي في الحياة، وأعود مرة أخرى لأعيش في التناقض الذي يهم بي كلما ذكرُتها.

انطلقت الصافرة لتعلن عن توقف قطار الذكريات، فنهضت من فراشي ثم تمطأت ووضعت يديّ على خصري وانحنيت لدقائق استعداداً للنزول من هذا القطار فتركت الذكريات وعدت إلى عالم الواقع لحظة انفتحت أبواب الزنزانات.

وثبت من على فراشي وألقيت نظرة على زميلي الجديد في

الزنزانة، كان ممدداً على فراشه ثانياً ذراعه على وجهه، ثم انقلب على جانبه الآخر مواجهاً لي ونظر إلي بعينيه المحمرتين.

فقلت له: هيا انهض لنذهب لتناول الإفطار.

واتجهتُ ناحية ركن الزنزانة حيث توجد مرآة صغيرة يكسوها الغبار، وفي أسفلها حوض صغير لغسل الوجه، ففتحت الصنبور وتركت المياة تتدفق منه ثم لمسته بأطراف أصابعي لأتأكد من حرارة المياه، وعندما خفت برودته وضعت يديّ تحت الصنبور وملأتها بالماء ورميت ما بجوفها على وجهي واغتسلت، بعدها قمت بتنظيف أسناني، وأخذت المنشفة المعلقة بالقرب مني وجففت وجهي بها.

ونظرتُ إلى حسن فوجدته لا يزال جالساً يفكر وهو منكب على ركبتيه، فاقتربت منه وربت على كتفه:

- هيا انهض واغسل وجهك، فأمامنا يوم طويل.

نهض حسن ليغتسل ثم تبعني خارج الزنزانة بخطوات تدل على ارتباكه.. وقفتُ قليلاً أحيي جاري علاء الواقف أمام المرآة يسرح شعره ثم قلت له: هذا رفيقي حسن الجديد في الزنزانة.

فأرجع رأسه إلى الخلف لينظر إليه وهو يقول:

- أرجو أن لا يصيبه ما أصاب آخر زميل لك.

فتبادل حسن النظرات معي ومع علاء ثم ضحك هذا الأخير وهو يقول: لقد انتحر، قطع شرايينه بآلة حادة.

فنظرت إليه بغضب ثم قلت له بلهجة آمرة:

- كف عن المزاح، وأكملت موجهاً الحديث إلى حسن، هيا بنا.

وخرج علاء يتبعنا وعبرنا الردهة المنتشية بالبرودة ثم نزلنا من على السلالم وانحنينا يميناً حيث تقع قاعة الطعام المزدحمة بالمساجين. حملتُ صينية الطعام المعدنية في يدي وأنا أشير لحسن أن يتبع خطاي وخلفه يقف علاء، ومددت يدي إلى الخبز، فأخذت رغيفاً ساخناً وسحبت آخر لحسن ومددت بصينيتي للعامل ليملأها بالفاصولياء

والبيض والجبن وقطعة من الفاكهة ثم استدرت أجيل بنظري في المكان وأنا أرسم على وجهي ملامح الجدية. خطوت بضع خطوات حتى توقفت أمام إحدى الطاولات، فنظر إلي السجين الجالس عليها ثم نهض وهو يحمل طعامه، فدفعت الكرسي بقدمي ووضعت الصينية ثم جلست وجلس حسن إلى يميني، وجلس مقابلاً له علاء ثم أتى جمال ونظر إلى حسن فقلت له: (زميلي الجديد في الزنزانة) فجلس وهو يتفحص وجه حسن ثم مد يده إلى الفاكهة الموجودة في صينية هذا الأخير، فنظرت إليه بغضب فتركها ثم صحت به:

- إذهب لتحضر لي إبريق الشاي وبعض الأكواب.

فأرجع كرسيه إلى الوراء ثم ابتعد وهو يصفر فقلت لحسن: يجب عليك أن تكون ذئباً في السجن أو سوف تأكلك الكلاب، وأدرت وجهي جهة اليسار ثم أكملت: أنظر إلى تلك الطاولة التي يجلس عليها ذلك الرجل حليق الرأس.

- ماذا به؟

- احذر منهم فهم شواذ، وانظر إلى هذه الطاولة التي أمامنا، إنهم مورّدو السجن.

فنظر إلي متسائلاً.

فقلت له هم الذين يهربون إلينا الأشياء الممنوعة، في السجن يوجد الكثير من الأحزاب، كل حزب يحاول فرض نفسه على الحزب الآخر، إنه يشبه مجتمع المدرسة، وكيف كنا أيام المدرسة كل مجموعة تكن الضدية لغيرها وتحاول أن تحكم السجن.

ثم قال علاء: ما هي تهمتك يا حسن؟

فطأطأ حسن برأسه وقال بصوت نادم: مخدرات.

فضحك علاء وقال: "كلنا بالهوا سوى".

بعد مرور الوقت جلستُ مع حسن في الساحة الخارجية على

الرمال وتحت الظل، ومددت قدمي، وجلس حسن مقابلاً لي ثم قلت له:

- لماذا كنت تتعاطى المخدرات؟

فقال وهو يعبث بالرمال: ظروف.

فابتسمت وأنا أقول له: وما هي الظروف التي تستدعيك لذلك؟

حاول التحدث، لكن الحروف لفظت أنفاسها الأخيرة قبل الخروج من ثغره، فتركته ولم أستفسر عن السبب حتى حان موعد النوم، وهو يعد من أسوأ الأوقات لأنه يعيد إلينا دوماً ذكرى الماضي، وانطفأت الأنوار وأظلم المكان إلا من بعض خيوط النور المتسللة من الممر، وفجأة سمعت حسن يقول:

- نزار ألا تزال مستيقظاً؟

- نعم.

- أتعلم، لم أكن أتصور يوماً أن أكون سجيناً، لم أكن هكذا أبداً في حياتي.. لقد ولدت في عائلة ملتزمة ومتدينة، فكيف لي أن أكون مجرماً، وسكت للحظات ثم أكمل:

- عندما فتحت عيني على هذه الحياة وبدأ عقلي يجمع خيوط الأحداث ليعيد ترتيبها أدركت أمراً واحداً ألا وهو أن حياتي تم اختيارها لي من قبل أن أخرج إلى هذا العالم، أنا أول أولاد الشيخ عبد الرحمن، إمام الجامع الكبير الذي يقع في منطقتنا وبالقرب من منزلنا، كان الجميع يكن له الاحترام، وكان الجامع الكبير هو منزلي الثاني، أجلس في محرابه لساعات أناجي الله وأرتعش خوفاً منه؛ منذ أن خطوت أول خطواتي وأنا أذهب كل يوم برفقة والدي الذي يأمُّ جموع المصلين ثم يجلس ويخطب بهم ويردد على مسامعهم الحكم والمواعظ والأحاديث التي يحفظها عن ظهر قلب.

وعندما بلغت الخامسة اعتبرني والدي رجلاً وجعلني أحضر كل الحصص المقامة في الجامع، تحفيظ القرآن... التجويد... الفقه...

علوم الدين، وقبل أن يتلون الليل بخيوط الفجر يوقظني والدي ويمسك بيدي ويجرني خلفه إلى المسجد وأنا شبه نائم؛ فعيناي ترفضان التخلي عن النوم، نؤدي صلاة قيام الليل ثم نرتل القرآن حتى يحين موعد صلاة الفجر، فينهض والدي من مكانه ويتنحنح قليلاً ويزأر كالأسد بصوته الجهوري بأذان الفجر، ويدعو الجميع إلى الصلاة ثم يعود ويجلس مكانه ولسانه يردد بعض الأذكار حتى يتوافد المصلون، ثم يتنحنح مرة أخرى، بعدها يقيم الصلاة وهو يقف أمام المصلين.

عندما بلغت السابعة من عمري كنت أنا من أقف أمام حشود المصلين وأرتل ما أحفظه من الآيات، ووالدي ينظر إلي بفخر ويردد دوماً: ابني حسن عندما يكبر سيكون شيخاً جليلاً، عالماً في أمور الدين.

وسكت حسن للحظات ثم قال بصوت حزين: لقد قتلت هذه النظرة التي كانت تشع دوماً من عيني والدي، لقد أصبحت سجيناً، مجرماً، إنساناً فاسداً ثم دفن وجهه في الوسادة محاولاً خنق دموعه في أحشائها وبكى كطفل صغير.

لم أعلق على حديثه وتركته يغسل همه بدموعه، فالبكاء أحياناً يكون المتنفس الوحيد لنا.. لقد أعاد إليّ حسن ذكريات الطفولة؛ فأنا لم أعش في بيئة كبيئته، كنت أعتقد دوماً أن البيئة المحيطة بالشخص هي التي تحدد مستقبله.

يا ترى كيف رسم والدي مستقبلي؟ عقدت حاجبي الكثيفين محاولاً التذكر والبحث عن الخلل الذي أدى إلى انهيار عالمي الذي كان يعتبره الجميع عالماً مثالياً.

رحت أعود إلى الماضي وأتذكّر كم كان والدي يحلم بولد يحمل اسمه واسم أبيه، وكانت فرحة والدتي تتلاشى كلما اكتشفت أنها حبلى بأنثى وليس بذكر.

مضت السنوات، سبع سنوات ووالدتي تضع أنثى وراء أنثى، وحبلت والدتي للمرة الثامنة وردد والدي نذره المعتاد، إذا رزقني الله بولد سأضحي بألف خروف وأرسل ألف فقير إلى الحج.

وأتى الخبر ونبتُّ في أحشاء والدتي فعمّت الفرحة أركان المنزل وشملت الجميع، أحبني والدي وأحبتني أمي وعماتي وكل أفراد العائلة قبل أن أرى النور ليس لشيء غير أنني رجل.

إنني أنا من سيحمل اسم العائلة التي لن تنجب سوى الإناث، فجدي لا يملك إلا ولداً واحداً وهو أبي ثم أتيت أنا.

خرجت إلى العالم الذي ينتظرني بشغف، وهلل والدي فرحاً وارتاحت والدتي بأدائها أصعب مهامها وتنهدت بارتياح؛ فبوجودي تلاشت فكرة الزواج من أخرى لتنجب له الذكر.

كنت أول حفيد في العائلة ومحط أنظار الجميع؛ وفى والدي بنذره ورفعت الأيادي إلى السماء تدعو الخالق أن يحفظني لعائلتي.

كبرت وكبرت الفرحة معي، فأقل كلمة أو حركة تجعل والدتي تضحك من أعماق قلبها، ويحملني والدي بذراعيه عالياً مزهواً بي كأنه يرغب أن يشاهد العالم ابنه، فتتّسع الفرحة في عينيه وهو يحدق بي ثم يقبل وجنتي ويدور بي في أركان المنزل.

وأعود إلى الواقع لتصدمني الحقيقة، أفكر للحظات أنا نزار ابن العز الذي ولدتُ وفي فمي ملعقة من ذهب ينتهي بي القدر بين أربعة جدران، أصبح نزيلاً للسجون كالمجرمين بعد أن كنت نزيلاً لأرقى فنادق العالم وأفخمها؛ أحنّ إلى أمي وعائلتي، ولا أزال أحلم ببيتنا الكبير فأسمع ضحكات أخواتي التي تملأ ردهات المنزل وهن يداعبنني ويرفعنني عن الأرض ويركضن بي في ممرات المنزل.

أنا محبوب العائلة ومركز الاهتمام ينتهي بي الأمر هكذا، هل الحياة غريبة إلى هذه الدرجة؟ ففي يوم من الأيام كنت أسكن في قصرنا الجميل كما يحلو للبعض تسميته، أنام في سريري المريح،

وتحضر لي والدتي طعام الإفطار إلى غرفة نومي وتجلس بجانبي تطعمني بيدها ثم تقوم بتحميمي وتسريح شعري؛ كنت أنا المتربع على عرش قلبها بلا منازع.

وكأي طفلٍ مدلل كنت الآمر والناهي في المنزل، كان والدي يفرح بصراخي على الخدم، ولا أزال أذكر تلك الحادثة التي وقعت لي عندما كان عمري خمس سنوات وأنا أتنزه مع والدي في مزرعته الكبيرة، ثم شاهدت الحارس محمود الذي يعمل منذ صغره لدى جدي وقد أصبح رجلاً كبيراً في السن ويتلهف على خدمة والدي ويقبل يديه ثم يدي، بعدها يرفع يديه إلى السماء ليدعو لنا، فيعبث والدي بجيبه ويخرج بعض الأوراق النقدية ويسلمها إليه؛ في ذلك اليوم كان يتجول مع ابنه الصغير الذي كان يكبرني بعدة سنوات، وكان يحمل بين يديه جرواً صغيراً فنظرت إليه مطولاً ثم رفعت رأسي نحو والدي وقلت له:

- أريد هذا الكلب.

فابتسم والدي وربت على شعري ونظر إلى الحارس الذي سرعان ما أدرك مطلبي، فأخذ الكلب من يد ابنه الصغير الذي بكى بصوت عال ووضعه بين ذراعي، ثم ضرب رأس ابنه وقال له: أسكت، لكنه لم يسكت، وظل يبكي، فسلمه والدي بعض الأموال فلم يأخذها ثم قال والدي:

- أين عثرت على هذا الكلب؟

ردّ الوالد: لقد عثر عليه منذ أيام قليلة هنا بين الشجيرات.

فأجابه والدي: عثرت عليه في مزرعتي وكل ما فيها ملكي وملك ابني، فالكلب ملك لابني.

ثم استدار وعدنا إلى المنزل.. كنت فرحاً بالكلب، وأصررت على الاعتناء به والقيام بكل المهام المتوجبه عليّ لكنني سرعان ما سئمت منه وتركت الخدم يعتنون به ثم أعاده والدي إلى صاحبه. لقد

نمت لدي عادة غريبة، وشجعني والدي عليها وهي أن آخذ كل ما يثير الرغبة بي سواء أكانت لعبة يلعب بها طفل من أطفال الجيران أم حيواناً أليفاً، وكان والدي يعوضهم عن تصرفي ببعض الأوراق المالية، أو يعيدها إلى مالكها بعد أن أسأم منها، ولكن جدي كان دوماً يعلمني الفرق بين السرقة وحب الامتلاك حتى لا أتشجع على السرقة.

أما بالنسبة لعائلتي فلم يسبق لي أبداً مشاهدة والديّ يتشاجران، فمنزلنا كان ساحة للحب والرومنسية وأخواتي كن هادئات للغاية، وتربط أفراد عائلتنا المحبة والاحترام الذي يكنه كل فرد إلى الآخر.

عندما شاهدت صور زفاف والدتي لم أصدق أنها المرأة نفسها، فكم تغيرت ملامح والدتي وهاجمت عوامل الزمن تضاريس جسدها وترسبات الحمل لم ترحمها أبداً فتحول الجسد الممشوق الذي ضحت به من أجل حلم الأمومة إلى جسد مكتنز مترهل.

ربما تغيرت ملامحها لكن حب والدي لها لم يتغير أبداً، كان يحبها حباً جماً ولا يخفي حبه وولعه بها عنا أو عن أعين من حولنا؛ وسمعته ذات مرة يهمس لها (سأحبك حتى لو تحولت خصلات شعرك الى تاج من الشيب وحتى لو قصرت قامتك وظهرت فيها حدبة ووقعت كل أسنانك، سأظل أحبك إلى آخر نفس أطلقه، ولن ينتزع حبك من قلبي إلا بانتزاع هذه الروح من الجسد).

لم يكذب والدي في مشاعره تجاه والدتي، فكل تصرفاته تدل على ذلك ابتداءً من وفائه لها وانتهاءً بتخصيصه يوماً من العطلة الأسبوعية ليخرج معها ويدللها واليوم التالي يقضيه معنا.

أما بالنسبة لأخواتي فكن يحببني كثيراً ولم أرَ في أعينهنّ الحسد والغيرة بسبب معاملة الجميع لي كأمير صغير بل كن يلبسنني ملابسهن ويسرحن شعري كالفتيات ويصبغن وجهي بمستحضرات التجميل ثم يطلقن الضحكات ويداعبنني كفتاة صغيرة، وكان والدي يضحك لهذا

الأمر كثيراً ولكن عندما بلغت التاسعة من العمر رفض والدي هذه الأعمال وأصر على اختلاطي مع أقراني من الأطفال الذكور ومجالسة أطفال عماتي اللاتي أنجبن أولاداً بعد مرور السنوات، ولكن ذلك لم ينقص من قيمتي أبداً، فأنا أعدُّ الحفيد الذكر الأول وحامل لقب العائلة وكذلك سوف يكون ابني في المستقبل.

ومضت السنوات ودلفت الى المدرسة،وكان والدي يعلمني طرق الدفاع عن النفس؛ وطبعاً أحضر والدي لي مدرساً خاصاً يساعدني في استذكار دروسي، فكنت أتركه يقوم بواجباتي المدرسية وأقضي الوقت في اللهو.

كنت شخصاً محبوباً في المدرسة من قبل أقراني، وأشكل رهبة في قلوب المدرسين، فوالدي حذر الجميع من المساس بي ولو بكلمة، واكتسبت محبة الجميع بسبب شقاوتي ومرحي الدائمين، وابتسامتي الساحرة التي لا تفارق وجهي ومحاولتي وضع الخطط والمقالب للمدرسين وحركات التهريج في الصف الدراسي.

انتسبت إلى الفرق الرياضية فمارست التنس والطائرة والسلة وكرة القدم، وعندما بلغت الرابعة عشرة انتقلت إلى مدرسة أخرى، ولكن هذه المرة مختلطة ونظامها أجنبي، وبسبب جسدي الرياضي ومهاراتي أصبحت نجماً محبوباً في مدرستي، ولم أكن كغيري من الأولاد متلهفاً لعلاقات الحب مع زميلاته من الجنس الناعم وذلك بسبب اختلاطي بزميلات أخواتي منذ صغري، ولم تكن لدي مشكلة أبداً في محادثة الفتاة وإضحاكها من دون أن يحمرّ وجهي أو أتلعثم خجلاً، ولم أهتم بالفتيات أو أحاول إنشاء علاقة خاصة، وكنت أردد أنهن كأخواتي، ولقد أدى عدم اهتمامي بزميلاتي إلى إثارة الكلام من حولي وتهامس الفتيات أنني رجل مغرور، لكنني كنت ألمح دوماً نظرات الرغبة في أعينهن وشهقات الإعجاب التي يطلقنها عندما أتزعم

أصحابي وأحادثهن عن مغامراتي ومقالبي التي لا تنتهي أبداً، وأضحك وأبتسم زهواً عندما أكتشف وبذكائي كيف تحاول كل واحدة منهن جاهدة لفت نظري إليها لكنني كنت أصرح دوماً أنهن مجرد زميلات لا أكثر، فنشأت حرب سرية بين الفتيات في محاولة منهن لكسب قلبي والاستيلاء على نظراتي.

لكنني في ذلك الوقت لم أكن أهتم بالفتيات، ولم أشغل نفسي بمتابعة خططهن على الرغم من أنها تشعرني بالتفاخر وأغذي بها غروري كرجل، بل اهتممت بشيء آخر ووقع قلبي في حب السيارات والدراجات النارية فانشغلت بها وحرصت على تعلم مهارات القيادة من سائقنا الخاص الذي أجبرته على الجلوس بجانبي وأن أتولى أنا قيادة السيارة أثناء ذهابي وعودتي من المدرسة؛ وبما أن طلباتي هي أوامر استطعت اقتناء دراجة نارية، كنت أستخدمها وأنا ذاهب إلى حفلات المدرسة المقامة في المساء، والفتيات كنَّ يتقاتلن للصعود خلفي، لذلك كنت آخذ كل فتاة في جولة لمدة دقائق ثم أعود بها إلى المكان نفسه الذي أخذتها منه فأجدها لا تزال هائمة في عالم الخيال.

نهضتُ من عالم الذكريات على حركة خفيفة تصدر مني، ففتحت عيني ببطء وجلست أحدق في ركن الزنزانة حتى اتضحت لي الرؤية فشاهدت حسن ساجداً على الأرض، فرفعت نظري إلى النافذة الصغيرة فلمحت خيوط الفجر بدأت تنسج لونها في دجى الليل، فأدركت أن الفجر قد حلَّ، وأن حسن منهمك في أداء صلاته، فاعتدلت في جلستي؛ فالنوم هرب مني كما هربت الذكريات الجميلة من ذاكرتي بسبب سوداوية السجن.

انتهى حسن من صلاته ونظر إليّ وقال:

- آسف هل أيقظتك؟

فقلت له وأنا أتثاءب:

- لا بأس بذلك، على كل حال لم يتبقَ وقت طويل على الصباح.

فقال حسن:

- ألا تصلي.

فقلت له:

- وهل لنا غير باب الرحمن لنطلب الغفران.

فابتسم حسن ونهض من مكانه مفسحاً لي المجال، فنهضت لأغتسل وأؤدي الصلاة، وبعد أن فرغت منها جلست أتسامر مع حسن حتى حان وقت الإفطار.

ومضى النهار وأنا أتجول في أركان السجن حتى حان المساء وذهبت إلى الزنزانة.

***

(23)

حسن

جلستُ مع حسن في الزنزانة فقال لي:

- أتعلم يا نزار ما الذي يثير استغرابي دوماً.

- كلا.

- إنني كنت في نظر الجميع قدوة لأبنائهم.

- وما الذي حدث حتى تتغير بهذه الطريقة وتدخل السجن بسبب المخدرات؟

فابتسم ابتسامة حزينة وقال:

- ألم تسمع بالمقولة التي تقول إن الضغط يولد الانفجار، وابتسم بسخرية وأكمل إنها تنطبق عليّ.. أذكر عندما دخلت المدرسة الابتدائية كنت أدعى دوماً بالشيخ حسن، وأحياناً أستمع إلى تعليقات بعض الأطفال وهم يصرخون كلما لمحوني قادماً... اتقوا الله... اتقوا الله، فنقلني والدي إلى مدرسة دينية لأتخلص من إزعاج الأولاد الأشقياء.

لم أكن وحيد والدي بل لدي أخ يصغرني بثلاث سنوات وأختان تليانه، كان والدي يتدخل في كل تفاصيل حياتنا ويقوم بإرهابنا دوماً بالله، وتذكيرنا أن الحياة فانية وأننا في امتحان صعب لا يجتازه إلا العباد الأقوياء والأشداء.

لمدة سنوات ونحن نعيش في ضغط شديد بسبب والدي الذي لم

يسمح حتى بدخول التلفاز إلى المنزل إلا بعد أن رجته والدتي، فوافق ولكن بشروط تشفير كل القنوات والسماح بالقنوات الإسلامية فقط وعدم جلوسنا أمام التلفاز ما يزيد عن ساعتين في اليوم.

كبرت وأنا لا أعرف في الحياة إلا الدين... أعيش حياتي وأستنشق الدين... ولم أكن أخرج مع أقراني إلا نادراً، فوالدي يحرص على مراقبة زملائي، وأي شخص لا يصلي فهو فاسد، وأي شخص يستمع إلى الأغاني هو منحل.

استمرّ الوضع على هذا النّحو حتى تعرفت على عماد عندما كنت في المرحلة الثانوية.. فقد تم نقلي إلى مدرسة أخرى جديدة لم أكن أعرف أحداً فيها؛ فأنا أمضيت سنوات عمري كلها مسجوناً بين جدران المدارس الدينية.

كان وجهه طفولياً ويجبرني على رد الابتسامة له... يشمر عن ذراعيه حتى أعلى ساعديه وقد ترك خصلات شعره تتدلى على وجهه... أعجبتُ بشخصيته القوية وكيف يجعل كل تلاميذ المدرسة يخشونه ويحترمونه، وكيف يثير الهرج والمرج في الفصل.

أجلسه الأستاذ بقربي وأبعده عن شلته التي تثير الضوضاء... كان ملاصقاً لي طوال اليوم ولا يعيرني أي اهتمام إلا عندما ينقل أجوبتي إلى كراسته.

كان يوماً دراسياً عادياً ولم تتبقَّ إلا دقائق طويلة حتى ينتهي، وفجأة دخل المدير إلى الفصل وأدركنا فوراً أنه يوم التفتيش عن المخالفات التي يأتي بها الطلاب معهم..، ارتبك عماد ونظر إليّ بتوتر ثم أخرج من جيبه بعض السجائر وتبادل معي النظرات، وبحركة سريعة سحبت السجائر ووضعتها في جيبي، بعدها أخرج من الدرج مجلة، ونظر نحوي بتوسل فسحبتها ووضعتها بين كتبي.

وقف الجميع، وتحرك المدير بين الطاولات الدراسية يتبعه المشرف والأستاذ وبدأ التفتيش... كنت معتاداً أن لا يقترب أحد من

طاولتي أو يقوم بتفتيشي بسبب معرفة المدير بشخصيتي والتزامي الظاهر على هيئتي.. لقد مر المدير بالقرب مني ثم فتش عماد ولم ينظر إلي، وقال لي بصوت حنون: "إجلس يا بني"، وابتعد عني كأنني شيء مقدس ويخشى تدنيسه بمجرد النظر إليه... خرج الجميع من الفصل، فتنهد عماد بارتياح وابتسم لي وهو يطرف بعينه، ورن الجرس معلناً انتهاء الدوام الرسمي فأخرجت السجائر وسلمتها إلى عماد فنظر إليّ بإعجاب وشكرني.

خرجت من الفصل وعدت إلى المنزل.. ووضعت كتبي داخل الدرج، وتناولت الغداء ثم ذهبت للصلاة، وعندما عدت استلقيت فوق فراشي لأرتاح، لكنني نهضت فجأة، واتجهت إلى رزمة الكتب أقلّبها حتى وجدتها... لقد نسيت إعادة المجلة إليه، نظرت إلى صورة الغلاف وسرت الرعشة في جسدي، لاشعورياً اندفعت نحو الباب وقمت بإغلاقه ثم وضعتها في أحد الأدراج وأقفلته بإحكام.

عدت إلى فراشي وحاولت النوم لكنني لم أستطع... نهضت من جديد وفتحت الدرج وسحبت المجلة ونظرتُ إلى الغلاف ثم فتحت أول صفحة وفغرت فاهي من الدهشة؛ فأنا لم يسبق لي أن رأيت فتاة ترتدي هذه الملابس من قبل، وأمضيت ما يقارب الساعة وأنا أتصفح هذه المجلة وأتوقف أمام كل صفحة وأسرح في خيالي للحظات حتى سمعت صوت طرق الباب، فانتفضت من مكاني كأنني مجرم تم القبض عليه، وسقطت المجلة من يدي فأتاني صوت والدي: حسن، حان وقت الذهاب إلى مركز تجويد القرآن.

خبأتها وذهبت إلى المركز لأدرّس الأطفال الصغار، وعندما حل المساء تناولت عشائي ودلفت إلى غرفتي متعللاً بالصداع وعدت إلى سرّي الجديد... كنت أنظر إلى صور الفتيات الجميلات وأهيم في الخيال... وفي اليوم التالي، أثناء جلوسي في الفسحة اقترب مني عماد وقال:

- حسن أين المجلة؟؟

تورد وجهي وفكرت للدقائق وقلت بتردد:

- لقد تخلصت منها بالأمس قبل عودتي إلى المنزل....

كانت المرة الأولى التي أكذب فيها في حياتي... رفع كتفيه بلامبالاة وقال: لا بأس.

مع مرور الأيام، وأثناء جلوسي في الفصل شاهدت عماد يخرج مجلة من الدرج وينظر إلى صور النساء، فحاولت اختلاس النظر لكن عماد أمسك بي وابتسم وقال مشيراً إلى الفتاة شبه العارية:

- أتعلم من هذه؟

وابتلعت ريقي وقلت وأنا أخفض رأسي: كلا.

- إنها عارضة الأزياء البرازيلية الشهيرة ايملي بوك.

ثم وضع المجلة في درجي وأكمل:

- خذ هذه المجلة لك فأنا أملك نسخة أخرى... لم أرفض ولم أنطق بحرف ثم انطلقت إلى المنزل بكنزي، ولم أتناول طعام الغداء وتعذرت بإكثاري من تناول الإفطار أثناء الفسحة، واختبأت في غرفتي مع المجلة وأنا أقلب صفحاتها بفضول ونمت وهي بين أحضاني، نهضت مساءً فقالت لي والدتي وهي تحيك الصوف:

- إن والدك غاضب منك.

جلست بالقرب منها وقلت متسائلاً:

- لم؟؟

- لأنك تخلفت عن أداء الصلاة.

- آسف يا أمي، لقد كنت أشعر بالإرهاق، الآن سأصليها.

ثم أكملت بتوسل:

- هل من الممكن أن تخبريه بذلك؟ أرجوك..

- حسناً ولكن لا تكررها.

ومضت الأيام وعلاقتي بعماد تتوطد أكثر فأكثر، وكنت أجلس

معه في الساحة نتزعم شلته... وذات يوم دار نقاش عن أحد الأفلام التي تم عرضها في دار السينما، ولم أكن لأتحدّث حتى قال لي أحد أصحاب عماد:

- حسن هل شاهدت الفيلم؟

نظرت إلى الأرض وقلت: كلا.

فنظر إليّ عماد طويلاً، وعندما عدنا إلى الفصل قال وهو يربت على كتفي:

- ألم تذهب إلى السينما من قبل؟

- كلا، لم أذهب.

- هل بسبب والدك؟

- نعم.

- أظن أنك لم تشاهد فيلماً من قبل!!

وتجاهلت كلامه فقال:

- سوف آخذك معي اليوم إلى السينما ما رأيك؟

- ولكن ماذا أقول لوالدي؟

- قل له إنك ستخرج مع رفاقك.

- لكنه لن يسمح لي.

- أخبره أنك مدعو على العشاء.

- لن يوافق.

- اممم... أخبره أنك ستجتمع بزميلك من أجل مشروع المدرسة.

- إنها فكرة ممتازة سأحاول تنفيذها.

وبعد أداء صلاة العصر أخبرت والدي بذلك ورجوته فوافق على ذهابي بعد إلحاح، وانطلقت إلى بيت عماد فقال لي وهو يتفحصني بعينيه:

- يجب أن تغيِّر ملابسك.

سلمني بعض الملابس ووضع قبعة رياضية على رأسي ونظارة شمسية على عيني وقال: حتى لا يتعرف عليك أحد في المدينة.

- أسنذهب إلى المدينة؟

- طبعاً.

وذهبنا إلى السينما الواقعة في وسط المدينة، وكان أول فيلم أشاهده في حياتي فشعرت بالحماس عندما أطلّت البطلة الشقراء، فلكزني عماد بذراعه وهو يقول:

- أليست مثيرة؟

فأومات برأسي؛ كنت مندهشاً بما أراه وكيف تقبّل هذه الحسناء البطل في الفيلم، ثم اصطحبني إلى أحد المقاهي وطلب نارجيلة وكان يتكلم والدخان يخرج من فمه فقال:

- هل تريد أن تجرب؟

- كلا سيقتلني والدي.

في تلك اللحظه أطل زملاء عماد وقال لي أحدهم:

- أوووه حسن لم أعرفك.

فقال عماد: لقد جعلته وسيماً.

- هل ذهبتم إلى السينما؟

فقال عماد:

- نعم.

- وما رأيك يا حسن بالفيلم؟

- إنه رائع.

عدت إلى المنزل وأنا أشعر بالسعادة تغمرني بعد قضاء يوم رائع مع عماد... إن في الحياة أشياء جميلة ورائعة وقد حرمني والدي منها... استسلمت للنوم وفجأة نهضت مرتعباً فقد نسيت أن أؤدّي صلاتي.

كنت أشعر بصراع داخلي، وتحاصرني رغبة الاستمتاع بالحياة وتملكني الفضول لأعرف المزيد عن هذه الحياة وملذاتها، فقد سئمت من الروتين القاتل.

ناقشت عماد بما يجول في بالي فقال:

- استمتع بحياتك، فكل الرجال قد استمتعوا في أيام الشباب ثم التزموا.

- ولكن...

- لكن ماذا؟ حتى والدك عاش حياته بالطول والعرض.

نظرت إليه بدهشة:

- أحقاً؟؟

- نعم، إن الجميع يعرف ذلك، وإن والدك كان شاباً مشاكساً ولكنه تاب بعد أن تزوج والدتك.

كانت معلومة جديدة عن والدي، فأنا ظننت أنه ولد وهو ملتزم، وعندما سألت والدتي ابتسمت وهي تقول: كلنا لنا أخطاء في الماضي، ولكن نحمد الله على هدايته لنا وخير الخاطئين التوابون.

لقد استمتع والدي بحياته، إذن لماذا يحرمني من ذلك؟ فلأعش حياتي كما أشاء ثم أتوب.

وقررت الهروب مع عماد ورفاقه من المدرسة والذهاب إلى السينما، فاتجهنا نحو مدرسة الفتيات، وقام عماد ورفاقه بمعاكستهن واحمرّ وجهي خجلاً فضحك عماد وهو يقول:

- أنا متاكد أنك لم تقبّل فتاة من قبل.

ثم صاح وهو يقول: "عيد ميلادك الأسبوع القادم والهدية عليّ"، وكانت الهدية هي سماح امرأة في العشرينيات من العمر، جميلة للغاية، وبذلك جربت طعم النساء للمرة الأولى وأصبحت كبطل الأفلام.

أعجبتني حياتي الجديدة، ولكنني كنت أحرص على الصلاة حتى لا يشك والدي بأمري، آه كم كنت أخجل من ربي عندما أقف أمامه، فهو يعلم ما اقترفته نفسي الأمارة بالسوء ولكنني سأتوب.

وأصبحت أدخن النارجيلة والسجائر وأرافق عماد ولا أفارقه أبداً

حتى انتهت المدرسة وذهبنا إلى الجامعة وقررت ترك الجلباب وارتداء البنطلون والقميص، وطبعاً من دون علم والدي، وابتعدت عن رفاق طفولتي على الرغم من امتعاضهم واستيائهم وتحذيرهم لي من أن عماد شاب فاسد ولكنني أريد الاستمتاع في حياتي، فتركت دروس التجويد بحجة أنني لا أملك الوقت الكافي لذلك.

وتعرفت على المخدّرات في إحدى الجلسات مع عماد، فقد أحضره أحد رفاقه، ودخنت الحشيش لأول مرة، وأمضيت الليل وأنا شبه فاقد للوعي، ولم أعد إلى المنزل في تلك الليلة، وعندما نهضت صباحاً أدركت أنني سأقع في ورطة مع والدي، ولكنني رجل ولا أهاب منه.

عدت إلى المنزل ونظرت إلي أختي بخوف وذعر وقالت: ماذا بك؟

فنظرت إلى وجهي في المرآة وكان الإرهاق بادياً عليه، وعاد والدي وقال لأمي أن تقوم باستدعائي إلى غرفة الجلوس، فذهبت إليه وأنا سأم لإدراكي بالكلام الذي سيقوله، وبعد محاضرة طويلة وتأنيب صرخت في وجهه:

- لماذا تحرمني من الاستمتاع بحياتي كما استمتعت أنت بها... ألم تذهب إلى السينما في شبابك، إذن لماذا تمنعني أنا من ذلك، أم أن الله سيعاقبني أنا وسينساك، أريد أن أعيش حياتي كرجل... ماذا يحصل إذا نمت خارج المنزل ليوم واحد، لقد كنت مع رفاقي وأدركني النوم ولم أشعر بحالي إلّا صباحاً.

ثم أكملت وأنا أنهض من مكاني: دعني كي أعيش حياتي كما أرغب أو سأترك المنزل ولن أعود.

وتركته في صدمته وذهبت إلى غرفتي، وعندما حل المساء ذهبت إلى عماد ومكثت معه عدة أيام أدخن الحشيش وأتناول البيرة،

وتعرفت إلى البودرة البيضاء، وكنت أعيش في عالم آخر، فمات ضميري بعد أن خنقته بيدي.

لم أعد حسن الشاب الخلوق؛ وتناقلت الألسن ما أفعله، ولكنني لم أهتم حتى عندما قال لي أخي ما يقوله بعضهم فأجبته: إنها إشاعات، وتركت الصلاة التي كانت آخر حبل يربطني بربي.

قطعته من أجل الحياة، آه كم كنت أحمق ذاك الوقت.

لقد زيّن لي الشيطان الحياة وغلبت شهواتي ضميري... لقت بعت الآخرة بقذارة الدنيا...

لقد تهت في هذه الدنيا وأدمنت المخدرات، فأخذت أسرق بعض حاجات المنزل وأبيعها كي أحصل على ما أريد... لم يكن والدي يحادثني أبداً، وكان يتجاهل النظر إليّ، أما والدتي فكانت تبكي ليلاً ونهاراً وترفع يديها نحو السماء تدعو الله أن يعيدني كما كنت.

وكنا نحضر في جلساتنا الكثير من الفتيات اللواتي يشاركنن الرقص وشرب الخمر وتعاطي المخدرات... عندما أفكر بما كنت أفعله لا أصدق أنني حسن بشحمه ولحمه؛ وكان هناك شخص آخر سكن هذا الجسد وأمضى يحركه كما يشاء ويفعل به ما يريد، أما شخصيتي الحقيقية فأصبحت عاجزة على الاعتراض كأنها خاضعة ومنومة مغناطيسياً لما يحدث.

كان المال ينقصني فلا أحصل على ما أشاء، وأثناء جلوسي مع عماد قال لي إن زميله عرض عليه العمل معه في بيع المخدرات، وإنه يرغب بمشاركتي معه في هذا العمل، شعرت بالخوف ولكن سرعان ما فكرت بالمكسب والمال الوفير الذي سيؤمن لي ما أريد.

وبدأت العمل في بيع المخدرات واستأجرت شقة مع عماد كي نسهر بها بعد أن طرده والده من المنزل، وكنا ندعو الفتيات للسهر

معنا، وفي الصباح نقوم بفرز المخدرات لتوزيعها، واستطعت شراء سيارة ولكنني كنت أزعم أنها لعماد حتى لا أثير شكوك والدي.

ومرت الأيام وأنا على حالي، وتم فصلي من الجامعة بسبب تغيبي المستمر، وذهبت إلى المنزل لأحضر بعض ملابسي فنظر إليّ والدي ثم تمتم ببعض الكلمات فقلت له بغضب:

- ماذا هناك؟

فقال لي: أستغفر ربي.

- لماذا، ألا يعجبك ما تراه، ألا أشابهك في شبابك؟

فنظر إليّ بألم، ولكن كان للخمر تأثير على شخصيتي فحاولت أن أستفزه بالكلمات حتى غضب مني وقال لي رداً جرحني، فهجمت عليه وضربته فصرخ والدي، فاندفعت أختاي ووالدتي وصرخن بفزع، ورفعت والدتي يدها تدعو الله عليّ، وخرجت من المنزل وأنا أردد: سأترك هذا المنزل المعقد من دون عودة.

ذهبت إلى عماد في الشقة ووجدت أن البضاعة قد وصلت، ففتحت الأكياس فوق زجاج الطاولة وقمت بتقسيم البودرة بموس الحلاقة، وكنت أحادث عماد ولكنه لا يجيبني، وتركته في نومه؛ وفجأة انخلع باب الشقة ودخل العديد من رجال الشرطة وبعض الأشخاص الذين يرتدون ملابس مدنية وأمسكوا بي. لقد حاولت إيقاظ عماد ولكن عندما حرّكه الشرطي وقع على الأرض، ثم تحسس نبضه وقال لقد مات. كنت أصرخ بفزع وأنا أناديه، وتم اقتيادي إلى السجن، وفي اليوم التالي استطاع والدي مقابلتي بعد أن ألح في السؤال عني وطلب مساعدة الجميع.

وبكى والدي وهو يقول: ما الذي أخطأت به حتى تصبح مدمناً؟

ولم أجبه، لقد دهست على أحلامه لأنني لم أرغب بتحقيقها على حساب حياتي.

فقال لي: لقد أضعت مستقبلك وخذلتني.

تم اصطحابي إلى مركز لمعالجة الإدمان ثم حكم عليّ بالمؤبد، ولكن والدي وعدني بإيجاد حل لي ولم يتخلَّ عني، أما عماد فمات قبل توبته، وأدركت أن الموت يأتي بلا موعد، ولا ينتظر منا التوبة على الرغم من أني كنت أعلم ذلك، ولكنني لم أدرك المغزى إلا بعد فوات الأوان.

***

(24)
سارة

كنت شارد الذهن، أتجه بخطوات ثقيله نحو الحمام... أزحت المنشفة التي تغطي الجزء السفلي من جسدي وأدرت صنبور المياه لتنهمر عليّ الذكريات.. أطلقت نفساً عميقاً وأنا أسند ذراعي إلى الحائط ورأسي موجه نحو الأسفل، وعاد إليّ الماضي الأليم ليجعلني أذكر الثمن، ثمن أغلاطي؛ ربما ننسى أفعالنا وظلمنا للآخرين لكن الله لا ينسى.

بلغت سن السابعة عشرة وأصبحت رجلاً صغيراً أحمل اسم العائلة العريقة التي يفتخر الجميع بأصلها؛ فرح والداي كثيراً وتوجا فرحتهما بحفلة دُعي إليها جميع الرفاق.

كان الجميع يتحدث عن حظي الوافر، ويتمنى لو أنه ولد في عائلة كعائلتي، لكنني لم أهتم بنسبي أو فصلي، فما جذبني حقاً هي مركبات السباق كالسيارات أو الدراجات النارية، ومع الأيام تعلمت تطوير سيارتي وإضافة بعض القطع إليها لجعلها تبدو أجمل وأسرع، ولم تتسبب هوايتي بالغضب لوالدي أبداً إلا أنها أدخلت أمي في دوامة مستمرة من القلق بسبب ما يصلها من حكايات عن حوادث السرعة القاتلة.

لم يكن هناك من يحاسبني أو يعاقبني على شقاوتي، وكانت الشكاوى تزداد بسبب تصرفاتي، وكلما أخطأت ابتسم والدي ابتسامة

كبيرة تكشف عن أسنانه وقال (لقد أصبح ابني رجلاً، انظروا إليه ماذا فعل).

حتى طرق الحب باب القلب، وفجأة وبلا سابق إنذار وجدتها على الرغم من أنها كانت أمام عيني لسنوات طويلة، لكنني لم أنتبه إليها لكوني لم أعتد النظر إلى الفتيات وملاحقتهن؛ كانت تحضر معي حصة اللغة الفرنسية، وكنت أثير المقالب وأزرع روح المرح في الحصة، فوجدت الجميع يبتسم ما عداها.. وعدت إلى التهريج مرة أخرى، ونظرت إليها أريد أن ألمح تأثير دعابتي عليها لكنها لم تبتسم، وفجأة ومن دون سابق إنذار، نظرت إلي نظرة لم أستطع إدراك معناها، إلا أنها جعلتني أخجل من تصرفاتي وأجلس بعدها بصمت حتى انتهاء الدرس.

وابتدأت مرحلة جديدة في حياتي ألا وهي ملاحقتها بنظراتي، فكنت أستفسر عنها أصدقائي بحذر ومن دون إظهار اهتمام خاص بها؛ كم كانت تغيضني نظراتها، وكم وددت لو أصفعها على وجهها حتى أزيح هذه النظرة من عينيها.

اسمها سارة، وهي تصغرني بشهور، واكتشفت بعدئذ أن والدي هو من ساعد أشقاءها في الحصول على عمل، وأنها من أسرة بسيطة الحال، حيث تضطر للعمل مساءً حتى توفر رسوم المدرسة.

كانت ملامحها جامدة وكأنها تبرجت بها، وتسير بخطوات سريعة من دون أن تلتفت يميناً أو يساراً كمشية الجندي، وتغلق أزرار قميصها حتى آخر زر ولا ترتدي حذاء بكعب أبداً.

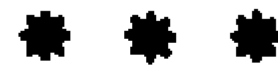
وذات يوم، كنت مستنداً إلى الحائط، فطرق على مسامعي صوتٌ للجنس الناعم يأتي من خلفي، فسمعت بعض الفتيات الآتين يتهامسن حولي، فقالت إحداهن (آه كم أنّ نزار وسيم)، وقالت الأخرى: أتمنى لو أعرف ما نوع الفتيات اللواتي يفضلهن حتى سمعت صوت إحداهن تقول:

- آه كم أنتن تافهات، إنه مجرد طفل كبير ومهرج سخيف، ألا ترون كيف يتصرف بحماقة.

واقترب الصوت مني أكثر فأكثر، واستدرت كي أواجه هذه الفتاة التي تتحدث عني بالسوء، لأصطدم بسارة؛ نظرت إليّ بخجل ووضعت أصابعها على شفتيها بارتباك ثم طغى على المكان صوت ضحكات زميلاتها وهن يضعن أيديهن على أفواههن محاولين كتم ضحكاتهن.

نظرتُ إلى سارة فإذا بوجهها قد تورد، فاحتضنت كتبها ثم استدارت مبتعدة عني بخطوات سريعة وصاحباتها يتبعنها.

إذاً، فهي تعتبرني مجرد طفل، مهرج، إنني بالنسبة إليها أضحوكة، أخذت نفساً عميقاً وأنا أشعر بالغضب الشديد من كلامها وحديثها بالسوء عني، وقررت أن أجعلها تدرك أنني رجل ولست بطفل، ويجب عليّ إثبات ذلك لها، وخطرت ببالي فكرة رائعة جداً وسوف أنفذها يوم الحفلة المقامة في نهاية الأسبوع.



حان الموعد المنتظر، وذهبت إلى الحفلة بدراجتي النارية، وما إن شاهدتها حتى انطلقت بدراجتي ووازنتها بحيث جعلتها تسير على عجلة، ثم عدتُ إلى مكان وقوفها وجعلتها تشاهد مهارتي وقدرتي على القيام بالألعاب البهلوانية.

أدرت رأسي لأنظر إليها وأرى إن كانت تشاهد ما أفعل، وابتسمت عندما لمحتها تنظر إليّ ثم فجأة بدأ الذعر على ملامحها وملامح الأخريات اللواتي بقربها، وأطلقن صرخة لم أسمع بعدها شيئاً.

أدركت فيما بعد أنني ارتطمت بإحدى المركبات، وكدت أدهس

تحت عجلاتها، ونهضت بعد أيام لأجد نفسي في المستشفى وأنا موصول بأجهزة وأنابيب وقدمي مثبتة بالجبس، وأشعر بصداع رهيب.

توافد عليّ كل أقاربي وزملائي، وأقسمت والدتي أن لا تدعني أقود الدراجة مرة أخرى، أما والدي فقد وعدني بشراء أفضل دراجة لي بعد خروجي من المستشفى، وانتاب جدي القلق والخوف من تفويتي للدروس والامتحانات.

بعد عدة أيام أتت سارة لزيارتي وهي تحمل باقة ورد، ابتسمت وأنا أقول لها:

- يجب عليكِ الاعتذار، فأنت السبب بما حدث لي.

فنظرت إليّ بدهشة وقالت:

- أنا؟

- نعم أنتِ السبب، سمعتك ذات يوم تتحدثين عني وتقولين إنَّ نزار مجرد طفل كبير ومهرج،ولذلك أردت إثارة إعجابك بمهاراتي البهلوانية،وعندما نظرت إليكِ لم أنتبه إلى الطريق فصدمتني المركبة.

فابتسمت بخجل وهي تقول:

- لقد أثبتَّ صحة كلامي بتصرفك هذا.

فجأة دخلت والدتي فقطعت علينا حديثنا، وارتبكت سارة ونظرت إليها والدتي مطولاً، فحاولتُ قطع هذا التوتر وقلت:

- سارة زميلتي في المدرسة.

صافحتها والدتي، وجلست على حافة السرير ثم دخل والدي فقالت له أمي ببرود وهي تشير بيدها نحو سارة:

- زميلته في المدرسة.

نظر إليها والدي وهو يبتسم، ورحب بها بحرارة ثم قال:

- أنتِ ابنة من؟

فقلتُ له:

- إنها ابنة عامر الروان.

فابتسم أبي وهو يقول:

- ونعم الرجل إني أعرفه منذ زمن.

فقالت أمي ببرود قاتل:

- أليس هو من جاءنا يطلب توظيف أبنائه؟

أحسست أن كلام والدتي ضايق سارة فقال والدي:

- إن أبناءه من خيرة الرجال.

فتحدثتُ قائلاً:

- وسارة من أفضل الطلاب، إنها متفوقة، وسكتُّ للحظات ثم قلتُ وأنا أنقل نظراتي بينها وبين والدي:

- ما رأيك يا والدي أن تجعل سارة تراجع لي دروسي التي تخلّفت عنها بسبب مكوثي في المستشفى.

ثم غمزت لسارة وأنا أهمس لها:

- وكتعويض عن الضرر الذي سببته لي.

ارتبكت سارة ونظرت إلى والدي الذي ابتسم وهو يقول:

- لا توجد لدي مشكلة، ولكن يجب عليّ إخبار والدها أولاً.

فقالت سارة بتوتر واضح:

- لكنني أعمل مساءً يا عمي.

فتحدثت والدتي من دون أي اهتمام:

- وكم تستلمين؟ سوف ندفع لك ضعف المبلغ.

فتوردت وجنتاها وهي تقول:

- لا، لا أرغب بالمال، باستطاعتي مراجعة دروسه من دون أي مقابل، ولكنني لا أستطيع ترك عملي، فبدا الخذلان على وجهي ثم حملت حقيبتها وقالت وهي تتجه نحو الخارج:

- سررت بمعرفة عائلتك، وأتمنى لك الشفاء العاجل.

تبعتها بعيني حتى خرجت ثم نظرت إلى والدتي وقلت لها بعتاب:

- لماذا تحدثتِ معها بهذه الطريقة؟

فنظرت إليّ ببرود ثم أشاحت بوجهها عني:

- لم أشعر نحوها بالطمأنينة.

- ولماذا؟

- لا يوجد سبب معين.

فنظرت إلى والدي بحزن وأنا أقول له:

- والدي إنها من أفضل الطلبة في المدرسة، وأعلم أنها ستؤدي واجبها نحوي على أكمل وجه، أرجوك يا والدي حاول إقناعها.

- لكنها ترفض التنازل عن العمل، سوف أحضر لك مدرساً آخر.

فأشحت بوجهي عنه وأنا أزفر أنفاسي غضباً.

بعد عدة أيام أتت سارة مرة أخرى لزيارتي، وهذه المرة جلبت معها بعض الأوراق والكراسات، وقالت وهي تفرز الأوراق على الطاولة وتفتح الكراسة:

- هذه بعض الدروس التي فوتّها.

فنظرت إليها بدهشة:

- هل غيّرتِ رأيك؟

- كلا... لكن والدك حادث والدي، ولم يرفض طلبه وأجبرني على الحضور.

- إذن هل أنتِ مجبرة على الحضور؟

- ما رأيك؟

- لا أعلم، ولذلك أسألك.

فأغلقت الكراسة بقوة وهي تقول:

- نعم مجبرة، كنت أحب عملي كثيراً وأجبرتني أنتَ على تركه.

- تحبين عملك، لا أظن أنّ التواجد في محل للديكور أمر يدعو إلى السعادة.

- وهل تعلم أنتَ ما معنى السعادة؟

- نعم، فأنا سعيدٌ جداً.

- لا أعتقد ذلك.

ثم صمتت للحظات

فقلت لها بلهجة جافة:

- أنتِ لستِ مجبرة على الحضور، يمكنك الانصراف والعودة عندما ترغبين بذلك.

جمعت الأوراق ووضعتها داخل إحدى الكراسات ثم نهضت مندفعة نحو الخارج وأغلقت خلفها الباب بعنف؛ في تلك اللحظة وافتني رغبة بصفعها بقوة، آه كم تغيضني هذه الفتاة.

ولكن لم تكن هذه النهاية حيث إنها عادت بعد مرور الأيام، ودخلت من دون إلقاء التحية، وجلست بالقرب مني ثم فتحت الكراسة وأخرجت الأوراق فقلت لها وأنا أبتسم بخبث:

- لَمَ عدتِ؟

فقالت من دون النظر إلي:

- لو سمحت، لا أريد أي حديث خارج نطاق الدرس.

ومنذ ذلك الحين أصبحت سارة تزورني يومياً لمراجعة الدروس.

خرجت من المستشفى، وطبعاً أتت لزيارتي في منزلنا؛ كان شعوري غريباً جداً تجاهها، فأنا لم أكن أعتبرها كباقي الفتيات، فتاة سهلة وأسعى لإنشاء علاقة حب معها... إنها فتاة تشعرني بالاستقرار، تجعلني أحترمها قبل أن أرغب بها، كانت جالسة تشرح لي إحدى المسائل وخصلة من شعرها تتدلى فوق جبينها كلما رفعتها إلى الأعلى تدلّت مرة أخرى.

تفرستُ ملامح وجهها للحظات وربما لساعات، كان جمالها من النوع الهادئ جداً والذي لا يلفت انتباه الرجال إليها أو يدير رؤوسهم كلما مرت بالقرب منهم، ولكن ما يميزها، أنك كلما نظرت إليها اكتشفت جمالها بهدوء، أما جسدها فلا تكاد ترى منه شيئاً، ولا

يوجد فيه شيء ملفت للنظر، ولا أقصد أن جسمها كجسم الرجال لا يوجد فيه ثنايا؛ فجسدها فيه بعض التضاريس الخفيفة وغير المبالغ فيها، ولكنها تخفيها كأنها تخجل من أنوثتها أو ربما كانت لا تهتم بها أبداً، وابتسامتها حلوة، إذ كلما ابتسمت أشرقت غمازاتها من خديها، لكنها نادراً ما تبتسم، وغالباً ما تتظاهر بالحزم والجد، أما عيناها فواسعتان وفيهما بريق يشابه البريق الموجود في عيون الأطفال، كيف أصف لكم ذلك، نعم... إنه بريق البراءة والسذاجة.

هذه هي سارة التي كانت تدخل السرور في قلبي؛ نظرت نحوي فجأة بشيء من البرود القاتل وقالت:

- هل استوعبت ما أقول؟

كانت تتكلم، لكنني لم أستطع إدراك ما تقول؛ فوجهها كالمغناطيس ما إن أراه حتى أجد نفسي أنجذب إليه، وأدقق في ملامحه وأدرس تفاصيله.

ابتلعت ريقي وقلت لها:

- نعم استوعبت الدرس جيداً.

فمزقت ورقة من الكراسة وانحنت تكتب عليها ثم وضعتها أمامي وفوقها القلم وقالت:

- هذا هو الامتحان.

استغربت وقلت:

- أي امتحان؟

- ألم تكن تسمع ما أقول، لقد قلتُ لك بالأمس سأجري لك امتحاناً لأرى مدى استيعابك.

احمرّ وجهي وأنا أقول:

- آه..... لقد نسيت ذلك.

- لا بأس، شرحت لك هذه المسألة منذ قليل وأظنك استوعبتها جيداً.

ثم أسندت ظهرها وفتحت كتاب العلوم وأخذت تقلب صفحاته ثم نظرت إلي وقالت:

- ماذا بك، هيا خذ القلم وأجب عن الأسئلة.

أمسكت بالقلم وباشرت القراءة، وطبعاً لم أفهم معنى هذه المسائل فانحنيت على الورقة وباشرت برسم ملامح سارة، وبعد مرور ربع ساعة نزعت عينيها من على كتاب العلوم وقالت:

- دعني أشاهد أجوبتك.

رفعت الورقة أخبئها عنها وأنا أبتسم.

- ماذا بك دعني أشاهدها؟

- كلا.

- ولماذا؟؟

نهضت، فخبأت الورقة خلف ظهري، وبعد نزاع استطاعت سحبها من يدي فنظرت إليها، فلمحت شبح ابتسامة على شفتيها.

ثم تظاهرت بالجد وهي تقول:

- ممتاز جداً، هل وجهي جواب عن هذه الأسئلة؟

فضحكت وأنا أقول:

- آسف يا سارة، لم أكن منتبهاً.

- إذن سوف أعتذر لوالدك لعدم قدرتي على مواصلة الدروس معك.

- ولماذا؟

- أنت لا تنتبه إلى ما أقوله، إنك تسترق النظر إليّ دوماً.

فأطلقت ضحكة من أعماق القلب ثم قلت لها:

- أنكِ شديدة الوثوق بنفسك.

- ولِمَ؟

- لماذا تظنين أنني أشاهدك، هل تعتقدين مثلاً أنني معجبٌ بكِ؟

احمرّ وجهها وتلعثمت وهي تقول:

- لم أقصد..

قاطعتها: بل قصدتِ ذلك، لكن اطمئني فأنا لا أسعى خلفك، والواقع أني لا أهتم بك ولا أظن أنّ أي رجل عاقل سوف يهتم بك.

فقالت لي بغضب:

- ولماذا؟

ابتسمت بخبث:

- لأنكِ تشبهين الرجال إلى حد ما، ولا تهتمين بنفسك أبداً، أنظري إلى أظفارك المتكسرة وأطراف شعرك المتقصفة وحاجبيك الشبيهين بشاربَيْ والدي.

لا شك أن كلامي جرحها، فلقد تحول وجهها إلى اللون الأحمر وهي تقول: ومن الذي قال لك إنني أرغب بجذب نظرات الرجال، ثم انتصبت واقفة وأكملت وهي تجمع الكراسات: سوف أخبر والدك عن عدم قدرتي على مواصلة الدروس معك.

ثم استدارت منصرفة.

وبعد ثلاثة أيام عرجتُ على المدرسة، فشاهدت فتاة تسير وقوامها لا يكاد يستقر أو يهدأ وقد جذبت كل أنظار الرجال بملابسها وبطريقة سيرها، وعندما أدارت رأسها كانت... سارة!!

لاشعورياً أطلقت ضحكة عالية هزت أركان المكان، فنظرت إليّ بغضب ووجهها يكاد ينفجر من الإحراج، ثم غادرت على عجل، فقال لي صاحبي: لماذا أحرجتها؟

- لم أقصد ذلك.

- كانت تبدو جميلة.

فكّرت لثوانٍ ثم وجدت نفسي أتبعها:

- سارة... سارة أرجوك قفي لا أستطيع الجري خلفك.

كانت ساقي لا تزال مجبّرة فلم أستطع الإسراع للحاق بها.

وبحثت عنها بين أركان المدرسة فلم أجدها، فقررت سؤال

إحدى الفتيات التي سبق وأن شاهدتها برفقتها عن مكان تواجدها، نظرت إليّ الفتاة بشك ثم قالت: "سارة في حصة اللغة العربية"، وأخبرتني عن مكان القاعة، فذهبت إلى حيث تتواجد وبحثت عنها من خلال الفتحة الزجاجية الموجودة في باب الغرفة، فوجدتها جالسة وعلى وجهها علامات الحزن، وكانت أنظار الفتيات تتجه إليّ أثناء اختلاسي النظر فقررت التهريج قليلاً؛ دخلت الصف متظاهراً بالعمى محاولاً تحسس ما أمامي بيدي واتجهت ناحية الأستاذ مباشرة الذي بدا مذهولاً ومتفاجئاً من دخولي إلى القاعة بهذه الطريقة، وبدأت بتحسس وجهه، فانطلقت ضحكات الطلاب، ثم قلت للأستاذ:

- أليس هذا صف العلوم؟

فقال لي: كلا يا ابني.

- إذن صف الرياضيات.

فقال الأستاذ بتذمر:

- كلا يا ابني، إنه صف اللغة العربية.

- إذن هذا هو الصف الذي كنت أرغب بحضوره... فأنا قد تغيبت عن المدرسة لمدة أسابيع وتم نقلي إلى هذا الصف.

فقال الأستاذ بتذمر: حسناً تفضل بالجلوس، ثم ساعدني على ذلك. وما هي إلا لحظات حتى وقفت حاملاً ورقة قمت بتكبيلها، وسرت متحسساً أمامي ورميتها في حجر الأستاذ الجالس على الطاولة فازدادت ضحكات الطلاب، فصاح بغضب: هل تمزح أم ماذا؟

فقلت له:

- آسف، فأنا أعمى كما ترى.

وأثناء ذلك رن جرس الحصة فقلت له رافعاً يدي وأنا أخطو إلى الخارج:

- إلى اللقاء يا أستاذ.

فرماني بنظرة غضب عندما اكتشف أنني لم أكن أعمى وعندما خرجَت أمسكتها من ذراعها فسحبت نفسها بقوة من يدي وقالت:

- ماذا تريد؟

- أنا آسف، لم أقصد السخرية منك.

- لا يهم.

- حسناً، هل سوف تزورينني اليوم؟

- كلا.

- لماذا؟

- لا أستطيع.

- إذن فأنتِ غاضبة مني.

- كلا.

- حسناً ستقام حفلة هذا الأسبوع بمناسبة خروجي من المستشفى وأرغب بشدة في حضورك.

- سأفكر.

- حسناً ستقام الحفلة يوم الأربعاء في منزلي.

- حسناً، وانصرفت، وطبعاً لم تأتِ إلى الحفلة وانتهى الفصل الدراسي الأول سريعاً وأنا لا أكاد ألمحها حتى أحسست أنها تتهرب مني.

سافرت طوال فترة عطلة الربيع ثم عدت إلى الدراسة وأنا قد نزعتها من دماغي، لأتفاجأ أن القدر قد وضعها في طريقي مرة أخرى؛ لقد كانت زميلتي في الصف، وعندما دلفت إلى القاعة لم أجد مكاناً شاغراً إلا بجانبها، ولم يرغب قلبي الشاغر سواها، ومع الأيام وقع قلبي في حبها وأبحرت في بحر هواها.

***

(25)
نشوة الحب

كتبت الشعر وأنا لا أعرف قواعده ورسمت وجهها على الأوراق وأنا لست برسام، ألهذه الدرجة يمدنا الحب بالطاقة!!

لماذا تحتل صورتها عقلي وترفض التنحي عنه كأنه أصبح عرشاً لها، لماذا يشكل اسمها شيئاً هاماً بالنسبة لي كلما تناهى إلى مسمعي فزّ القلب؟؟

إن حبك هو أبجديتي التي أخاطب بها من حولي، فكلما حاولت أن أتحدث نطق حبي لك.

مضت ليالٍ طويلة وأنا أغرق في نشوة الحب تدريجياً وأرفض الاعتراف بذلك، لكن نظراتي كانت تفضحني، إذ كلما رأيتها أرتبك وأتصرف كشخص مذنب... خائف... مفجوع.

كانت تصرفاتي تعلن عن وقوعي في الحب وتجعل الجميع يعلم؛ لقد أظلم الحب عالمي، وجعل محبوبتي الشعلة التي أوجه أنظاري نحوها أينما اتجهت.

كنت في ساحة المدرسة جالساً عند حافة حوض الزراعة الكبير، وكان رفيقي تامر متكئاً على الحوض بقربي، كنت هائماً في حبها وأفكر بعمق بها، فضحك صاحبي تامر فجأة وهو يقول لي:

- أوقعتَ يا نزار؟

فأجبته مستنكراً:

- وقعت في ماذا؟

فطرف لي بعينه:

- في شباكها.

أشحت بوجهي عنه:

- أنت تتوهم.

- لكن عينيك تفضحانك.

فاقتربت لينا من مكان جلوسنا، فقال لها تامر:

- هل سترافقيننا غداً في الرحلة.

وضعت كتبها عند حافة الحوض وقالت:

- إذا كان نزار سيذهب فلا بد لي من ذلك.

فتبادل تامر معي النظرات، ثم قال وهو يربت على كتفي:

- وهل تحلو النزهة من دون نزار؟

نظرت لينا إلى ساعتها ثم قالت:

- أنا مضطرة للذهاب الآن، أراكم غداً.

انصرفت وأعيننا تتابع خطواتها، فقال لي تامر:

- إن لينا باهرة الجمال وعلى ما يبدو فهي معجبة بك.

- إنها معجبة بكل شاب في المدرسة.

وفجأة مرت سارة من أمامي وهي تحاول جاهدة حمل بعض اللوحات

فقال لي تامر:

- إنك تجري وراء وهم.

- إنك أنت الغارق في الأوهام، وقفزت من مكاني متجهاً إلى سارة بخطوات سريعة.

وأمسكت بطرف اللوحات برفق فقالت وهي معرضة عني:

- شكراً يا نزار، لكنني أستطيع حملها لوحدي.

- ولكنني أرغب في مساعدتك.

فنظرت إليّ مؤنبة، ولكنني لم أدرك مغزى هذه النظرة وتبعتها حتى خارج المدرسة، فوقفت تبحث بعينيها عن شخص تعرفه ثم استدارت نحوي وقالت:

- شكراً، أستطيع حملها عنك الآن.

ولم تنتظر جوابي... أخذت اللوحة وصعدت إلى إحدى السيارات التي كان فيها شاب يلتهمني بنظراته.

لا أعلم سبب تجاهلها لي، وكلما لمحتني قادماً من بعيد استدارت وهربت مني، ولكن غداً سأجد الإجابة لكل الأسئلة.

في المساء تقلبت في فراشي يميناً وشمالاً كطفلٍ ينتظر يوم النزهة بقلق وحماس، وكانت الأسئلة تتراود على مخيلتي فتقضّ مضجعي؛ من كان هذا الرجل الذي ذهبت برفقته اليوم؟ هل ستحضر غداً أم ستتجاهل الرحلة؟ يا ترى لماذا تنظر إليّ بلوم وتأنبني بعينيها؟

نهضت من فراشي محاولاً تجاهل كل هذه الأسئلة التي تجعل النوم يهرب مني وقررت الخروج للتنزّه بسيارتي قليلاً... كانت الساعة تقارب الثانية صباحاً وقادني الشوق إلى منزل سارة فتجولت بالقرب منه، أنظر إلى حديقته الغارقة في الظلام وأبحث بين نوافذة عن مكان نوم سارة.

يا ترى أي غرفة هي غرفتها؟ وهل هي نائمة الآن أم هناك من يشغل بالها؛ أثناء دوراني في الحي الذي يقع فيه منزلها اصطدمت عيناي بالرجل الذي شاهدته برفقتها اليوم، نظر نحوي بريب وكان الشر يتطاير من عينيه، فاستدار بكامل جسده وهو يتتبع سيارتي بنظراته فقررت العودة أدراجي حتى لا أتسبب بمشكلة لسارة.

في اليوم التالي نهضت مرهقاً من السهر، وكانت الساعة تجاوزت الثامنة والنصف؛ قفزت كالمرتعب لأنّ موعد انطلاق الرحلة سيكون في الثامنة والنصف؛ دلفت إلى الحمام واغتسلت وهبطت بسرعة إلى الطابق السفلي فنادتني والدتي:

- نزار، تعال لتناول طعام الإفطار.
- يا أمي دعيني فأنا مستعجل.
فتبعتني إلى الخارج وفي يدها كوب اللبن: إشرب يا بني.
نظرت إليها بضيق مستسلماً تحت إلحاحها، وأخذت الكوب وشربت محتواه دفعة واحدة ثم انطلقت بالسيارة مسرعاً، وأخبرت تامر بقرب قدومي، ووصلت حيث تتوقف الحافلة بسرعة خارقة، وعندما دلفت كنت أفتش بين الوجوه عن من فتنتني بهواها عن العالم.
لوح لي تامر القابع في آخر الحافلة مع شلة الرفاق وجلستُ معهم... انطلقت الحافلة ثم توقفت فجأة، ففز القلب من مكانه واتجهت نظراتي نحو باب الحافلة فصعدت إحدى زميلاتي، فظهر على وجهي شبح الخيبة فقالت لينا بابتسامة خبيثة:
- أتنتظر أحداً يا نزار؟
فقلت لها ببرود مشيحاً بنظري:
- كلا.
خيّم عليّ الصمت طوال الرحلة، أفكر بها، لماذا لم ترافقنا، هل بسببي أم ماذا؟
ووصلنا إلى الشاطئ وانقسمنا للسكن في كبينتين، إحداهما خصّصت للفتيات مع المدرسات والأخرى تضمّ الشباب والمدرسين.. مكثت على شاطئ البحر مستلقياً فوق الكرسي متجهم الوجه أرفض النزول إلى البحر أو مشاركتهم سعادتهم، وتامر جالس بجانبي على الرمال، أما لينا فكانت مستلقية بملابس السباحة محاولة اكتساب بعض الاسمرار ثم قالت لي: ما لي أراك حزيناً؟
- أشعر بالضجر.
- سأرفّه عنك.
فأطلقت نفساً عميقاً، فقال تامر وهو يدير رأسه إلى الوراء:
- أنظر من أتى.

أدرت جسدي نحو الكابينة لأرى سارة مع إحدى الزميلات، نهضت متجهاً نحوها غير مكترث بمن حولي وبنظراتهم الموجهة لي، وعندما شاهدتني سارة أقترب منها استدارت ودلفت إلى الكابينة وأنا واقفٌ كالأبله أنظر إليها بحزن، ثم ابتعدت عن الشاطئ وأنا أضرب الأرض بقدمي.

كان لا بد لي من معرفة سبب نفورها مني، وأثناء عودتي إلى الشاطئ شاهدتها تسير مبتعدة عن مكان جلوس الزملاء، فلحقت بها بهدوء من دون أن تشعر بي.

كانت تسير عاقدة ذراعيها... عارية القدمين فوق رمال البحر الباردة والموج يداعب قدميها بين الحين والآخر، وعندما أدركتُ بعدنا عن الزملاء تقدمت نحوها وشعرت هي أن هناك من يتبعها، فاستدارت تنظر إلى الوراء وتلاقت أعيننا، فحاولت الهروب مني ولكنني اعترضتها بجسدي فقالت: ماذا تريد؟

- أرغب بجواب.

- وما هو السؤال؟

- لماذا هذا الصد والكبر من قبلكِ؟

فاستدارت ناحية البحر والنسيم يرفع خصلات شعرها إلى الوراء وقالت بتردد، نزار ثم ابتلعت الحروف.

- أرجوك، أخبريني بماذا ينشغل بالك؟

- كلام الناس.

- وما همنا.

- إنهم يتحدثون بالسوء عنا.

- من هؤلاء؟

- الناس.

- لا تعممي، قولي لي من؟

وأمسكتها برفق من مرفقيها وأدرتها نحوي:

- سارة.... فنظرت بخجل نحو الأرض.
- أخبريني وأعدك بعدم التصرف بتهور؟
- إنها لينا.
- وما بها؟
- إنها تجرحني بكلامها دوماً وتزعم أنني أحاول سرقتك منها.
فنظرت إليها بدهشة متفاجئاً من حديثها، كنت على علم بكيد النساء ولكن لم يخطر ببالي أن لينا تحاول إبعادي عن سارة:
- ولكنني لا أكن الود لها.
- لا يهمني.
- ولكن يهمني أن تعلمي ذلك.
ثم قلت لها بعتاب: ويهمني كذلك معرفة من هذا الشاب الذي شاهدتك معه.
- أي شاب؟
الذي كان ينتظرك بالقرب من بوابة المدرسة.
- لا شأن لك بذلك.
- أرجوك يا سارة.
فلاح شبح ابتسامة على شفتيها:
- إنه ابن خالتي حسام.
تنفستُ بارتياح وتلألأت في عينيها نظرة لم أدرك مغزاها:
- هل ترغبين أن أوضح الأمور إلى لينا؟
- كلا، ولكنها تروج الشائعات وتصرفاتك تعززها.
- أي تصرفات؟
- جريك خلفي و...
- وماذا؟
انتابها الخجل واستدارت مبتعدة ولحقتها ممسكاً بها من ذراعها: سارة أرجوك.

- نزار لا رغبة لي بالتورط معك.

وتخلصت من قبضتي وانصرفت.

في اليوم التالي جلست أراقبها من خلف عدسات نظاراتي الداكنة، وكانت لينا تجلس ملاصقه لي ثم قالت لي بتوسل:

- أرجوك يا نزار لننزل إلى البحر.

فوافقت مرغماً وقلت ببرود: حسناً هيا بنا.

فابتسمت ونهضت لتساعدني على النهوض.

كنت أشعر أن هناك من يلاحقني بعينيه، إنهما بلا شك عينا سارة؛ بعدها استأجرت مع الرفاق دراجة البحر، وأثناء انطلاقي بها شاهدت سارة عند الشاطئ تتحدّث مع تامر وهو فوق الدراجة، فذهبت إلى مكان وقوفهما فقال تامر موجهاً الحديث إليها:

- اصعدي مع نزار.

فنظرت نحوي بخجل، فقلت لها:

- تعالي ولا تخشي شيئاً فأنا سائق ماهر.

أدارت رأسها تنظر لما وراءها، وكانت لينا تحدق بنا بضيق، فسارت بدلال وصعدت خلفي، ألبستها سترة النجاة ثم انطلقت بها أشق أمواج البحر فكانت تصرخ وتتشبث بي وأنا أضحك حتى فقدت السيطرة على الدراجة وانقلبنا إثر مرور موجة عالية، كنتُ معتاداً على السقوط في الماء ولكن سارة أصيبت بذعر وبكت وهي تمسك بملابسي:

- سارة إهدأي ولا تخافي.

- أخاف من البحر.

- أنا معك فلا تخافي.

ولكنها ازدادت بكاء، فاضطررت لحملها وإصعادها إلى الدراجة، وصعدتُ خلفها وانطلقت بها بهدوء حتى لا ينتابها الخوف، وشاهدنا جزيرة فاتجهت نحوها.

نظرت سارة حولها بعينيها المحمرتين بسبب مياه البحر وقالت:

- أين نحن؟

- لا أعلم، ولكننا قريبون من الشاطئ.

- وماذا نفعل هنا؟ فلنعد أدراجنا.

فقلت ممازحاً: لكي اعتدي عليك، ومهما قاومتِ أو استنجدتِ لن يسمعك أحد.

وتبدلت ملامح وجهها وأصيبت بالذعر وبكت.

فقلت لها بلطف: سارة كنتُ أمزح معك ألا تثقين بي؟

- بلا.

كاذبة، فلو كنت تثقين بي لما انتابك الرعب هكذا وبكيتِ.

لم أكن أبكي بل إن مياه البحر تحرق عيني.

- كاذبة.

ساعدتها على النزول وجلسنا فوق الرمال البيضاء، فقلت لها: ما رأيك في هذا المكان؟

فأدارت رأسها تتفحصه، فكانت الرمال كأنها لؤلؤ منثور والصخور الشامخة التي تمتد من الجهتين تعانق الجزيرة، وانعكست ظلال أشجار النخيل على الرمال الدافئة، وطيور النورس تملأ المكان بأصواتها.

- أنها تسلب الروح.

- كما سلبتِ أنتِ روحي.

فتدفقت الدماء إلى وجنتيها وقالت: نزار...

قاطعتها: سارة أرجوك دعيني أعيش هذه اللحظات الجميلة معك فإنها بلا شك ستكون أجمل ذكرياتي.

- وهل تعتبرني من الآن ذكرى؟

- أنا أعتبرك ذكراي الجميلة ومستقبلي.

- نزار ماذا تريد مني؟

- لا أريد شيئاً، وفي الوقت نفسه أرغب بكل ما فيك.

فنظرت إليّ بعين حائرة، فأجبتها وأنا أرفع خصلات شعرها إلى الوراء لكي أرى وجهها الجميل:

- أرغب أن تكوني معي إلى الأبد، أرغب أن تكوني أماً لأبنائي وأن تشاركيني حياتي.

- ولكن....

- وضعت إصبعي على شفتيها محاولاً منعها من إكمال الجملة:

- سارة، ألم تشعري بحبي لك، ألم يبلغكِ قلبكِ بذلك ولكنكِ تجاهلتِ ذلك متعمّدة.

- نزار أرجوك لا تجعلني أحلق بين السحاب ثم تتركني أتهاوى وأتحطم وتتناثر أشلائي.

- لماذا هذا التشاؤم؟

- إنه الواقع.

- ألهذا أجد منك الصد والكبر.

- لماذا تحاول سلبي عقلي وقلبي؟

- لأسترد حياتي.

- وهل سرقتها أنا؟

- كلا، لقد سحرتها بعينيك الحالمتين.

- نزار لا تحاول خداعي بكلامك المعسول.

- ولا تحاولي إقناعي بصدك وابتعادك، فأنا على علم بنار الغيرة التي تلسع قلبك الطاهر كلما اقتربت لينا مني.

- أنت تتوهم.

- إن عينيك تفضحانك.

- إن عينيّ تكذبان عليك.

- أتتبرأين منهما لكي لا تستسلمي لي.

فنهضت من جانبي، ونفضت التراب عن ملابسها وقالت:

- أرغب بالعودة إلى الشاطئ.
- وأنا أرغب بفرصة.
- كلا.
- لا تكوني قاسية، فرصة واحدة وإذا لم أعجبك سنفترق.
- كلا.
- أنتِ بخيلة في عواطفك.
- وأنتَ محتال كالثعلب.
- سارة، سأتركك وشأنك إذا منحتني فرصة.
- لتخدعني بكلامك المعسول ثم تسمم قلبي بحبك.
- لماذا أنتِ متشائمة من الحب؟
- لأنه وهم.
- بل قولي الحق، لأنك تخشينه وترفضين الاعتراف أنك وقعتِ فيه.
- أنت تتوهم.
- أعطني فرصة كي أصدقك القول.
- سأفكر.
- أمامك دقائق.

فنظرت إليّ باستسلام وقالت: حسناً، ماذا تريد؟

- اليوم مساء سنخرج معاً.
- ولِمَ.
- أريدك أن تتعرفي عليَّ من قرب وتعلمي من أنا.
- أنت نزار.
- لا تستظرفي
- حسناً وإذا لم تعجبني.
- سأتركك في حال سبيلك.
- اتفقنا إذن، هيّا بنا نعود إلى الشاطئ.

- هيا بنا.

حان موعد اللقاء، وانتظرتها بالقرب من الكابينة، ولكنها لم تخرج حتى رنت إشارة الرسائل في هاتفي، فوجدت رسالة منها (أنتظرك في الحديقة التي تقع قرب الكابينة).

وانطلقت إليها فوجدتها جالسة فوق الأرجوحة:

- ماذا تفعلين هنا؟

- خشيت من نظرات الزملاء لنا.

- لا تقلقي، لن يعلم أحد.

فأخذت نفساً عميقاً وهي تنظر إليَّ بضيق.

هيا بنا، وأوقفت سيارة أجرة، وقلت للسائق إلى سينما الرمال، وسلمتها كتيب الأفلام فنظرت إليه بحيرة وهي تقلب صفحاته ثم قالت: لا أعلم، أنت قرر.

- أتحبين أفلام الرعب أم الرومنس؟

- دعني أرى ذوقك.

واخترت أحدث فيلم أجنبي فكاهي رومنسي، وقمنا بشراء بعض الأطعمة الخفيفة وجلسنا في الظلام نتابع الفيلم بصمت حتى دخل بعض الشباب فهمست سارة: إنهم زملاؤنا.

- قلت لك لا تخشي شيئاً.

وأدارت وجهها، حدقت بها طويلاً ثم قلت لها: سارة أترغبين أن نغادر؟

- نعم أرجوك.

تسللنا بهدوء إلى خارج السينما، فلمحت لينا والفتيات يدخلن من الباب الرئيسي، فأمسكت بيد سارة وسحبتها خلفي وهرولنا نحو باب الطوارئ. ترددت سارة فقلت لها إنها حالة طارئة، ثم خرجنا فوجدنا محطة الباص فصعدنا على متنها ونحن نضحك من تصرفنا.

جلست سارة تلتقط أنفاسها وأسندت ظهري إلى الكرسي: سنذهب إلى مطعم رائع.

- أخشى مصادفات رفاقك.

- إطمئني.

كان المطعم ياباني الطراز، أتيته منذ عام مضى مع رفاقي، جعلتها تتذوق السوشي لأول مرة في حياتها، ثم تنزهنا سيراً على الأقدام ونحن نتسامر، وكانت أيادينا تتلامس في كل خطوة؛ بعدها قالت سارة وهي تشير إلى الخيول:

- ما أروع الخيل؟

واتجهنا إلى هناك، فقالت سارة وهي تربت على وجه أحد الأحصنة: إن الخيل كائن نبيل.

- هل ترغبين أن نقوم بجولة، ثم وجهت كلامي إلى السّائس حتى أتفق معه؛ امتطيت الحصان ومددت يدي لأساعد سارة التي صعدت بصعوبة وانطلقت فوق رمال الشاطئ بهدوء وخصلات شعر سارة تداعب وجهي كلما هب نسيم البحر، ورائحة عطرها تتسلل بهدوء إلى أنفي.

كانت ليلة رائعة جداً، وعندما شارفت على الانتهاء قلت لها وأنا ألمس خصلات شعرها الملتفة بغنج حول عنقها لتتدلى فوق صدرها:

- كنت أتمنى لو تطول هذه الليلة، ولكن الوقت مر بسرعة البرق.

فابتعدت بدلال:

- لقد استمتعت برفقتك اليوم.

- إذاً الآن أدركتِ من هو نزار.

فقالت وهي تداعب أظفار يدها:

- حان وقت العودة.

- لن أتصل بك بعد اليوم أو ألاحقك.

فعقدت حاجبيها مستغربة فأكملت حديثي: سأتركك تقررين إذا أعجبتكِ وأردتِ الخوض في هذه العلاقة فلديكِ رقم هاتفي... حادثيني.

عدنا إلى المدينة وانتظرت لأيام بالقرب من الهاتف أتوسله أن يأتيني بخبر سار، لكنه رنّ كثيراً لكن لم تكن هي؛ فعدت إلى المدرسة وكنت ألمحها من بعيد فأراها تشيح بوجهها عني، فقررت نسيانها لأنني لن أجري خلف فتاة لا ترغب بي وقد وعدتها بتركها في حال سبيلها إذا منحتني الفرصة لأجعلها ترى جانباً من شخصيتي لم تره من قبل.

وكنت ألمحها من حين إلى آخر مع ابن خالتها حسام وهو يوصلها بسيارته، وذات يوم، وأثناء خروجي من المدرسة كانت لينا تجلس مع صاحباتها فنادتني وأتت تهرول نحوي:

- نزار هل من الممكن أن تقوم بإيصالي إلى منزلي؟
- حسناً، لكنني أتيت اليوم بدراجتي هل لديك مانع؟
- طبعاً لا.

واستدارت تلوح لزميلاتها مودعة، وسارت خلفي حتى وصلنا إلى دراجتي فساعدتها على الصعود، وشاهدت سارة من بعيد تنظر إلي ثم صعدت مع ابن خالتها.

عدت إلى منزلي وغرقت في نومٍ عميقٍ، ولم أنهض إلّا على صوت إشارة تنبيه الرسائل، تناولت هاتفي وفتحت الرسالة التي كانت تقول: "هل استمتعت برفقتها؟".

فركت عينيّ، ونظرت مرة أخرى وكان رقم سارة... تجاهلتها كي أجعلها تغرق في ما فعلته بي لأسابيع... في اليوم التالي بحثت عنها بين أركان المدرسة ووجدتها جالسة على الدرج تقرأ كتاباً، وشاهدت لينا تقترب مني، فاندفعت مسرعاً إليها أرحب بها بصوت عالٍ أثار

استغرابها، ووضعت ذراعي على كتفها وأنا أنظر إلى سارة وأحرك حاجبي إلى الأعلى ونحو الأسفل وأبتسم بخبث.

أغلقت سارة الكتاب بقوة، ونهضت من على الدرج وابتعدت فدفعت لينا يدي وهي تنظر إليّ بلوم كأنها اكتشفت خطتي؛ تبعت سارة وأنا أضحك، فقالت من دون أن تستدير إلي:

- هل تظن أن الأمر مضحك؟

- وهل تعتقدين أن رسالتك لا تدل على غيرتك؟

فاستدارت وهي تقول:

- كنت أسأل عنك؟

- عني يا (مفترية)؟

- نعم.

فقلت لها بعتاب: لو كان أمري يهمك لما تصرّفت تجاهي هكذا.

- كنت أمتحنك.

- والنتيجة.

استدارت بكامل جسدها:

- طبعاً راسب.

- ألا توجد واسطة؟

- طبعاً ابن العز دوماً يستعين بالواسطة.

ثم انصرفت مبتعدة وأنا أقف كالمعتوه وعلى وجهي ابتسامة بلهاء.

في المساء وصلتني رسالة نصية تقول فيها: "إنني أنثى لا أجيد السباحة في بحر الحب".

ابتسمت وأجبت قائلاً: "سأعلمك".

- "يبدو أنك سابح ماهر".

- "وأكثر، فأنا أحب الغوص في الأعماق".

ولم ترد عليّ فأدرت رقمها فقالت بصوت خافت: وأنا أرفض أن أدعك تغوص في أعماق قلبي.

- لا أرغب بقلبك فهو قاسٍ وشرير.

وضحكت وهي تقول: أنا الشريرة أم أنت معشوق الفتيات؟

- إنهن مجرد زميلات.

- أمم لا أصدقك.

- لم أطلب منك ذلك.

وساد الصمت للحظات ثم قلت لها محاولاً قطعه:

- هل من الممكن أن أراك؟

- أنت تشاهدني كل يوم؟

- أقصد أن أقابلك.

- كلا، لا يمكن.

- ولماذا الرفض، ففي الماضي كنت تأتين إلى منزلنا؟

- أنت قلت في الماضي، أما الآن فلا أستطيع.

- وما هو السبب؟

- إنّ الأعين تحاصرنا.

- أعين من؟

- ابن خالتي مثلاً.

- وما شأنه؟

- لمحك ذات ليلة بالقرب من منزلنا.

- هل أخبرك بذلك؟

- كلا، ولكنني كنت أنصت إلى حديثه مع أخي وهو يسرد ما شاهده.

- وما سبب ضيقه؟

- لا يرغب أن يلمحك في حينا.

- وهل والده ابتاع الحي وسجله باسمه حتى يمنعني من دخوله؟

- لا تبدأ بسخافاتك.

- أنا أمقت ابن خالتك.

- ولِمَ؟

- أشعر أنه يحبك.

وضحكت بدلال وقالت:

- إنه كأخي، فنحن معاً منذ أن كنا أطفالاً.

- إحساسي يقول إنه يحبك.

- وماذا يقول إحساسك عني؟

- إنكِ لا تستطيعين مقاومة وسامتي.

فضحكت وهي تقول: أنت سخيف وأغلقت الخط.

مع مرور الأيام استطعت ترويضها، لقد كانت كالحيوان البري الذي يرفض الخضوع لصياده.

كانت تتحداني بشقاوة وكنت أحب أن أشعل دائرة النار بيننا بتصرفاتي حتى أمضت الغيرة عنواناً لعلاقتنا، وهبت رياح الهمسات وثرثرة الزملاء لتزيد من إشعال النار.

***

كانت تمسك بقميصي وتتشبث به كطفلة خائفة وتختبئ خلفي، وعندما توقف المصعد خبأت وجهها في ملابسي وقلت لها: سارة أرجوك أنتِ تثيرين الانتباه بهذه الطريقة.

- أخشى أن يلمحني أحد.

- اطمئني.

ودخلت معي شقة صاحبي وهي ترتعد خوفاً، وجلستُ على الكنبة وجلست هي بعيداً عني على المقعد.

- لا تخافي، فأنا لن آكلك.

- أنا لست خائفة.

- إذاً لماذا أنت منكمشة على نفسك هكذا؟

فابتسمت ثم ضحكت ضحكة حلوة، واقتربت منها وركعت بركبتي على الأرض بجانبها، ومددت يدي إلى شريطتها لأطلق سراح شعرها فتناثرت خصلاتها على وجهها؛ أزحت بعضاً منها بيدي واسترسلت أحكي لها عن ماضيّ ونضحك على شقاوة أيام الطفولة... تحدثنا عن كل شيء، عائلتنا، مدرستنا، زملائنا، أحلامنا ومضى ذلك اليوم بسلام ولم أخطف إلا قبلة على خدها.

وقررنا أن نهرب من عالمنا ليوم واحد والذهاب إلى الجزيرة التي جلسنا على رمالها ذات يوم نتحدث، كان يوماً رائعاً ومن أجمل ذكرياتي.

ومع مرور الأيام تكررت لقاءاتنا حتى عزفت الطبيعة لحنان من ألحان الحب.

أصبحت أكثر هياماً بها، ووقعت هي في حبي ولم نعد قادرين على إخفاء مشاعرنا عن أعين الفضوليين.. وذات مساء كنت أدرس للامتحان النهائي، فالسنة الدراسية قد شارفت على الانتهاء والجامعة على الأبواب فهاتفتها وكنت مشتاقاً إليها وازداد الشوق بسماع صوتها حتى طلبت منها اللقاء ولو لساعة... اتفقنا على ذلك، وانطلقت بسرعة لأقف في المكان المعتاد.

صعدت إلى جانبي، وما إن تحركنا حتى توقفت سيارة أمامي وأخرى خلفي، ثم هبط بعض الشباب، وتبين أنه ابن خالتها وأشقاؤها.. أمسكتها من يدها بينما شهقت هي بذعر، ورفضتُ فتح باب السيارة خوفاً عليها من بطش أشقائها حتى أتت الشرطة واصطحبتنا جميعاً إلى المركز.

وقفت وسارة تبكي خلفي وهي تمسك بقميصي، وأتى والدها والشر يتطاير من عينيه وصفعني بقوة... ثم أبلغ والدي الذي حضر واستشاط غضباً ليس بسبب فعلتي بل بسبب والد سارة، وكيف تجرأ

على صفعي... اقتيدت سارة إلى الفحص الطبي وكنت أعلم بنتيجته وما ينتظرنا من عقاب.

وطال اجتماع والدي مع والد سارة في مكتب الضابط المناوب ثم خرج وصافح والدها الذي اقتادها وهي تبكي وتتوسلني بدموعها أن لا أخذلها.

صعدت بجانب والدي الذي قال لي: "إنها مرحلة وستنسى ما حدث".

- أنسى ماذا؟؟

- ما حدث مع سارة؟

- أنا أحبها.

- أنت صغير على الحب.

- الحب لا يفرق بين صغير أو كبير.

- دعك من كلام الشعراء.

- لكن يا والدي لقد دنست طهارتها.

- أعلم، واتفقت مع والدها أن يعود كل شيء كما كان.

- كيف ذلك؟

سيصطحبها إلى طبيب مختص ليعيدها كما كانت وسأتكفل بالتكاليف.

- هل الأمر بهذه السهولة؟

- لقد وعدته بإبعادك عن طريقها.

- وماذا سيحل بسارة؟

- لا أعلم، ولكن لن تعود إلى المدرسة.

- وهل الحل حرمانها من الدراسة؟

- هو والدها وحرٌّ بها.

- ألا يدرك أنه يقوم بتضييع مستقبلها بهذه الطريقة، إنها تتوق لدخول الجامعة.

- نزار دعك منها، وعليك أن تنساها.

وبذلك تم شراء صمت والدها الذي كان مجبراً على قبول العرض بسبب صداقته لوالدي.

اختفت محبوبتي عن عيني وأمضت أيامي بلا لون ولا طعم، وتخرجت من المدرسة ووصلني خبر إقامتها في بيت جدها، بحثت عن العنوان حتى وجدته، وأصبحت أتردد بسيارة جديدة اشتراها والدي لي ذات نوافذ داكنة حتى لا يراني أحد من أقاربها فنقع في مشكلة، وأمضيت كل يوم أتردّد على الحي حتى لمحتها تسير مع خادمة وهي تمسك بيد طفلٍ صغيرٍ وتتجه نحو السوبرماركت.

تبعتها وأوقفت مركبتي وبحثت عنها بين واجهات المحل... لمحتها فاقتربت منها بهدوء واستدارت تنظر إلي... صعقت ووضعت يدها على فمها تكتم صرختها، وقاومتُ بجهد رغبتي في احتضانها خشية من التهام أعين الناس لنا.. تحدثت بتوتر لا تخفيه نبرتي ومددت يدي أسلمها هاتفي: خذي هذا الهاتف وسأحادثك، ثم استدرت مبتعداً عنها بخطوات سريعة.

في المساء رنّ هاتفي، وكانت هي، وتحدثنا طوال الليل حتى انتهى شاحن البطارية.. كنت أبوح لها عن حبي وشوقي وتهمس هي عن أحلامها التي تحولت إلى أشلاء، وكنت أعدها بتعويضها عما مضى وسوف نتزوج بأقرب فرصة ونرحل من هذه البلدة.

جلست مع والدي وفاتحته برغبتي بالزواج من سارة... نظر إلي ثم قال: أنت تعلم منذ صغرك أن نور ابنة عمتك ستكون زوجة لك.

- ومن قال هذا الكلام؟

- جدك.

- ما شأنه بي وبزوجة المستقبل؟

- لقد اختارها لك.

- لكنني لا أحبها.

- لا يمكن أن تنزل كلمة والدي إلى الأرض.

- وماذا عن حبي.

- ستنسى يا نزار، وابنة عمتك جميلة للغاية ومثقفة ولا تنسَ أن مستوى عائلة سارة لا يؤهلها لتكون زوجة لك.

انفجرت غاضباً وحاولت بكل الطرق إعلان رفضي لهذا الزواج، وصممت على عزوفي عن الطعام والخروج من المنزل، وكانت والدتي تحاول معي بشتى الطرق أن أعود إلى رشدي، وهددت بقتل نفسي وكان والدي يتابع أفعالي وهو صامت ثم يردد بعد هدوء العاصفة: سينسى... سينسى.

وتم تحديد يوم زواجي وسارة لا تعلم عن الأمر شيئاً، وأتت ابنة عمتي إلى منزلنا، وكنت أرفض مشاهدتها ولكن والدتي بكت وتوسلتني فخضعت لدموعها.

كانت نور جميلة وتصغرني بشهور وتشابهني في ملامحي ولون بشرتي إلى حدٍ ما، لم تبتسم ولم تبدِ أي اهتمام لمشروع الزواج كأن الأمر لا يعنيها، أما عمتي فكانت فرحة وتطلق الزغاريد وتتحدث عن مكان إقامة حفل الزواج، وعن مصمم الفستان، وتم تحديد كل شيء بلمح البصر وتحدد موعد قتل الحب.

***

(26)

ما هو ذنب القلب

ما هو ذنب القلب إذا احتضرت اختلاجات الحب وهي في أولها؟ ما هو ذنب الحب إذا قتلتهُ الظروف؟ ما هو ذنبي أنا إذا كنتُ مقيداً بسلاسل العادات والتقاليد؟

في ليلةِ زواجي ذهبتُ إليها والخذلان عنواني، لأجدها تستقبلني بابتسامة مشرقة، قالت لي وهي تتحسس وجنتي:

- هل أنتَ مريض؟

فأجبتها وأنا أنظرُ إليها بانكسار:

- كلا.

- إذن لماذا ألمح الإرهاق على ملامح وجهك؟

- لم أنل كفايتي من النوم.

حاولَت أن تتحدث لكنها ابتلعت الكلمات فهي تعلم ما سبب الأرق، إنه التفكير بعلاقتنا التي يحاول الجميع إجهاضها وهي في شهورها الأولى.

احتويت يدها الدافئة بين يدي علّ وعسى أن تهدّئ النفس المعذبة:

- ما هي أخباركِ في بيت جدك، هل يحسنون معاملتكِ؟

فابتسمت محاولة إخفاء الألم الذي يشع من عينيها:

- نعم إني سعيدة لمكوثي هنا.

- ووالدك ألا يزال غاضباً منك؟
- لا عليك سوف يرضى في يومٍ ما.
نظرتُ إلى الساعة، فأدركت مَقصدي فقالت وهي تطبع على جبيني قبلة وتفتح باب السيارة:
- نزار، لا تشغل بالك، فكل شيء على ما يرام.
احتويتها بنظراتي، فربما تكون هذه المرة الأخيرة التي أراها فيها وهمس القلب "لو كنتِ تعلمين أن جثمان الحب سيشيع اليوم لما قلتِ هذا الكلام"، وابتسمتُ لها، فعيناي تبتسمان ولكن قلبي يبكي:
- أحبكِ يا سارة.
فابتسمَت وأرسلَت قبلة في الهواء.
ودعتها، فأنا اليوم سوف أشيَّع كجثة وليس كزوج... جلستُ على المقعد بجانب ابنة عمتي... أرى من حولي سعيداً، وتهل عليّ رياح الاستنكار فأتعجب من بعض التقاليد المتغطرسة لمجتمعنا كيف يظنون بأنهم قادرون على جمع امرأة ورجل تحت سقف واحد بمجرد عقد زواج جبري، وإكراههما على تقبل بعضهما بعضاً من دون أن يكون هناك أي تفاهم أو ود يجمعهما، فهل يظنون أن طباع البشر مثل طباع الحيوانات التي يتم حبسها في قفص كي يتم التزاوج في ما بينها من دون مشاعر؟

مهما تطورت الحياة ومهما سكنّا القصور واقتنينا أحدث الآليات والتكنولوجيا الحديثة إلا أن بعض العقول لا تزال رجعية.. فبعض العائلات وحتى اليوم لا تزال تجبر أبناءها على الزواج من بعضهم بعضاً بحجة المال والأصل؛ اليوم يوم زواجي وأنا أرى الكل فرحاً.. أنظر إلى ابنة عمتي نور وإلى عينيها المتورمتين من البكاء فربما هي الأخرى كانت تحب شخصاً ما وتحاول تصنُّع الابتسامة فقط من أجل عائلتها، جلستُ أراقب المنظر المروع.. روحان تتعذبان من الحب بينما آلاف الناس يحتفلون بدلاً من مواساتهما على موت الحب

وإجهاضه عسراً وظلماً، أصبحت العادات والتقاليد كأفعى كبيرة تلتف حول قلوب العشاق لتعتصر فرحتهم وتخنق مشاعرهم، كرهت نفسي وكرهت عائلتي وتمنيت لو كنت ابناً لإحدى العائلات البسيطة، لكنتُ الآن تزوجت من سارة التي اختارها قلبي وليس ابنة عمتي التي اختارها جدي منذ نعومة أظفاري لتكون زوجة لي وخليلة من دون استشارتي أو أخذ رأيي على سبيل الرضى.

وطئت على قلبي وقررت تأدية واجب فرض عليّ كرجل حتى لا تشك نور برجولتي، ولا نصعق بما أدركت؛ جلستُ على طرف السرير وسيطر عليّ الذهول... لقد عاقبني الله بابنة عمتي، فأنا من انتزع براءة سارة وأنا من لوثتها بقذارتي، هرولت نور إلى دورة المياه وسجنت نفسها هناك، وبعد مرور بعض الوقت تمالكت نفسي واتجهت إليها، طرقت الباب لكنها لم تفتح.. فاضطررت إلى كسره لأجدها قد حاولت الانتحار خوفاً من العار، وأن أخبر والدها بأنها ليست عذراء.. اصطحبتها إلى المستشفى وانتظرتها حتى انتهت من غسيل المعدة.

بكت وقالت لي: نزار.. أرجوك...

قاطعتها: بل أرجوكِ أنتِ.. اسمعيني جيداً.. لا أريد أن يعلم أي شخص بالموضوع.

نور: وإذا سألني أفراد العائلة عن سبب دخولي المستشفى ماذا أقول؟

- أخبريهم بمصارحتي لك بحبي لفتاة أخرى.. ولقد ضايقك هذا الموضوع كثيراً فحاولتِ الانتحار.

بعدها انتشر خبر محاولة انتحارها وعزوفي عنها بين أفراد العائلة، ولاحت غيمة الفضيحة بسوادها وساد الرعب من الفضيحة ليعكر أجواءنا، فخشيت عائلتنا أن تتساقط أمطار الإشاعات ونكون محط أنظار الناس، فاقترح والدي سفر نور لكي تكمل دراستها في

إحدى الدول المجاورة، وأن ألحق بها بعد عدة أشهر حتى تتاح لنا فرصة الاعتياد على بعضنا بعضاً.. اتفقت مع نور من دون علم أيّ كان أن أختار جامعة في مدينة أخرى كي أتركها تتصرف على راحتها... فرحت نور بالاتفاق وبتفهمي.. لكنني لم أسافر للدراسة.. كنت أريد تنظيف الفوضى التي خلفتها بسبب زواجي.. فحبيبتي كادت تموتُ بعد رؤيتها صور زواجي في الصحف.

مضت الأسابيع والضمير يعتصر قلبي ويعذبني، ويمر الليل وأنا أتقلب فوق فراشي وجفني مرهق من السهر وتزداد الآهات كلما قادتني قدمي إلى مسكن محبوبتي.

أنظر إلى هذه الأسوارة التي تسجنها، وأتمنى لو أملك الجرأة على اختراقها لأختطفها كفارس شهم لكن عجزي يقتلني.

وفي النهاية قررت محادثةَ زميلتها علياء علّ وعسى أن أجد لديها بصيصاً من الأمل يقودني إلى محبوبتي، بحثت عن رقم هاتفها وراجعت مراراً وتكراراً ماذا سأقول لها، فوجدت نفسي أرفع الهاتف وأدير رقمها:

- ألووو علياء.

- من يتحدث؟

- نزار الملاحي.

فأجابت باستياء ظاهر لم تحاول إخفاءه:

- أنت، ماذا تريد؟

فهمس القلب، أريد من سرقَت الابتسامة من على شفتي، أريد من أصابتني بسهم الحب، أريد من مسَّتني بجنون العشق، ابتلعت الكلمات وأنا أستمع إلى صوتها الغاضب:

- لماذا لم تجيبني عن سؤالي؟

- أريد الاطمئنان على سارة.

- وهل تقتل القتيل وتسير في جنازته؟

- لم أقتلها بل قتلتها العادات والتقاليد.
- بل أنتَ من قتلها بجبنك وخذلانك لها.
- أرجوكِ يا علياء لا تزيدي من آلامي فالقلبُ يعاني.
فأخذت نفساً عميقاً وهي تقتلني بجوابها ببرود:
- إنها تستعد للزواج من ابن خالتها حسام.
كيف، لماذا، ومتى، كل هذه الكلمات كانت تحاول الاندفاع من ثغري لكنها تصطدم بحاجز الخوف:
- هل من الممكن إبلاغها برغبتي في محادثتها.
- ولماذا حتى تهمس لها بأكاذيبك وتسمم عقلها؟
- كلا... أريد أن أبارك لها فقط.
صمتت قليلاً تحاول التفكير في كلامي ثم استطردت:
- حسناً، سوف أخبرها ولكن لن أجبرها على محادثتك.
- أشكرك على تفهمك فأنتِ أملي الوحيد للوصول إليها.
- لا تستبشر خيراً.
وأغلقت الخط قبل أن تسمع جوابي.
وبعد عدة ليال قاسية أتتني مكالمة من رقم مجهول:
- ألووو.
ولم يقم الطرف الآخر بالرد لكنني كنتُ أسمع صوت أنفاس حائرة على الطرف الآخر.
فقلت لها برجاء:
- سارة؟
فهمست:
- نعم.
وخفق القلب بقوة لسماع صوتها ثم ران صمتٌ عميق لا يبدده إلا صوت أنفاسنا المعذبة، فقلت لها محاولاً قطع هذا التوتر:
- وصلتني أخبار خطوبتكِ.

- لم أخطب بعد، ولكن عما قريب سوف أكون عروساً لابن خالتي حسام.

كنتُ أرغب أن أقول لها وأنا؟؟ لكن كان خوفي أكبر عيوبي فقلت لها بألم:

- مبروك.

فقالت بصوت مخنوق:

- أهكذا تقولها؟

- إذن ماذا تريدين مني أن أقول؟

فأجهشت بالبكاء رغماً عنها:

- لا تقل شيئاً.

- سارة أرجوكِ لا تبكي، فدموعك تحرق الروح.

- وحبك يعتصرها.

- ألا تزالين تحبينني؟

- وكيف أنسى الحب الأول؟

- والحل؟

- أنا فتاة فلا تسألني عن الحل.

- سارة أرجوك لا تتزوجيه.

- وهل هذا الأمر بيدي؟

- أرجوكِ.

- نزار، لماذا تريد مني التضحية وأنت لم تقم بالتضحية من أجلي ولو لمرة واحدة.

- أنا مستعد للتضحية بحياتي لأجلك.

- إنك كاذب، فأنت تركتني كسفينة من دون قائد تتخبطها الأمواج بلا رحمة.

- لكنني كنت مجبراً.

- دوماً ينتظر الرجل من المرأة أن تضحي لأجله بينما يرفض التضحية من أجلها ويولي الإدبار ما أن تقع في مشكلة.

- سارة أرجوك افهميني.
- آسفة يا نزار لم أعد قادرة على التضحية.
وأغلقت الخط قبل أن تغرق في بحر الدموع.

كنت لا أملك الشجاعه لتطليق نور.. وفي الواقع إنها تشعرني بالشفقة تجاهها وعلى الوضع التي هي فيه، ومهما حصل فشرفها من شرفي، وأي كلمة تسيء إليها تسيء إلى العائلة بأكملها، ولم يكن لدي مانع أن تكون على ذمتي حتى نجد حلاً لهذه الورطة.

أعلنت إضرابي في المنزل عن تناول الطعام حتى يخضع والدي لي ويخطب سارة، لكنه قال لأمي: أحضري رجل دين يقرأ على ابنك، فلا شك أن هذه الفتاة دست له السحر.. لماذا يتفوهون دوماً بهذا الكلام غير المنطقي؟ فالرجل إذا أحب فتاة وتمسك بها ليس معناه أنه مسحور بالسحر الأسود ولكنه مسحور بالحب، وفي النهاية واجهت والدي وأخبرته بأني سأتقدم لخطبة سارة، فالدين أحل بتعدد الزوجات خصوصاً أني من قام بتدنيس شرفها.. رفض والدي وضحك وهو يقول: سافر إلى زوجتك وسوف تنسى سارة.

فتذمرت فقاطعتني عمتي قائلة:

- ماذا سيقول الناس إذا تزوجتها ولم يمضِ على زواجك من ابنتي إلا بعض الوقت، أنت بهذا التصرف ستسيء إلى سمعتها وسيتحدث الناس ويقولون إن فيها عيباً، ونظرَت إلى والدي بغضب وأكملت بحدة:

- إن ابنك مدلل ويتصرف كطفل كبير بدلاً من التصرف كرجل يتحمل المسؤولية، أنت من أفسده بالدلال.

لم أنتظر رد والدي وغادرت المكان قبل الاستماع إلى رده وأنا أجر ذيول الخيبة فسمعت صراخها: أهرب يا جبان.

أنا لستُ بجبان وسوف أثبت للجميع ذلك، وذهبت إلى منزل

سارة وترددت قليلاً قبل الدخول إليه، وطالت فترة ترددي حتى سمعت صوتاً يأتي من خلفي:

- أنت... ماذا تفعل هنا؟

فاستدرت لأرى من يتكلم، وذعرت عندما شاهدت أخ سارة الكبير مع حسام ينظران إليّ بغضب فقلت متصنعاً القوة:

- أرغب بلقاء والدك.

فتبادلا النظرات ثم دلفا إلى داخل المنزل، وبعد مرور بعض الوقت خرج وهو يقول: تفضل إن والدي في انتظارك.

رحب والد سارة بي بضيق لم يحاول إخفاءه ثم قال لي: تفضل بالجلوس.

ترددت قليلاً ثم قلت له:

- قدمتُ اليوم لخطبة سارة.

جحظت عيناه من الدهشة ثم تمالك نفسه وقال بتهكم:

- وأين والدك الكريم؟

- إنه لا يعلم بحضوري لطلب يدها.

- وهل تظن أني سأزوجك إياها؟

- ولم لا يا عمي.

- إن ابنتي غالية عليّ، وإذا لم تكن تشرف عائلتك فأنت لا تشرفنا.

- لكنني أنا من سأتزوجها وليس عائلتي.

- أنتم الشباب تظنون الزواج أمراً سهلاً، مجرد علاقة بين طرفين، إن الزواج يجمع عائلتين بأكملهما، وعائلتك ترفض التناسب معنا، ويكفي ما أصابنا من شر منك.

- لكنني أتيت لأصلح غلطتي.

- إن ابن خالتها مستعد لذلك.

- لكنها لا ترغب به.

- وما أدراك بذلك؟
- لأنها تحبني.
فقال بعصبية وقد نفذ صبره:
- سواء رغبت به أم لم ترغب ليس لديها خيار آخر.
فقلت له بتوسل:
- أرجوك يا عمي.
- إسمع يا بني، إنّ الفتاة ستتزوج عما قريب، فأرجوك دعها في حال سبيلها، وعد إلى زوجتك وسوف تنساها مع مرور الوقت.
فانحنيت على ركبتي وبكيت أمامه، فربما يشفق على حالي، اقترب مني وربت على كتفي وهو يقول على مضض: دعها في حال سبيلها إن كنت تحبها.
غادرت منزله وابن خالتها يتبعني بنظراته والشَّرر يلسع ظهري.
وفي الليل تلقيت مكالمة من سارة وقالت بفرح:
- أحبك يا نزار.
ابتسمت ابتسامة صغيرة وأنا أقول لها:
- والحل.
- أن نهرب معاً ونتزوج.
- ولكن كيف السبيل إلى ذلك؟
- بعد غد سأذهب إلى الكوافير للاستعداد لحفلة الخطوبة وسننفذ خطة الهروب هناك.
- أتعديني أنكِ لن تتزوجي.
- أعدك، يجب عليَّ إنهاء المكالمة الآن وسأهاتفك غداً لأخبرك بتفاصيل الخطة.

وفي اليوم التالي هاتفتني، وقالت لي إنها ستهرب من الباب الخلفي للكوافير، ووصفت لي مكانه وحذرتني قائلة "لا تأتِ إلى هناك، اجعل أحد أصحابك ينتظرني وسأختبئ لديه، وكن أنت في

المنزل مع عائلتك حتى تكون لديك حجة غياب ولا تنس تجهيز مكان آمن لنا".

اتفقت مع صاحبي سمير بتخبئة سارة لديه، وكنت أثق به كثيراً وأثق أنه لن يمسها بسوء.

ثم بدأت أبحث معه عن مكان آمن خارج المدينة ليكون عش الزوجية، وكان البحث صعباً للغاية ويحتاج لعدة أيام، فقرر سمير أن يخبّئها لديه حتى نجد مكاناً مناسباً.

وحان اليوم الموعود للخطة، وجلست مع والدي وأصحابه في غرفة الجلوس، وكنت متوتراً جداً وقلقاً من فشل الخطة وأن تزف محبوبتي إلى رجلٍ آخر.

وحانت الساعة الرابعة فهاتفني سمير ليخبرني أن شقيقها جالساً في سيارته عند الباب الخلفي وأنه يخشى خروج سارة فيشاهدها شقيقها، حاولت الاتصال بها ثم ترددت بعد أن تذكرت تحذيرها لي.. وانتابني الذعر ماذا سيحدث لو أنّ أخاها لمحها خارجة من عند الكوافير؟ وأجريت مكالمة مع صاحبي فقال لي إنها خرجت من الصالون، وإنّ أخاها خرج من مركبته واتجه نحوها، وفجأة أغلق صاحبي الخط، وأعدت إجراء المكالمة ولم يقم بالرد، وانتظرت لدقائق ثم هاتفني صاحبي، وعندما أجبت كانت سارة تقول وأنفاسها متقطعة:

- اطمئن، لقد نجحت الخطة.

فقلت برعب:

- وأخوك؟

- أخبرته بنسياني شيئاً مهماً وأرسلته إلى المنزل ليحضره.

- ألم يشك عندما رآك خارجة.

- كلا، فقد أخبرته أن والدتي أخبرتني بوجوده.

وأطلقت أنفاسي التي سجنت في داخلي من الخوف:

- حسناً، أعطي الهاتف لسمير.

سمير: ألووو.

- سمير، هل أنتَ متأكد من عدم وجود أحد يتبعك؟

- اطمئن يا نزار، والأهم أن تتريث لعدة أيام حتى تذهب الشكوك عنك.

- حسناً، عندما تصل إلى الشقة سلّم سارة جهاز الهاتف الجديد وتأكد من رميها لهاتفها القديم.

- لقد أخبرتني أنها تركته لدى الكوافير، وأحضرت أوراقها الرسمية وما تحتاج إليه.

- حسناً، أنا مضطر إلى إنهاء المكالمة الآن.

وعدت إلى مكان جلوسنا فقال والدي: هل كانت مكالمة مهمة، لقد لمحت توترك؟

- نعم، إني متشاجر مع صاحبي وكنت أنتظر اتصاله.

- وهل تصالحتما؟

- نعم.

- الحمد لله.

وبعد ساعات حدث ما توقعت، فقد أتى شرطي يطلب استدعائي إلى مركز الشرطة، واحتج والدي، لكنني طمأنته، وذهبنا إلى هناك وكنت على يقين من أن والدها سيتهمني بقيامي بمساعدتها على الهرب، وحدث ما توقعت، فشهد والدي بوجودي في المنزل لحظة هروبها، وشهد رفاقه كذلك؛ غادرت وأنا ألمح الغضب في عيني والدها وأبنائه وخطيب المستقبل المهجور فارتسمت على وجهي ابتسامة السخرية رغماً عني.

وبالطبع، لم أستطع الالتقاء بها خوفاً من أن أكون تحت المراقبة.. وبعد مرور عشرة أيام استطعت الحصول على بعض المعلومات من مصادر خاصة من أن القضية تم إقفالها.

وذهبت إليها حاملاً باقة ورد، وفاجأتها بدخولي الشقة فارتمت بين أحضاني وأمطرتني بالقبلات، وقررنا التوجه فوراً إلى المزرعة التي اشتريتها في إحدى المناطق النائية، وعندما وصلنا قلت لها: هذا هو عش الزوجية، نظرت إلى المكان ثم صاحت بذعر:

- هذا الكوخ المهجور!

- إنه ليس بكوخ، إنها مزرعة وتحيط بها حديقة شاسعة.

- أي حديقة، هل تقصد هذه الشجيرات شبه المعدومة وأعواد السنديان.

- سنرتبها مع الأيام وستكون أجمل منزل يضمنا.

فتحت الباب الذي أصدر صريراً مزعجاً، ووقفت هي خلفي ممسكة بقميصي.

وفجأة صرخت وهي تشير بإصبعها: فأر...

- لا بأس سنحضر قطة صغيرة لتصطاده.

فقالت بتذمر وهي تضرب الأرض بحذائها:

- آه، إنك دوماً تنظر إلى الأمور بسهولة، إني أشك بقدرتي على الصمود في هذا الكوخ ليوم كامل.

استدرت نحوها وأمسكت وجهها بيدي وأنا أقول لها:

- حبيبتي سنصمد من أجل حبنا.

فضحكت بعذوبة.

باشرنا في تنظيف الكوخ المكون من ثلاث غرف ومخزن ومطبخ ودورتين للمياه وغرفة جلوس، وكانت أرضيته المصنوعة من الخشب شبه متهالكة، لذلك فهو يحتاج إلى الكثير من أعمال الترميم، أما المطبخ فكان مغطى بالغبار، ومعظم أبواب الخزانة متخلّعة ومتآكلة، لكنني ابتعته بسبب موقعه الآمن.

وعندما حل المساء أتى سمير لزيارتنا وهو يحمل بعض الأكياس

المملوءة بالحاجيات التي أوصيته بإحضارها بالإضافة إلى طعام العشاء.

وجلسنا نتسامر ونلتهم الطعام بشهية حتى أنهكنا التعب ورحل صاحبي، وظللت مع سارة وحيدين في الكوخ؛ كنت جالساً على الأريكة أدخن، فقالت وهي تتجه إلى غرفة النوم:

- لقد أعددت لك الغرفة الثانية لتنام فيها.

أدرت رأسي نحو مكان وقوفها، وبدت على ملامحي أمارات الاستغراب وأنا أقول لها:

- ولماذا لا ننام في غرفة واحدة؟

فاستدارت نحوي وهي تتلاعب بخصلات شعرها بغنج:

- عندما نتزوج سننام في الغرفة ذاتها.

- ولكن ما الفرق؟

أغاضها قولي، فصرخت بي قائلة وهي تعقد ذراعيها:

- يوجد فرق، فأنا تعبت من التضحية وأريدك أن تضحي ولو لمرة لأجلي.

- لقد وعدتك أننا سنتزوج، ولا يوجد داعٍ للدراما المفتعلة وسننام في غرفة واحدة.

- كلا.

- أرجوك يا سارة.

- كلا... فما فائدة شراء البقرة إذا كنت تحصل على الحليب مجاناً.

لم أستطع كتم ضحكتي:

- وهل أنتِ بقرة؟

تجاهلتني ودخلت إلى الغرفة لتنام، اعتدلت في جلستي وأنا غارق في الضحك، وأمضيت الليل أفكر بمصير علاقتنا حتى أنهكني السهر ودخلت في سبات عميق.

نهضت في الصباح منزعجاً بسبب أشعة الشمس الدافئة المتسللة إلى داخل الكوخ، وشاهدت سارة واقفة أمام الطاولة تعد الإفطار البسيط.

فقلت لها: سارة هيا بنا.

فنظرت إليّ بتعجب: إلى أين؟

- سنتزوج.

فصاحت بفرح: حقاً.

- نعم، ألم أعدكِ بذلك.

فمسحت يديها على جانبي فستانها وقالت: هيا بنا.

- دقائق فقط لأستعد للخروج.

انطلقنا خارج الكوخ إلى سيارتي، ونظرتُ إلى العجلة المثقوبة وأدركت أن الهواء قد تسرب منها، فقالت سارة بضيق: ماذا سنفعل الآن؟

أدرت وجهي يميناً ويساراً فشاهدت دراجة هوائية، فأمسكت بيدها وسحبتها خلفي وصعدت فوق الدراجة وقلت لها: هيا اصعدي خلفي.

انطلقنا بين السهول والهواء يداعبنا ثم توقفت لأسأل مزارعاً يجر عربته عن قرية الحوباء، ونظرتُ إلى سارة التي كانت على وجهها علامات الاستغراب:

- لقد وصلتني أخبار أن هناك شيخاً يمكنه عقد قراننا.

وأشار إليّ المزارع بيده عن مكان القرية، وأثناء انطلاقي سمعت صوت بوق السيارة ثم صفيراً حاداً، فأدرت رأسي وكان سمير يضحك وهو يقول: هيا اصعدا.

ووصلنا إلى القرية، واتجهنا فوراً إلى منزل الشيخ ليعقد قراننا ففتحت الباب طفلة صغيرة تغطي شعرها بمنديل فقال لها سمير:

- هل الشيخ محسن موجود؟

فصاحت الطفلة قائلة: بابا، هناك ضيوف، وأدخلتنا إلى غرفة المعيشة البسيطة ثم غادرت وعادت بعد لحظات وهي تحمل صينية عليها بعض أكواب العصير؛ فجأة سمعنا صوت رجلٍ يسعل، وأطل علينا الشيخ وتمتم قائلاً: يا ساتر يا رب.

فقلت له وأنا أصافحه: أتينا إليك لتعقد قراننا.

- أنت العريس؟

- نعم وصاحبي هو الشاهد.

فقال وهو يتمعن النظر في وجوهنا: هل لديك شاهد آخر؟

- كلا.

فقال لابنته: احضري الميكانيكي وحيد ليشهد على الزواج.

ففتحت النافذة وصاحت "عمو وحيد والدي يريدك لتكون شاهداً على عقد زواج"، وأتى الرجل وعقدنا قراننا، وبذلك أصبحت سارة زوجتي.

وقال سمير وهو يحتضنني: لقد أصبحت مسؤولاً عن سارة وأنت رجلها.

تلاشت ابتسامتي وأصبت بالذعر بسبب هذه الكلمة، مسؤولية، ما معنى مسؤولية، إنها كلمة ترعبني، فأنا لم أكن مسؤولاً عن نفسي فكيف أكون مسؤولاً عن زوجتي بل إن والدتي لا تزال تعتني بي كطفلٍ صغير.

وأصر سمير على دعوتنا على الغداء فلم أرفض، وانطلقنا إلى حيث المطعم، ولكن كان هنالك شيء يقلقني؛ عندما تزوجت نور لم أكن أشعر تجاهها بالمسؤولية، ولم تكن هذه الكلمة ترعبني، أما الآن فأصبحت هذه الكلمة تهز عالمي، إنها تنتشلني من عالمي الجميل الذي أعيش فيه بلا رقيب، وأنفذ كل ما أريد، أما الآن فهناك شريكة لي في حياتي يجب عليَّ الاعتناء بها.

أحسست بهزة خفيفة على كتفي، فنظرت إلى سمير الذي قال بصوت خافت: نزار هل أنت بخير؟

- نعم أنا على ما يرام.
- أراك شاحباً.

أدرت رأسي إلى المقعد الخلفي فوجدت سارة نائمة.

فقال سمير: يبدو أنها مرهقة.

- هل المطعم بعيد؟
- كلا، لقد شارفنا على الوصول.

تناولنا طعام الغداء ثم أعادنا إلى المزرعة فقلت له: توقف عند ناصية الشارع، أرغب بالذهاب في نزهة على الأقدام مع سارة.

كنت أسير واضعاً يديّ في جيبي، وأركل حجراً صغيراً، وسارة تسير بخطوات متعثرة تحاول اللحاق بخطواتي وهي تنظر إلي بدهشة.

- نزار ماذا بك؟
- أشعر بالخوف.
- مم؟
- خائف من الاستيقاظ من هذا الحلم الجميل.

وشبكت ذراعها بذراعي وأسندت رأسها إلى كتفي: لا تخف، أنا معك.

فتوقفت أمام باب المزرعة أتأمل عش الحب: سأذهب اليوم مع سمير، فقد نصحني بضرورة شراء بعض المستلزمات.

- ومتى سيعود سمير.
- الساعة الرابعة.
- هناك متسع من الوقت.
- سيكون منزلنا أجمل بيت في الكون.

حدقت في وجهها ثم أخذتها بين ذراعيّ ورفعتها عن الأرض لأقبلها فدفعتني وجرت تخترق أعواد السنديان وأنا أتبعها حتى أرهقها

التعب وارتمت فوق الأعشاب، فارتميت بجانبها وقلت لها محدقاً في السماء:

- سارة أنا مسؤول عنك.

ضحكت، فنظرت إليها بشيء من الملامة:

- لماذا تضحكين، أهذا وقت مزاح؟

- كلا، لم أكن أقصد ذلك ولكنك طفل كبير.

اعتدلت في جلستي وقلت لها بعتاب: أنا رجل.

قرصت وجنتي وهي تقول:

- بل أنت طفلي الكبير، وأطلقت ضحكة وهي تتجه إلى داخل الكوخ.

استلقيت على العشب أفكر، وغلبني النعاس، ولم أستيقظ إلا على صوت سمير وهو يقول لي: هيا بنا.

ونهضت أنفض التراب عن ملابسي، وصعدت إلى مركبته وانطلقنا إلى السوق... أمضيت ساعات طويلة أنصت لنصائح سمير، وما يجب عليَّ شراؤه ثم عدنا إلى المزرعة فوجدت سارة جالسة على عتبة الدرج تحت نور المدخل تضم ركبتيها إلى صدرها وعيناها متورمتان من البكاء.

- سارة ما الذي حدث؟

فقالت وهي تنفجر في وجهي: لماذا تركتني لوحدي وذهبت مع سمير؟

- أخبرتك أنني سأذهب إلى السوق.

- لكنك لم تخبرني أنك ستتركني لوحدي.

- لم أكن أعلم أنكِ ستغضبين.

- أتتركني في هذا المكان الموحش وترحل، ألا تعلم أني أخشى البقاء هنا.

فنظرت إلى سمير الواقف خلفي وهو لا يزال يحمل الأكياس مستغيثاً به.

فقال: اعذريه يا سارة فهو لم يكن يدرك هذا الأمر.

فأدرات ظهرها واتجهت نحو غرفة النوم وأغلقت الباب بقوة.

فقال لي سمير: نزار، لماذا تركتها هنا لوحدها؟

- وماذا أفعل بها؟

- إنها زوجتك.

- ألا تستطيع البقاء هنا لساعات لوحدها؟

- لكن المكان لا يزال جديداً عليها.

فأطلقت نفساً عميقاً فقال: إذهب إليها، وسأجهز العشاء ثم أقوم بتبديل الإطار معك.

ذهبت إليها فوجدتها تحتضن وسادتها وتبكي بصمت، مسحت على شعرها قائلاً: سارة أنا آسف.

- نزار ألا تعلم أنني أخشى البقاء لوحدي هنا.

- لم أكن أعلم، أعدك بعدم تكرارها.

- لقد راودتني أفكار مخيفة.

- لا تقلقي، هيا اغسلي وجهك، ولنذهب إلى سمير ونساعده في إعداد السفرة.

مع مرور الأيام استطعت ترميم الكوخ، وكانت سارة تعد لي الطعام وتعتني بي، ولكنني كنت ألمح الحزن في عينيها عندما أعود من منزل والدي.. كنت مضطراً للذهاب بين الحين والآخر إلى منزل والدي، وكان هذا الأمر يضايقها وتشتكي خوفها من النوم لوحدها في هذه المزرعة، لذلك كنت أترك سميراً معها، وأحياناً يحضر برفقة صديقته تغريد.

بدأت المشاكل تزداد، أذكر في صباح يوم من الأيام أني نهضت فوجدت سارة قد هاتفتني أكثر من مرة، وعندما أعدت الاتصال بها وجدت هاتفها مغلقاً، فانطلقت إلى المزرعة وبحثت عنها بين أركان

الكوخ فلم أجدها فخرجت أبحث عنها في الحديقة وأنا أناديها ولكنها لم تجب.

خشيت أن يكون هناك أمر قد حلَّ بها، وانطلقت كالمجنون أبحث عنها في الشوارع الفرعية ثم ذهبت إلى سمير لأخبره بما حدث وفتح باب شقته وهو شبه نائم:

- سارة اختفت.

- إهدأ يا رجل، إنها هنا.

- حقاً، وماذا تفعل هنا؟

- انقطعت الكهرباء بالأمس ليلاً، وحاولَت محادثتك لكنك كنت نائماً على ما يبدو، فهاتفتني فأحضرتها إلى هنا، لقد كانت تبكي بألم عندما ذهبت إليها.

- ولماذا قطعت الكهرباء؟

وهنا أتاني صوت سارة الواقفة خلفي وهي تقول بعصبية: لأنك لم تدفع الفاتورة.

فاستدرت نحوها:

- وهل هناك فاتورة؟

- هل تظن إذن أن الحياة بالمجان؟

- آسف لم أكن أعلم.

- آسف وآسف، ماذا تنفعني هذه الكلمة؟ إنك رجلٌ غير مسؤول... مهمل، أنت طفلٌ كبير.

- لكنني لم أكن أعلم.

- هل تعلم شيئاً في هذه الحياة؟

وصمتُّ للحظات أنظر إلى سمير ليساعدني في الخروج من هذه الورطة، فأدرك أنني أستغيث به فقال:

- إن المسؤولية تقع تحت نطاق شركة الكهرباء، فهي لم تشعركم بضرورة دفع الفاتورة.

وهنا دلفت سارة إلى داخل غرفة النوم ثم عادت وهي تحمل بعض أجزاء المغلفات المحترقة، وعلى طرفها شعار شركة الكهرباء ورمتها على الأرض وهي تصرخ: ألم تستخدم هذه المغلفات لإشعال النار؟

- لم أكن أدرك أنها مهمة.

- لأنك لم تفتحها بل اتجهت نحو صندوق البريد وأخذت الرسائل ثم رميتها في النار كطفل عديم المسؤولية والإدراك.

- أووه مسؤولية ومسؤولية لقد أزعجتني بهذه الكلمة.

- لأنك لا تدرك معاناتها.

فقال سمير الذي أحس بالجو المكهرب: سأخرج لأترككما تتناقشان لوحدكما.

وجلست سارة مقابلة لي وهي صامتة تتجاهل النظر إلي وأسندت ظهري إلى الكنبة أفكر، لا أعلم كم مضى من الوقت ونحن صامتان حتى عاد سمير وأدرك أن الوضع لا يزال على حاله فقال: إن المتزوجين يواجهون صعوبات في بادئ الأمر وهذا أمر طبيعي.

فقالت سارة بتذمُّر: وهل كل متزوج لديه سمير ليخرجه من ورطته؟

فابتسم سمير: لديهم طرف ثالث يساعدهم دوماً.

فعقدت ذراعيها وأشاحت بوجهها.

- سارة... نزار اعتاد أن يتوافر له كل شي وأن لا يتعب في الحصول على ما يريد، إن والديه يوفران له كل شي فلا تستغربي من إهماله لبعض الأمور، إنه يحتاج إلى وقت وصبر حتى يعتمد على نفسه.

فقالت سارة والدموع تسيل من عينيها: وما ذنبي أنا؟ لقد ضحيت بكل شيء لأجله وهو مهمل لا يكترث لي.

- ساعديه على التغيُّر.

- ومن يساعدني على الصبر؟
- نزار، هل تعدها أنك ستتغير؟
- نعم سا....

قاطعتني محاولة دحض وعودي:

- لا أرغب بسماع وعودك الكاذبة.
- سارة سأتغير من أجلك.

ومرَّ اليوم بسلام بعد طرح المزيد من الوعود وإخراجها للتنزه لكسب رضاها.

لقد حلت الكارثة عندما كنت أعد الشاي وسارة نائمة في غرفة الجلوس وهاتفني صاحبي ودعاني للذهاب إلى السينما، فتركت ورقة على الطاولة أعلمها بخروجي حتى لا تغضب عندما تستيقظ ولا تجدني، ولكنني لم أترك الورقة فقط بل تركت الفرن مشتعلاً، وكانت النافذة مفتوحة، فحرَّك الهواء الستائر القماشية فسقطت في النار التي سرعان ما اشتعلت وأحرقت المطبخ، ولم أكن أعلم أن سارة كادت تموت إلّا عندما حادثني سمير وهو غاضب جداً، وأخبرني بتعرُّضها لحروق في ذراعها وأصابها الاختناق بسبب الدخان، وأنها لا ترغب بمشاهدتي، وطلب سمير راجياً مني تركها مع تغريد لعدة أيام حتى تهدأ.

ولكن سارة لم تسامحني، وكلما حاولت محادثتها اندفعت إلى الغرفة وأغلقت الباب بالمفتاح، ولا تخرج إلّا عند رحيلي، ثم أخبرتني تغريد أن سارة حامل، وأصابني الأمر بالخوف، فأنا خذلتها كزوج وبلا شك سأخذلها كأب.

جلستُ مع سمير في مركبته وأنا حزين حدّ الموت:

- إنها لا تطيق وجودي بعدما كانت تظن أنها لا تستطيع العيش بدوني.
- فحدّق بي ثم أعاد النظر إلى الشارع:

- سمير ماذا أفعل؟
- يجب عليك إخبار والدك بأمر زواجك منها.
- أخشى من غضب جدي.
- ولكن سيكون لك طفل منها فهل ستخفيه؟ إن الأمر ليس بالسهولة التي تتصورها، ويجب عليك إعالة عائلة الآن.

ثم أكمل:

- لقد اتفقت مع تغريد باصطحاب سارة إلى عيادة خاصة حتى تقوم بإجراء الفحوصات الضرورية.
- حسناً.
- وأنت يجب عليك أن تتغيّر من أجل سارة.

بعدها بأيام ذهبت إلى الكوخ مع سمير لترميمه وتنسيق الديكور الجديد له، ولكنها لم تعد، فقررت السفر حتى تهدأ الأوضاع، وعندما عدت لامست تطوراً في علاقتي مع سارة ويبدو أن البعد جعلها تشتاق إلي.

وعادت محبوبتي إلي، وكنت فعلاً أحاول التغير إلى الأفضل، ولكنها عادت متشائمة... متذمرة لا تطيقني؛ أحياناً كنت أستغرب من تصرفاتها وكيف تحولت إلى امرأة حساسة تبكي عند أقل كلمة.

كانت دموعها تصيبني بالتوتر، وأتمنى معرفة ما سبب هذا الحزن، هل هو الخوف من المستقبل؟ أم هي نادمة على حبها لي؟

هل تظن أنني لا أستحقها أم فشلت في إسعادها؟ فعلى الرغم من محاولاتي لكنني كنت أخذلها دوماً حتى قرّرت الصمت وعدم تكرير كلامها وصراخها في وجهي، كأنها سئمت مني وخضعت للأمر الواقع وهو عدم صلاحيتي كزوج.

وتوالت الأحداث، فذات يوم لا أعلم كيف غلبني النعاس واستلقيت على الكنبة وما هي إلّا ثوانٍ حتى استسلمت له وتركتها لساعات طويلة في العيادة تنتظر حضوري وتحاول الاتصال بي حتى

يئست مني فهاتفت سمير الذي أعادها إلى المزرعة؛ فتحت عيني ولم تشعر بي؛ لقد كانت ساهمة في تفكيرها، وملامحها تظهر انكسارها، وهي جالسة تتحسس بطنها الذي أخذ يتكوّر.

اعتدلت في جلستي فأدارت وجهها تجاهي، فلمحت عينيها المحمرتين من البكاء والهالات السوداء التي تحيط بعينيها الحالمتين وشفتيها المتقشرتين؛ أحسست أن الهمّ سرق من شبابها عشر سنوات، فمن يلمحها يظن أنها أختي الكبيرة وليست زوجتي، ألهذه الدرجة كان حبي يمتص شبابك يا سارة؟

فجأة تذكرت ما اقترفته من ذنب فقلت لها وأنا أمد يدي محاولاً لمس كتفها: سارة أنا آس...

ولم أنهِ الكلمة فقد نهضت من جانبي وسارت بخطوات ثقيلة إلى خارج الكوخ.

لم تعد ترغب بسماع وعودي أو حتى النظر إلي، حلَّ الصمت على علاقتنا كغيمة سوداء تنذر بقرب العاصفة.

كانت صامته كأنها ابتلعت لسانها، تتصرف وكأنني غير موجود، وكلما حاولت الاستفسار عن سبب عزوفها تجيبني بالصد... تتناول طعامها بهدوء وهي تتجنب النظر إليّ وتنام في الغرفة الأخرى وتمضي يومها في حديقة المزرعة أو تشاهد التلفاز وهي صامتة وملامحها جامدة.

ابتعدت أنا الآخر تدريجياً، فقد سئمت من الكآبة التي أحضرتها إلى المنزل، سئمت من صمتها القاتل وتجاهلها الذي لا أجد مبرراً له.

سئمت منها ومن حياتي معها، وكلما ذهبت إلى سمير لأبحث عن حل كانت تغريد تضحك كلما سمعت شكواي وتقول: إنها حامل، فلا بد أن تتلاعب بها الهورمونات.

كان السؤال الذي يدور في ذهني، ماذا أفعل بثمرة الحب التي شارف موعد قطافها؟ وأنا لا أزال عاجزاً عن مواجهة والدي بالأمر.

أنجبت سارة ابننا الذي أسميته غازي تيمناً باسم جدي؛ كانت سارة فرحة بمولودها، أما أنا فكنت حزيناً وأفكر بهذا الولد الذي سيحمل اسمي، ماذا أفعل به، وكلما كبر كلما ازدادت المشكلة تفاقماً.

***

نهضت سارة واتجهت إلى سرير غازي ثم صرخت بفزع وهي تبحث عنه في أركان الشقة، وسقطت أمام قدميّ وهي تبكي:

- نزار أين غازي؟

صمتُّ وأنا أفكر بما اقترفته يداي، فمنذ ساعات طويلة وضعت لها المخدر ثم حملت ابني بين يدي وخبأته لدى أحد رفاقي وعدت إليها.

- سارة أهدأي إنه معي.

- أين ابني؟

- في مكان أمين.

- ولماذا أخذته مني؟

- لمصلحته.

تفاجأت سارة ثم صرخت: أريد ابني يا نزار.

تجاهلتها، وذهبت إلى خارج الكوخ لأنتظر سمير وتغريد، وعندما لاحت مركبته قلت لسارة: ستمكثين لدى سمير لعدة أيام، وتركتها وهي تبكي بألم.

سافرت إلى نور التي تفاجأت بالولد فقلت لها مهدداً: أنتِ

تدينين لي، لقد سترت عليك فيما مضى وحان وقت سداد الدين، سأحضر له مربية تعتني به لكن دعيه لديك.

وعدت إلى وطني وجلست مع سمير الذي قال معاتباً: أتحرم أماً من ابنها.

- سأعيده إليها، ولكن أنتظر هدوء بعض الأمور.

- نزار إنها أم.

- وماذا أفعل بها؟

- لماذا لم تقل هذا الكلام من قبل؟ كنت فرحاً عندما تزوجتها، ألم أقل لك إن الزواج مسؤولية والآن تتهرب من المسؤولية، لقد تأكد كلام سارة بأنك طفل كبير.

- أرجوك يا سمير دعني وشأني.

تركتها لأيام وعندما عدت وجدت سارة نائمة على الأرض.

***

(27)

إن المال لا يشتري السعادة

لا أزال أذكر احتواءها لي بعينيها الدامعتين، كأنها تتزود من ملامحي قبل الرحيل، فتحت فاها كغريق تتخبطه الأمواج وتلألأت عيناها وانتفض جسدها معلناً الرحيل... ماتت محبوبتي بين ذراعي، احتضنتها للمرة الأخيرة وانهمرت دموعي وأنا أصرخ كطفلٍ مذعور.

من كان السبب في موتها يا ترى؟ هل كانت العادات والتقاليد كسيف يقطع رقبتها؟ أم سمم قلبها حديث الناس فقتله؟ أم قتلتها أنا بسبب عجزي عن تحمل المسؤولية والتحول من طفل مدلّل إلى رجل؟

صعدت على متن القطار واتجهت إلى الجزيرة التي قضينا فيها أحلى أيامنا، استقليت قارباً صغيراً ليوصلني إلى الجزيرة، ووقفت تحت الشجرة التي شهدت أول قبلة حب، ولامست جذعها الكبير أتحسس أحرف اسمينا المنقوشة عليه، وغافلتني دمعة سالت على خدي ثم انهمرت على ركبتي وأنا أذكر محبوبتي سارة، كنت متشرباً بحزني منقاداً لأفكاري وأسئلتي.

أنا السبب في ما حدث لها، فقد قتلها حبها لي وأنانيتي، لماذا رحلتِ يا سارة وتركتني لوحدي في هذا العالم؟ لماذا رحلتِ وتركتِ ندماً سيظل ينشب أظفاره بقوة في لحم حياتي؟

ألم نتعاهد على هزم الفراق وأن لا يفرقنا شيء؟ فلماذا سلبك الموت مني؟ ولماذا استسلمتِ له؟

لا أعلم كم مضى من الوقت وأنا جالس تحت الشجرة أبكي على موت محبوبتي وأتذكّر ما حدث عندما عدت إلى المزرعة ووجدتها على الأرض منكبة على نفسها، رفعتها ووضعتها في حجري وأزلت خصلات شعرها المتناثره على وجهها، كان لعابها يسيل من فمها وشفتاها مزرقتين وأطرافها ترتجف بقوة، هرولت كالمجنون إلى المطبخ لأحضر كأس ماء انسكب نصفه في طريقي إليها، وضعته على طرف فمها وحاولت أن أسقيها، ولكن فات الأوان، قتلت سارة نفسها وتناولت السم حتى تتخلص من حياتها معي.

بكيت وانهرت، كدت أجن، احتضنت جثتها طوال الليل أبكي عليها مذعوراً حتى أتى سمير الذي تفاجأ بالمنظر وأبلغ والدي، وكالمعتاد خرجت من هذه الورطة كالشعرة من العجين، ولكن والدها كاد يموت من الصدمة، وأنقذني عقد زواجي من القضية وسجلت كقضية انتحار.

دفنت سارة ونقشت على القلب: هنا ترقد محبوبتي بسبب أنانيتي، جلست فوق القبر أضربه بيدي وأبكي عليها، كنت أقول لسمير "سارة تخشى الظلام لا تدفنوها لوحدها في هذا القبر".

رفضت الابتعاد عن قبرها وكنت أهذي: "إنها تخشى أن تكون وحيدة في مكان لا تعرفه، كيف أتركها لوحدها".

انتزعوني من فوق قبرها ولكنني ذهبت إليه وأقسمت عليه بعدم نسيانها ما حييت وبتربية ثمرة حبنا "غازي"،وأن أتلو عليه أجمل ذكرياتنا، وكم أنها كانت جميلة وحنونة.

مضت الأيام ولكن لماذا العذاب؟ ولماذا كلما لاحت صورتها في خيالي نزفت العين دماً على فقدانها؟

إنني لا أزال إلى اليوم أتعذب كلما مرَّ طيفها في خيالي، وكلما وقعت عيناي على صورتها.

كان كوخ الغرام كالمعبد الذي أتضرع فيه وأبكي عند عتبته....

أجلس فيه لأستمد منه اللحظات الجميلة، هي حب حياتي ولن أحب أحداً مثلما أحببتها ما حييت.

أسهر الليل وذكرياتها تداعبني وهمساتها تحاصرني وصدى ضحكاتها يرن في أذني ونظراتها الحالمة تذيبني، إن حبك يا سارة كل ما تبقى لي في هذه الحياة، إنه إرث السعادة.

لو كنت أملك القدرة على تحقيق أمنية لتمنيت أن أتقاسم معها سنوات عمري لتعيش معي ولا تتركني في دوامة الحب أصارع الشوق ويطعنني العذاب.

***

ماذا بك يا نزار لماذا تبكي؟؟ تحدث حسن وهو ينظر إلي.

- لا يوجد شيء.

- هل اشتقت إلى عائلتك؟

قلت وأنا أغالب دموعي: نعم.

انقلبت على جانبي وعدت إلى ذكرياتي، كدت أجن عندما رحلت سارة وتركتني لوحدي، هزلت كثيراً وأهملت حياتي وبات الإحباط يأخذ دوراً كبيراً في حياتي، سجنت نفسي في غرفتي ورفضت تناول الطعام، كانت والدتي تحاول جاهدة إخراجي من الحالة التي أمر بها، وتدخل الجميع محاولاً إنقاذي من وضعي.

كنت طريح الفراش أرفض التحدث أو النهوض منه، وأبكي على حبها، آه لو كانت تعلم أنني كلما حاولت نسيانها والإبحار على مركب الذكريات أعادني تيار الشوق إلى مرفأ حبها.

حاولت الهروب منها وجلت العالم وطيفها يلاحقني في يقظتي وفي منامي، وكلما مرت فتاة بالقرب مني أتخيلها سارة، فيفز القلب من مكانه ثم تتبين ملامح الفتاة فأبتعد، لا أعلم هل كل النساء يشابهنها أم أنني من حبي لها أصبحت أرى ملامحها في كل

الوجوه... كنت أجوب الشوارع كالمجنون أحدث نفسي ولا أهتم بنظرات المارة، وعندما يغلبني النوم تزورني في الأحلام وهي تنظر إليّ بحزن فأنهض مفزوعاً وملابسي مشبعة بالعرق.

يا محبوبتي يا من خطفها الموت إن كل صورة تذكرني بهواك، إن حبك كبذرة تنبت في القلب، ليتني مت ولم تمت سارة، ولم أجد إلّا الخمر لينسيني إياها، ولكن كلما أفقدني إدراكي للواقع وجدت نفسي أتحدث عن سارة، وأنا أمسك بصورتها وأبكي أمامها كأنني أستغفر عن ذنبٍ وبيدها خلاصي من معاناتي، فأشكو لمن حولي عن حبها الذي سلبني عقلي وأجد أعين الشفقة تحاصرني.

مقتُّ وطني، فكلما سرتُ في شوارعه تذكرت أننا مشينا في هذا الشارع.

سافرت إلى نور التي كانت تشتكي من الطفل فقلت لها بغضب: وما الذي يزعجك، لقد أحضرت له مربية لتربيه.

- أرسله إلى والدتك.

- أريده قريباً مني.

- وهل قررت المكوث هنا؟

- نعم، لقد أرسلت أوراقي إلى الجامعة الأميركية وتم قبولي.

ومضت السنون وأنا أخوض علاقات الحب في الجامعة؛ لم أكن أستمر مع أي فتاة، كنت أريد اللهو والاستمتاع بحياتي وأعود كل ليلة وأنا ثملٌ وأركع على ركبتي أمام صورتها، فتغالبني دموعي فأحدثها وأرجوها أن تنطق ولو بكلمة، لكنها كانت تنظر إلي بابتسامة فأقبّل الصورة ثم أستسلم للنوم.

أنهض في اليوم التالي هارباً من مسكني، كنت أنفر من البقاء لوحدي حتى لا يحاصرني طيفها فأستسلم للكآبة.

***

(28)
إن حبك ذنبٌ

جلست أتسامر مع حسن: أتعلم يا حسن أنني لم أدخل السجن بسبب المخدرات.

فنظر نحوي مستغرباً، فقلت له بسرعة حتى لا أزيد من حيرته:

- دخلت السجن بسبب الحب...

فقال مستغرباً: الحب!!

- نعم إن الحب هو من زجَّ بي في هذا الجحيم.

- وكيف ذلك؟

منذ سنوات مضت تطلقت أختي التي تكبرني بعام وانهارت وتأزمت حالتها فقرر والدي إرسالها إلى زوجتي نور لتسكن معها لمدة حتى تتعافى وترتاح نفسها المعذبة... كنت أزورها من حين إلى آخر، وذات ليلة ذهبت كعادتي من غير موعد ولمحت مركبة سوداء تقف تحت العمارة التي تسكن فيها زوجتي، وكان في داخل المركبة فتاة وشاب، وعندما دققت النظر اكتشفت أنها أختي.

غلى الدم في عروقي... خرجَت من المركبة ولوّحت له بيدها مودعة، تبعته ودوَّنت رقم لوحة المركبة التي يقودها واكتشفت أنه يقيم في المدينة ذاتها التي أدرس فيها.

واجهت أختي بما شاهدته وبكت بانهيار، وهي تردد أنه خدعها

ثم اختفى فجأة، كنت سأقتلها ولكنني قررت الانتقام من الحقير الذي تلاعب بعواطفها.

وبعد أيام استعنت بأحد رفاقي لتزويدي بكشف بيانات هذا الرجل.

كان يدعى فيصل ابن إحدى أثرى العائلات، رجل سيِّئ السمعة، بذيء اللسان، فاحش الثراء، وحذّرني صاحبي جواد منه ومن أن الرحمة منتزعة من قلبه.

أثناء عودتي ذات ليلة إلى مسكني، أوقفت سيارتي في الموقف المخصّص لها في البناية التي أقطن فيها، ولمحت سيارة سوداء مشابهة لسيارة فيصل، اقتربت منها أتفحصها، وكانت تحمل اللوحة ذاتها، يا لهذه المصادفة، أيسكن هذا الرجل هنا!!

تربّصت بمركبته لعدة أيام حتى شاهدته يوقفها وينتظر المصعد.. وقفتُ بجانبه أختلس النظرات إليه، وعندما ضغط على زر الطابق المطلوب علمت أنه يسكن في الطابق الذي أسكن فيه، وما فأجاني أنه كان يسكن في الشقة المقابلة لي!!

وأثارت إقامته في هذه البناية فضولي وأججت أسئلتي، توقعتُ زيارته لواحد من سكان العمارة ثم قررت الاستفسار: "لماذا يسكن ابن العز في هذه الشقة أم أنّ لديه عشيقة يتردد عليها"؟

وصدقت توقعاتي، فأخبرني أحدهم بنقطة ضعفه ألا وهي ناهد، الفتاة التي تسكن مقابلاً لي، وقد سبق أن أخبرني زملائي عن جارتي الفاتنة، ولكن لم يسبق لي أن لمحتها من قبل.

وظللت لأيام أرسم الخطة التي سأنتقم بها من المدعو فيصل، وهي سرقة عشيقته منه وإغاضته بها، ومرّت الأيام وأنا أراقب باب الشقة حتى فُتح وخرجت منه، فارتعش القلب مثلما ارتعش في يوم ما لسارة؛ إنها الرعشة التي أمضيت سنوات من عمري أبحث عنها، هذه

الرعشة التي تجعل العالم يتحول إلى عالم مثالي مليء بالأشواق، ووجدت هذا الإحساس ينبض من هذه الحسناء.

كنت أفتش عن هذا الشعور في أحضان النساء وفي وجوههن حتى عاد إلى القلب نبضه بسبب ناهد؛ كانت ناهد امرأة باهرة الجمال تسلب الناظر عينيه؛ ففيصل هذا يحسن اختيار عشيقاته على ما يبدو ولكنها متعجرفة للغاية وأظنها تشابهه في تصرفاتها، فهي لا تكاد تنظر إلى أيّ كان، وتسير وهي هائمة في عالمها... ذات ليلة أقمت عيد ميلاد أحد الرفاق وفوجئت بالباب الخارجي يدق بعنف، وعندما فتحته كانت ناهد تنظر إليّ باحتقار، ووجهت كلامها بتعالٍ آمرة بخفض صوت الموسيقى أو أنها سوف تبلغ الشرطة.

حاولت إغاضتها فرفعت صوته فتوسلتني بعينيها.. لا أعلم لماذا أشفقت عليها ونفذت طلبها، وعندما انصرفت تبعتها بعيني وهي تسير بخطوات ثقيلة.

***

راقبت مسكنها عدة أيام وشاهدت مركبة فيصل متوقفة في الموقف المخصص له لليلة كاملة، فذهبت إلى محل الورد وابتعت باقة لم أرفقها ببطاقة، وتأكدت من وجود فيصل في شقتها ووضعت باقة الورد وضغطت على الجرس ودلفت بسرعة إلى شقتي... اختلست النظر من العين السحرية... لقد كنت أرغب بفعلتي هذه إثارة بعض الشكوك في نفسه، وحتى أحرق قلبه بنار الغيرة.

فتح الباب واصطدمت قدمه بالباقة فرفعها وقلّبها ولاح على وجهه الغضب، وعاد خطوة إلى الوراء وأغلق الباب بقوة، ففتحت باب الشقة كي أسترق السمع، فوجدته يصرخ منادياً إياها، ثم تعالت الصرخات وساد هدوء غريب فعدت أدراجي وسمعت صوت باب

شقتها يغلق بعنف فأدركت أنه مضى.. وهكذا فإنّ أول خطة لاقت نجاحاً باهراً.

ورسم القدر لي المزيد من الفرص، كنت خارجاً ذات ليلة إلى موعدي مع الرفاق، وعندما دلفت إلى داخل المصعد تفاجأت بناهد وعشيقها فيصل، فنظرت إليّ ببرود ثم أشاحت بوجهها عني.

كانت تختلس النظرات من خلف كتفه، أما هو فكان لاهياً بهاتفه أو ينظر إلى ساعته وهو يتذمّر؛ فجأة أمسكتها وهي تنظر ناحيتي وابتسمت، لكنها ازدادت بروداً وصداً وانطلقت معه في مركبته وتبعتهما بدراجتي حتى توقف عند المطعم الذي سبق لي التردد عليه وكان المدير صديقي، وعندما دلفت إلى الداخل حياني صديقي بابتسامة، فاخترت أقرب طاولة لمكان جلوس فيصل وناهد وكنت مطأطئ الرأس أستمع إلى فيصل الذي بدا من حديثه شخصاً أنانياً مغروراً يستهزئ بمن حوله ليشبع نقصه.. يا ترى هل أموال فيصل تدفع ناهد للاستمرار معه؟؟ فقد كانت واهمة شاردة الذهن لا تنصت لما يدور حولها... كانت نظراتها متشتتة ولا تكاد تستقر.

لقد قال فيصل بصوت عالٍ إن جمال ناهد يشفع لها غباءها وضحك الجميع وابتسمت بسخرية عندما رأيتها تنظر نحوي حتى أشعرها بقدرها لدى فيصل، وكيف أنه يهزأ بها أمام الجميع.

وتحول لونها الأبيض إلى اللون الأحمر وارتعدت شفتاها ونهضت ثم صرخت بأعلى صوتها وهي تشتم فيصل وتهدد "لا أرغب برؤيتك مرة أخرى ولا تأتِ إلي متوسلاً طالباً الصفح".

انصرفت بسرعة، وكاد فيصل يصابُ بمسٍ من الجنون عندما نظر إليه جميع رواد المطعم ثم حاول الانصراف وأصحابه يحاولون تهدئة روعه.

خرجت أبحث عنها فوجدتها تسير في الشارع بخطوات سريعة، تبعتها بدراجتي وهتفت باسمها:

- ناهد.

نظرت نحوي بخوف فقلت لها: "فيصل سيلحق بك، وربما يضربك محاولاً استرداد كرامته، دعيني أوصلك".

ترددت قليلاً ثم صعدت خلفي وانطلقت بها أجوب الشوارع، بعدها اتجهت نحو شاطئ البحر... لم أكن أرغب بإعادتها إلى مسكنها، فأنا على يقين بذهاب فيصل إلى هناك بحثاً عنها، فأردت زرع الشك في قلبه بجعلها تغيب وتتأخر على الذهاب إلى مسكنها.

جلست معها فوق الرمال أفكر وأرسم الخطط وكيف سأحرق قلبه وكيف سأسلبها منه، ولكن يبدو أنها ليست من النوع السهل.

ومضى الوقت حتى حان موعد العودة.

***

ذات يوم نهضت على صوت جرس الباب يدق بعنف، وعندما فتحته كانت هناك امرأة تبكي وتتحدث بلغة عربية ركيكة، شدتني من ذراعي إلى الشقة المواجهه لي "شقة ناهد"، جفلت عندما وجدت ناهد في حالة تشنج وفرائصها ترتعد بقوة وهي تهذي فلاحت لي ذكرى سارة، وهي تحتضر ووجدت الملامح ذاتها تستقر على وجه ناهد.

اقتربت منها وهززتها برفق، وربت على خدها ورششت بعض قطرات ماء على وجهها حتى أفاقت؛ ظننت أنها تتعاطى المخدرات ولذلك أصيبت بالإغماء، وبحثت حولها عن أي أثر، ثم سألتها إذا كانت قد تناولت أي دواء لكنها أجابت بالنفي، فاطمأن قلبي، فلو كانت تتعاطى المخدرات لما استطعت أخذها إلى المستشفى.

عندما شاهدت حالتها وما أصابها بعد أن لمحت صورته على شاشة الموبايل، أحسست بالشفقة تجاهها، فربما كانت هي الأخرى

تعاني منه ويستغلها مثلما فعل مع أختي، كانت ضعيفة... مرهقة لا تستطيع منع دموعها من الخروج من مقلتيها وهي تبكي بألم... سألتها إذا كانت ترغب بالاتصال بأحدٍ من أفراد عائلتها فأجابتني بصوت مخنوق من الألم "أنا وحيده هنا".

إن قلبي يؤرجحني بين المد إليها والجزر عنها، نظرتُ إلى الأرض أفكر حتى ظهرت نتيجة الفحوصات، كانت بصحة سليمة ولكن الطبيب قال إنّ ما يصيبها يعود لأسباب نفسية.

إنها وحيدة متألمة لا تملك أحداً إلا فيصل، لماذا أؤذيها لأنتقم منه؟ لماذا لا أساعدها لتتحرر من ظلمه؟ وبذلك أضرب عصفورين بحجر، أجعلها تتخلص منه ومن حبه وأحرق قلبه بنار الهجران.

بعد أن اطمأن القلب عليها أوصيت الخادمة بالاعتناء بها... عدتُ إلى مسكني، أفكر بسارة، ولماذا أشعر أن ناهد كسارة في ضعفها وإحساسها المرهف؟ لماذا أشعر أن سارة تستوطن ناهد؟ حدقت بصورة سارة التي كانت تبتسم بعذوبة وقلت لها: "اطمأني لن أحب أحداً سواك"، وطبعت قبلة على صورتها وأغمضت عيني لأنام.

في اليوم التالي دعوت ناهد إلى أحد المطاعم، شعرت بالراحة برفقتها ولكن يجب عليّ تنفيذ خطتي التي أرسمها بدقة؛ تكرر خروجي معها مرات ومرّات، وكنت أحادثها عندما أذهب إلى وطني لزيارة عائلتي. وعندما وصلتني أخبار سفر فيصل قرّرت الاتصال بالمدعو أحمد وإخباره بخيانة ناهد له، وقلت له بسخرية: اليوم ستذهب برفقة عشيقها الجديد إلى مطعم أوكستر، وبالفعل اصطحبتها إلى هناك وأنا على يقين من أن هناك عينين تحدقان بنا في الخفاء.

***

كنت أصطحب ناهد معي إلى كل مكان، كانت سعيدة... تبتسم...

تضحك من أعماق قلبها... وذات ليلة أمضينا وقتاً ممتعاً حتى الفجر، ثم استأذنت للذهاب إلى مسكنها، نظرتُ إلى صورة سارة وقلت لها مبرراً: "صدقيني لست أحبها"، كأنها تؤنبني على علاقتي.

نمت قرير العين واقتحم نومي صوتُ جرس الباب المزعج، نهضت بتثاقل وعندما فتحته وجدت ناهد تبكي وملابسها ممزقة والدم يسيل من فمها، ارتمت بين ذراعي وبكت وهي تمسك أطراف قميصي بأصابعها المرتجفة، عالجت جراحها ثم تركتها تحكي وتبوح بسرها الذي كان يداهمها وهي معي فيجعلها شاردة الذهن:

"فيصل ليس خطيبي، لقد أحببته لسنوات ووافقت على الحضور معه إلى بلده ووعدني بالزواج لكنه خدعني، إنه يعاملني كعاهرة يدفع لها المال مقابل بعض الليالي الحمراء، سئمت من حالي معه ومن خيانته وضربه المستمر لي، ثم نظرت إليّ وكانت عيناها غارقتين في بحر الدموع، فمسحت دموعها وأنا أنظر إلى وجهها الجميل... الحزين وقالت وهي تحاول التنفس: أتذكر ذلك اليوم التي وافتني فيه النوبة، لقد لمحته مع إحدى النساء، ظننت أنه سيتغير ولكنه لن يتغير أبداً، إنه كذئب مسعور متعطش للدماء، لقد يئست من حبه ولم أعد أرغب به".

تركتها ترتاح، وظللت أفكر بحالها طوال الليل، وفي الصباح غادرت الشقة بعد قطعها وعداً بعدم العودة إلى مسكنها... قررت إبعادها عنه، فلأسافر معها بعيداً عنه، ولأجعله يكتوي بنار الفراق، وأبعدهما عن بعضهما بعضاً أكثر فأكثر، وبالطبع لم أنسَ إبلاغ صاحبه أحمد بسفرها معي.

سافرت معها إلى المالديف وكنت أمضي يومي بالسهر ثم أعود إلى فراشي، وأنظر إلى صورة سارة وأحادثها وأنام، أما بالنسبة لناهد فقد ابتعدت عني، ولم تقارب بيننا هذه الرحلة كما كنت أتصور بل باعدتنا، وأحسست بحنينها لفيصل يشع من عينيها.

ذات ليلة أمسكت بإصبعي، ونظرت إلى خاتمي الفضي ثم قالت ببراءة:

- هل أنت متزوج؟

ابتسمت وأنا أمسح على رأسها:

- كلا.

- إذاً، لماذا ترتدي هذا الخاتم ولا تخلعه أبداً؟

- إنه غالٍ عليّ؟

- أنا متأكدة أنه من إنسان غالٍ.

- نعم.

- من؟

فابتسمت وأنا أقول لها:

- كنت أحب فتاة جميلة مثلك ببراءتك وعفويتك وابتسامتك العذبة وبريق عينيك، اسمها سارة ثم خلعت خاتمي وأريتها مكان الخاتم.

فنظرت بفضول وصاحت بدهشة:

- لقد نقشت اسمها على إصبعك!

- نعم، ما كان يربطني بها أكثر من مجرد خاتم.

- ألهذه الدرجة تحبها، لدرجة أنك تنقش اسمها على إصبعك؟

- إنه منقوش على قلبي.

- وأين هي الآن؟

فقلت متجنباً النظر إليها:

- ماتت.

ثم نظرت إليها فوجدت الحزن يكسو ملامحها.

- كيف ماتت؟

- قتلها الحب.

- وهل الحب يقتل؟

- إن الحب مرض يصيب الإنسان، وإذا لم يتم علاجه بأسرع وقت سيفتك به العشق.

- وهل سارة كانت مريضة بالحب؟

- نعم، مثلما أنتِ مريضة بحب فيصل.

قالت وهي تدير عينيها عني كأنها تحادث نفسها:

- إنه أول حب في حياتي، ولا بد من أن أعاني حتى أنساه مثلما أنت تعاني في حب سارة.

قلت وأنا أزفر أنفاسي بيأس:

- إن سارة مختلفة عن فيصل، فسارة كانت الملجأ الحنون لي، أما فيصل فهو سجانك الذي يذيقك شتى أنواع العذاب.

رفعت حاجبها بمكر وهي تقول:

- ألا تزال تحب سارة؟

- ألا تزالين تحبين فيصل؟

- لا تتهرب من السؤال.

- لكنكِ تهربت من حديثي عن فيصل.

- دعك منه أرجوك.

- ودعكِ من سارة.

كنت أحدق في ملامح وجهها ويدور صراع في داخلي، إن كل ذرة في جسدي ترجوني أن أطلق ساقي في الهواء وأهرب منها، ولكنّ هناك شيئاً يجذبني إليها ويقيّدني بها أكثر فأكثر.

ربما هما عيناها المشبعتان بلون السماء والبريق الذي يشع منهما كلما ابتسمت أو ثغرها الجوري أو ربما شعرها العسلي المرفوع فوق رأسها والذي توَّجها ملكة على قلوب الرجال.

فقاطعني حسن:

- وهل تركتها أم قررت الخوض في المغامرة؟

- لو لم أخض المغامرة لما كنت مسجوناً، وأطلقت أنفاسي وأنا أكمل... ليتني في ذلك الوقت هربت منها... ليتني لم أستسلم لعينيها.

- ما الذي حدث؟

ذهبت وتركتني لوحدي مع ذكرياتي.. أخرجت صورة سارة من الدرج وقلت لها: "لماذا تنظرين إلي هكذا، أخبرتك أني لن أحبها وأنتِ حب حياتي"؟

ولكن لمَ الكذب، لقد وقعت في حب ناهد، ولم تعد سارة تزورني في أحلامي كالسابق، لقد أمضت ناهد كل حياتي وفي غيابها تستوطن أحشاء مخيلتي، وفي حضورها تسجنني روحها الجميلة؛ إنني أسير حبها وحتى لو لم أشأ الاعتراف بذلك.

نظر إليّ حسن وقال:

- هل أحببت ناهد ونسيت سارة؟

- ألم أقل لك إن الحب مرض، وهذا المرض لا يمكن علاجه إلا بالفايروس ذاته، فايروس الحب.. لقد تعافى قلبي من حب سارة بعد أن أصابته ناهد بفايروس حبها... لقد أصبحت مناعتي ضعيفة أمامها، أما سارة فأصبحت ذكرى في القلب، ذكرى جميلة، طاهرة نقية، ولكن كان ندمي كنار تتسع دائرتها لتحرقني كلما نظرت إلى ناهد.

حسن: ألم تعلم ناهد بخطتك للانتقام من فيصل؟

- لم تعلم حتى اليوم أنني طرقت بابها لأنتقم منه.

- وماذا حدث بعدها؟

نظرت إلى الفراغ وأكملت:

لم يتركها فيصل في حال سبيلها، كان يتصرف كعاشق في ساحة حرب يرفض الاستسلام للعدو، فأبلغ والدي بتصرفاتي الذي أتى وهو مشمئز من تصرفي الطائش، ولكنني كنت أستمد قوتي من ناهد.

أهملت دراستي وأصحابي وأمضت ناهد هي محور حياتي، ولم أعد أذهب إلى الجامعة.

لا أعلم متى وكيف حولتني إلى رجل وأصبحت أحاول إصلاحها لأصلح نفسي.

أشجعها على الاستقلال من سيطرة فيصل كي أستقل أنا كرجل وأترك عني تصرفاتي الصبيانية.

ولكنها كانت تبحث بين الثغور عن منفذ لتتركني، تبحث عن حجج لتعود إليه؛ إن الأنسان يعشق من يسبِّب له الألم، ولذلك كانت ناهد تعشق فيصل وأنا أعشقها، كلنا نسعد لتعذيب أرواحنا بالحب وكوي قلوبنا بنار الشوق، ونتخيّل أنفسنا محور الأغاني الحزينة.

ووجدت ناهد الثغرة التي تتسلل منها إلى أحضان فيصل، وهي إهمالي لدراستي فرحلت تاركة القلب في لوعته، هذا هو جزاء طيبتي، فبعد الحب جازتني بالصد ورمت نفسها بين ذراعيه وهجرتني مدعية أنني مجرد طفل.

عدت إلى مسكني أبكي، ونظرت إلى سارة وابتسامتها العذبة كأنها تسخر مني، وكأن ما فعلته بها سيكون كذنب أدفع ثمنه طوال حياتي، أمسكت بصورتها ومزّقتها ووطئتها بقدمي ولجأت إلى الكأس لينسيني عذابي، إنها معه، يمسك بيدها ويلمس وجهها ويقبلها ويبوح لها بكلام الحب.

ناهد هل أنت قاسية مع الجميع أو معي أنا فقط؟ هل تعشقين تمثيل دور المرأة التي تذيق عشيقها جبروت حبها؟؟ استسلمت لكأسي أغني معه حتى خدّرني الشراب ونمت نوماً عميقاً، وعندما نهضت كنت أشعر بالصداع، ونظرت إلى صورة سارة الممزقة، جفلت وجلست على ركبتي أجمع القصاصات وأعيد لصقها ولساني يعتذر لسارة.

ووقعت حادثة لي مع فيصل، واضطررت لضربه دفاعاً عنها،

وبعد هذه الواقعة عادت ناهد ولم تعد كالماضي تتصرف بكسل وتذمر، تحولت إلى امرأة قوية تعتمد على نفسها وتبحث عن عمل يساعدها وترفض مساعداتي المادية، تغيرت ناهد إلى الأفضل، وسئمت من فيصل الذي كان يستعين بنفوذه ليفقدني أعصابي، ولكني لم أهتم به، فقد كنت معها وهذا يكفيني.

كانت دوماً تشعر أن نظرات فيصل تقتلها، ولذلك تختبئ بين ذراعي وتحس بالأمان معي، وأحمد الله أن أمنياتها لا تتحقق، فكثيراً ما كانت تتمنى الموت حتى وهي معي.

***

(29)
صراع الرجولة

ليتني لم أذق طعم الحب يوماً، ليتني حميت قلبي من هذه الأوجاع.. جلست عند شاطئ البحر أفكر، لقد أصبح في حياتها مفترق طرق، أنا أم فيصل فأيهما ستختار؟ كان لا بد لها أن ترسو بقرارها، إما أن تسكن بين ذراعي أو تعيش مع جلادها، ولكن هل أتخلى عن رجولتي التي تأبى أن يشاركني أحد بحبيبتي لأستمر معها فقط؟؟

لا يمكنني تجاهل شعوري الذي ينبئوني أنها كانت معه كلما حاولت الكذب عليّ؟؟ ولكن كنت أصدق حديثها الخالي من الصحة، وأنا لست بمغفل ولكني مغرم؟

أكثر ما يقتلني أنني أمنحها الحب وهي تمنحني اللامبالاة، وحتى لو تصنّعت الشوق أكتشف حيلها بسهولة؛ إن حبه مرض يستوطن قلبها، ألا تدركين يا ناهد أنكِ مريضة بحبه مثلما أنا مريض بعشقك، ألم يخبرك قلبك الطاهر أن فيصل يدنسه؟ ألم تشاهد عيناك الحالمتان سواد روحه؟ ولكنني سأتحلى بالصبر حتى أعالجك منه.

إن محبوبتي تعشق جلادها، إنها تحب من يعذب قلبها ومن يترك بصمات عنفه على وجهها، يا ترى أتتلذذ بعذابها أم تتلذذ بعذابي؟

ناهد لا تجعليني أحتار في حبك، إن عيبك هو هيامك وتحليقك

في الخيال، فهل تريدين الاستقرار على أرض الواقع كي أستقر وأرتاح معك.

نهضت من مكاني، ونفضت التراب والأوهام العالقة في ذهني وذهبت إلى السوق، ابتعت لها فستاناً عاجيّ اللون لأرضي رغبتي ولو لمرة واحدة. أريدها حاضرة وهي لا ترتدي فستاناً يحمل ذوق فيصل؛ ابتعت كل مستلزماتها؛ فالليلة لا أرغب أن ألمح بصمات فيصل على هيئتها، الليلة ناهد ملكي أنا فقط.

اصطحبتها إلى باخرة كانت تستعد لتشق البحر، وطلبت من الفرقة أن تعزف لنا لحناً كلاسيكياً، أحطت جذعها بذراعي وضممتها إلى صدري واشتممت رائحتها وأغمضت عيني رغبة مني بالهيام معها في خيالها ولو لمرة واحدة، ثم جلست معها إلى طاولة قريبة من حلبة الرقص، وكان الجو رائعاً ونسيم البحر يزيد من رومنسية الموقف، وعلى طاولتنا يوجد إناء ماء كبير تسبح في مياهه أزهار الربيع، والشموع مضاءةٌ، وكانت تنظر إليه وهي ساهمة، ربما كانت لي هذه الليلة ظاهرياً فقط أما في أعماق روحها فكانت له هو، حدقت بها طويلاً ثم قلت لها:

- ناهد لو رغبت بجسدك لاستوليت عليه منذ زمن.

نظرت إلي ببرود وقالت وهي تداعب أزهار الربيع:

- إذاً ماذا تريد؟

فقلت لها بتردد:

- أرغب بقلبك.

ابتسمت كاشفة عن صف اللؤلؤ:

- إنه لك.

زفرتُ الهواء من صدري بضيق وأكملت: كلا، فأنا أرغب أن أكون الشريان الوحيد الذي يضخ الحياة فيه، أرغب أن لا يشاركني أحد بك.

فقالت وهي ترفع خصلة شقراء تدلّت على جبينها:

- أنتَ تسكنه لوحدك فاسرح وامرح به.

وابتسمتُ بحزن لعلمي أنها كاذبة، وحائرة، وخائفة على مشاعر حبيبها فيصل، فهي تختلس النظر إلى جوالها كلما مرت بها برهة.

وهمس قلبي: "ناهد ألا تهمك مشاعري أم أنا بالنسبةِ إليك شيء غير مرئي"، أحياناً أمقتها وأقول إنها تستحق جلادها فيصل لأنها قاسية في حبها، بخيلة في مشاعرها.

نظرت إليّ بحنان مبالغ به وقالت وهي تداعب ياقة قميصي:

- نزار ماذا بك؟

لم أخفِ ملامح الضيق وقلت بعتاب:

- لا شيء.

- أراك على غير عادتك.

نظرت إلى الأسفل قائلاً:

- أنا متعب.

- ومتى تنتهي هذه الرحلة.

حدقت بها وقلت متعمداً إغاضتها:

- لماذا، هل سئمتِ مني؟

فقالت بغضب: كلا، أسألك فقط لأنك تشكو تعبك؟

- أرغب بالمكوث هذه الليلة هنا، ثم نظرت إلى عينيها وأكملت... معك.

- أنت طماع.

- ولماذا، هل لأني طلبت المكوث ليلة واحدة معك كما كنا في الماضي؟

وأشاحت بوجهها، فأكملت بتهكم:

- أم تفضلين قضاءها مع فيصل، ولِمَ لا، فهو يدفع سعرك.

نظرت إليّ بغضب وصفعتني بقوة على وجهي ثم ركضت باكية.

تجاهلت نظرات الاستغراب التي يصوبها لي من حولي، وطلبت من النادل كأس خمر، تبعته كأس أخرى حتى عادت الباخرة إلى الميناء، وبحثت عن ناهد بين وجوه الركاب ولكنني لم أجدها.

ربما كنت قاسياً معها، ولكنها لم تعد ناهد التي كنت أعشقها، عادت ناهد المريضة بحب فيصل.

ألم تكن تندب حظها الذي أوقعها في شباكه؟ إذن لماذا تعود إليه؟

عدت إلى مسكني ولمحتُ مركبته في الموقف كأنها ترغب بإعلامي بوجوده... آه كم حقدت على مركبته وودت لو أحرقها أو أحطم نوافذها ولكنني كنت مرهقاً بسبب الخمر.

إذن هذا هو الواقع المر، إنها لا ترغب بتمضية الليلة معي وتفضل منح ليلتها له، وليس ليلتها فقط بل جسدها وكل ما فيها، هل تجملت الليلة لي أم له؟ هل وضعت هذا العطر المثير لأشتّمه أنا أم لتغريه به؟

لم أستطع المكوث في مسكني وكنت أشتعل غيضاً، خرجت إلى الشوارع علّي أجد الفرار من حالتي التي أمرّ بها، كنت أهرب من مسكني، فرائحتها ملتصقة بأثاثه ولكن كيف السبيل للهروب من حبها المزروع في قلبي؟

أوقفت مركبتي في مواقف الكورنيش الذي شهد أول لقاء لنا، كنت أسير وأركل حجراً وأتخيل صورتها فيه، وكلما ركلته ذهبت إليه بقدمي؛ وهذه هي حالي، كلما حاولت الابتعاد عنها وجدت قدميّ تحملاني إليها.

جلست على الرمال الباردة وضربت بقبضتي على الأرض، وبكيت قهراً ثم استلقيت فوق الرمال وأغمضت عيني، لا أذكر كم مرّ عليّ من الوقت حتى شعرت بيدٍ تهزني بعنف ففتحت عيني ووجدت رجلاً يقول لي: هل أنت بخير؟

أومأت له برأسي ونهضت عن الرمال، وكانت خيوط النهار تتسلل إلى السماء وسمعت الرجل يردد لزميله:

- إنه ثمل.

لم أعد إلى مسكني تلك الليلة، وذهبت إلى أحد رفاقي، ففتح لي الباب وهو شبه نائم:

- نزار ما الذي حدث؟

لم أرد عليه، وجلست على الكنبة ثم قلت وأنا أخلع حذائي: سأنام الليلة هنا.

فدخل إلى غرفته ثم خرج وهو يحمل بطانية ووسادة وسلمني إياهما.

في اليوم التالي نهضت في وقت متأخر من النهار وعدتُ أدراجي فلم أجد سيارته في الموقف المخصص لها، فأدركت أنه مضى بعد أن قضى ليلة في حجرها. كتبت على ورقة: "كنت أعلم أنكِ معه طوال الليل" ووضعتها تحت باب شقتها وضغطت على الجرس ثم ركلت الباب بعنف وعدت إلى مسكني.. كنت في حالة يرثى لها فاندفعت إلى الحمام ووقفت تحت صنبور المياه بملابسي وبكيت.

جففت جسدي ووضعت المنشفة على جذعي وخرجت ثم وقفت أمام المرآة فلمحت انعكاس صورتها وهي جالسة على فراشي... استدرت بكامل جسدي لمواجهتها وصرخت بها: ماذا تفعلين هنا؟ ولمحت الورقة في يدها.

فقالت لي: لا تتصرف كطفل.

قلت وأنا أدير ظهري لها: ألم تكوني معه؟

وساد صمت قاتل، فدفعت كل ما على المنضدة بذراعي لأسقطه أرضاً:

- أجيبي، ألم تكوني معه؟

- نعم كنت معه.

سددت ضربة إلى المرآة فحطمتها إلى شظايا كبيرة، وانعسكت صورة ناهد في كل هذه القطع، وصرخت بأعلى صوتي:

- خائنة.

- أنت من أجبرني على ذلك.

- لا تحمليني ثمن أغلاطك... واستدرت أنظر إليها بغضب قائلاً: لا أريد رؤيتك بعد اليوم.

ووقفت شامخة تنظر إلي بعينيها الحالمتين.

- أخرجي من هنا ولا تعودي.

فقالت بثقة وبرود:

- أمتاكد أنتَ من كلامك؟

- نعم ارحلي من حياتي.

وانحنيت على رف التسريحة، فسارت ببطء ثم نظرت إلي مطولاً وهمّت بالخروج.. انتصبت قامتي ثم أمسكتها من معصمها واقتربت منها حتى لاصقتها... وضعت رأسي على كتفها فاستدارت مواجهة لي ونظرت إليّ بحزن ولم أستطع أن أتمالك نفسي فاحتضنتها بقوة وأنا أردد ودموعي تسيل رغماً عني: ناهد، لماذا تفعلين بي كل ذلك؟؟ لماذا؟؟

ولكنها لم تجبني، كان صمتها مؤلماً وأشد إيلاماً من خيانتها؟

جلسَت بالقرب مني تنظف جرح يدي وتداويه، وتناست جرح القلب الذي ينبض ألماً بسبب صمتها.

وعدت إليها مرغماً، مخدوعاً بالحكاية نفسها، "لقد أتى ليأخذ شيئاً نسيه في الشقة".

لماذا لا تقولين الحقيقة؟ ألم يأتِ ليسلبك مني؟ ألم تستسلمي لوعوده؟ ألم يأخذك في حجره طوال الليل؟

إن حبيبتي ناهد راقصة ماهرة، فهي تتفنن الرقص على جراحي،

يا ترى كيف أسلبها من فيصل؟ وكيف أقيّدها بي؟ يجب عليّ منحها شيئاً لا يستطيع هو منحها إياه.

خرجت أسير في الشوارع وأخاطب القمر كالمجنون وأشكو للسماء حبها حتى لاحت في بالي الفكرة، سأتزوجها، وبذلك أضرب عصفورين بحجر، فسوف تكون ملكاً لي إلى الأبد وسأغيض فيصل بهذه الخطوة.

إن حلم كل فتاة هو الاستقرار في مملكة تكون لها ولا يشاركها فيها أحد، وفيصل لن يمنح ناهد هذه المملكة أبداً فهو لا يستطيع أن يتزوجها خوفاً من أهله.

لكن يجب عليّ تطليقُ ابنة عمتي، فقد مضَت سنوات على زواجي بها وآن الأوان لإطلاق سراحها.

***

(30)

إن وراء كل مصيبة امرأة

فُتح باب الزنزانة وأطل الحارس قائلاً: نزار لديك زيارة اليوم.
فتبادلتُ مع حسن النظرات ثم قلت له: من؟؟
- رجل يدعى الدكتور حمدان.
وخرج قبل سماع جوابي.
فقال حسن: من هذا الرجل؟
- كيف لي أن أعلم فأنا لم يزرني في السجن إلا صاحبي سمير من حين إلى آخر وبعض زملاء الدراسة.
- سترى اليوم من هو هذ الرجل.
ثم قال لي مبتسماً وماذا حدث مع ناهد بعدها؟
أخذت نفساً عميقاً:
- قررت تطليق زوجتي، فناهد كانت تبتعد عني تدريجياً وأرعبتني فكرة عودتها إلى فيصل، فقررت السفر إلى عائلتي حتى أقنع والدي، ودّعتها وأمسكت وجهها برفق بين يدي ونظرت إلى عينيها: ناهد سأعود إليك أرجوك لا تخذليني.
- وكيف أخذلك؟
- أنتِ تعلمين ما المقصود من حديثي.
وضعت يديها على يدي وقالت بصوت خافت: اطمئن فأنت من يشغل البال.

كنت أعلم أنها كاذبة، لكنني سأسترجع حبها إذا طلبت يدها للزواج.

***

استقبلتني عائلتي بالقبل والأحضان، ولم أفتح باب الحوار في اليوم الأول، وفي اليوم التالي انتظرت الوقت المناسب؛ كان والدي جالساً مع والدتي فقررت محادثته، فأنا على يقين من وقوف والدتي إلى صفي.

- أرغب بمحادثتك في أمر هام.

نظر نحوي ببرود ثم قال: وما هو؟

- أرغب بتطليق نور.

فجحظت عيناه وقال: أجننت ماذا ستقول أختي عني.

- لتقل ما تقوله، لقد مضت سنوات على زواجي منها، وأنت تعلم الوضع، إن نور كأختي تماماً ولا أكنّ لها أي مشاعر.

- لأنك لم تجرب السكن معها تحت سقف واحد.

- لا أستطيع، لقد أضعت بسببها سنوات من عمري.

ضحك والدي وهو يقول: أضعتها بِمَ، لقد تركتك تسرح وتمرح مع الفتيات ولم تكن لها زوجاً وفياً.

- أرغب بالاستقرار الآن.

- إذن استقر معها.

- كلا، قررت تطليقها والزواج من أخرى.

- بمن؟

- من ناهد.

- وهل انتهينا من حكاية سارة لتأتي إلينا ناهد الآن.

- أنت السبب في ما حدث.

- بل تهورك وطيشك.
- لو تركتني منذ البداية أتزوج سارة لما حدث كل ذلك.
- لن تطلق ابنة عمتك.
- سأطلقها، فأنا رجل وسأنفذ ما أريد.
- لا تجعلني أغضب عليك.
- لم يعد يهمني.

ونهضت وأنا أقول له: سأعود إلى ناهد وأتزوجها وأطلق نور.

وخرجت من المنزل متجهاً إلى الكوخ كالمعتاد، ففي كل زيارة لوطني كنت أتردد على المزرعة وأمضي فيها بعض الوقت حتى أسافر مرة أخرى.

لكن هذه المرة أتيت لأودع هذا المكان، وأودع حبها الذي ظللت في سجنه لسنوات.

بعد مرور عدة أيام، ذهبت إلى ناهد بعد قيامي بشراء خاتم الزواج، لكنها لم تكن تجيب على اتصالاتي، وتمالكت أعصابي باعتبار أنها مجرد أيام وتكون لي فأهرب بها بعيداً عن فيصل.

عدت إلى مسكني، وعندما فتحت الباب لمحت طيفاً جالساً على الكرسي، فأضأت النور وكانت ناهد بوجهها الشاحب... العبوس تنظر نحوي بحقد وكراهية.

خشيت أن يكون هناك أمر ما أصابها، ولكنها اندفعت نحو إطار الصورة التي تضم نور وابني، وقالت بصوت عالٍ: من هذه؟

ابتلعت ريقي وأدركت اكتشافها لموضوع زواجي.

صرخت بي: لماذا لا تتكلم أهي أختك أم زوجتك؟ وضربتني بإطار الصورة، وصرخت بي أنت خائن، غدار، ووضعت يديها على أذنها رافضة الإنصات لي وخرجت باكية.

جلست في الظلام أفكر لساعات طويلة وقررت تركها لأيام حتى تهدأ ثم حاولت الحديث معها ولكنها كانت تصدني، بعد ذلك اختفت

من مسكنها وربما خبأها فيصل عنّي، ووصلني خبر مرض والدتي فقررت السفر إليها، وتم إمساكي ثم تفتيشي في المطار والعثور على كمية مخدرات لم تكن تخصني، فأيقنت أن فيصل هو من دسها لي ليتخلص مني إلى الأبد.

- ألم تعلم ناهد بأمر سجنك؟
- لا أعتقد.
- ولم تشاهدها قط؟
- لم أشاهدها إلّا في التلفاز.

فكر حسن لثوانٍ ثم قال: أتقصد أن المذيعة الفاتنة ناهد هي عشيقتك؟

كانت في يوم عشيقتي، إنها تسكن في ذاكرتي منذ سنوات على الرغم من علمي أنني لم أسكن في قلبها إلا لشهور قصيرة، وأهيم في خيالي لثوانٍ أناديها؛ ربما كنت مجرد نزيل في قلبك الشبيه بالفندق، فيا ترى من أنا بين هؤلاء، وأي نزيلٍ كنت؟

هل أطلت المكوث فيه، وتركت بصمة دامغة في هذا القلب؟ أم تم تسجيل خروجي منه خلال أيام.

قاطعنا الحارس قائلاً: نزار الملاحي حان موعد الزيارة.

نهضت من مكاني فقال حسن بابتسامة حزينة:

- حقاً إن وراء كل مصيبة امرأة.

***

الشخصية الرابعة

الدكتور حمدان

"إنك لا تستطيع أن تغيّر تصرفات الشخص وأفعاله إلا في حالة واحدة هي، إذا استطعت أن تغيّر من طريقة تفكيره ونظرته إلى الحياة".

(31)

ناهد

يقع مكتب الدكتور حمدان في وسط المدينة وبالتحديد في مركزها، حيث الشوارع التي تعج بالعربات ليلاً ونهاراً والأصوات المزعجة التي تنبعث من أبواق السيارات ومن أعمال الطرق التي تحتل جزءاً كبيراً من الشارع، بعدها ندلف إلى داخل ناطحة السحاب حيث يوجد مكتبه في الطابق الخامس والستين؛ هناك توجد لافتة زجاجية شفافة اللون خط عليها باللون الأزرق العريض: عيادة الدكتور حمدان الفاروق للأمراض النفسية، وكتبت العبارة نفسها أسفل اللافتة، ولكن باللغة الأجنبية.

كانت الساعة تقارب السابعة مساءً، وقد بدأ عدد المرضى يتناقص تدريجياً حتى حان موعد المغادرة؛ تجولنا قليلاً بأعيننا في المكتب قبل أن نهمّ بالدخول إلى مكان الحدث الأساسي، كان المكتب يعكس مظهره الرسمي، فكل ما فيه يدل على أنه مكان رسمي، وينم عن ذوق رائع، سواء من المقاعد الجلدية التي تحتل مساحة كبيرة أو النباتات المزيفة التي تستقر في الزوايا أو من حيث اللوحات الفنية التشكيلية التي تغطي الجدران.

وتجد موظفة الاستقبال التي هي في الوقت نفسه السكرتيرة الخاصة به تجلس خلف مكتب عريض مرتفع قليلاً عن الأرض، وقد وضعت أمامها بعض الصور الشخصية لها، وآنية للزهور، وبجانبها

إلى جهة اليسار باب مصنوع من الخشب عريض جداً، يوجد خلفه المكتب الرئيسي الذي يستقر فيه الدكتور حمدان، ثم تجد باباً آخر في الجهة المقابلة له، وهناك تجلس ممرضة نسائية، كما تجد غرفة صغيرة في إحدى الزوايا، حيث يوجد عامل ليعد القهوة والشاي ويقوم بواجب الضيافة.

نتوجه إلى مكان الحدث الأساسي ألا وهو المكتب الرئيسي، فنجتاز السكرتيرة وندخل إليه، فنجد شاباً قمحي اللون يرتدي نظارات طبية، ملامح وجهه تدعوك للشعور بالراحة، شعره قصير ومصفف بطريقة مرتبة، جالس فوق المقعد أمام طاولة المكتب الكبيرة التي تتوسط الغرفة وقد انحنى على سطح الطاولة التي امتلأت بالملفات والأوراق وهو منهمكٌ في تصفحها.

كان المكتب ذا إضاءة صفراء خافتة تثير الشعور بالدفء للزوار، وقد علقت على حيطانه المكسوة بورق الجدران العاجي اللون، المقلّم باللون القرمزي بعض الشهادات التكريمية والصور الشخصية مع أشخاص على جانب من الأهمية، وتناثرت بعض التماثيل في أرجاء الغرف وفوق أسطح الطاولات الصغيرة المنتشرة بالقرب من بعض الكنبات والمقاعد، وفي إحدى زواياه تجد مكتبة تحتوي على بعض الكتب ذات الأغلفة السميكة.

نعود إليه، فنجده قد توقف ثم تمطّا وحمل كوباً من القهوة السوداء واتجه ناحية النافذة مسنداً ذراعه إلى سطحها الزجاجي وأطل بعينيه خارجها ليشاهد المدينة وهي تدخل في سبات الشاعرية بأضواء شوارعها الرومنسية التي تنير الأرواح قبل الأبصار، فرفع رأسه قليلاً إلى السماء المزينة بالنجوم وأخذ نفساً عميقاً ثم دفعه خارج صدره كأنه يطلقه نحو السماء ليحكي لها حكاية تعلم هي بتفاصيلها، حكاية نسجها القدر وأهداها إليه ليعيش في ذكراها.

منذ سنوات مضت دخلت إلى حياتي فجأة ومن دون سابق إنذار،

حيث ساقها القدر نحوي لأنتشلها من الحال التي هي فيها، ولكنها هي من انتشلتني من عالمي من دون أن أعلم... تجولت في ذكرياتها وانتابني الفضول لمعرفة الأشخاص المعنيين بهذه الحكاية... تنقلت بين بساتين ذكرياتهم وقطفت من كل بستان ذكرى وجمعتها كباقة للذكريات، وقررت أن أهديها لقارئ هذه السطور.

وهنا تبدأ الحكاية... كنت في تلك الليلة أهمُّ بالمغادرة بسبب ارتباطي بموعد مع أحد الأصدقاء فأتت إليّ السكرتيرة لتبلغني بوجود فتاة تنتظرني منذ ساعتين في غرفة الاستقبال.. ووضعت ملفها على الطاولة. فخلعتُ الجاكيت ووضعتها فوق ظهر المقعد الذي أجلس عليه.. ففككت الزر العلوي لقميصي، وبعدها فتحت الملف لأجد أن خانة البيانات لم تتمّ تعبئتها، أمسكت بالقلم وطلبت إلى السكرتيرة إدخالها فوراً وإجراء مكالمة مع صاحبي لتعتذر له عن عدم تمكني من الحضور في الوقت المحدد، وأن تطلب منه تأجيل الموعد لبعض الوقت.

فتح الباب ودلفت إلى الداخل، كانت تسير بخطوات مهزوزة، وقد وضعت على عينيها نظارة ذات زجاج داكن على الرغم من أننا في المساء، وقد أزاحتها عن عينيها ما إن دخلت المكتب... كانت ترفع شعرها الأشقر فوق رأسها، وقد طلت شفتيها بلون أحمر هادئ، جمالها خلّاب على الرغم من ملامحها الحزينة.. تحمل في يدها اليمنى حقيبة صغيرة حمراء اللون وقد ارتدت تنورة سوداء متوسطة الطول تحدد ملامح جسدها، وفوقها جاكيت ذات لون أحمر. جلست على المقعد المقابل لمكتبي، نظرت إليها للحظات وكانت أصابعها تداعب حقيبتها بتوتر.. لم أصدق عيني، إنها هي الفتاة نفسها التي سبق وأن لمحتها منذ فترة، ولكن بلون شعر مختلف، وقد أثيرت حولها بعض الهمسات.. أخفضت عيني لأنني شعرت بتوترها بسبب تحديقي بها. لم أطلب منها أن ترتاح فوق المقعد الكبير، والجلوس

خلف رأسها مثلما يفعل معظم الأطباء، فأنا أفضل معالجة المريض وجهاً لوجه، وأشجعه على الكلام ثم ازدرأت لعابي وقلت لها بصوت هادئ:

- أرى أنكِ لم تعبّئي الاستمارة.. لذلك يجب عليّ طرح بعض الأسئلة... الاسم؟

فقالت بتردد: هل من الضروري معرفة اسمي؟ ثم أكملت بصوت أقرب إلى الهمس، اسمي الحقيقي، ألا يمكن أن تختار أي اسم يناسبك؟

رفعت عينيّ مندهشاً ثم قلت لها: نعم من الضروري جداً معرفة اسمك.... اسمك الحقيقي حتى أبدأ معك الجلسات.

ثم قالت وهي تعيد خصلة تدلت فوق وجهها وغطّت جزءاً من أذنها:

- اسمي ن، وترددت قليلاً ثم قالت اسمي ناهد.

وتجاهلت النظر إليها، ودوّنت الاسم الذي أخبرتني به.

ثم قلت لها بهدوء: العمر.

- ثلاث وعشرون سنة.

- الحالة الاجتماعية.

- عزباء.

ثم أسندت ظهري إلى مسند الكرسي وقلت لها: أخبريني يا ناهد ما هي مشكلتك، فطأطأت رأسها وركزت نظرها على مقدمة حذائها، وارتسمت على وجهها بعض علامات الارتباك.

فوضعت القلم على الطاولة ثم قلت لها متصنعاً الابتسامة: حسناً أخبريني ما هو سبب قدومك؟

فابتلعت ريقها وأوشكت على التحدث، ولكن سرعان ما تبخرت الكلمات قبل الخروج من ثغرها.

وران بيننا صمت قاتل وجو مشحون بالكهرباء ثم نهضت فجأة

من مقعدها واستدارت مندفعة نحو باب المكتب من دون أن تنبس بأي كلمة.. فتبعتها بعيني ثم أسندت ظهري ولاعبت شعيرات ذقني قليلاً، أفكر في أول مرة لمحت فيها ناهد.. ربما مضت شهورٌ طويلة على ذلك، لكنني لا أزال أذكرها.. فهنالك وجوه سرعان ما تنسى ملامحها، وهنالك وجوه تنطبع في ذاكرتك، ووجه ناهد كان واحداً منها.

أذكر أني في تلك الليلة كنت مع مجموعة من الرفاق في أحد المطاعم الموجودة في المدينة جالساً إلى الطاولة المقابلة لمكان جلوسها، ربما من يرى ناهد أول مرة يلمح جمالها الأخاذ، ولكنني عندما لمحتها أول مرة لمحت عينيها اللتين تتجولان في المكان بحثاً عن المساعدة، بحثاً عن باب يخرجها من الحالة التي تمر بها، وهذا ما شدني إليها فعلاً... الحزن وكذلك الكآبة التي كانت عيناها تنطقان بهما، والهمّ الذي يخيّم فوق رأسها على الرغم من المجوهرات التي كانت تتزيّن بها، إلا أنها بدت كلوحة لسماء مظلمة تتزين بالنجوم ووجهها القمري الحزين يزيد من جمال تلك اللوحة.

إنها مجرد جسد فارغ لُفضت أنفاسه الأخيرة وغادرته روحه.. تنظر إلى الرجل الجالس بجانبها (وكنت أعرف هذا الرجل بسبب علاقة الصداقة التي تربط والدينا) وعينها تصرخ طالبة الاستغاثة.. أما هو فقد كان في عالمٍ آخر، يعميه الغرور عن مشاهدة الحالة المزرية التي تمر بها على الرغم من أنها واضحة للجميع.

كان يتحدث مع أصحابه ويروي لهم بعض الحكايات ولا يعيرها أي اهتمام، لدرجة تجعل من يلمحهم يظن أنه قد نسي وجودها معه، أما هي فكانت صامتة لا تتحدث ولا تبدي أي اهتمام بما يقوله..

استمرّ الوضع على هذا النحو، حتى دخل شاب في مقتبل العمر، طويل القامة ذو عينين فيهما بريق الشباب حلو التقاسيم، فنظر

إليها طويلاً ثم استدار محيّياً بعض الشباب بالقرب منا، فجلس وهو ينظر نحوها بحزن.

حينها تغيّرت الأحداث بشكل واضح مما دعاني أقسم أن هناك شيئاً ما بينهما، ومن يشاهد الحالة التي هم عليها يظن أنه يتابع أحداث فيلم سينمائي.

كل شيء تغير لحظة دخول هذا الشاب، واشتعل الجو المحيط بهم بكهرباء من نوع خاص؛ ازداد حزن ناهد، وأمسكت بكأسها وارتشفت منها بعض رشفات وهي تغمض عينيها كأنها تهرب من صورة تؤلمها كلما نظرت إليها، واعتدل فيصل في جلسته ووضع ذراعه على كتفها، وقربها منه وهو ينظر بغضب ناحية الشاب الجالس مقابلاً له، ثم رفع يد ناهد إلى شفتيه وطبع عليها قبلة وعيناه معلقتان بالشاب المسكين الذي عبر عن غضبه في الكأس الموجودة أمامه.. فأخذ يبتلع الشراب كالمجنون رغبة منه في إطفاء نار الغيرة التي تكوي قلبه، حتى ثمل وأصبح يترنح يميناً ويساراً وصوته يعلو تارة وينخفض أخرى، ويضحك بطريقة هستيرية، ثم يكتسح الحزن ملامح وجهه، ويبدو أنه على وشك البكاء.

وفجأة نهض من مكانه وسار بخطوات متثاقلة وهو ثمل لدرجة أن ساقيه لم تقويا على حمله ثم تهاوى أمام طاولتنا... سقط أرضاً أمام الجميع، فأتى أحد أصحابه وحاول مساعدته على النهوض، وفجأة انطلقت ضحكات السخرية المنبعثة من مكان جلوس فيصل ثم بعض الدعابات الساخرة عن حال الشاب المسكين... ونظرتُ إلى ناهد التي كادت توشك على البكاء فرأيتها تنهض من مكانها، فأدار فيصل وجهه ناحيتها، ونظر إليها بغضب، فتفوهت ببعض الكلمات التي جعلته ينفجر كالبركان ويصفعها أمام الجميع من دون أن يكنّ أي احترام لها أو لأصحابه الجالسين معه؛ وهنا تحول الشاب المسكين إلى نمر هائج، واندفع إلى فيصل بجنون... أمسكه من ياقته ورماه

على الطاولة وانهال ضرباً عليه وفيصل يرد له ضرباته ببعض اللكمات، تدخل بعض الرفاق من الطرفين حتى تم تفريقهما، ووقفت ناهد أمام فيصل ثم بصقت في وجهه، وحملت حقيبتها وتأبطت ذراع الشاب وخرجت معه أمام دهشة الجميع تاركة فيصل في حالة ذهول. وعندما أفاق من الوضع الذي هو عليه، علا صراخه متوعداً ومهدداً لها وللشاب، ثم رحل وهو يجر هزيمته خلفه.

نظرت إلى الوقت وتذكرت موعدي ثم نهضت لأرتدي جاكيتي، حملت علّاقة المفاتيح وخرجت من مكتبي متوجهاً إلى سيارتي، وانطلقت بها نحو أحد المطاعم القريبة مني التي اعتدت التردد عليها بشكل يومي وعندما دلفت، أدرت رأسي يميناً وشمالاً فلوّح لي أحد أصحابي فعبرت بعض الطاولات حتى وصلت إلى طاولة الرفاق وصافحتهم ثم جلست معهم.

وتحدثت قائلاً: أعتذر عن سبب تأخري، لقد انشغلت بأحد المرضى.

فقال علاء: لا بأس يا حمدان، فنحن نعلم أنك مشغول بسبب العمل.

- هل جعلتكم تنتظرونني طويلاً.

- كلا، فقد أتينا منذ ما يقارب النصف ساعة، ولم نطلب الطعام حتى الآن، ورفع بيده مشيراً إلى النادلة التي أتت فوراً لتسجيل الطلبات، فقال لها الرفاق كالمعتاد، فابتسمت لمعرفتها أننا نتناول الطعام ذاته يومياً، رفعت قائمة الطعام وقلبتها قليلاً ثم وضعتها في مكانها وشكرت النادلة وأنا أبتسم لها كالمعتاد.

كان يجلس إلى طاولتنا علاء رفيق العمر؛ إنه شاب أسمر اللون معتدل القامة، ليس سميناً ولا نحيفاً، وممدوح ابن عم علاء على الرغم من أنه لا يشابهه أبداً، فبشرته بيضاء إلى درجة شاحبة وعيناه بحر من العسل، طويل القامة حتى حدود المترين، وجلال اللاعب

في المنتخب الوطني ذو بشرة داكنة وشعر خشن قصير وجسد رياضي متناسق، وقد توطدت علاقتي به منذ سنوات مضت بعد أن صادفته في إحدى الحفلات التي يقيمها ممدوح.

ثم تحدث ممدوح مداعباً لجلال: إلى متى ستستمرون في إحراجنا أمام الجميع.

فنظر إليه جلال ورد عليه: ماذا تقصد؟

- أظنك تعلم ما أعنيه تماماً، إن الفتيات يتقنّ اللعب بشكل أفضل منكم.

فقال جلال وقد بدا عليه الغضب سريعاً: سوف أعتزل اللعب وتفضل أنت مكاني وأرني مهارتك.

فأطلق ممدوح ضحكة عالية ثم أكمل حديثه: لقد كنت أمزح معك.

فأجابه جلال وهو لا يزال يشتعل غيضاً: يبدو أن صاحبك نقل إليك عدوى الاستهزاء بمن حولك.

فقال ممدوح مدافعاً عن نفسه: لا تزج فيصل في الموضوع، فهو ليس له أي تأثير عليّ.

فرد جلال وقد ازدادت لهجته حدة: لا تنكر ذلك، لا أزال أتساءل كيف لك أن ترافق إنساناً مثله!!

فقاطعهما علاء قائلاً: أرجوكما كفّا عن الشجار، كل شخص حرّ في اختياره لأصحابه.

فقال له جلال: نحن لا نتشاجر بل نتناقش.

- حسناً كفّا عن النقاش.

ثم أكمل جلال حديثه وهو يصب لنفسه كوباً من الماء: ألا يزال مع تلك المدعوة ناهد؟

رفعت رأسي أنظر إليه وقد جذبني هذا الموضوع.

فقال له ممدوح ببرود: نعم لا يزال معها، لماذا تسأل؟

- لا يوجد سبب.

فضحك ممدوح وهو يغمز له بعينه: بل يوجد، هل تعتقد أنني مغفل ولم ألاحظ اهتمامك بها في تلك الحفلة التي أقمتها منذ فترة.

فقال جلال مدافعاً عن نفسه وقد بدا الارتباك على وجهه: لا، لست مهتماً بها أبداً.

وابتسم ممدوح بخبث ثم قلت لهم محاولاً إثارة الموضوع مرة أخرى:

- أي ناهد تقصدون؟

فقال علاء: ناهد التي شاهدناها منذ مدة، ثم ابتلع ريقه وأكمل، تلك الفتاة التي تشاجر فيصل بسببها.

- آه، تقصد خطيبته.

فقال جلال وهو لا يزال متضايقاً: إنها ليست خطيبته.

فنظر إليه ممدوح ثم قال: وما أدراك بذلك، ثم ارتكز بذراعه على الطاولة وأكمل:

- يشاع أنها زوجته بالسر.

وقاطعتنا النادلة وهي تحضر الطعام وانهمكنا في تناوله ثم قلت وأنا أقطع اللحم إلى شرائح:

- ولماذا يتزوجها بالسر؟

فقال علاء وهو مشغول بالتهام طعامه:

- من؟

- ناهد.

فأجاب ممدوح: لأنه لا يستطيع أن يتزوجها، ويجبر عائلته على تقبلها.

- ولماذا، ألا يحبها؟

فقال ممدوح وهو يستدعي النادلة:

- إذا كانت الغيرة دليلاً على الحب فهو يحبها.

فقاطعه علاء قائلاً: إنه يحبها حتى لو حاول إنكار ذلك، وسكت للحظات ليبتلع طعامه ثم أكمل وأنا أنظر إليه باهتمام: هل تعلم أنها معه منذ ما يقارب الثلاث سنوات على الرغم من أنه متعدد العلاقات، ولم يكن وفياً لها أبداً إلّا أنه كان يعود إليها دوماً ولا يقوى على هجرها.

قلت له وأنا أسند ظهري إلى مسند الكرسي: ولماذا لا تهجره هي؟؟ فضحك ممدوح وابتسم علاء وهو يهز رأسه ثم أضاف ممدوح: مجنونة من تترك رجلاً بثرائه.

وقاطعه علاء: هل تعلم أنه اشترى لها سيارة جديدة ليكسب رضاها.

فقال جلال: مرة أخرى، ثم أكمل بلهجة ساخرة، آه كم أتمنى لو كنت فتاة.

وابتسمت له وأنا أقول: هل تظن أنه يخنقها بغيرته؟

علاء: فيصل من الأشخاص الذين يرغبون دوماً أن يسير كل شيء وفقاً لطريقتهم الخاصة، أما بالنسبة لناهد فهي عنيدة للغاية وترفض الانصياع له وإطاعة أوامره؛ فأحياناً تخضع له وأحياناً أخرى تنفجر في وجهه وتتركه لأيام ثم تعود إليه وكأن شيئاً لم يكن.

تدخّل ممدوح قائلاً: مثلما حدث في ذلك اليوم عندما تشاجرت معه وانفجرت في وجهه.

فأجبته: هل تقصد عندما تشاجرت معه من أجل ذلك الشاب الذي ضرب فيصل؟

أجاب ممدوح مدافعاً عن فيصل: لم يضربه.

- أعتذر، أقصد تشاجرا.

فقال علاء: إن فيصل رجل قاسٍ وظالم، هل تذكر ذلك الشاب الذي رحلت ناهد معه؟

- نعم.

- يشاع أن فيصل لفق له تهمة ورماه في السجن.

- ولماذا؟

- لا أعلم ما الحكاية ثم غمز لجلال مبتسماً بمكر: ربما بسبب تعديه على أملاك فيصل الخاصة.

فقال ممدوح باهتمام: فيصل يمقت أن يحاول أي شخص الوقوف في وجهه أو المساس بممتلكاته الخاصة.

- إذن ناهد تدخل ضمن هذه الممتلكات؟

ممدوح: طبعاً وهي أهم ممتلكاته.

فنظر إليّ علاء متسائلاً وقال: ولماذا أراك مهتماً جداً بموضوعها؟

فنفضت كتفي بحركة سريعة وأنا أقول: مجرد فضول.

ثم تركت علاء يغير مجرى الحديث، وبعدها عدت إلى المنزل وفكري مشغول بناهد، وبالسبب الذي دعاها للحضور إلى مكتبي.

مرت الأسابيع وسافرت لحضور إحدى الندوات في مدينة أخرى وبعدها عدت إلى عملي، وأثناء جلوسي في المكتب وانشغالي بإنهاء الأعمال الورقية انفتح الباب فجأة ودخلت من دون استئذان والسكرتيرة تتبعها فأشرت إليها أن تدعنا لوحدنا.

ما أثار استغرابي هو اختلاف ناهد، والانقلاب الذي حل على كيانها، فهي تختلف عن الإنسانة التي سبق وأن شاهدتها، فقد كان التوتر والاضطراب عنوانها وهي تجوب المكتب بخطوات سريعة ثم رفعت عينيها نحوي ووجدتهما تشعان ببريق الجنون... تركتها تتحدث كما تريد، وأن تدع سيل الكلمات ينهمر منها، لم أعارضها أبداً في أي كلمة تتفوه بها ثم سحبتُ كتاباً أمامي وقلّبتُ صفحاته وأنا أتجاهلها تماماً، فجلست أمامي وهي تقضم أظفارها ثم نهضت مستديرة نحو الباب وخرجت، لقد كانت ناهد عبارة عن قنبلة قابلة للانفجار في أيّ لحظة، وكان يجب عليّ البحث عن الباب الذي

أستطيع منه الدخول إلى أعماقها، لذلك وجدت أن الطريقة الوحيدة هي تجاهلها تماماً، فناهد من النوعيات التي تحب أن تكون محط أنظار الجميع واهتماماتهم، وإذا لم تجد شخصاً يهتم بها كما تريد سوف تتساءل عن السبب، وبتجاهلي لها سوف أغضبها وأثير اهتمامها وفضولها في الوقت نفسه، فهي ترغب باكتشاف سبب عدم اهتمامي بها.

وبعد عدة أيام مضت من دون أي أثر لها أحسست بالضيق بسبب خوفي من فشل الخطة التي وضعتها حتى اقتحمت المكتب كعادتها في المساء. . كانت تتحدث بسرعة وهي متوترة، جاريتها بحديثها واقترحت عليها طريقة مناسبة لحل المشكلة؛ فناهد تحاول دوماً إثبات أن الرجل خائن وغدار، وتبحث عن خيوط تدلّها على ذلك، وتصدق حتى أوهامها فقط لتعذب نفسها وتزيد من اكتئابها؛ فالعديد من النساء يشبهن ناهد من هذه الناحية، إنها تصدق أي فتاة تحاول الإيقاع بينها وبين من تحب لتستولي الفتاة الواشية عليه فتوجه المرأة أصابع الاتهام دوماً إلى الرجل الذي تحبه من دون التريث أو التفكير للحظة بالطرف المقابل لها، أي الفتاة التي حاولت الإيقاع بهما والتفكير بنيّاتها وسبب قيامها بالإبلاغ عنه ومحاولتها إفساد العلاقة، وما الذي ستجنيه من وراء فعلتها هذه؟

لذلك طلبت منها التريث، ورسم خطة لإظهار نيّات هذه الفتاة، فعادت وهي مندهشة من نجاح الخطة، وبذلك كسبت الجولة الأولى معها وكسبت ثقتها بي وبالحلّ الذي وضعته لمشكلتها، فاتفقت معها على العودة لمتابعة الجلسات كل يوم.

(32)
الرغبة في التحرّر

كانت أولى ملاحظاتي أن ناهد شخصية هستيرية؛ فملابسها المزركشة بطريقة مبالغ فيها وعطرها الذي يبدو أنها تسكبه على جسدها بدلاً من رشه، وتزينها بطريقة تلفت الانتباه تشير إلى شيء واحد، هو أنها تحاول أن تكون مصدر انتباه ومحور الاهتمام، فتقتات وتعيش على اهتمام الناس بها، لذلك فإنّ أغلب المشاهير يندرجون تحت قائمة الشخصيات الهستيرية؛ فتجدها تخرج دوماً وهي ترتدي ملابس مبتذلة تلفت الأنظار وتعتمد على إبراز مفاتنها، والحل الوحيد لاستمالة ناهد هو عدم الاهتمام بها، ولكن يجب الانتباه إلى هذه الخطوة، فعندما تفقد هذه الشخصية هذا الشعور، وتشعر بزواله تحاول جاهدة البحث عنه وإعادته حتى ولو بطريقة تشكل خطراً على حياتها، لذلك كل شيء متوقع الحدوث مع ناهد.

أتت إلى مكتبي في موعدها المعتاد وعطرها يتسابق مع خطواتها:

- لقد تأخرتِ لمدة عشر دقائق.
- الطريق مزدحم.
- حسناً، أخبارك مع فيصل.
- كالمعتاد لا شيء جديداً.

ودار نقاشنا حول فيصل ونزار، فلاحظت من حديث ناهد عنهما أنها لم تكن تحب أياً منهما؛ فهي تحب الحب والكثير من الأشخاص

واقعون في حب الحب من دون أن يكون لهم علم بما يفعلون، وحب الحب هو البحث عن ذلك الشعور الجميل، أي أنها ترغب أن تحب أياً كان لتعيش الجو الذي تقرأ وتسمع عنه، والإحساس بذلك الشعور الجميل الذي يغمرنا نتيجة مشاهدة المحبوب ولذة ألم الشوق والمعاناة لحظة البعد عنه.

لذلك ترى حالات كثيرة مصابة بحب الحب في العالم؛ فالكثير من الفتيات يتصورن أنهن يحببن شخصاً معيناً ولا يستطعن العيش من دونه، وبعد مدة يحببن غيره، ويعود ذلك الشعور ليحاصرهن من جديد. وهنا يأتي السؤال ألم تكن الفتاة تحب ذلك الشخص حتى درجة الموت، فما الذي حدث؟ الذي حدث أنها أحبت الشعور، وأحبت الحب بذاته ولم تحب شخصاً معيناً، وناهد كانت من هذا النوع، فهي تعاني من الفراغ العاطفي، ولا بد من ذلك، فأغلبنا مصابون به، فالإنسان كتلة من المشاعر وإن لم يفرغها سينفجر وسأعود إلى هذه النقطة فيما بعد.

وتتالت الجلسات، وكنت أفتش عن العقد الموجودة في ناهد؛ فحياة الإنسان كالخيط والمشاكل تكون كالعقد، وكطبيب نفسي أسعى لفكها عقدة عقدة لأجعل الخيط يمتد أكثر فأكثر وأن لا تعيقه العقد في الاستمرار والوصول إلى ما يرغب به، ولذلك يجب عليّ البحث عن الأسباب والدليل. وما كان واضحاً أمامي هو كره ناهد لذاتها والتلذذ بعقابها على شيء ارتكبته في الماضي، وربما يكون في مرحلة الطفولة، ولذلك وجهتُ إليها سؤالاً كنت أعلم أنه سيضرب ألمها في الصميم، وسيجعل قناع القوة الذي تتزين به يسقط أمامي، فمن السهل أن تخدع الجميع، ولكن من الصعب أن تكذب على نفسها وتصدق الكذبة. وكما كنتُ أعلم كانت هي تعلم أنها تخوض علاقات فاشلة فقط من أجل تحطيم نفسها أكثر فأكثر وتعذيبها.

وعندما وجهت إليها السؤال تحول القناع إلى أشلاء، فهاجت

وماجت وأصبحت كإعصار يقتلع ما أمامه، وحاولت أن تبرر بإجابات متناقضة أنها لا تكره نفسها، ولكن ربما كانت تقنعني لكنها لم تجد الجواب الذي يقنعها ويقنع نفسها المعذبة التي ترفض الانقياد لهذا الوهم... رحلت عني وهي تغلق الباب بقوة حتى كادت أن تخلعه، كانت تهرب من هذا السؤال، ولكنه استمرّ يلاحقها ويتردّد في أصداء ذهنها ويطالبها بإجابة واضحة.

كنت على علم أن مواجهة ناهد هي أفضل حل لجعلها تستسلم لي، وسؤالي جاء كالسهم يشق طريقه إلى قلبها فحدث ما توقعت من أن الشخصية الهستيرية وجهت صرخة استغاثة عن طريق محاولتها للانتحار، وأتى فيصل والشر يتطاير من عينيه، وحذرني من الاقتراب منها ومنعها من القدوم إلى العيادة، وبهذه الطريقة قدم لي ناهد على طبق من ذهب، فهي بلا شك ستعانده وتأتي.

مرت الأيام وابتسمت بانتصار عندما لمحت اسمها في دفتر المواعيد، لقد أتت أخيراً، وهذا يبشر بالخير، فهي ترغب بالعلاج والتغير نحو الأفضل؛ كانت في دوامة من الصراع مع ذاتها وأخيراً قررت الاستسلام.

جلست أمامي والإرهاق باد على وجهها وانكسارها يفضح حزنها ويبدو أنها لم تهتم بزينتها هذه المرة.

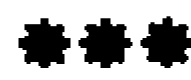
كانت تتحدث عن حلمها، واستنتجت أن عقلها الباطن يجعلها تلوم والدتها على الحالة التي هي فيها... فتفسير الحلم أن البحر وجماله هو فتنة الحياة وإغراؤها، وغدر البحر لها هو إحساسها بأن الدنيا قد خذلتها وأن والدتها تزيد من استسلامها، وعندما تم إنقاذها كانت لا تزال تحمل معها هذا الإحساس من أن والدتها هي السبب في كل ما يحدث لها.

وأدركت أن العقدة مرتبطة بأمها، وفي عقلها الباطن تعلم أن

الخطأ كان من والدتها وليس من والدها، ولكنها ترفض الاعتراف بذلك... آه كم أنّ هذه الفتاة عنيدة.

إن والدة ناهد زرعت في قلوب بناتها كره الرجال، وكانت تلوم والد ناهد على كل ما حدث، وكانت ناهد تلوم نفسها على رحيل والدها واكتشفت ذلك بعد كلام ناهد عن أختها التي توفيت بسبب حبها لأحد الرجال، وأن ناهد هي من دسّت الرسائل لوالدها، ولكن انتحار نرجس لم يكن لناهد يد فيه، والطفل بطبيعته يلوم نفسه عند رحيل والديه أو وقوع الطلاق بينهما، وناهد كانت تحمل في قلبها ذنب والديها وفراقهما لسنوات، ولذلك كانت تمقت نفسها.

كانت تزداد حقداً على نفسها عندما تذكر أنها استسلمت لفيصل ووافقت على خداعه، فلا يمكن لشخص عاقل أن يتم خداعه إلا إذا أراد هو ذلك.



كانت الساعة تشير إلى الواحدة والنصف صباحاً عندما أيقظتني أختي الصغيرة لتخبرني أن البواب الذي يعمل في مكان عملي يحاول الاتصال بي لحالة ضرورية، فركتُ عينيّ ورفعت هاتفي لأحادثه:

- ما الذي حدث؟

- آسف سيدي، ولكن هناك فتاة تهدد بالانتحار وتبكي بطريقة هستيرية وتطلب لقاءك.

- من هذه الفتاة؟

- لا أعلم يا سيدي، إنها ترفض الإفصاح عن اسمها وتتصرف بجنون وتطلب استدعاءك فوراً.

- حسناً، أنا قادم حالاً، إصعد معها إلى مكتبي.

- حسناً.

كانت هذه الأخبار كفيلة بطرد النوم من عينيّ، قدت مركبتي بسرعة جنونية وأنا أتجاوز الإشارات الحمراء، فوصلت إلى مكتبي في وقت قياسي ودخلت لأجد الحارس جالساً، وعلامات السأم على وجهه، وأدرت رأسي إلى الجهة الأخرى فلمحتها على الكنبة وشعرها يغطي وجهها، وجسدها يرتعد برقة.. كانت تجهش بالبكاء:

- ناهد!!

نظرت إلي بعينيها المتورمتين ونهضت ببطء وهي ترفع شعرها عن وجهها... تفرست ملامحها بحزن وقلت لها: ما الذي حدث؟ فاندفعت نحوي ووضعت رأسها على صدري وأمسكت قميصي بأصابعها وبكت... حدقت في وجه الحارس بدهشة، فلم يسبق لي احتضان أي مريض لدي، ولم يسبق لأي دكتور نفسي ذلك، أمرته بالانصراف ووقفت حائراً لثوانٍ وناهد تبكي بغزارة، فهل أرفع ذراعي وأحتضنها أم أتجاهلها، فوجدت نفسي أربت بيدي على ظهرها قليلاً ثم أمسكتها من كتفيها لأزيحها عني بلطف:

- ناهد لا تبكي، تعالي معي.

قدتها إلى مكتبي الرئيسي، وأجلستها على الكنبة وذهبت لأحضر كأس ماء لها، وبعد أن روت ظمأها قليلاً قلت لها بهدوء متجنباً النظر إليها:

- هل كنت ستقتلين نفسك الليلة؟

ولم تجب.

- ناهد أجيبي، ألا تعلمين خطورة الكلام الذي تفوهت به إلى الحارس، هل تعلمين بأنه لو لم يكن يعرفني جيداً لأبلغ الشرطة عنك وتم زجك في السجن.

فأصدرت أنيناً وبكت كالأطفال.

- هوّني عليك قليلاً وأخبريني ما الذي حدث؟

فتحدثت بصوت حزين:

- أشعر بالاختناق، أشعر بقيود وهمية تقيدني، إن فيصل يقتلني كل يوم بتصرفاته ولا أعرف كيف السبيل للخلاص، سئمت من دوراني في هذه الدائرة وتكرار السيناريو المعتاد، أرغب أن أتحرر من..

وأخذت نفساً عميقاً وبكت بغزارة.

- ممّن يا ناهد؟

- من هذه الشخصية التي تسكنني والتي تعشق من يقتلها في اليوم مليون مرة، أرغب بالتحرر من خضوعي، وهذا الحب الذي يقيدني ويشل لساني لكنني عاجزة... عاجزة يا دكتور.

- لا بأس يا ناهد، إنّ أول خطوة للعلاج هي الاعتراف، وأنت تعترفين أن حب فيصل لك يقتلك، لذلك يجب عليك أن تتخلصي منه.

- لا أستطيع، لقد جاهدت لسنوات.

أمسكتها من كتفيها وهززتها برفق: بل تستطيعين يا ناهد، فأنتِ قوية، أنتِ كالشجرة التي من الصعب اقتلاعها.

- ربما من الصعب اقتلاعي ولكن من السهل تحطيم غصوني وإسقاط أوراقي.

- ستنبتين مرة أخرى وتزهرين، أنت مختلفة، ولا يقتلك شيء، مهما طالت السنين ستكونين شامخة.

مسحت دموعها بظهر يدها وقالت:

- دكتور أرجوك خلصني منه، عالجني من حبه... أتوسل إليك

وعادت إلى البكاء.

نظرت نحو الفراغ: أعدك بذلك، ولكن عديني أن تثقي بي وتنفذي تعليماتي.

رفعت رأسها وتلاقت أعيننا وقالت بصوت أقرب إلى الهمس: أعدك.

بعد مرور العاصفة نهضت ناهد إلى المرآة وقالت وهي تدقق في ملامح وجهها:

- أحياناً أتساءل ما الذي ينقصني؟ لماذا يخونني؟ إنني جميلة بنظر الجميع، مرحة، ذكية، أنا أنثى مثالية لكل رجل... دكتور..

قاطعتها: لا يعيبك شيء يا ناهد، عندما يخونك رجلك لا تتساءلي عن الجواب لأن خيانته جواب بحد ذاتها، ولا تبحثي عمّا ينقصك لأنك لن تجدي الجواب أبداً.

فنظرتْ إليّ باهتمام فأكملت: النقص ليس منك، النقص من الرجل الخائن، فهذا النقص لا يوجد شيء يملأه ولا نساء العالم أجمع، إنه مريض بمرض الخيانة.. إنه رجل شره للنساء، هذا النوع هو الذي تنقصه الرجولة، والأنثى لا يعيبها أي شيء.. لا تلومي نفسك.. خففي عنها الحمل قليلاً، إنه هو السبب... هو المذنب لأنه طماع ولم يقدِّر ما في يده.

ساد الصمت للحظات ثم أكملت: ألا تعلمين ما هو مصير الخائن؟

- كلا.

- مصيره الوحدة... سيكون وحيداً لا يجد من يرغب به وسيمضي أيامه بالحسرة على ما كان بين يديه وأضاعه بسبب طمعه، هذا هو مصير الإنسان الخائن.

- ولكن فيصل يستطيع شراء أي أنثى يرغب بها.

- حتى لو اشترى المظهر فما أدراه بالجوهر؛ فالإنسان الخائن لا بد وأن يتجرع السم الذي سقاه للناس في يومٍ ما، هكذا هي الحياة.

- هل تعني...

أدركت ما أرادت أن تقول فقاطعتها:

- هذه مجرد أول جرعة... علاقتك مع نزار تكونت بسببه، لا

أقصد أنك لم تذنبي بفعلتك، فالخطأ لا يعالج بالخطأ، ولكن كنت ترغبين بالخلاص ولم تدركي ما هو التصرف الصحيح.

- أتعلم بأنّ فيصل دوماً يتجاهل هذا الحديث ولا يذكرني بعلاقتي مع نزار.

- لأنّ ذلك يذكّره بخياناته.

- ولكنها مزروعة في ذاكرتي.

- إذن لا تسقيها بدموعك وحزنك... إن الإنسان أحياناً يكون مقيداً بسبب ذكرى حزينة ولا يستطيع التقدم بسببها، وإعادة سرد هذه الذكريات تفتح الجروح، يجب أن تعاهدي نفسك بتناسيها.

- ولكن..

- ناهد، تخلصي منها لتكملي حياتك، تخلصي من الذكريات السلبية واستبدليها بالذكريات السعيدة التي تبعث على الأمل.

- سأحاول.

- لا تقولي سأحاول بل افعلي.

وابتسمت لها فبادلتني الابتسامة، نظرت إلى الساعة: إنها الرابعة صباحاً، أعتذر منك يا دكتور، لقد أفسدت نومك وأجبرتك على السهر معي الليلة.

- إن مهنتي تستدعي أن أخفف عن المرضى.

فبدا الحزن على وجهها: وهل أنا مريضة؟

- أنتِ مريضة بالهموم يا ناهد، وستتماثلين للشفاء قريباً جداً.

***

(33)
الرحيل

دخلت السكرتيرة إلى مكتبي لتوقظني من ذكرياتي وتشدني إلى الواقع.

- دكتور لقد وصل المريض هل أسمح له بالدخول؟

- نعم دعيه يتفضل.

حاولت العمل بضمير ولكن الماضي كان يشدني إليه بقوة والحنين إلى ذكرياتها يسيطر عليّ... مر اليوم سريعاً وانتهت جميع المواعيد، فأتت السكرتيرة تستأذن للانصراف.

- انصرفي أنتِ، لدي بعض الأعمال المكتبية.

- حسناً إلى اللقاء.

نظرت إلى الساعة وجلست على الأريكة ثم أدرت التلفاز، وابتسمت عندما رأيتها تتحدث بثقة مع أحد الضيوف، إن ناهد تعتبر من أفضل المرضى الذين تعالجوا لدي، أنا أفتخر بها وبما حققته، ولكني احتجت لبذل جهد عظيم، لذلك ابتسمت عندما تذكرت ذلك اليوم الذي أتت وهي تزفر أنفاسها ضيقاً.

- ما بك يا ناهد؟

- السيناريو المعتاد، ابتسمت، فالسيناريو المعتاد هو فيصل.

- ناهد في الجلسة السابقة تحدّثتِ عن خيانته... كأنثى، ألم تزعجك خياناته المتكررة لك؟

- حينها كنت أشعر أنني أبتعد عنه كالأمواج التي تبتعد عن حجر كبير ألقي في بركة هادئة، وكان الحجر هو خيانته المتكررة لي وإهاناته المستمرة تجاهي.

- ألم تفكري بالرحيل من قبل؟

- سبق وأن رحلت لكنني عدت إليه، هذة الخطوة بالذات جعلته ينشب أظفاره في جسدي ويقيدني، بعودتي إليه أدركت أنني تركت قوتي خلفي وتخليت عن كرامتي.

- وكيف ذلك؟

- لقد أدرك فيصل نقطة ضعفي وهي حبي وخضوعي له لاعتقادي أن هذا هو مصيري، فعزز الفكرة في عقلي وجعلها تنمو.. لقد قلّلت من قدر نفسي كثيراً أمامه ولذلك لم يعد يشعر بقيمتي.

- لماذا لم تحادثيه وتشرحي له ما يزعجك، فبعض الرجال لا يدركون ما يضايق المرأة ويشعرون بالغموض نحوها.

- حاولت معه كثيراً، وكنت واضحة في حديثي وصريحة معه ولكن من الناحية المنطقية، كيف له أن يحترمني وهو يعتبرني كالسلعة التي اقتناها بماله؟

- هل تعلمين متى ستجدين الحل؟

- متى؟

- عندما تحبين نفسك.

- أنا أحب نفسي.

- بل تكرهينها وتلومينها حتى على أبسط الأخطاء.

- ضميري حي.

أطلقت ضحكة على أسلوبها الساخر.

- تنازلي عن بعض الزلات.

- لفيصل.

- كلا لنفسك.. أحياناً أستغرب منك عندما تسامحين فيصل عن أخطائه الكبيرة تجاهك ولا تسامحين نفسك عن أخطائك البسيطة جداً.

- ربما أحبه أكثر من نفسي.

- بالطبع فأنا على يقين من عدم وجود حب في قلبك تجاه نفسك ولا بمقدار ذرة.

- والحل؟

- أحبي نفسك.

- وكيف السبيل لذلك؟

- سأخبرك عندما يفعل فيصل شيئاً جميلاً لك، ألا يزيد حبك له أو عندما ينجز شيئاً مهما ألا تفتخرين به؟

- طبعاً.

- إذن حققي شيئاً يجعلك تفتخرين بنفسك.

- وما هو؟

- مثلاً عندما كنت طفلاً رغبت أن أكون دكتوراً وحققت ذلك فازداد فخري لنفسي وأصبحت رجلاً واثقاً وناجحاً في مجال عملي، وأنت ألم تكن لديك رغبة في طفولتك؟

- في طفولتي، كنت أحب تقليد أخواتي، أما في مرحلة المراهقة أردت أن أكون مذيعة.

- ولم لا تكوني مذيعة، أنت تملكين المؤهل الدراسي والشكل الخارجي، ثم أطرقت أفكر وأكملت: لقد وصلتني أخبار منذ فترة وجيزة بوجود امتحان للمذيعات المستجدات، هل ترغبين بتقديم طلب والدخول إلى الامتحان؟

- لا أظن أنني سأتجاوزه.

- ناهد ألم تقولي من قبل إنك تستطيعين الحصول على ما ترغبين؟

فبدا لمعان التحدي في عينيها وهي تقول نعم.

- إذن أتحداك أن تتجاوزي هذا الامتحان.

لقد قبلت التحدي، كانت عند حسن ظني، فعلى الرغم من أن الجميع يعتبر العناد صفة سلبية إلا أنني أجده سلاحاً ذا حدين،

فالبعض يستخدم عناده في أمور تافهة جداً كالإصرار على الاستمرار في خلاف مع أحد رفاقه وعدم رغبته في المصالحة أو التنازل، أو عناده للحصول على شيء معين، ولكن لو وجّه هذا العناد وطاقته للحصول على أمر فإنه سيشكل نقطة تحول في حياته ولأصبح عناداً إيجابياً، وهذا ما فعلته مع ناهد، لقد جعلتها تتحدى نفسها من أجل الحصول على ما ترغب به، وأن تضع عنادها للوصول إلى غاية تغير محور حياتها للأفضل بدلاً من استغلال هذا العناد في توافه الأمور، وبذلك حولت عنادها إلى شيء إيجابي.

وبعد حصول ناهد على الوظيفة أصبحت تقدر نفسها وتعلم أنها ليست عديمة الفائدة كما يحاول فيصل إقناعها.

كانت آخر خطوة هي تحرير ناهد من حب فيصل؛ في الماضي كان من الصعب إقناعها أو حتى طرح الفكرة، أما الآن بعد أن أصبحت تكن الحب لذاتها وأدركت قيمتها فقد أصبحت تعرف في قرارة نفسها عدم صلاحية فيصل لها أبداً، وأنها تستحق رجلاً أفضل منه، رجلاً يقدر طموحها ويرعاها ويسقي أحلامها، وليس رجلاً يدهسها ويحطمها كي يرضي غروره ويجعلها تحت سيطرته ويقيدها بالأوهام.

تركتها لتتخذ القرار على الرغم من علمي به، فهي استقلت مادياً عنه وحان الوقت لتستقل عاطفياً، ففيصل لن يتغير أبداً وخيانته تحطم من ثقة ناهد لنفسها وتزيد من اكتئابها، فلا يمكنني الجهد في بناء شخصية ناهد وفيصل يحطمها بثوانٍ. لقد تبيّن أن عالمها وحياتها الخاصة كالمسرح وهي المخرج، فبيدها طرد أو إبقاء من تريد، في ذلك الوقت أضحت الحقيقة كشروق الشمس، لذلك اختارت الرحيل، وكان عليّ التعهد بعدم إخبار فيصل عن وجهتها.

***

(34)
الضحية

عدت إلى منزلي واستلقيت داخل فراشي أفكر، ابتسمت عندما هلّت عليّ ذكرياتي مع فيصل وتذكّرت جنونه وغروره الذي يشع من مسامات جلده، كان كبرياؤه يرفض تقبل فكرة ترك ناهد له ورحيلها عنه، كاد يجن وهو يبحث عنها في كل مكان ووجه إليّ إصبع الاتهام، وأصبح يردد أنني من سعيت لفراقهما.. حاول معي بشتى الطرق الحصول على جواب، تارة بالتهديد وأخرى بالتوسل.. لم أكن أعلم أنه متيم إلى هذه الدرجة بناهد حتى أسقطه العشق وغدا ضحية من ضحاياه.

إنها أوكسجين أنفاسي وألم قلبي، هكذا كان فيصل يتحدث عنها عندما تهدأ زوبعة الغضب، لم أعتبره مريضاً عندي، كنت أستوعب ألمه وأدرك حزنه، فخلف هذا المظهر الصلب والقوي يوجد طفل كبير يبكي على من حطمت قلبه.. لن ألوم فيصل، فالظروف المحيطة به هي من نحتته وجعلته إنساناً قاسياً، لن ألومه على خيانته لناهد فهو لا يدرك معنى الوفاء أبداً.

كانت مواعيدي مع فيصل إما في مسكن ناهد أو في أحد المقاهي البعيدة، دوماً يبدأ حديثه وهو ينظر نحو الفراغ ثم يطلق تنهيدة كبيرة تخرج من أعماق قلبه محملة بالهموم ويتحدث ولا يصمت، كأنه يحدثها هي ولكنه يعتبرني كالجمهور الذي يصغي إليه

كشاهد على حب ناهد. أحياناً لا يشعر بوجودي أو يتناسى ذلك، فينتقل من حبه لها إلى قسوة والده ثم يضع يديه على عينيه كأنه يحاول منع نفسه من مشاهدة أمر مرعب أمامه ولكنه مغروس في ذاكرته، وعندما ينتهي من حديثه يتوقف منصرفاً من دون أي وداع أو يتجه نحو غرفة ناهد ويغلق الباب خلفه، وهذا التصرف كفيل بإعلاني انتهاء الزيارة.

أحياناً يلومني وتارة يتهمها بالجحود؛ إن عواطفه امتزجت، فلم يعد يستطيع أن يميز ما مصدر هذا الألم الذي ينبثق من قلبه، هل بسبب هجرانها أم نكرانها؟

كان فيصل يجلس لساعات يحدثني عن حلمه الجميل الذي حطمه والده، ولو كان لاعب كرة قدم لاستطاع أن يكون من أمهر اللاعبين، ولكن كانت هناك نقطة تضايقني، فذات مرة كنت أتابع معه إحدى المباريات وكان يشتم اللاعبين فابتسمت قائلاً:

- لماذا لم تحترف كرة القدم؟

- إن كرة القدم للفاشلين فقط؟

- ولماذا؟

- هؤلاء اللاعبون لم يستطيعوا إكمال دراستهم بسبب غبائهم وفشلهم فاحترفوا هذه اللعبة، إن هذه اللعبة تناسب الفقراء فقط الذين يبحثون عن المال والشهرة، فكوَّنوا ثروة بالطريقة السهلة.

- ولكن يا فيصل لمَ هذه النظرة المتشائمة؟

- هذه هي الحقيقة؟

- هل هذا هو كلامك أم كلام والدك؟

فتجاهل السؤال فأكملت:

- لماذا لا تنظر إليهم نظرة إيجابية، فبالرغم من الفقر الذي عانوه وعدم قدرتهم على مواصلة الدراسة استطاعوا النجاح في أمرٍ ما

ووضعوا طاقتهم فيه فحققوا أحلامهم؛ أعتقد أنهم صنعوا من أخطائهم وفشلهم نجاحات يشهد لها التاريخ.

- أنا أمهر منهم في اللعب.

- إذاً لماذا لم تحترف هذه اللعبة؟

- لقد قلت لك من قبل إنها للفاشلين، وعندما كنت في مرحلة الطفولة رغبت الاحتراف بها، ولكن والدي رفض، وقال إنني ابن عائلة مرموقة يجب عليّ السير على خطاه والاهتمام بالدراسة كي أصبح رجل أعمال حتى أجعله يفتخر بي.

- وهل ضايقك رفض والدك؟

- نعم في البداية، لكنني تقبلت الأمر فيما بعد.

- ألم يزعجك أن ترى أحلامك تتحطم قبل التمكن من البدء بها؟

- كلا... لقد كنت مجرد طفل لا أعلم ماذا أرغب؟

- عندما كنت طفلاً رغبت أن أكون طبيباً نفسياً، ولكن والدي عارض الأمر، وأصر أن أكون ضابطاً في الجيش مثله، ولكنني تمسكت بحلمي وحققته إلى واقع وجعلت والدي يفتخر بي.

- وأنا حققت حلم والدي وجعلته يفتخر بي.

- لقد نطقتها بنفسك، حلم والدك وليس حلمك.

فقال باستهزاء: لو حققت حلمي وأمسيت لاعباً لخجل والدي مني.

- هل تظن أن أهالي اللاعبين لا يفتخرون بأبنائهم؟

- وكيف لي أن أعلم؟

- أنا متأكد من فخر أهاليهم وفرحهم بهم وتشجيعهم الدائم لما يفعلونه... إن اللاعبين لا يرفعون رأس أهاليهم فقط فهم يرفعون شعار الدولة التي يمثلونها.

- إنهم فاشلون وأنا أكرههم.

- لن أتساءل عن سبب كرهك لهم لمعرفتي بالإجابة.

فقال باستهزاء: وما هي؟

- أحياناً نحب شخصاً لأننا نرى أحلامنا فيه، ولذلك نعجب بالفنانين لقدرتهم على الظهور المميز والإبداع واستطاعتهم أن يكونوا محبوبين، وأحياناً نكرههم للسبب نفسه، إننا نتمنى أن نملك ما ملكوه، ولكن الفرصة لم تتخ لنا فنمقتهم لأنهم حققوا أحلامنا فقط، أي نراهم يعيشون حلماً رسمناه لأنفسنا، ولذلك نحقد عليهم ونشعر أن الحياة ظلمتنا فنصبّ جام غضبنا عليهم.

فنظر نحو الفراغ وأطرق يفكر بكلامي وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة.

***

كان والد فيصل عنيفاً يفتقد لغة الحوار مع أبنائه ويلجأ إلى لغة الضرب كلما وصل إلى طريق مسدود، فتعلم فيصل هذه الصفة من والده.. فعندما تختلط عليه الأمور يفجر غضبه في الشخص الذي أمامه.. إن العنف يولد العنف، فالطفل الذي يتعرض لضرب والديه يصبح عنيفاً وغاضباً، والغضب مجرد شحنات من الطاقة ويجب أن يفرغها الشخص، لذلك قررت تعليم فيصل الطريقة السليمة لتفريغ غضبه ألا وهي بممارسة الرياضة، كالجري أو ممارسة اللعبة التي كان يحلم في طفولته الاحتراف بها وهي كرة القدم.

لقد أراد والده أن يصنع منه رجلاً قوياً ولكنه قتل ضميره وكل شيء جميل بالنسبة إليه؛ كان خاضعاً له ومستسلماً لأوامره وفي الوقت نفسه يشعر بالخجل من أفعال والدته.. إن البيئة التي نشأ فيها هي بيئة صعبة والظروف المحيطة بها سيئة، وهذه الظروف صنعت فيصل وحتى لو لم يتأثر أخواه بما حدث، ولكن كل شخصية تختلف

عن الأخرى في قدرتها على التحمل والنسيان والمضي قدماً، لذلك يجب أن لا تتم تربية الأبناء بالطريقة نفسها، فكل ابن له شخصية مختلفة يجب الانتباه إليها وإلى طريقة التعامل معها.

حاولت قطع السكون فقلت له: لقد لاحظت لك صورة وأنت ترتدي زي اللاعبين.

- لقد التقطتها ناهد لي.

- هل كانت ناهد تشجعك؟

ابتسم فيصل وقال: نعم، لقد كانت تحضر كل المباريات التي أشارك فيها... إنها المشجعة الخاصة بي.

- فيصل ألا ترى أنك تحقق أحلام والدك وتتجاهل أحلامك، أظن أنك مقيد بوالدك كثيراً.

كنت أعلم أنني بهذا الكلام ضربت فيصل على وتر حساس للغاية، لكنني أردت مواجهته حتى يبوح بما يكمن في خفايا قلبه، لم يرد فيصل عليّ فتركته على راحته...

مضت عدة أيام قبل أن يحادثني فيصل، ويطلب موعداً آخر واستقبلني في شقة ناهد فقلت له مصافحاً:

- فيصل، آسف إنني تجاهلتك لكنني انشغلت ببعض الأعمال.

- حمدان ألم تحادثك ناهد؟

- كلا.

- لقد شاهدتها في أحد البرامج، يبدو أنها سعيدة بغيابي.

- فيصل، لدي سؤال يحيرني، ما الذي يجعلك متمسكاً بناهد هكذا؟

- لا أعلم... في البداية عندما شاهدت الحالة التي هي فيها أحسست بأن الحياة لم تكن عادلة معها، ولم تؤمن لها الفرصة المناسبة كي تثبت نفسها وقدراتها.

- وكيف ذلك؟

- لقد أردت مساعدتها ومنحها حياة رائعة، حياة لم تكن تحلم بها، ناهد لم تكن تكنُّ أي احترام لذاتها، وتمضي يومها تتجرع السم وترقص كالعاهرات وتعرض جسدها بطريقة مبتذلة تثير الاشمئزاز... لو أدركت ناهد ما تملكه من أشياء إيجابية لما سمحت لنفسها أن تكون بهذا الشكل الرخيص.. لقد وفّرت لها كل ما تريد، ربما كنت أقسو عليها أحياناً لكن كان ذلك لمصلحتها.

- ولماذا لم تتزوجها؟

- لا أستطيع عصيان والدي.

- أن تكنَّ الاحترام لوالدك شيء رائع لكن أن تجعله يسيطر على حياتك فهذا أمر لا أحبّذه، أنت رجل، ومن حقك أن تختار من تجدها مناسبة لتكون شريكة حياتك، وابتلعت ريقي وأكملت متسائلاً: فيصل كيف هي علاقتك مع والدك في هذه الفترة؟

- إن والدي هو مثلي الأعلى، لقد طمحت أن أكون شبيهه، أن أكون رجلاً يهابه الجميع عندما يأمر أو ينهى، رجلاً كوَّن نفسه بنفسه، أنا لا أزال أرتجف خشية منه في حضوره ولكن لم أرغب أن أكون شبيهاً له في حياته العائلية؛ إنه رجل قاسٍ تكرهه شريكة حياته، ويبدو أن شخصية والدي احتلتني لسنوات فأصبحت شبيهاً له في كل شيء.

ابتسمت وقلت له: هل تعلم أن ناهد تقول الكلام نفسه عنك، إنك رجل يهابه الجميع.

- حقاً!!؟

- نعم، إنها تعتبرك رجلاً عظيماً للغاية.

ابتسم فيصل متفاخراً:

- وماذا كانت تقول أيضاً؟

- لا أستطيع إخبارك.

- أرجوك.

- إنها تمتدحك كثيراً وتخبرني كم هي مجنونة بحبك.

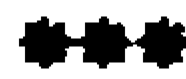
- لماذا رحلت إذاً؟

- إنها تريد الاستقرار كأي فتاة.

- إن ناهد لا تحب الزواج وتمقته، هي أخبرتني بذلك عندما قابلتها.

- إن النساء دوماً يقلن عكس ما يرغبن به، ويجب على الرجل الذكي أن يستوعب الأمر ويدرك حاجاتها.

نظرت نحو ساعتي وكان الوقت متأخراً فاستأذنت للانصراف.. أثناء قيادتي للمركبة كنت أفكر بفيصل وبشخصيته، فهو كما توقعت لم يكن يستطيع فرض رأيه أمام عائلته لأنه يخشى والده كثيراً ويكنّ له الاحترام؛ ففيصل رجل أمام الجميع ويخشاه الكل لكن أمام والده مجرد طفل لا يتجرأ الاعتراض أو التحدث بأي كلمة، فعلاقته بناهد وتعلقه بها أسبابها هي منح ناهد له الجو الذي كان يفتقده، وهو تأمين منزل يكون هو السيد فيه.. إنه ينتحل شخصية والده ويحقق كل أحلامه معها فيرتدي ما يشاء ويشاهد ما يشاء ويمارس الرياضة التي يحبها أما في منزله فملابسه وتصرفاته تكون مقيدة برأي والده.



(36)
ناهد وفيصل

في اليوم التالي دلفت إليَّ السكرتيرة بدفتر المواعيد ثم قالت لي: ستكون ناهد هنا مساءً فابتسمت لها... آه لقد مر زمن طويل لم تأتِ ناهد إلى المكتب، وفتحت أحد الكتب لأقرأه ولكنني شردت في ذكرياتي.

كانت ناهد تسير كقنبلة عاطفية قابلة للانفجار، فهي لا تزال تشعر بالفراغ العاطفي، وحتى عملها لم يستطع أن يملأ هذا الفراغ، فهي ترغب بتفريغ عاطفتها بأي طريقة، لذلك كانت لا تزال متمسكة بذكرى فيصل، كان يجب عليّ إيجاد حل لملء هذا الفراغ بطريقة سليمة تعود بالنفع على ناهد بدلاً من جعلها تحطم نفسها.

هناك الكثير من النساء يملكن القدرة على الحب والعطاء، وغالباً ما يتم تفريغ هذه العاطفة لدى شخص لا يستحقها؛ فمثلاً تحب فتاة شاباً وتهتم به وتضحي من أجله، وفي النهاية يخونها أو يجرحها فتشعر بالألم وتلوم نفسها وكم كانت غبية. لقد أعطت الكثير وفي النهاية قوبلت بالجحود والنكران، فتكره نفسها على غبائها، وكلما دخلت في علاقة أخرى تعيد فعلتها وتكرر الأمر، فيترسب هذا اللوم والكره فلا تستطيع التسامح مع ذاتها، وإذا تخاصم الإنسان مع كيانه لن ينجح أبداً، لذلك يجب عليه الصفح عن ذاته وتناسي جميع أخطائه كي يمضي ويتقدم في حياته.

لم تكن ناهد مستعدة لخوض علاقة عاطفية، فهي لا تزال في مرحلة الشفاء والتعافي من الترسبات النفسية والعقد، لذلك قررت حثها على تفريغ عاطفتها بطريقة سليمة، طريقة تعود بالنفع عليها، ولذلك أخذتها إلى ملجأ الأطفال حتى تفرغ عاطفتها بطريقة صحيحة، وتعطي الحب لمن هو محروم منه، وبالتالي ستشعر بالفخر بنفسها وبما قدمته للأطفال.

***

كنت جالساً مع فيصل فقال: هل تعتقد أن نشري لصور زواجي قد أثمر نتيجة مع ناهد ناكرة الجميل؟

- أعتقد ذلك.

- لقد تعمدت وضع صور زواجي في كل الجرائد اليومية... أردتها أن تعلم أنني لم أعد ملكاً لها.

- ألم تعد تحبها؟

- كلا، لقد أصبحت ماضياً تطويه الأيام.

- أعتقد أنك تكابر يا فيصل، إذا كنت قد نسيتها مثلما تزعم فلماذا لا تزال ترتدي الساعة التي اشترتها لك ناهد، ولماذا لا تزال مهتماً بمعرفة شعورها تجاهك.

- إنها تناسب ملابسي.

أخفيت ابتسامتي عنه فهو يحاول أن يكابر.

- كيف هي علاقتك بزوجتك؟

- لا بأس بها.

- هل تحبها؟

- لا... لكنني سأحبها مع مرور الوقت.

- أتمنى عليك الاهتمام بها وعدم تكرار أخطائك التي ارتكبتها مع ناهد.

- اطمئن يا دكتور.

كانت تلك آخر مرة أشاهد فيها فيصل حتى أخبرني أحد أصحابه بالحادثة التي وقعت، واكتشاف فيصل لخيانة زوجته مع السائق الآسيوي.. حادثتُ أخاه وسألته عن مكانه فأخبرني بعدم معرفته عن مكان تواجده، وحزرت أين سوف يكون... قدت سيارتي إلى مكانه السري وطرقت بابه ففتحه بعد تردد، نظرت إلى حالته المزرية بأسى.

- ماذا تريد وما الذي جاء بك؟

- أتيت لأنني أعتقد أنك بحاجة إلى صديق في هذا الوقت.

- حتى أنت سمعت بالخبر.

جلست بجانبه، ولم أتحدث بأي كلمة، ولفت انتباهي زجاجات الخمر التي بجانبه وهي فارغة.

- فيصل، هل أصبحت تعاقر الخمر بشراهة؟ ستضر نفسك.

- اتركني بحالي.

- أنت رجل يا فيصل قوي وشامخ كالجبل... لا يوجد شيء يهزك.

نظر إليّ فيصل وقال: والدي هو السبب، لقد أجبرني على الزواج من فتاة لا أحبها، وبسبب عدم اهتمامي بها وتعلقي بناهد انتقمت مني، كيف لي الخروج إلى الشارع وتجاهل الهمسات، ماذا سوف يقول الناس عني حتى لو لم يتحدثوا في الموضوع، تكفيني نظراتهم الجارحة، أخبرني يا دكتور ماذا أفعل؟

- كن رجلاً يا فيصل وواجه والدك وأخبره بكل ما ترغب به مهما كانت العواقب، هل تخشى أن يرميك والدك خارج المنزل والشركة... رجل بذكائك وخبرتك من السهل عليه الحصول على أي وظيفة يرغب فيها، صارح والدك وأخبره برغبتك بالزواج ممن تحب وتصالح مع أخيك واعتذر إليه.

كنت أعلم أن فيصل لن يتغير أبداً حتى لو حاول العلاج لأنه

يعاني من جنون العظمة، ولن يغير من تصرفاته إلا عندما يقع في مصيبة كبيرة ويخسر كل أمواله، هنا سوف يتعلم أن المال ليس كل شيء في الحياة.

ربما تتساءلون عن سبب إخباري فيصل بمكان ناهد، والسبب أنه أراد الزواج بها وتأمين الاستقرار لها؛ وللمرة الأولى سوف يكون لناهد حرية الاختيار بالموافقة أو الرفض من دون أن تكون مجبرة، وسوف يتضح ما إذا كانت تحبه أم لا.

***

(36)
الرسالة

حملت باقة من الزهر وتجولت في ممرات المستشفى أستفسر الممرضات عن الجناح الذي يقيم فيه فيصل، حتى لمحتها من بعيد تقف وهي تستند إلى الحائط وقد أسدلت رأسها نحو الأسفل كأن هموم العالم تتجمع فوقه فتثقله، وما إن سمعت خطواتي حتى رفعت رأسها فلمحت دموعها التي عجزت عن إخفائها... اقتربت مني فاردة ذراعيها وقالت بصوت مبحوح: دكتور، واحتضنتني لثوانٍ، فنظرت إلى الجهة الأخرى وكان والد فيصل وأخوه يقفان عند باب غرفته ينظران نحوي باهتمام، استأذنتها وذهبت نحوهما لإلقاء التحية، وللاستفسار عن وضع فيصل الذي كان في العناية المركزة.

عدت إليها وجلست معها على الكرسي البارد:

- ناهد، منذ متى وأنتِ هنا؟
- منذ الفجر... ما إن سمعت بالخبر حتى أتيت في أول رحلة.
- لا تقلقي سوف يتحسن.

فأجهشت بالبكاء وأخفت وجهها بين كفيها وقالت بصوت مخنوق:

- لن أسامح نفسي إذا حدث له شيء.

ربتُّ على ظهرها وأنا أردد:

- لا تقلقي يا ناهد، فيصل قوي وسينهض.

- ولكن وضعه لا يبشر بالخير، لقد وقع على رأسه وهناك احتمال كبير أن يظل في الغيبوبة.

فجأة قطع حديثنا صوت خطوات تقترب منا، فرفعت عيني، وكان والد فيصل.. تبادلت النظرات مع ناهد، ثم قال محاولاً إخفاء ضعفه:

- ترددت كثيراً قبل تسليمك هذه الرسالة، ومد يده بمغلف مهترئ.

فنظرت إليه ناهد متسائلة فأكمل: لقد عثرت عليه في محفظة فيصل، وكتب على المغلف إلى أغلى ما في حياتي، ناهد.

وانصرف عائداً إلى مكانه، فتحت ناهد المغلّف بأصابعها المرتعشة وبدأت القراءة باهتمام، ثم بكت وهي تضع أصابع يدها على فمها، وجلست للحظات طويلة تحدق بالرسالة وهي تبكي بصمت.

- ناهد!!

فأدارت وجهها المحمر إلي من فرط البكاء ولم تنطق بكلمة، انتابني الألم لمشاهدة الوضع الذي تمر به، وأحسست بقلبي يعتصر عندما لمحت دموعها الصادقة: ناهد ألا تزالين تحبينه؟

زحف الذهول على ملامحها بسبب سؤالي المفاجئ ووضعت الرسالة جانباً.. أدركت من نظراتها رغبتها بأن أقرأ الرسالة، ثم نهضت وسارت بخطوات سريعة ودموعها تتساقط من عينيها وأنا أتبعها بعيني. فكرت للحظات وأنا أتساءل: هل لا تزال تحبه على الرغم من كل هذه السنوات؟ نعم، فحتى لو كذبت، فدموعها تفضحها واللهفة والخوف على ملامحها، أمسكت الرسالة وباشرت بالقراءة.

* حبيبي... حياتي... روحي.. ألم قلبي...

لا أعلم كيف أناديك، فكل الأسماء لا توفيكِ حقك ولا تساوي مكانتك في قلبي، سأكتفي بالقول إنك أغلى ما في حياتي، أنتِ

محورها... وأنتِ النور الذي يضيئها... وأنتِ من يجعل كل ما فيها له طعم آخر، أنتِ المرأة التي استطاعت سد الثغرات التي في قلبي، أنتِ من أردتها لأعيش معها كل سنين حياتي لأشيخ أمامها ولأموت بالقرب منها، ناهد لم ولن تكوني كعابر السبيل على قلبي حتى أنساك بسهولة، كان حبك كالشجرة التي تغرس جذورها في قلبي وتتشبث في روحي فلا أستطيع انتزاعها إلا بانتزاع الروح، كنت كالنهر يجرف ذكريات النساء القابعات في قاع القلب ويتفرع إلى قلبي ليستوطنه، لم تعد هناك أسماء تهمني، فاسمك هو عشقي، ولم تعد هناك ملامح تجذبني فملامحك استوطنت كل الوجوه، وكلما أحببتك أكثر كلما تسلل الذنب إلى ضميري ليجعلني أشمئز من تصرفاتي، إنه يسير بخطوات باردة كعنكبوت يمشي على جسدي فيجعلني أتقرّف من هذا الجسد الموبوء بالخيانة، كنت أرغب بتحطيمك وحثك على خيانتي حتى أجعلك قذرة مثلي، ولكنك كنت طاهرة تقابلين تصرفاتي السيئة بابتسامة.

لم أشعر بقيمتك إلا بعد رحيلك... لم أشعر بدفء قربك إلّا بعد أن تذوقت برودة المشاعر ومكر النساء، كنت طاهرة وأنا من دنستك، أنا من لون حياتك إلى الظلام الحالك.

قولي أحبك... أرغب بامتصاص هذه الكلمة إلى داخل جسدي لتشفي جروح الدهر، أريدها أن تتخلل في روحي لتجعلني أدرك معنى الحياة بوجودك بها، سأمضي أيام حياتي في البحث عنك وليتك تعلمين مدى حبي لك فتعذرينني، ألا يصفح المحب دوماً عن محبوبه... إذاً اصفحي عني وطهريني بقبلاتك واغسلي روحي المعذبة بدموعك، اجعليني أتحرر من احتلال هذه الشخصية البشعة التي تسكنني.

علميني الإخلاص كما لقنتني كيف أصبح عاشقاً لصوتك وعينيكِ وبحة ضحكتك.

حبك كان يجعلني أشعر بكل شيء واللاشيء... أشعر بملح الحياة ومر العذاب، شفتاك طعم الحياة وفي عينيك أجد ألوانها وفي أحضانك دفؤها، كيف لا أعشقك وأنتِ أميرتي التي تستوطن قلبي، أنتِ من أذقتني لوعة الحب وقد عجزت نساء العالم عن ذلك.

رحلتِ وتركت الشوق يعتصر قلبي، رحلتِ فتوقف العالم عن الدوران وتوقفت أيامي ولحظاتي فمن دونك لا معنى للوقت، حبيبتي ناهد خبأت حبك في قلبي لسنوات حفاظاً عليه، ليتك أدركت وليتني اعترفت لك عن سبب قسوتي معك أمام الجميع... ليتك قرأت كلام عيني... ليتك استوعبت وأدركتِ تصرفاتي.. آه كم خذلك ذكاؤك في ذلك الوقت.

ناهد عودي إليّ وسأرحل معك إلى أي مكان... سأترك هذا المجتمع الملوث بالأفكار الغريبة وأسافر معك إلى مكان لا يوجد فيه إلا أنا وأنتِ... فأنتِ العالم بالنسبة لي ولا يهمني الماضي، ما يهمني هو مستقبلي معك، سنرحل إلى أي مكان تشائين، فقط لا تهجريني ولا تكويني بنار العشق، عودي إلي...

فأنا أحبك بكل ما للكلمة من معنى.

***

(37)
نزار

وبالطبع لم أنسَ الطرف الثالث في هذه الحكاية، فحاولت البحث عنه والتحري فقادني فضولي إليه، تقصيت كل أخباره وأدركت أن الإفراج عنه قريب، فصاحبه تم إلقاء القبض عليه وأدلى باعترافه وأن المخدرات في قضية نزار تخصه، وقد أوكل صاحب نزار الذي يدعى سمير محامياً جيّداً ليخلصه من هذه الورطة.

استطعت الحصول على موعد للزيارة وانتظرته بشوق لأروي فضولي وأرى ملامح نزار هل كانت شبيهة لما رسمها عقلي؟

وفي قاعة الانتظار دخل عليّ شاب هزيل، وتحت عينيه هالتان امتصتا سواد السجن.. كانت نظراته توحي باللامبالاة، حاولت أن أزف له الخبر ولكنه لم يحرك ساكناً وقال:

- كل ما أعرفه أنك طبيب نفسي هل أتيت لعلاجي؟ وابتسم بسخرية.

- كلا لم أتِ لذلك.

- إذاً؟

- قادني الفضول إليك.

- هل أتيت لتشاهد من دخل السجن ظلماً؟

- كلا، أتيت لأرى من استطاع سلب ناهد من فيصل.

نظر إليّ بدهشة ثم أدار وجهه بحثاً عنها وقال:

- هل هي معك؟
- كلا.
حاول تصنُّع اللامبالاة وقال:
- هل تعلم بسجني؟
- كلا، ولم أخبرها بذلك، ولم يتجرأ أحد على إخبارها.
- يبدو أنها تناست كل شيء، كنت مؤمناً بذلك.
- لا تظلمها، فهي لا تزال تذكرك في حديثها.. وساد الصمت ثم تحدثت محاولاً قطعه فقلت: أنا على يقين من أنك تركت بصمة في قلبها لم تمحها الأيام.
- ألا تزال معه؟
- لو كانت معه لما وصلت إلى الحال التي هي بها الآن.
فقال بلهجة تحمل بعض الاستهزاء الظاهر، ولكن نبرة الحزن تنبع منها:
- ألمحها أحياناً تطل من شاشة التلفاز.
- نعم، إنها سعيدة في حياتها من دونه، لقد كان يعيق تقدمها.
- وما الذي جاء بك إلي؟
- مجرد فضول كما قلت لك.
- وهل ارتوى فضولك الآن؟
- كلا.
تفاجأ من ردي فأكملت:
- أرغب بشدة أن أعرف ما الذي ستفعله بعد خروجك من السجن؟
- سأرحل إلى مكان بعيد.
- إلى أين؟
- إلى الولايات المتحدة الأميركية.
- لماذا تهرب؟

- لا يوجد لدي شيء هنا لأخسره، لقد نبذني الكل بعد سجني، فابنة عمتي طلبت الطلاق وابني أخذه والدي، وأنا وحيد وأشكل وصمة عار على جبين عائلتي.

- تستطيع البدء بصفحة جديدة وتنسى الذي مضى.

- كلا، إن ما حدث مثل الوشم الذي على وجهي لا أستطيع إخفاءه.

قاطعنا الحارس يعلن انتهاء وقت الزيارة، فنهضت ومددت يدي مصافحاً:

- سأعود لزيارتك يا نزار، ولكن فكر بكلامي، وإذا كانت لديك رغبة في تغيير حياتك سأمد لك يد المساعدة.

***

مضت الأيام وذهبت إليه مع بعض مؤلفاتي من الكتب في الموعد الأسبوعي للزيارة.

قال لي وهو يهز رجله بتوتر لا يحاول إخفاءه:

- كيف سأغير حياتي؟ لا أملك شيئاً يساعدني، حتى شهادتي لم أحصل عليها.

- هذا الكلام خاطئ يا نزار، فكل إنسان يملك قدرات ولكنه لا يستخدمها، وللأسف تنتهي في التراب.

- أنظر إلى الواقع يا دكتور، أنا رجل في منتصف العشرينيات لا أملك أي شيء غير اسم والدي الذي لم يعد بالنفع عليّ... ما الذي أمتلكه ليغير حياتي؟؟

- ولكن أنا أنظر إلى شاب في منتصف العشرين يمتلك طاقات ومواهب يرفض الاعتراف بها.

نزار اسمعني جيداً، كل إنسان أعطاه الله موهبة، وإذا اكتشفها

ستتغير حياته نحو الأفضل، سمعت من ناهد أنك كنت قائداً محترفاً للدراجات والسيارات الرياضية.

- هناك ملايين الشباب الذين يستطيعون فعل ذلك وهم أمهر مني.

- ولكن يا نزار مواهبهم تذهب هباءً بسبب عدم وضعهم طاقتهم في المكان الصحيح، إنهم يستخدمون هذه الطاقة والموهبة في القيادة المتهورة الخطرة على حياة الأبرياء والقيام بالحركات البهلوانية في الشوارع، وأحياناً يتسببون بحوادث تودي بحياتهم وحياة الآخرين، فلو ذهب هؤلاء الشباب إلي الأماكن المتخصصة كحلبة السباق ومارسوا هذه الهواية في مكان آمن وطوروها يوماً بعد يوم، لأصبحوا من أمهر المتسابقين في حلبة السباق، وتعاقدت معهم الكثير من الشركات.

- هل تقصد بكلامك هذا حثي على المشاركة في حلبات السباق؟

- ولِمَ لا ، أنت تملك القدرة والطاقة، ألم تقل إنك راغبٌ بالذهاب إلى الولايات الأميركية، إذن إذهب وشارك وتعلم وضع موهبتك في المكان الصحيح.

- ولكن.

قاطعته، جرِّب يا نزار ما الذي ستخسره من المحاولة.

في الزيارة الأخرى وجدته أكثر تقبلاً للموضوع.

- هل قرأت الكتب التي سلمتها إليك.

- نعم، إنها رائعة، لم أكن أعلم أن العلماء والمشاهير عانوا في حياتهم.

- إن النجاح لا يأتي بسهولة، يجب عليك تكريس طاقتك وجهدك له.

- في الواقع حياتهم تثير استغرابي، فكم قست الحياة عليهم،

وكانت صعبة جداً فكيف استطاعوا النجاح؟ فلو مر أحد شباب اليوم بما عاناه هؤلاء لما استطاع المضي قدماً، وانحرف فوراً أو سلك الطرق غير المشروعة للنجاح.

- إن الحياة تصهر أصحاب العقول الراجحة حتى تستخرج من باطنهم المواهب.

فكم من أرض قاحلة، مقفرة لا تثير الانتباه تم استخراج المعادن القيمة والذهب الأسود منها، فكن كهذه الأرض، ثم سلمته أحد مقالاتي: اقرأها يا نزار.

"جلس متألماً على ركبتيه يحدق من النافذة إلى السماء الغارقة في الظلام ويستمع إلى أنينها الذي ملأ أركان المستشفى".

أدار وجهه محدقاً بالطبيب، مستنجداً به لكنه أعاد إجابته التي قالها منذ ساعات طويلة: "يجب أن ننتظر نور الشمس حتى أجري لها العملية، إن الضوء لا يكفي لإجراء الجراحة الآن".

خرج من المستشفى هارباً من عجزه على إنقاذها والتخفيف من ألمها، يمشط الطرقات ويجر قدميه اللتين تحملان ألمه بتكاسل، إن الليل طويل وأمه تكادُ تموتُ من المرض وكلما سمع صوت أنينها طُعن قلبهُ المرهف بسكين العجز، وتمنى لو كان هذا الألم يصيبه ويمزقه كي لا يحدث لها أي مكروه.

كان يسترجع ذكرياته معها؛ فهي الوحيدة التي آمنت بقدراته عندما وصفه المدرس أنهُ طفل بليد وأعاده إلى المنزل بحجة عدم قدرته على التعلم، وكيف وقفت بجانبه وجعلت منه إنساناً عبقرياً.

وظل يتجول حتى تسللت خيوط النهار إلى السماء، فشق طريقه بين الشوارع إلى المستشفى وتهلل وجهه عندما أجرى الطبيب لوالدته العملية ولاقت النجاح.

لقد وضع ألمه كدافع لنجاحه وعجزه وأصرّ على استمراره، وفكر لأيام باختراع آلة تمده بالنور ليلاً حتى لا يتكرر هذا الموقف لأي

إنسان كان، وأخبرمكتب تسجيل براءة الاختراع في واشنطن بفكرته ولاقى سخرية كالمعتاد، لكنه قال بفخر: "ستقفون يوماً لتسديد فواتير الكهرباء".

وبعد محاولات فاشلة لا تعد ولا تحصى أضاء توماس إديسون العالم وقال مقولته الشهيرة "إن أمي هي التي ولدتني، لأنها كانت تحترمني وتثق بي، أشعرتني أني أهم شخص في الوجود، فأصبح وجودي ضرورياً من أجلها وعاهدت نفسي أن لا أخذلها كما لم تخذلني قط".

وبالفعل لم يخذلها أبداً، وإلى يومنا هذا لم يشهد العالم مخترعاً كتوماس إديسون.

فقارئي العزيز، "عندما تألم إديسون أضاء العالم، وعندما تألمت أنتَ ماذا فعلت للعالم؟؟".

- هل استوعبت المغزى يا نزار؟

- فعلاً لقد تألمت كثيراً في السجن وآن الآوان لأتغير.

- نعم يا نزار، إن الألم سلاح ذو حدين، فبعض الألم يقتلك ويكون مبرراً لفشلك وبعضه الآخر يصنعك ويدفعك للنجاح ويكون مصدر قوة وعزيمة لك.

لذلك، عليك أن تختار، هل ستدع هذا السلاح يقتلك أم يكون مصدر قوة لك؟

ابتسم نزار، فقد أدرك المغزى.

خرج نزار من السجن وأوصلته بنفسي إلى المطار، احتضنني طويلاً ثم نظر إلى عيني وقال بثقة: سأعود يا دكتور بعد أن أغيّر مجرى حياتي، ولن أنسى حديثك الذي أمدني بالأمل.

- أنا واثق من ذلك وأنك ستتغيّر نحو الأفضل.

ورحل وعيناه تشعان بنور التفاؤل والطاقة.

***

بعد مرور شهور طويلة دلفت إلى عيادتي، فوجدت شاباً ينتظرني في قاعة الاستقبال.. نظرت إليه ثم استدرت لأحادث السكرتيرة.. فجأة أدرت رأسي باتجاهه مرة أخرى، وجحظت عيناي، فنهض وعلى وجهه ابتسامة ومد يده مصافحاً.

- نزار لم أتعرف عليك.

- لقد كانت غيوم السجن تخفي ملامحي، أما الآن فقد انقشعت الغيوم وعدت نزار الملاحي مجدداً.

- تفضل إلى مكتبي أرجوك.

وجلست معه أتسامر وأنا فرحٌ به.

- ما أخبارك مع عائلتك؟

- الحمد لله حل الصلح، وعادت المياه إلى مجاريها.

وأخرج محفظته وأراني صورة لطفل صغير:

- إنه ابني، لقد كبر، أليس كذلك؟

- نعم إنه يشبهك كثيراً.

- بل يشبه أمه هكذا قال والدها؛ لقد أخذته إلى منزل أمه الحقيقية لأنني أردت أن أتخلص من الشعور بالذنب.

ثم ابتسم وقال بثقة: أصبحت أشارك في حلبات السباقات، وقد تبنتني شركة أجنبية كبيرة ووقّعت معها عقداً.

- ممتاز.

- هناك أمر أخير أود أن أطلبه منك.

- وما هو؟

- أن أحكي لها عن كل ما حدث... أريد أن أتطهر من الماضي، فقط امنحني ولو بعض الثواني، فأنا أرغب حقاً أن ألتقي بها.

- ولكن؟

- أرجوك.

- إنها حالياً في أوروبا وستعود بعد أسبوعين.
- سأنتظرها.

***

كان هذا الحديث قبل وقوع حادث فيصل بيوم، فعادت ناهد مباشرة إلى الوطن لأجل الاطمئنان على فيصل، فقررت دعوتها للحضور إلى مكتبي حتى يتم اللقاء بينها وبين نزار، ولم أخبرها عن الضيف الذي ينتظرها... أردت مفاجأتها بهذا الموعد.

***

(38)

اللقاء

رن الهاتف الداخلي وأمرت السكرتيرة بإدخالها، نظرت إليه فوجدته يتصبب عرقاً ويهز قدمه بتوتر:

- لقد أتت، هل أنت مستعد؟

فأومأ برأسه.

فُتح الباب، فدخلت كعادتها وهي تسير بخطوات مسرعة، وكانت تتحدث دكتور... وفجأة ماتت الحروف قبل الخروج من ثغرها، ونظرت إليه فاختلطت مشاعرها، وأصابها دوار من العاطفة واختلاط المشاعر، فلم تعد تعرف هل تفرح أم تحزن؟ هل تدع ضحكاتها تردد صداها في المكان أم تدع نواحها يرتطم بالجدران.

تحدثت أعينهما بعد أن عجز لسانهما عن النطق، وسارت بخطوات مرتعشة وقدماها تكادان تعجزان عن حملها... تسمر مكانه ينظر إليها والصدمة تتملكه، فبعد أن ماتت أحلامه بلقائها، وقتلت هي ذكراه في قلبها جمعهما القدر مرة أخرى، وحان الوقت ليبوحا لبعضهما بعضاً بكل شيء... حان الوقت لتوضع النقاط فوق الحروف، لم يعد هناك شيء يمنعهما من كشف أوراقهما.. لم تعد هناك قوة لتمنع قلبيهما من الاجتماع مرة أخرى؛ اقترب منها ببطء، وأصبحت هذه الثواني كدهر لهذين العاشقين اللذين تباعدا لسنوات.. كانت

أعينهما تلتهم ملامح بعضهما بعضاً محاولة إشباع الشوق الذي يئن في داخلهما لسنوات... فجأة انتفضت ناهد، وحاولت التحدث، ولكن مشاعرها غلبتها، فسقطت على الأرض وقد أغمي عليها.

***

الفراغ العاطفي...

إن الفراغ العاطفي يعد مشكلة يجب علينا حلها؛ فالإنسان كتلة من العواطف والمشاعر، والإنسان الطبيعي يجب عليه تفريغ هذه العاطفة، وأن يجد من يبادله هذه الأحاسيس الرائعة، لذلك نجد أغلب الفتيات يقعن ضحية ما يُسمى حب الحب أو وهم الحب، فتجد الفتاة تبحث عن شخص لتحبه فقط ولتجرب معه هذا النوع من المشاعر، فهي لا تحب شخصاً معيناً بذاته بل تحب الإحساس والشعور الذي يرافق الحب.

فالحب العاطفي مادة كيميائية يفرزها العقل (pea) ودوماً ما تنتهي بعد ثلاث سنوات غالباً، لذلك يشتاق الإنسان إلى هذه المادة التي تمنحه الشعور الرائع أو يصيبه نوع من الإدمان، فيبدأ بالبحث عن شخص آخر.. وهذا الكلام لا ينطبق على جميع أنواع الحب، فالاعتياد هو الأساس، فعندما يحب الإنسان شخصاً يشعر بالاعتياد على وجوده في حياته مثلما حدث مع فيصل من مشاعر تجاه ناهد، أما ناهد فكانت تبحث عن أي رجل تعيش معه علاقة حب لتجرب هذا النوع من الشعور.

أما الطرق الصحيحة لملأ هذا الفراغ فهي تأتي بالممارسة الصحيحة، فلا بأس أن تقع الفتاة المراهقة بحب شخص ما ولكن يجب التفرقة بين الشعور وممارسة الجنس؛ فالممارسة الجنسية هي

الخطأ، أما الشعور فلا بأس به.. ويجب تدريب المراهق على تفريغ هذه العاطفة كالاهتمام بنبتة أو حيوان ليتعلم المسؤولية تجاه الطرف الآخر والاهتمام به، فإذا نجح في ذلك فهذا الشخص سيكون طرفاً رائعاً في العلاقات بسبب قدرته على العطاء والاهتمام.

أو أن يتم تفريغها للأشخاص المحرومين من الحب، كالكبار في السن أو الأطفال، فهؤلاء محرومون من الحب، وعندما تحسن إليهم تشعر بالراحة تجاه نفسك، فيعود عليك ذلك بالنفع، وهذا أفضل من التورط في علاقة يكون الطرف الآخر فيها سيّئاً، فتشعر بالندم وتلوم نفسك على كرمك تجاه شخص لا يستحق.

أما بالنسبة للبالغين فيجب على كل شخص أن يتعلم حب نفسه بدرجة معقولة، ولكن لا يعني ذلك الإصابة بالغرور، فعندما يحب الإنسان نفسه لن يسمح لأيّ كان أن يمسه بسوء أو يمس كرامته، ويضع مصلحته قبل مصلحة الطرف الآخر، وبذلك لا يسيء لنفسه أبداً ولا يتخذ قرارات تعود عليه بالندم.

***

إكتشاف الذات

الله سبحانه وتعالى خلق كل إنسان وأهداه موهبة، ولكن أغلب البشر يغافلهم الموت وهم لم يكتشفوها أبداً، فتضيع هذه المواهب الثمينة في التراب، فلو فكر كل شخص وبحث عن هذه الموهبة التي ستفتح له أبواب النجاح لتغيرت حياته بأكملها.

وربما يظن الإنسان أنها موهبة عادية يملكها الملايين غيره، ولكن هذه الموهبة بالذات لو اكتشفها وطورها لتغيرت حياته، ولذلك يجب على كل إنسان أن يبحث في ذاته، عن شيء يغير حياته... فمثلاً

نزار كان يجيد قيادة المركبات، فلو وضعه والده في المكان الصحيح لتطور ونجح وأصبح من أشهر المحترفين في هذا المجال، ولو أن بعضهم سيقول إنّ هناك الملايين الذين يستطيعون القيادة، فهذه النظرة متشائمة وتبعث على اليأس.

إبحث في نفسك عمّا سيغير حياتك.

***

(39)

الحقيقة

تلمحنا نسير في الشارع ونتصنع الابتسامة وقلوبنا تحمل هماً وذكريات ربما ينقضي العمر بأكمله قبل أن نتمكن من التغلّب عليها.

حتى لو كثرت أموالنا وازدادت نجاحاتنا وحصّلنا أعلى الشهادات وسكنّا أروع القصور وركبنا أحدث المركبات، ومهما امتلكنا، سوف يظل هناك ما يقض مضاجعنا ويجعل النوم يهرب بعيداً.. لا يزال هناك ما يضايقنا ويجعلنا حزانى، ولن تستطيع كنوز الدنيا أو مناصبها أن تفرحنا.. هذه هي حال الإنسان، لا يوجد شيء يفرحه لأنه يمضي حياته بأكملها بكونه عبداً للشهوات، وينسى الحقيقة التي سوف تجعله ينسى كل الهمّ والحزن على ما فات.

من منا يعرف الحقيقة؟

إبحث في نفسك عندما تجلس لساعات في الظلمة تبكي على حب مضى أو أموال خسرتها أو منصب لم تملكه يوماً أو حتى موقف صادفك وتصرفت به بغباء.

إعلم أنه لو بكيت الدهر بأكمله لن يتغير شيء، ولن يرجع الزمن إلى الوراء؛ إنه القدر والمكتوب، لو آمن كل إنسان بالمكتوب لعاش حياته كلها في سعادة.

إعلم أنك لن تحصل إلّا على ما هو مكتوب لك، ولن يستطيع أحد تغيير ذلك.

عندما تخسر شخصاً إعلم أنه المكتوب، ولو كان المكتوب لك أن تعيش حياتك بأكملها معه لحدث ذلك، وعندما تخسر منصباً أو عندما تقتل نفسك من أجل شيء لا تحصل عليه؛ فاعلم أنه المكتوب.

لا تتحرق بشوق إلى إنسان تحبه، وتموت فضولاً لمعرفة مستقبلك معه لأنك لن تعرف أبداً.

يجب أن تؤمن بأنه إذا كان مقدراً لك الحصول على شيء فلو اجتمعت كل المخلوقات لمنعك لما استطاعت، لأنك ستحصل على ما هو مكتوب لك فقط، عش حياتك وأنت تبتسم واترك الغيب للخالق ولا تقتل نفسك بالتفكير.

واعلم أنه لا يوجد شيء يدوم في هذه الدنيا، لا الحب بدائم ولا المال بدائم ولا الصحة تدوم، فلا تعلق قلبك بشيء سوف ينتهي سواء أكان عاجلاً أم آجلاً، علق قلبك بحب الله فهو الوحيد الذي سوف يدوم.

والمغزى من هذا الحديث أن كل شخص منّا تكونت شخصيته على حسب تربيته، فناهد تربت في بيئة أظهرت لها صورة الرجل بطريقه خاطئة، فاعتقدت أن كل الرجال مثل بعضهم بعضاً، فأصبحت متمردة خصوصاً أن عائلتها تركت لها الحبل على الغارب، فكانت تتصرف بطريقة رجولية، فتظن نفسها مسؤولة عن أمها وأخواتها فتلذذت بالانتقام من أزواجهن.

وفي النهاية كانت تظن أن مزاح فيصل معها ليس إلا إهانات في حقها سواء أكان يقصد ذلك أم لا.. وأن الزواج مجرد سجن للمرأة حتى واجهت الحياة وظروفها وأدركت أن كل اعتقاداتها خاطئة؛ لقد كانت بطفولتها شغوفة مبدعة لكنها لم تعلم كيف تضع كل نقاط قوتها في أشياء إيجابية.. لقد تأثرت ناهد كثيراً من الكتب التي وقعت بين يديها، فأمست تقلد الغرب وعادات الدولة التي ولدت فيها.

أما الآن، وبعد أن وجهتها نحو الطريق الصحيح فقد أصبحت

تعلم أن ليس كل شيء مكتوب في الكتب هو أمر صحيح؛ فالكتب مجرد وجهة نظر للكاتب، وعليها أن تختار الأمر الجيد منها وتتجنب السيئ.

أما عن فيصل فقد أخذ من طباع والده الكثير ففرض عليه بأن يكون رجلاً قبل أوانه، ولم يعش طفولته وكان يكتم مشاعره باعتقاده أن البوح بها يعتبر ضعفاً.

لقد اعتقد أن الحياة تتعلق بالمال، وأن كل شيء قابل للبيع والشراء حتى عواطف الناس، واجتهد للحصول على ما يريد حتى لو ظلم أو خدع في طريقه للوصول إلى الشيء الذي يريده فإن ذلك لا يهم؛ فالحياة بالنسبة إليه تسير على مخطط مدروس قام هو بوضعه حتى اكتشف أنه خسر الكل، حتى أقرب الناس إليه، فتعلم درساً في الحياة أن المال يمكن أن يشتري البشر لكن البشر أنواع؛ لقد كان المال قادراً على شراء فئة معينة من الناس وهم الجشعون الذين أغرتهم الدنيا فباعوا أنفسهم وأخلاقهم.. هؤلاء الناس من البشر ناكرون للمعروف، فهم يأتون مع المال ويرحلون إذا رحل.

لقد قرّر فيصل هذه المرة أن يتغير وأن يكفّر عن كل ذنوبه.

أما بالنسبة لوالديه، فعزيزي الأب إذا كنت تشبه والد فيصل من حيث قسوته على أبنائه، فاعلم أنك تقتل في داخل أبنائك شيئاً جميلاً، وتولد العنف في أنفسهم، وإذا كنت شبيهه في إصراره على أن يتبع ابنك خطاك ويترك أحلامه ويحقق أحلامك، فاعلم أنك تهدم موهبة جميلة في ابنك ربما كانت ستنمو في داخله ويحقق شيئاً عظيماً.

وإذا كنت مشابهاً لوالد فيصل في نزواته، فاعلم أنك سوف تهدم حياة ابنك الزوجية لأنه سوف يتأثر بعلاقاتك الخارجة عن نطاق الزوجية وغير الشرعية.

عزيزتي الأم، إذا كنت تشابهين والدة فيصل،ولك علاقة خارج

نطاق الزواج، وتجعلين أبناءك يطلعون على تفاصيلها اعتقاداً منك أنهم مجرد أطفال ولا يستوعبون، اعلمي أنك سوف تزرعين هذه الصورة المشوهة في عقولهم وسوف تراودهم حتى في الأحلام.

أما عن الشخصية الأخيرة وهو نزار الذي أفسده الدلال والمال، فإنّ كل أحلامه التي كان يمكن للمال تحقيقها أصبحت واقعاً حتى أصبح المال سلاحاً ذا حدين، فبسبب المال خسر أول حب في حياته وهي سارة.

ربما نسي الكل ما حدث لسارة، وكيف تخلى عنها بعد أن أفسد سمعتها وتسبب بضياعها، ربما حتى نزار وعائلته وعائلة سارة يتناسون الموضوع، لكن الله سبحانه وتعالى لا ينسى، فأخذ حقها، وكما يقولون، الدنيا تدور، فكما تشوهت سمعة سارة بسببه تشوهت سمعته هو أيضاً بسبب الحب، فنزار نجا من دمها بسبب أموال والده، لكن مال الدنيا الآن لا يستطيع أن ينقذه من عقاب الله والحق.

***

(40)
الخاتمة

لقد احتارت ناهد من جديد بينهما، فهل تختار فيصل الذي عمل المستحيل من أجلها وحارب نزار كي يستعيدها.. هل تتزوج فيصل الذي كان أول حب في حياتها.. أم أنها تختار نزار الذي أحبها بصدق، ولم ينسها، وكان يتوق للخروج من السجن كي يصارحها بالحقيقة.. هل تتزوج نزار الذي ساعدها كي تتغير وتخرج من القوقعة التي كانت تحتكرها لسنوات.. لقد استشارتني ناهد في الموضوع، وكان ردي إن فيصل رجل بكل معنى الكلمة، ساندها كثيراً وسامحها على كل أخطائها وأراد لها الأفضل، لكنه افتقر إلى الطريقة الصحيحة التي يستطيع من خلالها كسب ناهد وتوجيهها وإرشادها إلى الطريق الصحيح، لكن في الوقت نفسه قسا عليها وعذبها بعلاقاته مع النساء، وتفنن في تحطيمها ونتف جناحيها حتى لا تطير وترحل عنه، أراد أن يجعلها ملكاً له لوحده، ورفض أن يكون هو ملكاً لها.

إنني أعتقد أن نزار سوف يجعل ناهد تتطور وتحب ذاتها أكثر فأكثر.. فهو لا يخونها ويمتدح تصرفاتها ويفتخر بها ويشجعها، وسوف يعتني بها ويعاملها معاملة رائعة.. أخبرت ناهد برأيي وقلت لها إن القرار بيدها هي........

مرت السنوات.. وناهد الآن تنتظر مولودها الثاني، وتتمنى أن

يكون اختيارها صحيحاً هذه المرة.. فيا ترى من اختارت.. فيصل.. أم.. نزار أو ربما أكون أنا؟

إنني أترك الحكم لكم، وأعتذر عن اضطراري للذهاب، فناهد تنتظرني في مكتب الاستقبال.

(لن تنتهي ما دام قلمي ينبض).

2010-2009

المحتويات

الشخصية الأولى

ناهد

الشخصية الثانية

فيصل

الشخصية الثالثة

نزار

الشخصية الرابعة
الدكتور حمدان

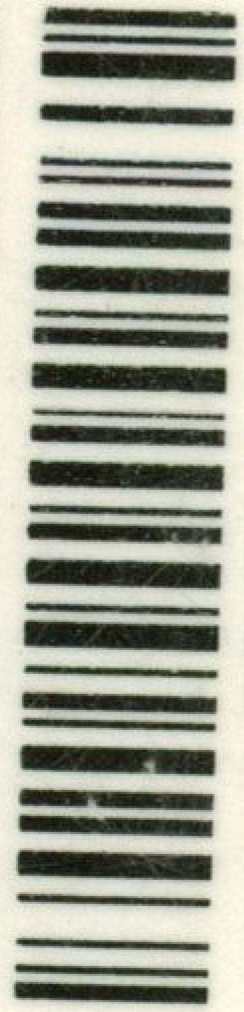
في روايتي هذه أقدم لكم قصة واقعية الشخصيات، فلا تستغرب إن وجدت نفسك فيها. لقد حدثت في إحدى الدول العربية وتعمّدت فيها تغيير بعض ملامح التفاصيل المحيطة وجزئيات الوقائع والأحداث

رواية (قلبي ليس للبيع) وصمة من الحياة تنبجس عما تخفيه الأنفس من أسرار ومشاعر وعقد وتناقضات حياتية يومية بين المعهود واللامعهود؛ أقدم لكم في هذه الحبكة ثلاث شخصيات رئيسية، كلّ شخصية منها تحمل وجهة نظر وبيئة مختلفة، ولكل منها مفاهيم خاصة وبصمة دامغة بسبب البيئة والبنية الاجتماعية وتناقضاتها؛ فناهد وفيصل ونزار هم أثافي التفصيل والتحليل لأبطال روايتي ربما تصادفون مشاكلهم في حياتكم اليومية، وربما تتكررالمشاهد مراراً وتكراراً، لكن ما لا تعرفونه هو ماذا يجول في بالهم؟ لا شك أن سماتهم تكمن في وجوههم في سجل الأحداث والتطورات، وكما نحن نتشوق دوماً للوصول إلى النهاية، فلتكن البداية من أول الحكاية.. إذاً من أولها نبدأ.

من المقدمة

ليلى علي المطوع، روائية بحرينية مقيمة في المحرق.

- لها بعض القصص والمقالات المنشورة في الصحف والمواقع الالكترونية.


Bibliotheca Alexandrina
1241111


ISBN 978-614-432-222-2
9 786144 322222